من تراث العلامة النّدوي

مِنْ أعلام المسلمين ومشاهيرهم

للعلّامة الإمام السّيّد أبي الحسن علي الحسني النّدويّ

إعداد
سيّد عبد الماجد الغوري

دار ابن كثير

من تراث العلامة النّدوي

مِنْ أعلام المسلمين ومشاهيرهم

لِلْعلاَّمة الإمام السَّيّد أبي الحسن علي الحسني النَّدويّ

١٣٣٣ - ١٤٢٠هـ

إعداد

سيّد عبد الماجد الغوري

دار ابن كثير

دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م



للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا - بناء الجابي
ص.ب: ٣١١ - ٣ - هاتف: ٢٢٢٥٨٧٧ - ٢٢٢٨٤٥٠ - فاكس: ٢٢٤٣٥٠٢

بيروت - برج أبي حيدر - خلف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
ص.ب: ٦٣١٨ / ١١٣ - تلفاكس ٨١٧٨٥٧٠ . ١ - ٣٢٠٤٤٥٩ .

مقدمة الكتاب

الحمد لله ، وسلام على جميع رسله ، وعلى مَن دعا بدعوتهم واقتفى أثرهم من العلماء العاملين ، والمؤمنين الصادقين المجاهدين .

وبعد :

فإن كثيراً من الكتاب والأدباء ـ فضلاً عن الشاذين في اللغات والمتطفلين على الآداب ـ يَعتبرون موضوعَ التعريف برجل مِن ذوي الشأن والخطر ، وترجمة حياته ووصفه من أسهل الأغراض الأدبية ، والمواد الكتابية ، مع أن وصف شخصية أو ترجمة إنسان ليست من السهولة والبساطة بالدرجة التي يتصوَّرونها ، فإن ذلك يحتاج إلى عدَّة مؤهلات ، كما يضع العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله ـ شروطاً جديدةً لهذا الفن لكتابة التراجم ، ومنها ما يلي :

١ ـ أن يتوافر عند الكتابة وجود دافع نبيل ، ورغبة مُلحَّة تنبع من القلب ، من تجاوب مع فكرة ، أو استجابة لنداء الضمير ، أو دفاع عن كرامة مهضومة ، وحق سليب ، أو رد لاعتبار ، أو وفاء بفضل ، أو إعجاب بجمال أو كمال ، فإن الكتابة إذا تجرَّدت عن هذه العوامل كانت أشبه برسم خشبي جامد .

٢ ـ المعرفة الشخصية الواعية الناقدة ، إذا كانت عن طريق المعاشرة والصحبة فهي من أقوى المؤهلات ، وإلا فعلى الدراسة الأمينة وتتبع الأخبار ، وأن تقوم بينهما صلة من الصلات التي تحث على تتبع الأخبار ، والتعرف على الخصائص .

٣ ـ الاقتدار على البيان والتعبير ، وتملك ثروة لغوية ، وكلمات مميزة فاصلة .

٤ ـ الدقة والأمانة والشعور بالمسؤولية والقدرة على تفصيل اللباس على قدر قامة المترجم له .

٥ ـ أن يعرف ـ المترجم ـ أن للكلمات درجة حرارة وبرودة (temperature)، فلا توضع كلمة ذات حرارة مرتفعة مكان كلمة ذات حرارة منخفضة ، فضلاً عن أن توضع كلمة ذات حرارة مكان كلمة ذات برودة ، ولا يسخى بكلمة تعطي صورة هائلة من العظمة والكمال ، أو النبوغ والذكاء ، أو الخلق الحسن ، والسيرة العالية أو العلم الغزير لشخصية لا تستحق إلا كلمات فيها التوسط والاقتصاد ، ثم يضعه في طبقته ويحدد اختصاصه وتميزه في فن من الفنون أو موضوع من الموضوعات . وبهذا يُشير العلامة ـ رحمه الله ـ إلى صعوبة الكتابة عن الشخصيات ودقتها ، وهذه حقيقة واضحة لمن جرب وعانى مشقاتها ، خاصة إذا كانت الشخصية المكتوب عنها ذات جهود كبيرة ومآثر جليلة في مجالات متنوعة نظرية وعملية .

إليك يا عزيزي القارىء هذا الكتاب المحتوي على تلك المقالات التي جاد بها قلم العلامة ـ رحمه الله ـ عن أعلام المسلمين ومشاهيرهم قديماً وحديثاً في مناسبات مختلفة وفترات متقطعة ، مراعياً تلك الشروط التي مرت آنفاً ، والتي قد تطول بينها الفجوة ولكن تربطها وحدة ، وهي وحدة الشهادة بالحق وأداء الأمانة ، والوفاء لصاحب الفضل ، والحث على الانتفاع والاتباع .

أسأل الله أن ينفع بهذا الكتاب ، ويتقبل جهدي المتواضع في إعداده خالصاً لوجهه ، إنه سميع مجيب .

حيدر أباد ١٢/ ٣/ ٢٠٠٠ م

المعتز بالله تعالى
عبد الماجد الغوري

ملامح من حياة
العلاّمة الإمام السيّد أبي الحسن الندوي وشخصيته

اسمه ونسبه وأسرته :

• علي أبو الحسن بن عبد الحي بن فخر الدين الحسني ، ينتهي نسبه إلى عبد الله الأشتر بن محمد ذي النفس الزكية بن عبد الله المحض ، بن الحسن (المثنى) بن الإمام الحسن السبط الأكبر بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم ، أول من استوْطَنَ الهند من هذه الأسرة في أوائل القرن السابع الهجري هو الأمير السيّد قطب الدين المدني (٦٧٧هـ) .

• أبوه العلامة الطبيب السيّد عبد الحيّ الحسني الذي استحق بجدارة لقب « ابن خلكان الهند » لمؤلفه القيم « نزهة الخواطر » في ثماني مجلدات عن أعلام المسلمين في الهند وعمالقتهم ، طُبِعَ أخيراً باسم « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » .

• أمّه ـ رحمها الله ـ كانت من السيّدات الفاضلات ، المربيات النادرات ، المؤلّفات المعدودات ، والحافظات للقرآن الكريم ، تقرض الشعر ، وقد نظمت مجموعة من الأبيات في مدح رسول الله ﷺ .

ميلاده ونشأته :

• أبصرَ النورَ في ٦ محرم ١٣٣٣هـ الموافق عام ١٩١٤م بقرية « تكية كلان » الواقعة قرب مديرية رائي بريلي في الولاية الشمالية (أترابرديش) .

• بدأَ دراسته الابتدائية من القرآن الكريم في البيت ، ثم دخل في الكُتَّاب حيث تعلّم مبادىء اللغتين (الأردوية والفارسية) .

• توفي أبوه عام ١٣٤١هـ (١٩٢٣م) وكان عمره يتراوح آنذاك بين

التاسعة والعاشرة ، فتولّى تربيته أمّه الفاضلة ، وأخوه الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني الذي كان يدرس آنذاك في كلية الطب بعد تخرّجه من دار العلوم ديوبند الإسلامية ودار العلوم ندوة العلماء ، وإليه يرجع الفضل في توجيه وتربية العلامة الندوي .

• بدأ دراسة العربية على الشيخ خليل بن محمّد الأنصاري اليماني في أواخر عام ١٩٢٤م ، وتخرّج عليه مستفيداً في الأدب العربي ، ثمّ توسَّع فيه وتخصَّصَ على الأستاذ الدكتور تقي الدين الهلالي المراكشي عند مقدمه إلى ندوة العلماء عام ١٩٣٠م .

• التحق بجامعة لكهنؤ فرع الأدب العربي عام ١٩٢٧م ، ولم يتجاوز عمره آنذاك الأربعة عشر عاماً ، وكان أصغر طلبة الجامعة سناً ، ونال منها شهادة فاضل أدب في اللغة العربية وآدابها ، قرأ خلال أيام دراسته في الجامعة كتباً تعتبر في القمَّة في اللغة العربية والأردوية ، ممَّا أعانه على القيام بواجب الدعوة وشرح الفكرة الإسلامية الصحيحة ، وإقناع الطبقة المثقفة بالثقافة العصرية ، وتعلَّم الإنجليزية مما مكّنته من قراءة الكتب المؤلفة بها في التاريخ والأدب والفكر .

• التحق بدار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٢٩م وقرأ الحديث الشريف (صحيحي البخاري ومسلم وسنن أبي داود وسنن الترمذي) حرفاً حرفاً مع شيء من تفسير البيضاوي على العلاّمة المحدّث الشيخ حيدر حسن خان الطونكي ، ودرس التفسير لكامل القرآن الكريم على العلاّمة المفسر المشهور أحمد علي اللاّهوري في لاهور عام ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م ، وحضـر دروس العلاّمة المجاهد حسين أحمد المدني في صحيح البخاري وسنن الترمذي خلال إقامته في دار العلوم ديوبند ، واستفاد منه في التفسير وعلوم القرآن أيضاً .

جهوده العلمية ونشاطاته الدعويّة :

• انخرَطَ في سلك التدريس من عام ١٩٣٤م ، وعُيِّنَ أستاذاً في دار العلوم ندوة الغلماء لمادتي التفسير والأدب ، خلال تدريسه في دار العلوم ندوة

العلماء استفاد من الصحف والمجلاّت العربية الصادرة في البلاد العربية ، ممّا عرَّفه على البلاد العربية وأحوالها ، وعلمائها وأدبائها ومفكريها عن كثب ، واستفاد أيضاً من كتب المعاصرين من الدعاة والمفكرين العرب وفضلاء الغرب والزعماء السياسيين .

• قام برحلة استطلاعية للمراكز الدينية في الهند عام ١٩٣٩م ، تعرَّف فيها على الشيخ المربّي العارف بالله عبد القادر الرأي فوري والداعية المصلح الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي ، وكان هذا التعرّف نقطة تحوّل في حياته ، وبقيَ على الصلة حتى وافاهما الأجل المحتوم ، وتلقَّى التربية الروحية من الشيخ عبد القادر الرأي فوري واستفاد من صحبته ومجالسته ، وتَأسَّى بالشيخ محمّد إلياس الكاندهلوي في القيام بواجب الدّعوة وإصلاح المجتمع ، وقَضَى زمناً طويلاً في رحلات وجولات دعوية متتابعة للتربية والإصلاح والتوجيه الديني في الهند وخارجها .

• أسَّسَ مركزاً للتعليمات الإسلامية لتنظيم حلقات درس القرآن الكريم والسنة النبوية عام ١٩٤٣م ، وأسَّسَ حركة رسالة الإنسانية بين المسلمين والهندوس عام ١٩٥١م ، والمجمع الإسلامي العلمي بدار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ عام ١٩٥٩م .

• عُيِّنَ أميناً عاماً لدارالعلوم ندوة العلماء عام ١٩٦١م ، واستمر في هذا المنصب حتى وفاته ـ رحمه الله ـ .

• شارك في تأسيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) عام ١٩٦٠م ، وفي تأسيس المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند عام ١٩٦٤م ، وفي تأسيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند عام ١٩٧٢م .

أهمّ مؤلفاته :

• نشِرَ له أول مقال بالعربية في مجلّة « المنار » للعلاّمة السيِّد رشيد رضا المصري عام ١٩٣١م حول شخصية الإمام السيّد أحمد بن عرفان الشهيد وكان عمره ـ آنذاك ـ الأربعة عشر عاماً .

• ظهَرَ له أوّل كتاب بالأردوية عام ١٩٣٧م يحمل اسمه « سيرة أحمد شهيد » ونالَ قبولًا عاماً في الأوساط الدينية والعلمية في الهند وباكستان .

• بدأ سلسلة تأليف الكتب المدرسية بالعربية ، وظَهَر أوّل كتاب فيها بعنوان « مختارات من أدب العرب » عام ١٩٤٠ ، و« قصص النبيين » للأطفال و« القراءة الراشدة » عام ١٩٤٤م . وقررت جميع هذه الكتب في مقرّرات جامعات البلدان العربية والهندية .

• ألّف كتابه المشهور « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » عام ١٩٤٤م .

• دعيَ أستاذاً زائراً في كلية الشريعة جامعة دمشق عام ١٩٥٦م ، وألقى محاضرات بعنوان « التجديد والمجدّدون في تاريخ الفكر الإسلامي » نُشرت بعد ذلك في شكل كتاب مستقلّ ينضوي تحت أربع مجلدات باسم « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » .

• ألَّفَ كتابه حول القاديانية بعنوان « القادياني والقاديانية » عام ١٩٥٨م ، وكتابه « الصراع بين الفكرة الإسلامية والغربية في الأقطار الإسلامية » عام ١٩٦٥م وكتابه « الأركان الأربعة » عام ١٩٦٧م ، و « السيرة النبوية » عام ١٩٧٦م ، و « العقيدة والعبادة والسلوك » عام ١٩٨٠م و « المرتضى » في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عام ١٩٨٨م .

• شارك في تحرير مجلة « الضياء » العربية الصادرة من دار العلوم ـ ندوة العلماء عام ١٩٣٢م ومجلّة « الندوة » الأردوية الصادرة منها أيضاً عام ١٩٤٠م ، وأصْدَرَ مجلّة باسم « تعمير حيات » في الأردوية عام ١٩٤٨م ، وكَتَب مقالات في الأدب والدعوة والفكر في أمهات المجلاّت العربية الصادرة من مصر ودمشق كـ : « الرّسالة » للأستاذ أحمد حسن الزيات و « الفتح » للأستاذ محب الدين الخطيب و « حضارة الإسلام » للدكتور مصطفى السباعي و « المسلمون » للدكتور سعيد رمضان المصري .

• أشْرَفَ على إصدار جريدة « نداي ملّت » الأردوية عام ١٩٦٢م ،

وكذلك أشرف على مجلّة « البعث الإسلامي » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٥م وجريدة « الرائد » العربية الصادرة منذ عام ١٩٥٩م ومجلة « تعمير حيات » الأردوية الصادرة منذ عام ١٩٦٣م ، وكلها تصدر من دار العلوم ـ ندوة العلماء في لكهنؤ ، (الهند) .

رحلاته :

• سافَرَ إلى الشرق والغرب مرات داعيةً إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، عاملاً على إعلاء كلمة الإسلام بالكلمة المسموعة والمقروءة وبالعمل الإيجابيّ البنَّاء في كل مجال ، جوَّاباً للآفاق في سبيل الله ، محاضراً ، ومحدثاً ، ومحاوراً ، واعظاً وهادياً ، ومشاركاً بالرأي والفكر في المجالس العلمية ، والمجامع الجامعية والمؤسسات الإسلامية ، والمؤتمرات والندوات فيها[(١)] .

تقدير وتكريم :

• انتخبه مجمع اللغة العربية بدمشق والقاهرة والأردن عضواً مراسلاً لما اتصف به من العلم الجمّ ، والبحث الدقيق في ميادين الثقافة العربية والإسلامية ، ولمساعيه المكثفة المشكورة في سبيلها .

• اختير عضواً في المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منذ تأسيسها عام ١٩٦٢ .

• اختير عضواً في رابطة الجامعات الإسلامية منذ تأسيسها عام ١٩٧١م .

• اختير لاستلام جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٠م ، لمؤلَّفه القيم « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

---

(١) انظر للاطلاع على رحلاته كتاب « رحلات العلاَّمة أبي الحسن علي الندوي محاضراته ـ مشاهداته ـ لقاءاته ـ انطباعاته » . جمع وترتيب وتعليق للمؤلف . صدر عن دار ابن كثير دمشق ـ بيروت عام ٢٠٠٠م .

• منح شهادة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة كشمير عام ١٩٨١م .

• اختير رئيساً لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية بلندن عام ١٩٨٣م .

• اختير عضواً في المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية وللبحث والتأليف والتحقيق في عمّان (الأردن) .

• اختير رئيساً عاماً لرابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) عام ١٩٨٤م .

• أقيمت ندوة أدبية كبيرة حول حياته وجهوده الحثيثة ومساعيه المشكورة ، ومفاخره العظيمة في مجال الدعوة والأدب عام ١٩٩٩م في إستانبول « تركية » .

• اختير لاستلام جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٤١٩هـ لخدماته الجليلة ومآثره العظيمة في مجال الدعوة الإسلامية ، وقدَّم إليه الجائزة ولي العهد لحكومة الإمارات العربية المتحدة سمو الشيخ محمد بن راشد المكتوم .

رئاسته وعضويته للجامعات والمجامع :

• تولّى العلاَّمةُ الرئاسة والعضوية لعدة جامعات إسلامية ومجامع عربية ومنظمات دعوية ومراكز دينية في العالم الإسلامي وخارجه ، ومنها على سبيل المثال :

الأمين العام لدار العلوم ـ ندوة العلماء (التي أخذت صفة العالمية منذ ترأس أمانتها ، وتفوَّقتْ على معظم جامعات العالم التي تَهْتم بشؤون الدراسات الإسلامية والعربية لأنَّها تجمع بين القديم الصالح والجديد النافع) .

رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية (الرياض) .

رئيس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ (الهند) .

رئيس مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية (إنجلترا) .

رئيس هيئة الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند .

رئيس هيئة التعليم الديني للولاية الشمالية (أترابرديش) .

عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة .

عضو المجلس التأسيسي الأعلى العالمي للدعوة الإسلامية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق .

عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

عضو مجمع اللغة العربية الأردني .

عضو المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية (مؤسسة آل البيت) بالأردن .

عضو رابطة الجامعات الإسلامية بالرباط .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

عضو المجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد (باكستان) .

عضو المجلس الاستشاري بدار العلوم ديوبند الإسلامية (الهند) .

• وعدا ذلك تولّى العلاَّمة الرئاسة والعضوية لكثير من الجامعات الإسلامية ، والمراكز الدينية والمنظمات الدعوية ولجان التعليم والتربية في العالم الإسلامي وخارجه .

توفي ـ رحمه الله ـ يوم الجمعة في ٢٣ من شهر رمضان المبارك ١٤٢٠هـ وكان آخر يوم من شهر ديسمبر ١٩٩٩م . فغربت شمس القرن العشرين . توفي في بلدة رائي بريلي الواقعة على مسافة ٦٠ كيلومتراً من بلدة لكهنؤ ، اغتسل لصلاة الجمعة ، وأمر طالباً من طلابه أن يقرأ عليه سورة الكهف ، وما أن انتهت سورة الكهف حتى فاضت روحه . إنا لله وإنا إليه راجعون . تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنانه .

صلّى حوالي خمسة ملايين من المسلمين الوافدين من مختلف أنحاء

العالم عليه صلاة الغائب في الحرمين الشريفين في ٢٧ رمضان بعد صلاة العشاء[١] .

* * *

(١) انظر كتاب المؤلف « أبو الحسن علي الحسني الندوي الإمام المفكر الداعية الأديب » ، للاطلاع على حياة العلاّمة الندوي ، وجهوده الحثيثة في خدمة الدعوة الإسلامية ومنهجه فيها ، وأعماله القيمة في مجال الأدب الإسلامي ، وموقفه من القضايا الإسلامية والعربية ، مع تعريف جميع مؤلّفاته . صدَر عن « دار ابن كثير دمشق ـ بيروت عام ١٩٩٩م » .

الإمام محمد بن إسماعيل البخاري وكتابه صحيح البخاري، الحديث والسنة ودورهما في الصيانة عن التحريف والانحراف[(١)]

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد الأنبياء والمرسلين ، وخاتم النبيين محمدٍ وآله وأصحابه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ، ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين .

ميزة الرسول الأعظم ﷺ، وقيمة الحديث، ودوره في إبراز هذه الميزة:

أما بعد : فإن الرسول الأعظم ﷺ هو الشخصية الفريدة ـ من بين الرسل والعظماء ـ التي نعرف عنها كلَّ دقيقٍ وجليلٍ ، ونعرف عنها من دقائق الأخلاق والعادات ، والميول والرغبات ، والقول والعمل ما لا نعرفه عن كثير من الشخصيات التي مضت قريباً ، بل عن الشخصيات المعاصرة أحياناً ، وذلك كلُّه بفضل « الحديث » الذي سجل لنا هذه الحياة المباركة العظيمة .

لقد اعتادت الأمم القديمة والدِّيانات أن تصوِّر أنبياءها ، وأن تنحت لهم تماثيل وأصناماً للأجيال القديمة ، وتجدِّد ذكراهم . ونشأت من ذلك الوثنية ، وعبادة التماثيل التي يعرفها الجميع ، ونشأت من ذلك آفاتٌ لا تزال الأمم والديانات تعانيها ، وقد لطف الله بهذه الأمة وبالإنسانية ؛ إذ حرَّم عليها تصوير الأنبياء ، والعظماء ، ونحت تماثيلهم ، وأبدلها بهذا الحديث النبوي ، الذي هو مجموع صورٍ ناطقةٍ يتعرَّف بها الإنسان بنبيه ، ويسعد بصحبته ، وكأنَّه حضر مجلسه ، واستمع لحديثه ، وقضى معه مدَّةً من الزمان ، يسمع كلامه ،

(١) هذا البحث قدَّمه العلاَّمة الندوي في مؤتمر حول الإمام البخاري المنعقد في ٢٣ و٢٤ من شهر أكتوبر سنة ١٩٩٣م في مدينة سمرقند ، ثم نشر البحث في مجلة البعث الإسلامي في عددها الأول (المجلد التاسع والثلاثون) عام ١٩٩٣م .

ويشاهد فعله ، ويدرس سيرته ، فكان ضياع هذه الثروة ـ لا سمح الله بذلك ـ كارثةً لا تقدَّر ، وخسارةً لا تعوَّض .

حركة جمع الحديث وتدوينه التي لا نظير لها :

قد قيَّض الله لهذا العمل الجليل فوجاً من طلبة للعلم يعدُّون بالآلاف ، ويمتازون بعلوِّ همتهم ، وشدَّة نشاطهم ، وقوَّة احتمالهم وصبرهم ، وقوَّة ذاكرتهم وحفظهم ، وقد تدفَّق سيلهم من بلاد العجم ، وقد ملكت قلوبهم وعقولهم الرغبة الشديدة في جمع الحديث ، وشغفوا به شغفاً حال بينهم وبين الشهوات ، فطاروا في الآفاق ، ونقَّبوا في البلاد في البحث عن الروايات المختلفة ، والأسانيد الصحيحة ، وكان لهم في ذلك هيامٌ وغرامٌ لم يعرفا عن أمَّةٍ من الأمم للعلم في التاريخ ، يدلُّ على ذلك بعض الدلالة ما يروى عن المحدِّثين من التجوُّل في البلاد ، والسفر في العالم الإسلاميِّ من أقصاه إلى أقصاه[(١)] .

دور الحديث في تقويم الأمة وبقائها على المنهج المطلوب :

ثم إنَّ الحديث ميزانٌ يستطيع المصلحون في كلِّ عصرٍ أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمة ، واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة ولا يتأتَّى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث ، الذي هو يملأ هذا الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوة لا بدَّ منها في السنن الإلهية ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] فلولا الحديث الذي يمثِّل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة ، ولولا التوجيهات النبوية الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام التي أخذ بها الرسول المجتمع الإسلامي ؛ لوقعت هذه الأمَّة في إفراطٍ وتفريطٍ ، واختلَّ الاتزان ، وفقد المثال العملي الذي حثَّ الله على الاقتداء به ، بقوله :

---

(١) ليرجع في ذلك إلى كتب التاريخ والسير ، والكتب التي ألفت في تاريخ تدوين الحديث .

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : ٢١] وبقوله : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] والذي يطلبه الإنسان ويستمدُّ منه الثقة والقوّة في الحياة ، ويقتنع بأنَّ تطبيق الأحكام الدِّينية على الحياة ميسورٌ وواقع .

مصدر قوة وميزان عدل :

ثم إنَّ الحديث زاخرٌ بالحياة ، والقوّة ، والتأثير الذي لم يزل يبعث على الإنتاج ، والزهد ، والتّقوى ، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع ، وحسبة المجتمع ، ولم يزل يظهر بتأثيره في كلِّ عصرٍ وبلد ، من رفع راية الإصلاح والتجديد ، وحارب البدع ، والخرافات ، والعادات الجاهلية ، ودعا إلى الدِّين الخالص والإسلام الصحيح ، لذلك كلِّه كان الحديث من حاجات هذه الأمة الأساسية ، وكان لا بدَّ من تقييده ، وتسجيله ، وحفظه ، ونشره .

منزلة الإمام محمد بن إسماعيل البخاريّ في فنِّ الحديث وعبقريته :

من أعجب ما روي في ذلك هو ما يرويه أبو أحمد بن عدي الحافظ عن الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، صاحب الجامع الصحيح ، قال : سمعت عدَّةً من مشايخ بغداد يقولون : إن محمد بن إسماعيل البخاري قَدم بغداد ، فسمع به أصحاب الحديث ، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه ، فعمدوا إلى مئة حديث ، فقلبوا متونها وأحاديثها ، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسنادٍ آخر ، وإسناد هذا المتن لمتنٍ آخر ، ودفعوها إلى عشرة أنفس ، لكلِّ رجلٍ عشرة أحاديث ، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري ، وأخذوا عليه الموعد للمجلس ، فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين ، فلما اطمأن المجلس بأهله ؛ انتدب رجلٌ من العشرة ، فسأله عن حديثٍ من تلك الأحاديث ، فقال : لا أعرفه ، فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ ، والبخاري يقول : « لا أعرفه » وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى البعض ويقولون : « فهم الرجل » ومن كان لم يدرِ القصة ، يقضي على البخاري بالعجز ، والتقصير ، وقلة الحفظ ، ثم انتدب رجلٌ من العشرة أيضاً فسأله عن حديث من تلك

الأحاديث المقلوبة فقال : « لا أعرفه » فسأله عن آخر ، فقال : « لا أعرفه » فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته ، والبخاري يقول : « لا أعرفه » ثم انتدب الثالث ، والرابع إلى تمام العشرة ، حتى فرغوا كلُّهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة ، والبخاريُّ لا يزيدهم على أن يقول : « لا أعرفه » فلما عرف أنَّهم قد فرغوا التفت إلى الأول ، فقال : أما حديثك الأول فقلت كذا ، وصوابه كذا ، وحديثك الثاني كذا ، وصوابه كذا ، والثالث ، والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة ، فردَّ كلَّ متنٍ إلى إسناده ، وكلَّ إسنادٍ إلى متنه ، وفعل بالآخرين مثل ذلك ، فأقر الناس له بالحفظ ، وأذعنوا له بالفضل .

قال الحافظ ابن حجر بعد ما حكى هذه القصة ، « قلت : هنا يخضع للبخاري ، فما العجب من ردِّه الخطأ إلى الصواب ، فإنَّه كان حافظاً ، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرَّةٍ واحدةٍ » .

مزية الجامع الصحيح للبخاري وفضله ، وعناية الأمة به تلقياً ، وروايةً ، وشرحاً وتدريساً :

ولا نعرف كتاباً من كتب البشر ـ في المكتبة الدِّينية العالمية ـ تناوله العلماء والمؤلفون بالشرح والتحشية والتعليق مثل ما تناولوا كتاب هذا الإمام الجليل ؛ الذي هو أصحُّ الكتب بعد كتاب الله ، وقد كان الشرح والتعليق هو المجال العلميُّ الذي تظهر فيه عناية العلماء والمؤلفين في العصور القديمة ، ومقياس اهتمامهم بأثرٍ علميٍّ ، فكان أكثر الكتب شروحاً وتعليقات هو أعظم المؤلفات تقديراً ، وأعلاها منزلةً ، وأكثرها شهرةً ، وكان أقلُّ الكتب شروحاً وتعليقاً أخملها ذكراً ، وأقعدها شهرةً وصيتاً ، فيبقى مطموراً مغموراً ، لا يسترعي انتباهاً ، ولا يثير اهتماماً ، فإذا أخذ هذا المقياس ـ وهو المقياس الوحيد لنجاح كتاب في عهدنا العلمي الماضي ، والدليل القاطع على احتلاله للصدارة في المجلس العلمي ـ حكمنا بأنَّ « الجامع الصحيح » للبخاري قد فاز بالقدح المعلَّى في هذا الميدان ، واحتلَّ الصدارة في مكتبتنا الإسلامية التي انبثقت عن القرآن ، ودعوة الإسلام ، وامتدَّت على مشارق الأرض ومغاربها

في المساحة الأرضية المكانية ، وعلى القرن الأول إلى القرن الثالث عشر ـ على الأقلِّ ـ في مساحتها التاريخية الزمانية ، فقد بلغ عدد شروحه والتعليقات عليه إلى مئة وواحدٍ وثلاثين كتاباً (١٣١) وقد يكون العدد أكثر من هذا ، فقد كان هذا الاستقصاء مؤسساً على « كشف الظنون » للجلبي ، و « مفتاح السعادة » لطاش كبرى زاده ، و « إتحاف النبلاء » و « الديباج المذهب » و « نيل الابتهاج » ومقدمات الشروح المشهورة التي كانت في متناول يده ، و « الثقافة الإسلامية في الهند »[1] للعلامة عبد الحي الحسني مدير ندوة العلماء الأسبق ، (م ١٣٤١هـ) وبعض دراساته ، وتتبعاته الفردية ، ولا شكَّ أنَّ العالم الإسلاميَّ أوسع مما تخيله الجغرافيون ، والتاريخ الإسلاميَّ العلمي أغنى مما دونه المؤرخون ، وفي الزوايا خبايا لم تقع عليها عينٌ ، ولم تطلع عليها الشمس .

وإن كتاب « فتح الباري » للعلاَّمة ابن حجر العسقلاني الذي يقع في ثلاثة عشر مجلداً ضخماً ومقدمةً مبسوطةً تكاد تكون مكتبةً مستقلةً في علوم الحديث ، كتاب لا يوجد له نظير في مكتبات الدِّيانات والملل ، وإنَّ لهذه الأمة الإسلاميَّة أن تفتخر بهذا الأثر العلمي الخالد ، وتقدِّمه إلى علماء الدِّيانات والفلسفات ، ورواد الحضارات والثقافات كبرهانٍ ساطعٍ على جهاد هذه الأمَّة العلميِّ ، ونبوغها الفكريِّ وولوعها بآثار نبيها ، والغوص فيها إلى أعماقٍ ليست بعدها أعماق ، والوصول فيها إلى آفاقٍ ليست وراءها آفاق ، هذا مع عدم الحطِّ من قيمة الشروح الأخرى ـ وفي مقدمتها « عمدة القاري » للعلاَّمة بدر الدين العيني ، التي هي مكتبةٌ حافلةٌ في النحو والعربية ، وعلوم البلاغة ، والأحكام المستخرجة ، والفوائد المستنبطة من الأحاديث .

ثم يلي هذا المقياس شدَّةُ العكوف على دراسة الكتاب ، والتهافت على روايته ونقله ، والتنافس في حمله ونشره ، وضمُّه إلى الصُّدور والعضُّ عليه بالنواجذ ، وتوارث الأجيال في تلقيه جيلاً بعد جيل ، وكابراً عن كابر ، وتلميذاً عن أستاذ ، وطبقةً عن طبقة ، حتى لا تعرف فترةٌ من الزمان ، نسج

---

(١) صدرت له طبعتان من مجمع اللغة العربية بدمشق .

فيها عليه العنكبوت ، وساد عليه الظلام ، وانقطعت روايته ، وتوقفت دراسته ، وعبث به العابثون ، وتصرَّف فيه الخائنون المحرِّفون ، وقد تفرد الجامع الصحيح بهذه الميزة بعد كتاب الله ، فقد أخذ هذا الكتاب عن مؤلفه تسعون ألفاً من الرواة والحفاظ ، وتسلسل نقله وروايته حتى انتهى هذا الكتاب إلى مؤلفه ، وبلغ حدَّ التواتر في شهرته وصحَّة نقله ، ونسبته إلى المؤلف ، لا يُنكر ذلك ولا يتشكَّك فيه إلا من تشكك في المتواترات والحقائق العلمية التي تثبت بالضرورة ، ولا يزال هذا الكتاب موضع الاهتمام والعناية ، وموضوع التأمُّل والدراسة في الحلقات العلمية في العالم الإسلاميِّ .

مزية الأبواب والتراجم ولطائفها ودقائقها :

ومما تقرَّر عن المشتغلين بصناعة الحديث تدريساً ، وتصنيفاً ، وشرحاً وتحقيقاً أنَّ الأبواب والتراجم في هذا الكتاب من أدقِّ البحوث والمطالب ، ومن أعمقها غوراً ، وأبعدها مدىً ، حتى اشتهر بين العلماء أنَّ فقه البخاري في تراجمه ، وأصبح ذلك شعاراً لهذا الكتاب يتميَّز به عن أقرانه الصِّحاح على جلالة قدرها ، وفخامة شأنها ، وأصبح مقياساً لفطنة العلماء ، وتوقُّد ذكائهم ، وسيلان ذهنهم ، وبعد غورهم ، واقتدارهم على فهم هذا الكتاب الجليل ، وحلِّ غوامضه ، وفتح أغلاقه ، والتوصُّل إلى مقاصد المؤلف ، لا يشهد لمؤلفٍ أو مدرِّسٍ ببراعةٍ في العلم وتفوُّقٍ في التدريس ، وسعة اطلاعٍ على الشروح والحواشي ، وأقوال الأئمة ، والفحول من المحدِّثين ، وطولَ ممارسةٍ لتدريس هذا الكتاب الشريف ، وإضناء القوى ، وإفناء العمر في ذلك حتى يجتمع له الشيء الكثير من هذا الباب ، وينفرد بتوجيهاتٍ ، وتعليلاتٍ تنحلُّ بها الألغاز ، وتتفتح بها الأقفال ، وتخلو عنها بطون الأسفار .

ولذلك عني بهذا الموضوع العلماء قديماً وحديثاً ، وأجالوا فيه قداحهم ، وأركضوا في هذا السباق جيادهم ، واعتصروا في ذلك عقولهم الراجحة ، وعلومهم الراسخة ، ولا نعرف أديباً ، أو لغوياً تعمَّق في فهم بيت من الأبيات ، ومعرفة معنىً من المعاني الشعرية ، والوصول إلى غايةٍ من غايات

الشعراء مثل تعمُّق شراح الجامع الصحيح ، والمشتغلين بتدريسه في فهم مقاصد المؤلف ، وشرح كلامه .

ولا نعرف ـ على طول اشتغالنا بالتاريخ العلمي ـ مؤلفاً من مؤلفات العلماء ، أو الحكماء عني به رجال ذلك الفنِّ ، وعكفوا على حلِّ غوامضه ، وفكِّ مشكلاته حتى شقُّوا فيه الشعرة ، مثل ما عني علماء الحديث بالجامع الصحيح ، وما ذلك إلا لإخلاص مؤلفه لعلم الحديث الشريف ، وانقطاعه إليه ، وجهاده في سبيله ، وتفانيه في ذلك(١) .

وسرُّ الغموض في هذه الأبواب والتراجم تنوُّع مقاصد المؤلف الإمام ، وبعد مراميه ، وفرط ذكائه ، وحدَّة ذهنه ، وتعمُّقه في فهم الحديث ، وحرصه على الاستفادة والإفادة منه أكبر استفادةٍ ممكنة ، فهو كنحلةٍ حريصةٍ توَّاقةٍ ، تجتهد أن تتشرب من الزهرة آخر قطرةٍ من الرَّحيق ، ثم تحوِّلها إلى عسلٍ مصفًّى ، فيه شفاء للناس .

شأن الإمام البخاري مع الحديث النبوي :

وشأن الإمام البخاري مع الحديث النبوي الصحيح شأن العاشق الصَّادق ، والمحبِّ الوامق مع الحبيب الذي أسبغ الله عليه نعمة الجمال والكمال ، وكساه ثوباً من الرَّوعة والجلال ، فهو لا يكاد يملأ عينه منه ، وهو كلَّما نظر إليه ؛ اكتشف جديداً من آيات جماله ، فازداد افتتاناً وهياماً ، ورأى جماله يتجدَّد في كلِّ حين ، وإذا الوجه غير الوجه ، والجمال غير الجمال ، فلا قديم في الحبِّ ولا إعادة عند المحب ، وصدق الشاعر :

يـزيـدك وجهـه حسنـاً إذا مـا زدتـه نظـرا

ولذلك ترى الإمام البخاريَّ لا يكاد يشبع من استخراج المسائل ، واستنباط الفوائد ، والنزول إلى أعماق الحديث ، والتقاط الدُّرر منه ،

(١) من المؤلفات الحديثة في هذا الموضوع « الأبواب والتراجم للبخاري » للعلامة المحدث الشيخ محمد زكريا السهارنفوري (م١٤٠٢هـ) .

والخروج على قرائه بها ، حتى يذكر حديثاً واحداً أكثر من عشرين مرَّةً ، واستخرج أحكاماً وفوائد جديدةً .

روى حديث جابر قال : كنتُ مع النبي ﷺ في غزوةٍ فأبطأ بي جملي ، وأعيا . . . الحديث أكثر من عشرين مرَّةً . فكأنه تأخذه النَّشوة والطرب عند رواية الحديث ، فلا يملُّ من إعادته ، وينشد بلسان الحال :

أَعِدْ ذِكْرَ نعمانَ لنا إنَّ ذكره هو المسكُ ما كرَّرته يتضوَّع

وكأنه يتمثل ببيت الشاعر :

وحدَّثتنا يا سعدُ عنهم فزدتنا شجوناً فزدنا من حديثك يا سعدُ

ثم يشتعل ذكاؤه ـ الذي ضرب فيه بسهمٍ وافر ـ ويتوقَّد ذهنه ، وتسيل قريحته ، فيفلت زمام التأليف ، ويرسل النفس على سجيتها ، يستخرج من حديثٍ واحدٍ نتائج وفوائد لا تدور بخلد كثيرٍ من الأذكياء ، وما ذلك إلَّا لحدَّة ذهنه ، وإفراط حبِّه ، ولم يزل المحبُّ ملهماً للبدائع ملهباً للقرائح ، والمحبُّ يقع على ما لا يقع عليه المتأمل المرهق لجسمه ، المتعب لعقله .

حاجة الأمَّة إلى الحديث ، ودوره في حسبة الأمة ، وحركات التجديد ، والبحث الجديد :

من استعرض التاريخ الإسلاميَّ عرف أنَّه لولا السنَّة المحفوظة والحديث المأثور ؛ لما أمكنت الحسبة على المجتمع الإسلاميِّ ، ولما قام المصلحون والمجددون في كلِّ عصرٍ ومصرٍ يميِّزون بين السنَّة والبدعة ، والحقِّ والباطل ، والمعروف والمنكر .

فالحديث مدرسةٌ دائمةٌ خالدةٌ ، يتخرَّج فيها مصلحون ، ومجدِّدون ، وقوةٌ دافعةٌ إلى الأمام ، وإلى الاضطلاع بأعباء الدَّعوة والحسبة .

وقد علل العالم الغربي المهتدي محمد أسد (ليوبولد ويس سابقاً) التنصل من السنة ، ونزعة إنكار الحديث ـ التي ظهرت طلائعها في الفترة الأخيرة ـ في ضوء معرفته لنفسية الجيل الجديد ، وقوة سيطرة الحضارة الغربية ، بصعوبة التطبيق بين موازين الحضارة الغربية ، وقيمتها ، وأساليب

حياتها ، و « موضاتها » وبين السنة والجمع بين الحياة التي تقوم على الحبِّ العميق والثِّقة التامَّة بصاحب الرسالة الإسلامية ، ومصدر السنة النبوية ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبين تقديس الحضارة الغربية ، والنظر إليها كآخر ما وصل إليه العلم الإنسانيُّ ، ولعلَّ هذا هو السبب الذي يحثُّ بعض القادة السياسيين والحكام في بعض الشعوب الإسلامية ، والأقطار العربية ، على الهجوم على السنَّة ، وإنكار الحديث .

وأخيراً ـ لا آخراً ـ أضمُّ إلى هذه الكلمة التي سطّرت على عجلٍ عن فضل الإمام محمد بن إسماعيل البخاريِّ في فنِّ الحديث ، ومكانة كتابه الفريد الجامع الصحيح ، أنَّه يجب أن يكون الغرض الأساسيُّ من هذا الالتقاء الجامع الفريد الذي جاء في أوانه وفي مكانه بعد ما انقطعت الآمال ، وطالت الأجيال ، وحالت الأوضاع السياسية ، والمسافات الجغرافية ، انتهاز هذه الفرصة التي قلَّما يجود بها الزمان لتجديد ما خص الله به الإمام البخاري ، ووقف له حياته ، ومواهبه ، وطاقاته من جمع الحديث الصحيح ، وإتحاف الأمَّة به وإتمام الحجَّة عليها ، وتبيين منهج النبوَّة الصادقة الأخيرة ، والتشبث بالكتاب والسنَّة ، والتجنب عن البدع والمحدثات بدلًا من الاحتفال بذكراه ، كذكرى زعيم من الزعماء ، أو فاتح من الفاتحين ، أو كأديبٍ وشاعرٍ يكون مفخرة للبلاد ، فيستعان في ذلك بما ما أنزل الله به من سلطان ، ولا ثبت من مراجع الدِّين الصحيحة ، ولا ظهر في خير العصور ، من إقامة تذكار بنائي شامخٍ ، أو تجصيص ضريحٍ وتشييده ، يرحل إليه من آفاق بعيدة ، ويجتمع عليه الجمُّ الغفير ، ويؤتى عليه بأعمالٍ ومظاهراتٍ تكريمية تبلغ إلى حدِّ التقديس الذي انتهت إليه الأمم السابقة قبل الإسلام .

وقد حذر منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، إذ قال : « اشتدَّ غضب الله على قومٍ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[١] وقال ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ « لا تجعلوا قبري عيداً »[٢] وكلمة العيد كلمةٌ بليغةٌ واسعة الآفاق ،

(١) الموَطّأ للإمام مالك بن أنس .
(٢) سنن أبي داود .

متنوعة المظاهر ، لا يقولها إلا نبيٌّ شرَّفه الله بالوحي ، وأطلعه على ماضي الأمم السابقة وانحرافاتها ، وإنما نكتفي بالدُّعاء لصاحب القبر ، وبرفع الدرجات ، والجزاء الأوفى على جهاده العلمي والبلاغي ، ومنحه فضل الأجر والشكر من هذه الأمة ، والعزم الصادق قبل العودة على العناية بالحديث الشريف ، والعمل بالسنة ، ودراسة الجامع الصحيح دراسةً عميقةً دقيقةً ، والعزم على نشر ما جاء فيه ، والدَّعوة إلى التمسُّك بالحديث ، والسنَّة في ضوء هذا الكتاب العظيم والسفر الجليل ، ومحاربة الشرك ، والبدع في نطاق نفوذنا ، وبأقصى جهدنا .

هذا مع تكوين مكتبة تختص بالحديث الشريف وإنشاء مدرسةٍ خاصَّةٍ بالعلوم الدينية ، والتضلُّع من مصادر الدِّين الصحيح ، والتشبُّع بروح الدَّعوة إلى الدين الحنيف ، والإسلام الخالص ، وبذلك ترجع إلى هذا المكان التاريخي العظيم ـ الذي أكرمه الله بظهور النوابغ والعباقرة في العلوم الدينية ، والمحدِّثين الكبار الذين كان ولا يزال في مقدمتهم ، وعلى رأسهم الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، الذي اجتمعنا لإحياء ذكراه ، والاعتراف بفضله ، والاغتراف من بحره ـ ومكانته في تاريخ الدين والعلم ، وفضله وشرفه ، وتعود إليه البركات ، وتشدُّ إليه الرحال .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية ومآثره الكبرى

التركيز على أنَّ النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة[(١)]

الحمد لله ربِّ العالمين ، والصَّلاة والسَّلام على سيِّد المرسلين ، وخاتم النبيين محمدٍ وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسانٍ ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّين .

سادتي وإخواني ! يسعدني ، ويشرفني أن أسهم ـ بقدر الإمكان ـ في ندوةٍ علميَّةٍ خاصَّةٍ بشيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيمية رحمة الله عليه ، وقد كان خليقاً بأن تنظم له ندواتٌ كثيرةٌ في أنحاء العالم الإسلاميِّ ، فإنه يصحُّ أن يقال : إن هذا العصر عصر ابن تيمية ، وقد كان لشخصيته ، ودعوته ، ودوره الإصلاحيِّ عودةٌ في هذا العصر ، ولكتاباته ، وأفكاره ، واتجاهاته ؛ انتفاضةٌ لم تكن لمصلحٍ إسلاميٍّ ، أو مؤلفٍ من المؤلفين القدامى ، لأسبابٍ تحتاج في شرحها إلى كتابٍ مستقل .

وقد كانت الهند خليقةً بأن تعقد فيها هذه الندوات ؛ لوجود صلاتٍ عميقة الجذور بين دعوته وجهاده ، وبين أوضاع هذه البلاد الدِّينية ، والعلمية ، ولوجود بعض كبار المدافعين عن دعوته ، ومدرسته ، وتحقيقاته ، كحكيم الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي من رجال القرن الثاني عشر الهجري[(٢)] وخلفائه ، وتلاميذه ، وتلاميذ تلاميذه ، وما نالت دعوتهم العلمية

---

(١) أعدَّ العلامة الندوي هذا المقال للندوة العلمية الخاصَّة ، بـ « الإمام ابن تيمية ومواقفه الخالدة » المنعقدة بالجامعة السلفية ببنارس عام ١٩٨٧م ثم نشر المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها العاشر ، المجلد الثاني والثلاثون ، عام ١٩٨٧م .

(٢) وهو صاحب الكتاب الفريد في موضوعه « حجة الله البالغة » توفي سنة ١١٧٦هـ وهو=

والإصلاحية في شبه القارة من ترحيبٍ وقبولٍ حسن ، ونشاطٍ ، وحماسٍ في القرن الثالث عشر ، وبعده ، وقامت على أساسها مدارس تربويةٌ ثقافيةٌ ، وحركاتٌ إصلاحيَّةٌ دعويَّةٌ .

وكانت تجمع بين الدَّعوة إلى التوحيد الخالص ، واتِّباع السنَّة السنيَّة ، وبين ما كانت تحتاج إليه هذه البلاد ، ويقتضيه الزمان من الدعوة إلى تزكية النفوس وتربيتها ، والقيام بحركة الجهاد في سبيل الله ، وتحرير البلاد ، والسعي في إنشاء حكومةٍ إسلاميَّةٍ على منهاج الخلافة الراشدة ، ونقل المراجع الدينية الأصلية إلى لغة البلاد ، ونشرها في نطاقٍ واسع ، وإصلاح المجتمع الإسلاميِّ الهنديِّ ، وإنقاذه من رواسب الجاهلية الهندية ، والتقاليد والأعراف القديمة ؛ التي لا تتَّفق مع تعاليم الإسلام ، والقيام بجولاتٍ دعويةٍ واسعة ، والاتصال بالشعب والجماهير اتصالاً مباشراً ، وهو مما اتَّسمت به ، وامتازت مدرسة حكيم الإسلام الشيخ ولي الله الدَّهلوي م ١١٧٦هـ التربوية والإصلاحية ، ودعوة السيِّد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦هـ) الإصلاحية الكفاحية الكبرى[(١)] .

لذلك أعتقد ـ ومعذرةً إلى من يرجع إليهم الفضل في عقد هذه الندوة ـ أنَّها وإن جاءت في مكانها ، فقد جاءت متأخرةً عن أوانها ، ولكن الأمور مرهونةٌ بأوقاتها ، ولكلِّ شيءٍ أجلٌ مسمًّى .

إنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية كان من أفذاذ المحقِّقين ، والباحثين ، والمصلحين المجددين في تاريخ الإسلام ، ومن عماليق الفكر الإسلاميِّ ، ومن أجمعهم لشعب الإصلاح المطلوب ، والدور الإصلاحيِّ ، والتجديديِّ الشامل ، منها تجديد عقيدة التوحيد ، وإبطال العقائد المشركة ، ومنها نقد

= المعروف بالشيخ ولي الله الدَّهلوي ، ليراجع كتاب العلامة الندوي « الإمام الدهلوي » (الجزء الرابع من سلسلة رجال الفكر والدَّعوة في الإسلام) .

(١) ليرجع للتفصيل إلى كتاب العلامة الندوي « سيرة السيد أحمد الشهيد » الجزء ١ ـ ٢ ـ بالأردية ، وكتاب « إذا هبت ريح الإيمان » بالعربية ، طبع بيروت ، والكويت ، ولكهنؤ .

الفلسفة والمنطق وعلم الكلام ، وترجيح أسلوب الكتاب والسنَّة ، ومنها نقد الديانات والملل المعارضة والمحاربة للإسلام ، والردُّ على الفرق والنحل المنحرفة عن الطريق القويم ، والثائرة على الإسلام ، فمن الديانات المسيحية المجابهة للدين الإسلاميِّ عقيدةً ودعوةً ، وقوةً سياسية ، ونفوذاً مادياً[١] ومن الفرق « الشيعية » التي ما أضرَّ بالإسلام والمسلمين مثلها[٢] وما شكَّك مثل ما شككت في مدى نجاح جهود سيِّد الرسل وخاتمهم في دعوته وتربيته ، وفي تميز من نشأ في أحضان النبوة ، وتخرَّج في مدرسة الرسالة السماوية ، والتعاليم النبوية بطريقٍ مباشر عن الأجيال البشرية ، وأمم الأنبياء في الصلاح ، والاستقامة ، والسموِّ ، والطاعة لله ورسوله ، وشكَّكت في نقاء الكتاب المنزل الأخير ، وبقائه على أصالته ونصِّه ، وفي عقيدة ختم النبوة ، ووحدة الرسول ـ بما تقوله ، وتعتقده في الإمامة وأئمتها ـ ومنها تجديد العلوم الشرعية ، وتنشيط الفكر الإسلاميِّ ، وتوسيع ثروته ، وتعميقها ، وإثبات الحاجة إلى الاجتهاد ، وكلُّ ذلك في اتزانٍ واقتصاد ، واعترافٍ للأئمة المجتهدين السابقين بالفضل ، وردِّ الملام عنهم ، والتماس العذر لهم .

وتلك كلُّها مآثر علميةٌ فكريةٌ بطوليةٌ لا يستهان بقيمتها ،ولا يقلَّل من شأنها ، ولا تتيسَّر ، ولا تتوفَّر إلا لمن أراد الله به الخير لهذه الأمة ، وقيَّضه للقيام بمهمة الإصلاح والتجديد .

ولكنَّ مأثرته الكبرى الرئيسية في اعتقادي ، وفي ضوء دراساتي المقارنة ، واستعراضي لتاريخ الفكر الدِّيني ، وما قام عليه من مجتمعاتٍ ومدارس ، وحركاتٍ علميَّةٍ ، وفكريَّةٍ ، وتأليفيَّةٍ ، هي : تركيزه على حاجة البشرية إلى النبوَّة ، والضغط على أنَّها الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة ، والهداية الكاملة ، وهو المدخل الرئيسيُّ الكبير إلى تحديد مكانة شيخ الإسلام التحقيقية ، والتجديدية ، ومنزلته بين علماء الإسلام ، والدُّعاة والمصلحين ،

---

(١) ونموذجه : كتابه العظيم « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » .
(٢) ومثاله : كتابه العظيم « منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية » .

وذلك يحتاج إلى شيء من الشرح والإفاضة في الموضوع ، وبيان « الخلفيات » التي لا يمكن الشعور الحقيقي بمدى أهمية هذه المأثرة ، وقيمتها ، وبدون الاطلاع عليها « وبضدها تتبين الأشياء » .

ماذا يثبته القرآن ويعلنه ؟

يلحُّ القرآن على أنَّ الأنبياء هم الأدلاء على ذات الله ، وصفاته الحقيقية ، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة ، التي لا يشوبها جهلٌ ، ولا ضلالٌ ، ولا سوء فهمٍ ، ولا سوء تعبيرٍ ، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى الصحيحة إلا ما كان عن طريقهم ، لا يستقلُّ بها العقل ، ولا يغني فيها الذكاء ، ولا تكفي سلامة الفطرة ، وحدَّة الذهن ، والإغراق في القياس ، والغنى في التجارب ، وقد ذكر الله تعالى هذه الحقيقة الناصعة على لسان أهل الجنَّة ، وهم أهل الصِّدق ، وأهل التجربة ، وقد أعلنوا ذلك في مقام صدقٍ كذلك ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] وقرنوا هذا الاعتراف والتقرير بقولهم : ﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف : ٤٣] فدلَّ على أنَّ الرسل وبعثتهم هي التي تمكنوا بها من معرفة الله تعالى ، وعلم مرضاته ، وأحكامه ، والعمل بها ، الذي تمكنوا به من الدُّخول في الجنة ، والوصول إلى دار النعيم .

وقد ختم الله تعالى سورةً جليلةً من سور القرآن ، وهي سورة الصافات ، وقد نفى فيها ضلال المشركين ، وسوء اعتقادهم ، ونسبتهم إلى الله ما هو منه بريء ، فقال في آخر السورة : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٠ ـ ١٨٢] والآيات الثلاث حلقاتٌ متَّصلةٌ بعضها ببعض ، فلما نزَّه الله نفسه العلية ممَّا يتفوَّه به المشركون ، ذكر المرسلين الذين جاؤوا بالتنزيه والتقديس الكاملين ، والوصف الصحيح البليغ ، وسلَّم ، وأثنى عليهم ، لأنهم هم أهل الفضل في تعريف الخلق بالخالق ، وفي الوصف الصحيح الصادق ، وكانت بعثتهم منةً على الخلق ، ونعمةً على الإنسانية ، ومن مقتضيات الربوبية الرحيمة الحكيمة ، فختم كلَّ ذلك بقوله : ﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات : ١٨٢] .

ضلال الفلسفة اليونانية وسرُّ شقائها وخيبتها :

إذاً قد ضلَّ ، وتعب ، وجاهد في غير جهادٍ من أراد معرفة الله تعالى المعرفة الصحيحة ، وصفاته ، وأسمائه الحسنى ، وما بينه وبين هذا العالم من صلة ، وكيفية إحاطته به وقدرته عليه ، ونفوذ أحكامه فيه من غير طريق الأنبياء والمرسلين ، واعتمد في ذلك على عقله وعلمه ، وذكائه ، وإلمامه ببعض العلوم والصنائع ، ونجاحه في بعض المحاولات العلمية ، وإنتاجه الضعيف المتواضع ، أو العظيم الضخم في بعض مجالاتٍ علميَّة ، وحقَّ عليهم قوله تعالى : ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٦] .

وهذا سرُّ ضلال الفلسفة الإغريقية الإلهية ، وأقطابها ، ونوابغها ، فقد غرَّهم ذكاؤهم ، وعلومهم ، وآدابهم ، وشعرهم الخصب الغني ، وملاحمهم العظيمة التي نظموها ، ونبوغهم في علوم الرياضة والهندسة ، والإقليدس ، والفلسفة الطبعية ، والنجوم ، والفلكيات ، فخاضوا في الإلهيات ، وفي موضوع الذات ، والصفات ، والخلق ، والإبداع ، فجاؤوا بالسخيف المرذول ، وبالتهافت المتساقط ، وبالمتناقض المتضادِّ من الآراء ، والأقوال ، والتحكُّمات ، والتخمينات ؛ التي صدق حجَّة الإسلام الغزاليُّ رحمه الله في وصفها بقوله :

ظلماتٌ بعضها فوق بعض ، لو حكاه الإنسان عن منامٍ رآه لاستُدلَّ على سوء مزاجه ، أو لو أورد جنسه في الفقهيات التي قصارى المطلب فيها تخمينات ، لقيل : إنها ترهات ، لا تفيد غلبات الظنون[1] .

وقال في موضع آخر : لست أدري كيف يقنع المجنون من نفسه لمثل هذه الأوضاع ، فضلاً عن العقلاء الذين يشقُّون الشعر بزعمهم في المعقولات[2] .

---

(١) تهافت الفلاسفة ، ص١٠٥ .

(٢) المرجع السابق ، ص١٢٤ .

دور ابن تيمية في التركيز على ما جاء عن طريق الأنبياء ، وتزييفه لآراء الفلاسفة :

ويأتي ابن تيمية في القرن الثامن الهجري ، وهو مسحورٌ مبهورٌ بكلام الفلاسفة ، والمنطقيين ، فيجعل الردَّ عليهم موضوعه الأثير الحبيب ، ويركِّز عليه في كتاباته ، وبحوثه ، فيقول مثلاً معلقاً على كلام الفلاسفة والحكماء :

يتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدَّعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل ، كيف يتكلَّمون في غاية حكمتهم ، ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين ، ويجعلون الحقَّ المعلوم بالضرورة مردوداً ، والباطل الذي يعلم بطلانه بالضرورة مقبولاً ، بكلامٍ فيه تلبيسٌ وتدليس »[1] .

وحقَّ عليهم قوله تعالى : ﴿ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ١٩] ، وقوله تعالى : ﴿ ۞مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف : ٥١] .

المقارنة بين الإلهيات اليونانية وعلوم الأنبياء وتعاليمهم :

إنَّه يتعجَّب حينما يتناول مباحث العلوم الإلهية لفلسفة اليونان ، وأقوال فلاسفتهم الذين يقرنونها بالعلوم والحقائق التي يأتي بها الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام ، يقول في حماسٍ زائدٍ ، وقوَّةٍ بالغة :

« إذا نظر في كلام معلمهم الأول ـ أرسطو ـ وتدبَّره الفاضل العاقل ؛ لم يفده إلا العلم بأنَّهم كانوا من أجهل الخلق بربِّ العالمين ، وصار يتعجَّب تعجباً لا ينقضي ممَّن يقرن علم هؤلآء بالإلهيات بما جاءت به الأنبياء ، ويرى أنَّ هذا من جنس من يقرن دهاقين القرى بملوك العالم ، فهو أقرب إلى العلم والعدل ممن يقرن هؤلآء بالأنبياء ، فإنَّ دهقان القرية متولٍّ عليهم ، كتولي الملك على مملكته ، جزء من الملك » .

---

(١) منهاج السنة ، ج٣ بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول في الحاشية ، ص : ٢٧٢ .

وأمَّا ما جاءت به الأنبياء ، فلا يعرفه هؤلآء البتة ، وليسوا قريبين منه ، بل كفار اليهود والنصارى أعلمُ منهم بالأمور الإلهية ، ولست أعني بذلك ما اختصَّ الأنبياء بعلمه من الوحي الذي لا ينال غيرهم ، فإنَّ هذا ليس من علمهم ، و لا من علم غيرهم ، وإنما أعني العلوم العقلية ؛ التي بينها الرسل للناس بالبراهين العقلية في أمر معرفة الرب وتوحيده ، ومعرفة أسمائه وصفاته ، وفي النبوءات والمعاد ، وما جاؤوا به من مصالح الأعمال التي تورث السعادة في الآخرة ، فإنَّ كثيراً من ذلك لم يشموا رائحتها ، ولا في علومهم ما يدلُّ عليها ، وأمَّا ما اختصت الرسل بمعرفته وأخبرت به من الغيب ، فذلك أمرٌ أعظم من أن يذكر في ترجيحه على الفلسفة ، وإنما المقصود الكلام في العلوم العقلية ، دع ما جاءت به الأنبياء ؛ فإنَّه مرتبةٌ عالية[1] .

بيَّن ابن سينا أمر النبوة أنَّها من قوى النفس ، وقوى النفوس متفاوتةٌ ، وكلُّ هذا كلامُ من لا يعرف النبوءة بل هو أجنبيٌّ عنها ، وهو أنقص ممن أراد أن يقرر أنَّ في الدنيا فقهاء ، وأطباء ، وهو لم يعرف غير الشعراء ، فاستدلَّ بوجود الشعراء على وجود الفقهاء والأطباء ، بل هذا المثال أقرب ، فإنَّ بُعْدَ النبوءة عن غير الأنبياء أعظم من بعد الفقيه والطبيب عن الشاعر ، ولكن هؤلآء من أجهل الناس بالنبوءة ، ورأوا ذكر الأنبياء قد شاع ، فأرادوا تخريج ذلك على أصول قومٍ لم يعرفوا الأنبياء[2] .

ويقول في موضع آخر :

وأبعد هؤلآء عن النبوءة المتفلسفةُ ، والباطنيةُ ، والملاحدة ؛ فإنَّ هؤلآء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم وهو المنام ، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلامٌ في النبوة ، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط ، ولهذا يفضل هو وأمثاله الفيلسوف على النبي ، وابن سينا عظمها أكثر

(١) الرد على المنطقيين ، ص : ٣٩٤ ـ ٣٩٥ .
(٢) النبوءات : ص٢٢ .

من ذلك ، فجعل للنبي ثلاث خصائص : إحداها : أن ينال العلم بلا تعلم ، ويسميها القوة القدسية ، وهي القوة الحدسية عنده ، والثاني : أن يتخيَّل في نفسه ما يعلمه ، فيرى في نفسه صوراً نورانيةً ، ويسمع في نفسه لا في الخارج ، فهكذا عند هؤلآء جميع ما يختص به النبيُّ مما يراه ، ويسمعه دون الحاضرين ، وإنما يراه في نفسه ، ويسمعه في نفسه ، وكذلك الممرور عندهم ، والثالث : أن يكون له قوة يتصرف بها في هيولى العالم بإحداث أمورٍ غريبة ، وهي عندهم آيات الأنبياء ، وعندهم ليس في العالم حادثٌ إلا عن قوةٍ نفسانيةٍ ، أو ملكيةٍ ، أو طبعية . . . وهؤلآء عندهم جميع ما يحصل في نفوس الأنبياء إنما هو من فيض العقل الفعَّال..

ثم إنهم لما سمعوا كلام الأنبياء ، وأرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم ، فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء ، فيضعونها على معانيهم ، ويسمُّون تلك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء ، ثم يتكلَّمون ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء ، فيظن من لم يعرف مراد الأنبياء ومرادهم أنَّهم عنوا بها ما عنته الأنبياء ، وضلَّ بذلك طوائف ، وهذا موجود في كلام ابن سينا ، ومن أخذ عنه[١] .

الفرق الأساسي بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى وصفاته :

وقد أشار إلى نقطةٍ علميَّة مهمَّةٍ وهو يتحدَّث عن الفرق المبدئي بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى ، وصفاته ، يقول :

« والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل ، ونفى عنها التمثيل ، وهي طريقة الرسل ، جاؤوا بإثباتٍ مفصَّلٍ ، ونفي مجمل ، وأعداؤهم جاؤوا بنفي مفصَّلٍ وإثباتٍ مجمل[٢] .

(١) النبوءات : ص١٦٨ .
(٢) النبوءات : ص١٥٣ .

توارد علمي والتقاء فكري عقائدي عجيب :

من الموافقات العجيبة ، والالتقاءات العلمية الدَّعوية العقائدية التي تثير العجب والإعجاب ، ما يجده القارىء المتتبع من حدَّة التفكُّر ، والتوصُّل إلى نتيجةٍ واحدةٍ ، والتركيز عليها ، والإلحاح في سبيلها في رسائل مصلحٍ آخر ـ تحقَّق له من النجاح في تغيير مسير التاريخ ، وإنقاذ البلاد بأسرها من خطر الردَّة الدينية الحضارية العلمية الشاملة ؛ التي تبناها ، واحتضنها ملكٌ من أكبر الملوك ، وأقواهم إرادةً وصرامةً[1] وحاول تطبيقها بجميع وسائل الحكومات وطاقاتها ، مثل ما حصل له ، وهو الشيخ الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي ، (٩٧١ ـ ١٠٣٤هـ الموافق ١٥٦٣ ـ ١٦٢٤م) .

وذلك إن دلَّ على شيءٍ ؛ فإنَّه يدلُّ على أنَّ الحقَّ واحدٌ ، وأنَّ الإخلاص والتجرُّد في دراسة الكتاب والسنة ، واللجوء إلى الله تعالى والإنابة إليه ، والتوفيق الإلهي ضامنٌ بالوصول إلى الحقِّ والصواب ، واللبِّ اللباب ، وصدق الله العظيم :

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

عجز العقل والكشف وإخفاقهما في إدراك حقائق ما وراء الطبيعة :

أثبت الإمام السَّرهندي ـ بدوره ـ عجز العقل والكشف وقصورهما في إدراك الأمور الغيبية ، والعلوم التي هي وراء طور العقل ، والمعرفة الصحيحة لذات الله ـ سبحانه وتعالى ـ وصفاته ، وإحراز العلم الذي لا يشوبه شك ، والحقائق الثابتة القطعية التي لا تخالجها شبهة ـ بحتميةٍ ويقين ، وأنَّ النتائج المكتسبة بهما لا تخلو من الشكِّ والريبة ، والخطأ والزلة ، وسوء الفهم

---

(١) وهو الإمبراطور المغولي جلال الدين أكبر (٩٦٣ ـ ١٠١٤هـ الموافق ١٥٥٦ ـ ١٦٠٥م) ابن الملك نصير الدين همايون بن ظهير الدين بابر مؤسس الحكومة المغولية في الهند ، ليراجع للتفصيل كتاب العلامة الندوي « الإمام السرهندي » الجزء الثالث من سلسلة رجال الفكر والدعوة في الإسلام ـ طبع دار القلم ـ الكويت ، ودار ابن كثير ـ دمشق .

والتحريف ، ولا يمكن إدراك المعرفة الصحيحة لذات الله ـ سبحانه ـ وصفاته إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين ، وإذا كان العقل وراء طور الحس ؛ فإن النبوة وراء طور العقل ، ولا سبيل إلى معرفة الطريقة الصحيحة لتقديس الله ، وتعظيمه ، وتحميده ، وتمجيده إلا النبوة ، وتعاليم الأنبياء وأخبارهم(١) .

وقد وقع حكماء اليونان بهذا الصدد في زلاتٍ خطيرة ، وأخطاءٍ فاحشة ، فكما أنَّ العقل الخالص ، والعقل المجرد ليس له وجود ، كذلك الكشف الخالص ، والكشف المجرد ـ الذي يكون بعيداً عن التأثيرات الخارجية ، والأهواء الداخلية ـ صعب الوجود ، بل عديم الوجود ، وقد زلت أقدام الإشراقيين ، وأصحاب صفاء النفس وسمو الروح ، ووقعوا فريسة الأوهام والجهالات ، كما زلَّ زعماء العقل ، والفلسفة ، فالعقل والإشراق لا يغنيان في الحصول على اليقين والوصول إلى الله شيئاً ، والبعثة المحمدية ، والرسالة النبوية هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذات الله ـ تعالى شأنه ـ وصفاته وأحكامه .

وأعلن الإمام السَّرهندي في قوةٍ ووضوحٍ وفي رسائل كثيرةٍ : أنَّ من المستحيل تجرُّد العقل وخلوصه ، وأنَّ العقلَ ـ كالحواسِّ الأخرى ـ يتأثر بالعقائد ، والمسلمات الداخلية ، والعوامل والتأثيرات الخارجية ، وأنَّ كثيراً من استنتاجاته ، وأحكامه تتلوَّن بالألوان الخارجية التي يكون وجودها في داخله ، أو باطنه ، وتمتزج بها(٢) وأثبت أنَّ العقل قاصرٌ عن أن يكون حجَّةً

(١) ليرجع للتفصيل والاطلاع على نصوص الموضوع « رسائل الإمام السَّرهندي » أو كتاب العلامة الندوي : « الإمام السَّرهندي » طبع دار القلم ـ الكويت .

(٢) ومن عجيب المصادفات والدلائل على صحَّة نتيجة البحث العلمي الخالص : أنَّ الفيلسوف الألماني إمانويل كانت (Emanuel Kant, 1724-1804) بدأ ـ بعد قرابة قرنين من وفاة الإمام السَّرهندي ـ البحث الموضوعي ، والتحقيق العلمي في صلاحية العقل لتجرده ، وتحرره عن البيئة ، وعوامل الوراثة ، والعادات والمعتقدات ، والحكم الفاصل في قضية ما من القضايا ، إنَّه عيَّن حدود العقل ودوائره في شجاعةٍ ووضوحٍ ، واستبعد وجود العقل الخالص ، ونشر كتابه الخطير « نقد العقل الخالص » (Critique of Pure Reason) عام (١٧٨١م) ، الذي أحدث هزةً واضطراباً في الأوساط الفكرية والفلسفية ، وكما يقول الدكتور إقبال : « إنَّه هدم ـ =

وبرهاناً ، وأنَّ بعثة الأنبياء هي الحجَّة البالغة ، ولا سبيل إلى التزكية الحقيقية بدون الاهتداء بهذه البعثة .

« ولكنَّ الحقيقة ، ولبَّ لباب العلم والعرفان أنَّه لا طريق إلى هذه الحقائق والمعارف ، إلا طريق الأنبياء ، الذين شرَّفهم الله - تعالى - بمنصب النبوة والرسالة ، ورزقهم أكبر قسط من العلم بذاته وصفاته ، وبملكوت السموات والأرض ، وأخبرهم - مباشرةً ومن دون وسائط - بما يرضاه وما لا يرضاه ، وبما يأمره وما ينهى عنه ، وجعلهم وسائط بينه وبين خلقه ، وأن نبوتهم ورسائلهم منَّةٌ عظيمةٌ على هذه الدنيا ونعمةٌ ظاهرة ، وما يعطونه من علمٍ جليل بذات الله وصفاته العليا ، وأسمائه الحسنى - من غير مشقَّة ، وبدون مقابل - لا يمكن إحراز ذرةٍ من ذراته بالتأملات الفلسفية ، والبحث والاستدلال ، على مدى آلاف السنين ، وبالمجاهدات الشاقَّة ، وتصفية النفس ، والمراقبة والتفكير لأعوامٍ وسنين .

وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكنَّ أكثر الناس لا يشكرون »[1] .

وبالجملة فإنَّ هذا العمل التجديدي - وهو التركيز على أنَّ النبوة هي الوسيلة الوحيدة للمعرفة الصحيحة والهداية الكاملة - له قيمته العلمية والعملية الكبيرة والأثر البعيد في الحياة في كلِّ زمانٍ ومكان ، وإن كان العصر عصر الفلسفات وما بعد الطبعيات ، أو كان عصر المدنيات والتنظيمات والسياسيات ، كما هو الشأن الآن ، فإنَّ الحياة لا تصلح ، ولا تستقيم إلا في ضوء الهداية السماوية ، والتعليمات النبوية ، وصدق الله العظيم :

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥ و١٦] .

* * *

= أعمال المتنورين ، وحوَّلها إلى كومةٍ من تراب » The Reconstruction of Religios Thaught In Islam.

(١) الفكرة مقتبسةٌ من رسائل الإمام السَّرهندي .

صلاح الدين الأيوبي البطل الناصر لدين الله

إن الملك الناصر السلطان صلاح الدين الأيوبي معجزة من معجزات الإسلام الخالدة ، وآية من آيات الله الباهرة ، وهو حقيق بأن يعكف على دراسة سيرته وأخباره أجيال المسلمين وعلماؤهم وحكامهم ، وأصحاب الفتوة والفروسية والطموح والغيرة الإسلامية ، والبطولة الإنسانية في كل زمان ومكان وفي كل عصر ومصر ، وأن يتنافس المؤلفون ، وحملة الأقلام والمحققون ، في التأليف في سيرته ومكارمه وبطولاته ، وأن تشكل له مجامع علمية ، تنقطع إلى التحقيق والتأليف في هذا الموضوع ـ ولكن مع الأسف الشديد ـ لم يوف المسلمون والعرب حق هذا الرجل ، ولم ينصفوا هذا الموضوع ، ولا يزال ما ألف في بعض اللغات الأوروبية ـ وخاصة في اللغة الإنجليزية ـ يفوق كثيراً ما ألف في اللغات الإسلامية ، ولا يزال هذا الموضوع ينتظر مؤلفاً عالي الهمة ، طويل الدراسة ، دقيق النظر ، رحب الصدر ، واسع الأناة ، يتفرغ للتأليف في هذا الموضوع .

ولعل هذا العصر الذي نعيشه هو أشد حاجة ، وأكثر طلباً لإبراز محاسنه ، وتحديد مكانته في تاريخ الجهاد والتجديد الإسلامي من كل عصر مضى ، ولا يزال هاتف الغيب يهيب بهذه الأمة على لسان خير الدين الزركلي ويقول :

هاتي صلاح الدين ثـــانيـــة فينـــا
وجـــددي حطيـــن أو شبـــه حطينـــا

وكان قد سبق لي فصل مفرد في سيرة صلاح الدين ضممته إلى فصول كتاب ألفته في لغة المسلمين ، واللغة العلمية في الهند التي تسمى : بـ « أردو » أسميته « تاريخ الدعوة والعزيمة » . ولما ألح علي الأخ العزيز الأستاذ « محمد علي دولة » صاحب (دار القلم) في دمشق بتأليف كتاب في سيرة هذا الرجل العظيم ، وكنت ولا أزال أعتبر تحقيق هذا الغرض عملاً

أتقرب به إلى الله ، وأرجو به الخير الكثير لقادة البلاد الإسلامية ، والشباب المثقف الطموح ، ولكن ذلك يحتاج إلى فراغ خاطر ، وسعة من الوقت ، وكثرة مراجعة لما كتب عنه في عصره وبعد عصره ، في اللغات الإسلامية والأجنبية ، ولعله لا يتسنى لي إلا بعد مدة طويلة ، فاقترحت على أحد إخواني الشباب وهو الأستاذ محمد أجمل الإصلاحي الندوي أن ينقل هذا الفصل إلى اللغة العربية ، فإنه على وجازته قد احتوى على معلومات مفيدة ، ويعطي صورة إجمالية ، ولكن مشرقة وضاءة لهذا القائد الإسلامي الكبير ، ويشوق إلى دراسة أوسع ، ومعرفة أكمل (وإن لم يصبها وابل فطل) وقام بالترجمة والنقل في مدة قريبة ، وأحسن وأجاد ، وتناولت عمله بتحرير خفيف وتعديل يسير .

وها هو بين يدي القراء ، عسى أن يجدوا فيه ما يقوي ثقتهم بخلود هذه الرسالة ، ونجابة هذه الأمة ، وقوة الإيمان ، وما يصنع من عجائب ، ويعرفون به الفارق الكبير بين هذا القائد الإسلامي الذي تربى في أحضان الإيمان ، وتخرج في مدرسة محمد عليه الصلاة والسلام ، وبين القادة الذين ارتضعوا بلبان الثقافة الأجنبية ، ونشؤوا في أحضان النفعية والمادية ، وأبرزتهم إلى ميدان القيادة الأغراض الشخصية ، والمطامح السياسية ، وهو الفارق الذي ميز تمييزاً كبيراً بين النتائج والآثار ، ولا يزال العالم الإسلامي يكتوي بناره ، ويدفع قيمته .

الغارات الصليبية وخطر جديد على الإسلام :

بينما كانت حركة العلم والدرس والتأليف قائمة على قدم وساق في العواصم الإسلامية وفي العالم الإسلامي ، وكان عدد من كبار المشايخ والمربين منقطعين إلى تزكية النفوس وإصلاح القلوب ، كان العالم الإسلامي كله مهدداً بخطر كبير ، وقد أصبح وجود المسلمين حتى الإسلام نفسه معرضاً للفناء ، وكانت أوروبة النصرانية منذ قديم الزمان تنطوي على حقد دفين للإسلام ، وتضمر له ولأهله عداء توارثته كابراً عن كابر وجيلاً بعد جيل ، فقد استولى المسلمون على مملكتها الشرقية التي كانت تحكمها الدولة البيزنطية ،

وكانت جميع مقدساتها ومولد المسيح نفسه تحت حضانتهم وسيطرتهم ، وكان يكفي هذا الوضع لاستفزاز أوروبة وإثارة دافعها لأخذ الثأر من المسلمين ، ولكن لم تكن لتتجاسر على الطموح إلى الشام وفلسطين أو أي بلد إسلامي ، لوجود دول إسلامية قوية وهجماتها المتواصلة على الدولة النصرانية المجاورة ، إلا أنها لما رأت سقوط الدولة السلجوقية وضعف الثغور الشمالية للمملكة الإسلامية تشجعت وتطلعت ، وساعدها حظها ، فوجدت في هذا العصر خطيباً مصقعاً ، وواعظاً دينياً مثيراً ، في شخصية الراهب « بطرس » الذي ألهب مشاعر الناس في العالم النصراني بخطبه الرنانة المجلجلة ، وأحدث فيه موجة عارمة من الجنون الديني ، من أقصاه إلى أقصاه ، وتضافرت كذلك عوامل أخرى عديدة ، سياسية واقتصادية ، قد حببت الغارات الصليبية إلى الناس[١] .

على كل حال ، فأول جيش للصليبيين توجه إلى الشام سنة ٤٩٠هـ ، واستولى في ظرف عامين على مدن « الرها » و « أنطاكية » وأكثر قلاعها ، وأخذوا « بيت المقدس »[٢] في سنة ٤٩٢هـ (١٠٩٩م) وفي بضع سنين أصبح جزء كبير من فلسطين وساحل بلاد الشام تحت أيدي الصليبيين مثل « طرطوس » و « عكة » و « طرابلس الشرق » ، و « صيدا » . ويصور المؤرخ الإنجليزي الكبير « ستينلي لين بول » دخول الجيوش الصليبية في البلد الإسلامي ، فيقول :

« توغل الجيش الصليبي في البلاد كما يشق أحد خشباً منخوراً بالياً ، وخيل للناس ولو لبرهة من الزمان أن الصليبيين سوف يحطمون جذع دوحة الإسلام ويكسرونها تكسيراً »[٣] .

ويتحدث مؤرخ آخر ـ وهو من كبار المؤرخين النصارى ـ عما فعل الصليبيون الغاشمون الألداء بالمسلمين المنكوبين العزل الأبرياء عند دخول

---

(١) راجع دائرة المعارف البريطانية ، مقال CRUSADES .
(٢) المراد ببيت المقدس : مدينة القدس .
(٣) « السلطان صلاح الدين الأيوبي » .

بيت المقدس ، وقد تملكتهم نشوة الانتصار ، فيقول :

« لما دخل المغيرون الصليبيون بيت المقدس منتصرين وضعوا السيف في الناس ، وأحدثوا مجزرة هائلة ، حتى يقال : إن خيل الصليبيين الذين ذهبوا إلى مسجد عمر راكبين كانت غارقة في الدماء إلى الركب ، وأخذوا بأرجل الأطفال وضربوهم عرض الحائط ، أو دوروهم ورموا بهم من سور البلد ، وأحرقوا اليهود كلهم في هيكلهم وهم أحياء » .

« وفي اليوم الثاني تعمدوا مثل هذه الاضطهادات التي ترتعد لها الفرائص على مستوى أكبر وأوسع ، ولم يزل يناشدهم « تينكرد » ما قد جعله في ذمته من تأمين ثلاثمئة من الأسرى ، ولكن لم يستجيبوا لصياحه ، ولم يراعوا ضمانه ، وقتلوهم عن آخرهم . ثم حدثت مجزرة مريعة ، فقتلت الرجال والنساء والأطفال تقتيلاً ، ومثلت بأجسادهم تمثيلاً ، وقد تكدست قطع أجسادهم وأعضائهم المزرقة ، ولما انتهت هذه المجزرة الهائلة أمروا الأسرى العرب فغسلوا شوارع المدينة المتلطخة بالدماء »[١] .

وكانت نكسة « بيت المقدس » تؤذن بضعف المملكة الإسلامية وسقوطها ، ويقظة العالم النصراني ونهوض قوته الناشئة ، وكان نذير خطر في العالم الإسلامي ، فقد تأسست أربع ولايات نصرانية في الشام وفلسطين (القدس ، وأنطاكية ، وطرابلس ، والرها) ، وكانت تشكل خطراً قائماً وسيفاً مسلولًا على حرية مركز الإسلام ، وقد توسعت أطماع النصارى إلى أن هم « ريجي نالد » والي كرك بالزحف على الحرمين الشريفين ، وتفوه بما يتضمن الاعتداء على مدفن الرسول ﷺ ، وأبدى نواياه الخبيثة .

والحق أن هذه المرحلة كانت أدق وأحرج مرحلة في التاريخ الإسلامي بعد وقعة الردة ، فكان وجود الإسلام معرضاً للخطر ، وقد تحتم على العالم الإسلامي أن يخوض معركة مصيرية حاسمة .

وفي أوائل القرن السادس الهجري كان العالم الإسلامي قد وقع فريسة

---

(١) « دائرة المعارف البريطانية » ج : ٦ ، ص : ٦٢٧ .

لاضطراب متزايد وفوضى عامة ، فكان خلفاء ملك شاه السلجوقي متحاربين فيما بينهم ، وأما الخلفاء العباسيون فقد نقلوا سيادتهم إلى الأتراك قبل زمن بعيد ، ولم يوجد في العالم الإسلامي سلطان عملاق أو قائد عبقري يحمل من صلاحية القيادة وتدبير الأمر ، ما يجمع به البقية الباقية من طاقات العالم الإسلامي ، ويضمها تحت لواء واحد ، ويقاوم الخطر الذي يتعرض له من الشمال والغرب ، وصدق « ستينلي لين بول » إذ يقول :

« كان هذا العصر عصر لبس واضطراب ، وقد تملكهم العجب لما يرونه من احتضار مثل الدولة السلجوقية المرهوبة الجانب ، المترامية الأطراف ، وظلت هذه المرحلة ـ مرحلة الفوضى والاضطراب ـ إلى أن برزت طاقات جديدة ووجهت إلى جهة واحدة ، وبالجملة فكان هذا العصر الانتقالي أطيب فرصة لأوروبة لشن الغارة على المملكة الإسلامية وتثبيت انتصارها على وجه الدهر »[١] .

أتابك عماد الدين الزنكي :

وبينما كان العالم الإسلامي يعاني من هذا الصراع العنيف ، واليأس المتزايد ، والكمد القاتل ، إذ تألق على أفقه نجم جديد ، ووجد العالم الإسلامي ـ كما تعوده في أدق مراحله وأحرج مآزقه ـ قائداً جديداً ، ومجاهداً عبقرياً وبطلاً مغواراً ، وبرزت طاقة جديدة عملاقة من حيث لم يكن في حسبان أحد ـ يقول « لين بول » :

« تحتم على المسلمين أن يعلنوا الجهاد ، ويقذفوا بقائد عصامي ، يثبت جراءته وبسالته وصلاحيته الحربية ، وينجب أمراء الترك وولاة الدولة طائفة من الأبطال المؤمنين المحاربين ، ليؤاخذوا الصليبيين على ما اقترفوه من عدوان واضطهاد للمسلمين الأبرياء ، وها قد برز القائد العصامي : عماد الدين الزنكي »[٢] .

---

(١) السلطان صلاح الدين ، ص٢١ .
(٢) السلطان صلاح الدين ، ص ٢٩ .

وكان عماد الدين ربيب نعمة السلاجقة ، ومعلم أبناء السلطان محمود السلجوقي ، وقد ولاه السلطان على الموصل ، فجند عماد الدين قواته في العراق والشام ، وشن الغارة على « الرها » التي كانت أقوى وأحصن منطقة في ولاية الصليبيين ، ولها أهميتها الاستراتيجية الخاصة ، فاستولى الزنكي عليها في السادس من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩هـ (٢٣ كانون الأول ١١٤٤م) وكان انتصاره « فتح الفتوح » كما يعبر عنه المؤرخون العرب ، وكانت هذه المدينة طاقة كبيرة للمملكة اللاتينية ، وهكذا تحصن وادي الفرات من خطر الصليبيين . وبعد مدة قليلة من هذا الانتصار الباهر استشهد عماد الدين بيد عبد في سنة ٥٤١هـ (١١٤٦م) ، ولكن باب الجهاد الرائع والكفاح المتواصل للصليبيين الذي فتحه قبل شهادته لم يزل مفتوحاً على مصراعيه بفضل جهود ابنه الكبير الملك العادل نور الدين الزنكي الذي فاق في ذلك والده العظيم .

الملك العادل نور الدين الزنكي :

واليوم كان نور الدين محمود سلطان الشام ، وكان يرى نفسه مأموراً من الله تعالى لدحر الصليبيين واستعادة بيت المقدس ، ويعتبر ذلك أكبر عبادة وأعظم وسيلة للتقرب إلى الله ، وقد استقرت مهابته في جميع الولايات الصليبية لغاراته المتواصلة عليها .

وقد فتح في سنة ٥٥٩هـ قلعة « حارم » التي كانت من قلاع الثغور الشمالية المنيعة ، وكان في جملة الأسرى صاحب « أنطاكية » والقمص صاحب « طرابلس » والدوك مقدم « الروم » و « ابن جوسلين » وغيرهم من كبار قوادهم ، والصليبيون في هذه المعركة بين قتلى يزيد عددهم على عشرة آلاف قتيل ، وبين أسرى لا يأتي عليهم العد والإحصاء . وفي نفس السنة فتح السلطان قلعة « بانياس »[١] ، وكذلك استولى على مصر فحاصر الصليبيين من جهتين . يقول « لين بول » :

« إن سيطرة قائد نور الدين ـ سلطان الشام ـ (صلاح الدين) على النيل قد

---

(١) « الكامل » لابن الأثير (١١/ ١٢٤) .

جعلت دولة القدس الصليبية بين شقي العصا ، فكانت تحت وطأة شديدة من ذلك ، ولم يكن الذي يضغطها من كلا الجانبين إلا جيشين لنفس القوة ، وبفضل استيلائهم على مرفأي دمياط والإسكندرية أخذوا أسطولًا بحرياً ، فقطعوا صلة الصليبيين المصريين بأوروبة[١] .

على كل حال فقد طرد السلطان الصليبيين ـ إلى حد كبير ـ من جميع أنحاء منطقة فلسطين ، ولكن أحسن أعماله ، وأغلى آماله ، وأحلى أمانيه ، كانت تتركز في استعادة بيت المقدس من أيدي الصليبيين المحتلين ، ومن يدري ! فإن القدر المحتوم قد كتب هذه الكرامة لقائد جيوشه السلطان صلاح الدين الأيوبي ، الذي هو بنفسه خليق بأن يعتبر من حسنات نور الدين ومآثره . وتوفي السلطان نور الدين في سنة ٥٦٩هـ (١١٧٤م) في مرض الخناق بالغاً من عمره ستاً وخمسين سنة ، وقد طرق نعي السلطان ـ كما يصف المؤرخ الإنجليزي ـ آذان المسلمين كصاعقة سقطت عليهم من السماء[٢] .

أخلاق نور الدين ومحامده :

وقد بالغ جميع المؤرخين المسلمين في الثناء على السلطان نور الدين محمود ، ووصفوه بالتقوى والأمانة والعدل وحسن الإدارة ، وكرم النفس ورقة الخلق ، وولوعه بالجهاد في سبيل الله ، فالسلطان ـ كاسمه ـ ممدوح عند جميعهم ومحمود .

يقول ابن الجوزي ـ وهو من معاصري السلطان ـ في تاريخه « المنتظم » :

« جاهد الثغور ، وانتزع من أيدي الكفار نيفاً وخمسين مدينة ، وكانت سيرته أصلح من كثير من الولاة ، والطرق في أيامه آمنة ، والمحامد له كثيرة ، وكان يتدين بطاعة الخلافة ، وترك المكوس قبل موته ، وكان يميل إلى التواضع ، ومحبة العلماء وأهل الدين »[٣] .

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص ٨٩ .
(٢) « السلطان صلاح الدين » : ص ١١٥ .
(٣) « المنتظم » لابن الجوزي .

ويصفه ابن خلكان ـ وهو معروف بأمانته التاريخية ، ودقته وتحفظه في اختيار الكلمات ، واقتصاده في الوصف والثناء ـ فيقول :

« كان ملكاً عادلًا زاهداً عابداً ورعاً متمسكاً بالشريعة ، مائلاً إلى الخير ، مجاهداً في سبيل الله تعالى ، كثير الصدقات ، بنى المدارس بجميع بلاد الشام الكبار . . وله من المناقب والمآثر والمفاخر ما يستغرق الوصف »[١] .

ويتحدث عنه صاحب تاريخ الكامل ـ وهو المؤرخ الكبير ابن الأثير الجزري ـ فيقول ما لا مزيد عليه لمستزيد :

« وقد طالعت سير الملوك المتقدمين ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن من سيرته ، ولا أكثر تحرياً منه في العدل »[٢] .

وكان ابن الأثير عندما توفي السلطان في الرابعة عشرة من سنه ، ولذلك فقوله جدير بأن يكون أكثر دقة وصحة ، وأن ينم عن اطلاع ومعرفة .

فيقول ابن الأثير وهو يصف سيرة السلطان ويشيد بأخلاقه :

« كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في الذي يخصه من ملك كان له ، قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ، ولقد شكت إليه زوجته من الضائقة فأعطاها ثلاث دكاكين في حمص كانت له ، يحصل له منها في السنة نحو العشرين ديناراً ، فلما استقلتها قال : ليس لي إلا هذا ، وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين ، لا أخونهم فيه ، ولا أخوض نار جهنم لأجلك !! وكان يصلي كثيراً بالليل ، وله فيه أوراد حسنة »[٣] .

« وكان عارفاً بالفقه على مذهب أبي حنيفة ليس عنده فيه تعصب ، وسمع الحديث وأسمعه طالباً للأجر » .

« وأما عدله فإنه لم يترك في بلاده ـ على سعتها ـ مكساً ولا عشراً ، بل

---

(١) « وفيات الأعيان » ترجمة محمود نور الدين الزنكي .
(٢) « الكامل » : ١١/ ١٦٤ .
(٣) « الكامل » : ١١/ ١٦٣ .

أطلقها جميعها في مصر والشام والجزيرة والموصل ، وكان يعظم الشريعة ، ويقف عند أحكامها ، وأحضره إنسان إلى مجلس الحكم ، فمضى معه إليه ، وأرسل إلى القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري يقول : قد جئت محاكماً فاسلك معي ما تسلك مع الخصوم ، وظهر الحق له فوهبه الخصم الذي أحضره ، وقال : أردت أن أترك له ما يدعيه ، إنما خفت أن يكون الباعث لي على ذلك الكبر والأنفة من الحضور إلى مجلس الشريعة ، فحضرت ، ثم وهبته ما يدعيه . وبنى دار العدل في بلاده ، وكان يجلس هو والقاضي فيها ينصف المظلوم ـ ولو أنه يهودي ـ من الظلم ـ ولو أنه ولده أو أكبر أمير عنده ـ » .

« وأما شجاعته فإليها النهاية ، وكان في الحرب يأخذ قوسين وتركشين ليقاتل بها ، فقال له القطب النشاوي الفقيه : بالله عليك ، لا تخاطر بنفسك وبالإسلام والمسلمين ، فإن أصبت في معركة لا يبقى من المسلمين أحد إلا أخذه السيف ، فقال له نور الدين : ومن محمود حتى يقال له هذا ؟! من قبلي من حفظ البلاد والإسلام ؟ ذلك الله الذي لا إله إلا هو » !!

« . . . وكان يكرم العلماء وأهل الدين ، ويعظمهم ويعطيهم ، ويقوم إليهم ، ويجلسهم معه ، وينبسط معهم ، ولا يرد لهم قولًا ، ويكاتبهم بخط يده ، وكان وقوراً مهيباً مع تواضعه . وبالجملة فحسناته كثيرة ، ومناقبه غزيرة ، لا يحتملها هذا الكتاب[١] .

ولوعه بالجهاد وقوة إيمانه بالله تعالى :

وكان جل هم السلطان نور الدين منصرفاً إلى الجهاد ومحاربة الصليبيين ، فالجهاد شغله الشاغل وهوايته المحببة ، وكان يتمتع في ذلك بقسط وافر من الإيمان واليقين ، والعزم والإخلاص ، والتوكل على الله تعالى ، وبعد الهمة والثقة بالنفس .

وفي سنة ٥٥٨هـ انهزم نور الدين في معركة حصن الأكراد ـ وهي الوقعة

---

(١) « الكامل » : ١١/١١٩ .

المعروفة بالبقيعة ـ لمباغتة الصليبيين ، وكان نازلًا بالقرب من حمص ، وكان بينه وبين العدو عدة فراسخ ، فقال للسلطان بعض من كان بمحض النصيحة له : ليس من الرأي أن يقيم السلطان هاهنا والعدو المنتصر جد قريب ، فأسكته السلطان وقال :

« إذا كان معي ألف فارس لقيتهم ولا أبالي بهم ، ووالله لا أستظل بسقف حتى آخذ بثأري وثأر الإسلام » .

وفرق السلطان الأموال في المعسكر ، وأغدق عليهم العطايا ، وقال له بعضهم : إن لك في بلادك إدرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء وغيرهم ، فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان أصلح ، فغضب السلطان من ذلك ، وقال :

« والله إني لا أرجو النصر إلَّا بأولئك ، فقد جاء في الحديث الشريف « إنما ترزقون وتنتصرون بضعفائكم » كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم على فراشي بسهام لا تخطىء ، وأصرفها إلى من لا يقاتل عني إلَّا إذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطىء ، وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال ، كيف يحل لي أن أعطيه غيرهم ؟! »[١] .

وأخذ السلطان نور الدين في الاستعداد والتأهب للجهاد والأخذ بثأره من الصليبيين الذين هزموه ، وأغدق على العسكر الأموال والمنح والسلاح ، وأرسل إلى أصحاب الأطراف وولاة الأمر في البلاد الإسلامية ، يحرضهم على الجهاد في سبيل الله والانضمام إلى لوائه ، وكاتب زهادها وعبادها ، وصلحاءها وقراءها ، يذكرهم ما لقي المسلمون من الفرنج ، يستمد منهم الدعاء ، ويطلب أن يحثوا المسلمين على مكافحة الغزاة ، فقعد كل واحد من أولئك ومعه أصحابه وأتباعه ، وهم يقرؤون كتب نور الدين ويدعون له ويبكون[٢] ، حتى ثار الناس للجهاد في سبيل الله ، ونفروا خفافاً وثقالًا ،

---

(١) « الكامل » : ١١/١١٩ .

(٢) « الكامل » : ١١/١٢٢ ـ ١٢٣ .

وجاء العدو بخيله ورجله ، وحده وحديده ، وملوكه وفرسانه ، وقسوسه ورهبانه ، فحمى الوطيس ، وشبت حرب شعواء ، وأوفى السلطان بنذره ، فهزم قوى العدو الموحدة هزيمة نكراء ، واستولى على قلعة حارم ، وانتزعها من أيدي الأعداء .

ومما يدل على قوة إيمان نور الدين ويقينه ، أن أخاه « نصرة الدين » أمير « أميران » أصابه سهم في محاصرة قلعة « بانياس » فأذهب إحدى عينيه ، فلما رآه نور الدين قال له :

« لو كشف لك عن الأجر الذي أعد لك لتمنيت ذهاب الأخرى ! »[١] .

شخصية السلطان صلاح الدين :

إن شخصية صلاح الدين الأيوبي معجزة كبيرة من معجزات الإسلام ، وآية باهرة من آيات صلاحيته وخلوده .

نشأ السلطان جندياً عريقاً وسليل أسرة كردية متوسطة ، ولم يكن في حساب أحد ـ قبل فتح مصر وحروبه ضد الصليبيين ـ أن هذا الشاب الكردي اليافع سيكون فاتحاً لبيت المقدس ، وحارساً لأمانة الإسلام ، وذائداً عن حوزة العالم الإسلامي ومعيداً لمجد المسلمين وعزهم وكرامتهم ، ولم يكن يحسب أحد أنه قدرت له السعادة التي يغار عليها كبار الصلحاء والعباد وكرام المحاتد والأعراق ، وأنه يقوم بالعمل الجليل الذي يدخل على روح النبي العلِيَّة الغبطة والسرور .

يقول « لين بول » :

« ظل صلاح الدين مثلاً لامعاً للتقوى الذي يتسم بالصمت والهدوء الروحي ، ويجنب الطبائع الكريمة من التلوث بالشوائب الخلقية ، ولما يأت ببادرة تدل على أنه سوف يصبح رجلاً عملاقاً، أو بطلاً من أبطال التاريخ »[٢] .

---

(١) « الكامل » : ١١/ ١٢٣ .
(٢) « السلطان صلاح الدين » : ص : ٦٣ .

ولكن لما قيضه الله لهذا العمل العظيم هيأ له الأسباب من لدنه ، فألح عليه ولي نعمته السلطان نور الدين ، وبعثه إلى مصر .

يقول القاضي بهاء الدين بن شداد أمين سر السلطان صلاح الدين في كتابه « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » :

« ولقد قال لي السلطان ـ قدس الله روحه ـ : كنت أكره الناس للخروج في هذه الواقعة (يعني الخروج إلى مصر) وما خرجت مع عمي[١] باختياري ، وهذا معنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ ﴾ [البقرة : ٢١٦] »[٢] .

تحول في حياة صلاح الدين :

لما وصل صلاح الدين إلى مصر ، وخلا له الجو ، وأخذ بزمام الحكم ، وقع تحول عظيم في حياته ، وتمكن في قلبه أن الله تعالى قدر له عملاً جليلاً لا يلائم الترف والرفاهية ونعومة الحياة ، يقول القاضي ابن شداد :

« وملك الرجال ، وهانت عنده الدنيا ، فملكها وشكر نعمة الله عليه ، فتاب عما مضى ، وأعرض عن أسباب اللهو وتقمص بلباس الجد والاجتهاد ، وما عاد عنه ولا ازداد إلا جداً إلى أن توفاه الله إلى رحمته »[٣] .

ويؤيد ذلك ما يقوله المؤرخ النصراني :

« وأما بالنسبة لنفسه فإن صلاح الدين شدد في أمور حياته ، وبالغ في زهده وورعه اللذين كان يمتاز بهما من قبل أيضاً ، وصرف نفسه عن رغد العيش ، وتجافي عن ملذات الحياة ، وضيق على نفسه في جميع شؤونه ، ليكون قدوة لرفاقه وزملائه ، واستنفد جهده لتأسيس دولة إسلامية جبارة تتمتع بقدرة كاملة على إجلاء الكفار عن المملكة الإسلامية كلياً ، فقال مرة : إن الله لما أعطاني مصر حسبت أنه قدر لي فلسطين أيضاً . ومنذ ذلك الوقت لم تزل

---

(١) هو أسد الدين شيركوه الذي أرسله نور الدين محمود للاستيلاء على مصر .

(٢) « النوادر السلطانية » : ص ٣١ .

(٣) « النوادر السلطانية » : ص ٣٢ ـ ٣٣ .

غاية حياته انتصاراً للإسلام ، وإظهاراً له على الدين كله ، وقد عاهد الله على محاربة الكفار والجهاد في سبيل الله إلى آخر حياته »[١] .

شغفه بالجهاد وحنينه إلى الشهادة :

كان السلطان صلاح الدين ولوعاً بالجهاد ، كثير الاهتمام به ، فكان الجهاد عبادته ، ولذة عيشه ، وغذاء روحه ، وطيب نفسه ، يقول القاضي بهاء الدين بن شداد :

« ولقد كان حبه للجهاد والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلا فيه، ولا نظر إلا في آلته ، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ، ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه ، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ، ووطنه وسكنه وسائر بلاده ، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح ميمنة وميسرة . . وكان الرجل إذا أراد أن يتقرب إليه يحثه على الجهاد . . ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الأرفاد لصدق وبر في يمينه »[٢] .

ويصور ابن شداد حنين السلطان إلى الجهاد وغرامه به وتوجعه للإسلام ، فيقول :

« وجرى في ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين ، وهو كالوالدة الثكلى يجول بفرسه من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد ، ولقد بلغنا أن الملك العادل حمل بنفسه في ذلك اليوم مرتين ، والسلطان يطوف بين الأطلاب بنفسه ، وينادي يا للإسلام ، وعيناه تذرفان بالدموع »[٣] .

« ولم يطعم (في معركة عكة) طعاماً البتة ، وإنما شرب أقداح مشروب ، كان يشير بها الطبيب »[٣] .

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص ١٨٦ .
(٢) « النوادر السلطانية » : ص ١٦ ـ ١٧ .
(٣) نفس المصدر : ص : ١٥٥ .

« ولقد أخبرني بعض أطبائه أنه بقي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد ، لم يتناول من الغذاء إلا شيئاً يسيراً لفرط اهتمامه »[١] .

معركة حطين الحاسمة :

وأخيراً ، وبعد حرب ومناوشات كثيرة ، وقعت المعركة التي كانت معركة مصيرية حاسمة عبر التاريخ ، قضت على دولة فلسطين الصليبية ، وقررت مصير الصليبيين المحتوم ، وهي معركة حطين التي اندلعت يوم السبت ١٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ (٤ تموز ١١٨٧م) وفتح الله للمسلمين فيها فتحاً مبيناً .

يصور « لين بول » ميدان الحرب فيقول :

« أسر كبار قواد الجيش الصليبي وفرسانه ، وكان من جملة الأسرى « كائي » صاحب « القدس » وأخوه « جاتيلان » و « ريجي نالد » صاحب « جنين » و « الهمغري » صاحب « تنين » ومقدما الداوية والاسبتار ، وغيرهم من رجالات الصليبيين ومقدميهم ، وكان سائر فرسان الصليبيين الفلسطينيين وشجعانهم تحت حراسة المسلمين ، ولم يسلم من الجند الصليبي فارس أو راجل إلا أسره المسلمون ، وقد رأوا أن شخصاً واحداً من المسلمين يذهب بثلاثين صليبياً ، أخذهم وحده ، مشدودين بطنب[٢] من أطناب خيمته ، وقد تكدست أجساد القتلى بين الصلبان والأعضاء المقطعة ، وتراكمت كالصفائح والأحجار بعضها فوق بعض ، وأما هاماتهم المقطوعة فكانت متناثرة كثمار البطيخ في مزرعة »[٣] .

« وظل هذا الميدان الذي وقعت فيه معركة حطين الطاحنة ـ والذي يقال فيه أنه قتل فيه ثلاثون ألف رجل معروفاً لديهم ، وبعد عام من وقوع المعركة كانت أكوام العظام البيضاء تلوح للناس من بعيد ، وكان ما تركه

---

(١) نفس المصدر : ص : ٩٠ .

(٢) الطنب : الحبل الذي يربط بالوتد .

(٣) « السلطان صلاح الدين » : ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

الوحوش من قطع الأشلاء منتشراً هنا وهناك »[١] .

غيرة السلطان الدينية :

سيسجل قلم التاريخ بإعجاب وإكبار ـ مع هذا الفتح المبين ـ تلك القصة التي تدل على قوة إيمان السلطان صلاح الدين وغيرته الدينية المتأججة ، فلندع المؤرخ الإنجليزي يتحفنا بحكاية هذه القصة التي تشعل مجامر القلوب ، وتشحنها بالإيمان واليقين ، وتثير كامن الغيرة في نفوس المسلمين :

« أمر السلطان صلاح الدين فضربت خيمته في ميدان القتال ، واستحضر الأسرى ، فجيء بالملك « كائي » و « ريجي نالد » و « جاتيلان » صاحب « جنين » كليهما ، فأجلس السلطان الملك بجانبه ، ولما رآه في أشد حال من العطش قدم إليه قدحاً من الماء المثلج فشرب منه الملك ، وناول بعضه « ريجي نالد » « حاكم كرك » فكره السلطان ذلك وقال للترجمان : قل للملك : أنت الذي سقيته وأما أنا فما سقيته ، وإنا إذا قدمنا إلى أحد رغيفاً أو ملحاً أمن بذلك ، ولن يفلت هذا الرجل من غضبي ونقمتي ، ثم لم يلبث أن قام إلى « ريجي نالد » الذي كان لم يزل واقفاً على رجليه منذ دخل الخيمة ، فقال له السلطان : ألا إني نذرت قتلك مرتين : مرة حينما كنت أردت الزحف على الحرمين الشريفين ، وأخرى حينما هجمت على قافلة الحجاج وغدرت بهم ، وها أنا ذا أنتصر لمحمد ﷺ على غدرك واستخفافك بالمقدسات ، قال ذلك وسل سيفه ، وضرب عنق « ريجي نالد » بيده وفاء لنذره[٢] ، وقضى الحرس على ما بقي فيه من رمق ، ولما رأى الملك « كائي » عاقبة صاحبه المريعة فزع واستشعر الخوف ، ولم يشك أنه سيثنّي به ، فطيب السلطان نفسه ، وقال : ليس من عادة الملوك أن يقتلوا الملوك ،

---

(١) نفس المصدر : ص ١٨٩ .

(٢) وأضاف إلى ذلك ابن شداد : « أنه لما غدر بالقافلة ناشدوا الله والصلح الذي بينه وبين المسلمين ، فقال : « قولوا لمحمد كي يخلصكم » فلما بلغه رحمه الله ذلك عنه نذر أنه متى أظفره الله به قتله بنفسه » ص : ١٢٧ .

وأما هذا فإنه نقض العهد مرة بعد مرة فجرى ما جرى »[١] .

ويقول ابن شداد :

« واستحضر البرنس « أرناط » وأوقفه على ما قال ، وقال له : ها أنا أنتصر لمحمد عليه الصلاة والسلام ، ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل »[٢] .

فتح بيت المقدس :

وبعد معركة حطين سرعان ما حانت الساعة المباركة التي كان يتلهف لها السلطان ، ويسمو إليها ويهفو منذ أعوام طوال ، وهو فتح بيت المقدس ، يقول القاضي ابن شداد :

« وكان رحمه الله عنده من القدس أمر عظيم لا تحمله الجبال »[٣] .

وفي ٢٧ رجب من نفس السنة دخل السلطان بيت المقدس ، وبعد تسعين سنة عادت هذه القبلة الأولى ـ التي صلّى فيها محمد ﷺ بالأنبياء عليهم السلام في ليلة الإسراء ـ إلى حضانة الإسلام ووصاية المسلمين ، وكان من حسن الصدفة أن السلطان دخل بيت المقدس في نفس التاريخ الذي أكرم الله فيه النبي ﷺ بالمعراج .

يقول ابن شداد :

« وكان فتحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق عظيم ، ومن أرباب الحرف والطرق ، وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل وشاع قصده القدس ، قصده العلماء من مصر ومن الشام ، بحيث لم يتخلف معروف من الحضور ، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير ، وخطب فيه ، وصليت فيه الجمعة يوم فتحه ، وحط الصليب الذي

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص ١٨٨ .
(٢) « النوادر السلطانية » : ص ٦٤ .
(٣) « النوادر السلطانية » : ص ٢١٣ .

كان على قبة الصخرة وكان شكلاً عظيماً ، ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر »[١] .

وكان السلطان نور الدين الزنكي رحمه الله قد صنع منبر بيت المقدس ، واهتم به اهتماماً كبيراً ، وتحمل في سبيله تكاليف باهظة ، رجاء أن يعيد الله بيت المقدس إلى أيدي المسلمين فينصب المنبر فيه ، فطلبه السلطان صلاح الدين ، ونصبه في المسجد الأقصى[٢] .

من روائع « الخُلق العظيم » :

وأخلق بنا أن نسمع بلسان المؤرخ النصراني ما ضرب به السلطان صلاح الدين الأيوبي في ذلك اليوم من أروع مثل للخلق الإسلامي العظيم ، من كرم الطبع ، ورحابة الصدر ، وسماحة النفس :

« لم يظهر في يوم من الأيام من مروءة السلطان وبعد همته وكرم طبعه ما ظهر يوم تسلم المسلمون مقاليد « بيت المقدس » فتولى جنده وعماله أمر البلد ، وكانوا يمنعون الناس عن أي عدوان وعسف ، فلم يصب أحداً من الصليبيين أذى ، وكان حرس الملك يحرسون جميع شوارع البلد الخارجية ، وكان على باب داؤد أحد العمال الأمناء ، ليأذن لكل من أدى الفدية من أهالي البلد بالخروج منه »[٣] .

ويذكر المؤرخ بعد ذلك أن أخا السلطان (العادل) والبطريق وباليان أطلقوا آلافاً من الأرقاء ، ثم يقول :

« ثم قال صلاح الدين لقواده : تصدق أخي عن نفسه ، وتصدق باليان والبطريق كل عن نفسه ، والآن أتصدق أنا عن نفسي ، فلم يلبث أن أمر جنده لينادوا في جميع طرقات البلد وأزقته بإطلاق سراح الشيوخ والضعفاء الذين لا يطيقون أداء الفدية فيذهبوا حيثما شاؤوا ، فبدؤوا يخرجون من باب

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ٦٦ .
(٢) راجع تاريخ أبي الفداء الحموي .
(٣) « السلطان صلاح الدين » .

« أليعازر » ، وما زالت تخرج جماعاتهم منذ طلوع الشمس إلى غروبها ، وذلك ما تصدق به صلاح الدين على فقراء ومساكين يتجوز عددهم الحصر .

وبالجملة فإن صلاح الدين حف هذه المدينة التي فتحها وانتزعها من أيدي الصليبيين بعطفه وكرمه ، ومروءته وسماحته ، مما يذكرنا بما فعله الصليبيون الأول يوم فتحوا « بيت المقدس » سنة ١٠٩٩م من أفاعيل الهمجية النادرة البشعة ، يوم مر « غودجر » و « تنكرد » بأسواق بيت المقدس وشوارعها فرآها مليئة بالأشلاء ، وكان الجرحى يئنون ويصرخون ويتألمون ويستغيثون ، وقد بلغت أنفسهم التراقي ولم يبق فيهم إلا الذماء[١] ، يوم أحرقوا المسلمين الأبرياء ، وعذبوهم بأبشع ألوان العذاب والتنكيل ، وقد لجأ عدد من المسلمين إلى سقوف القدس وأبراجه ، فرشقهم هؤلاء الصليبيون الغاشمون بسهامهم وأسقطوهم إلى الأرض ، وقد مزقت هذه المجزرة التي قاموا بها سرابيل كرامة العالم النصراني ، وسود ما اعتسفوه من جور وعدوان واضطهاد وآثام وجه هذا البلد الطاهر المقدس ، حيث ألقى المسيح دروس الحب والعطف وقال :

طوبى للراحمين العاطفين الذين تنزل عليهم رحمة الله وبركاته .

وقد تناسى هؤلاء الصليبيون كلام المسيح عندما كانوا يحولون هذه الأرض المقدسة إلى مذابح للمسلمين المنكوبين ، أفلم يكن من سعادة هؤلاء الصليبيين القساة أن صلاح الدين شملهم بعطفه ورحمته ؟! .

والرحمة من أعظم صفات الله ، فهي تاج العدل وجلاله ، فأينما استطاع العدل وحق له أن يقتل نفساً ، استطاعت الرحمة أن تنقذها وتحييها .

ولو لم يذكر الدهر من مكارم السلطان صلاح الدين وجلائل أعماله إلا أنه كيف استعاد « بيت المقدس » ، لكانت تكفي هذه المكرمة وحدها للدلالة على أنه لم يكن ـ في مروءته وشهامته وبعد همته وكرامته ـ وحيد عصره وفريد

---

(١) الذَّماء : بقية الروح في المذبوح وغيره .

دهره ، بل كان رجلاً وحيد العصور والأجيال كلها »[١] .

التيار الصليبي الجارف :

وللمرة الأخرى ثارت ثائرة أوروبة بعد فتح « بيت المقدس » وهزيمة « حطين » المخزية وفشل الصليبيين الذريع ، فتكالبت أوروبة بأسرها على بلد صغير مثل الشام بجنودها المجندة وملوكها الكبار وفرسانها البواسل وقوادها الشجعان ، مثل « قيصر » و « فريدريك » و « رتشرد قلب الأسد » وملوك إنجلترا وفرنسا وصقلية والنمسا وبوغندى وفلاندرز وأمرائها ، ولم يقم في وجههم إلا السلطان صلاح الدين وأقاربه وعدة من خلفائه ، ينافحون عن الإسلام ، ويحمون ذمار المسلمين ، ويقاتلون عن العالم الإسلامي كله .

الصلح وإنجاز العمل وإكماله :

وأخيراً ، تم الصلح بين الفريقين اللذين قد نالت منهما الحروب الدامية المتواصلة التي دامت خمسة أعوام نيلاً كبيراً في « الرملة » ، سنة ١١٩٢م ، وبقي « بيت المقدس » والمدن والقلاع التي فتحها المسلمون تحت أيديهم إلا ولاية « عكة » الصغيرة التي يحكمها الصليبيون ، وظل صلاح الدين سلطان سائر البلاد وصاحب الأمر والنهي فيها ، وتم على يده العمل الذي تولى مسؤولية إنجازه ، وبعبارة أصح : الذي قيضه الله له وفوضه إليه .

يتحدث المؤرخ النصراني عن انتصار السلطان ، وانتهاء سلسلة الحروب الصليبية المشؤومة ، فيقول :

« وضعت الحرب المقدسة أوزارها ، وخمدت نيران الحروب التي استغرقت خمسة أعوام متتابعات ، ولم يكن المسلمون يملكون قبل فتح حطين في تموز سنة ١١٨٧م بوصة من الأرض في غربي نهر الأردن ، وأما يوم جرت الهدنة برملة في أيلول ١١٩٢م فكان ما بين صور ويافا كله تحت أيدي المسلمين إلّا رقعة صغيرة على الساحل ، ولم يكن في الهدنة شيء يخجل

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص : ٢٠٢ ـ ٢٠٥ .

صلاح الدين البتة ، ولا شك أنه بقي معظم ما أخذه الصليبيون تحت يد الإفرنج ، ولكن النتيجة بالنسبة لهم كانت ضئيلة جداً إذا نظرنا إلى ما استهلكته الحروب من نفوسهم ونفائسهم فحسب ، ولم يستنجد « بطريق » روما ، إلا رفع سائر العالم النصراني سلاحه وخاض المهمة ، واستفرغ الجهود كل من « قيصر » و « فريدريك » وملوك إنجلترة وفرنسا وصقلية ، و « ليوبولد » صاحب النمسا و « ديوك » صاحب بوغندى ، و « كاونت » صاحب فلاندرز ، وملك « بيت المقدس » الصليبي وغيره من الصليبيين الفلسطينيين ، وكبار فرسان داويه والاسبتار ، ومات عدد من ملوك وقواد وأمراء كافة الأمم النصرانية ، عسى أن يملكوا بيت المقدس ويفلحوا في إنقاذ دولة « بيت المقدس » الصليبية التي قد أشرفت على الانهيار ، وقد تمنوا أن تورق دوحة آمالهم مرة أخرى ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ .

« هلك قيصر « فريدريك » في هذه الأثناء ، وارتحل ملوك إفرنجة وفرنسا إلى بلادهم ، وثوى في ثرى « بيت المقدس » أعز أصدقائهم وكبار أصحابهم وجلة أشرافهم ، ولم يزل « بيت المقدس » في يد صلاح الدين رغم أنوفهم ، اللهم إلا دويلة على ساحل « عكة » ، كان يحكمها ملكها الصليبي المزعوم » .

« وفي الحرب الصليبية الثالثة تداعى العالم النصراني وجند طاقاته وأجلب على صلاح الدين ، ولكنهم لقوا منه صخرة صماء استعصت على الرجال وأعياهم انصداعها ، وأما جنود السلطان فقد أنهكهم ما لم يزالوا يعانونه من جهد مرير ، وتعب متواصل ، وعناء رتيب ، وعمل خطير غير مأمون منذ أعوام وشهور طوال ، ولكنهم مع ذلك لم ينبسوا ببنت شفة في شكوى مما أصابهم ، ولم يعص أحد السلطان في الحضور عند طلبه وعرض نفسه في سبيل هذا العمل الصالح ، وربما يكون قد وقع شيء في قلوب ولاة الدولة الخاضعين للسلطان في الوديان النازحة لنهر دجلة لطلب السلطان الدائم للمدد ، ولكنهم على كل حال جاؤوا بجنودهم عند السلطان بكل حماس وإخلاص ، وقد حاربت أفواج الموصل في المعركة الأخيرة التي وقعت في « أرسوف » بشجاعة نادرة وحماسة منقطعة النظير ، ولم يزل السلطان في هذه

الحروب كلها على ثقة من جيوش مصر والعراق ، تمده وتعضده وتسانده كلما احتاج إليها ، وكذلك عززه الجنود الشمالية والمركزية لبلاد الشام دائماً ، فكان العرب والمصريون والأكراد والأتراك كلهم خدماً طائعين للسلطان ، والمسلمين ، والحق أنهم سارعوا إلى الحضور كلما طلبهم السلطان ، كأنهم خدم له فعلاً ، وقد جمعهم السلطان على اختلاف ألوانهم وسلالاتهم وعناصرهم وعلى ما كان بينهم من منافرات قبلية ، ومفاخرات ومخاصمات قومية ، كأن الجنود كلهم جسد واحد ، وكل منهم ينتمي إلى عسكر واحد ، ولا شك أن السلطان واجه مرة أو مرتين عقبات في سبيل جمعهم تحت لواء واحد ، وعاين في بعض الأحيان اختلافاً كبيراً في طبائعهم ، ومن هذه المواقف الدقيقة تمرد الجند في يافا ، ولكن مع ذلك ظلت هذه الجنود التي تنتمي إلى عناصر وأجيال شتى متحدة وخاضعة للسلطان إلى فصل الخريف سنة ١١٩٢م ، ومنذ أن طلبهم السلطان لأول مرة في سنة ١١٨٧م ، ظلت تجاهد في سبيل الله إلى نهاية الأمر ، وفي هذه الفترة كلها لم تخرج عليه ولاية من ولاياته ، ولم يتمرد أحد من قواده وعماله ، ولو أنهم ـ بحكم ما علق عليهم من الآمال الجسام نظراً إلى قوتهم وإخلاصهم ومصابرتهم ـ كان في وسعهم أن يهزموا القوى الأجنبية ويزلزلوا دعائمها ، مهما بلغت عقائدها وقياداتها من العز والصلابة والمنعة وصلاحية الدفاع والبقاء ، وإذا لم نجد عبر الفترة كلها إلا استثناء واحداً وهو تنصل أحد أقارب السلطان منه (وأصلح الأمر بالصفح عنه فيما بعد) عرفنا مدى ما كان يتمتع السلطان به من نفوذ عجيب في رعيته ، ومهابة غريبة تمكنت في قلوب الناس مع حب وتقدير له ، وكان لا يزال السلطان وحده يملك الأمر من جبال كردستان إلى صحراء نوبة بعد انتهاء المحن والشدائد التي جرتها الحروب المتواصلة أيضاً ، وهؤلاء ـ ملك كردستان و « كاثلين » صاحب أرمينية وسلطان قونية وقيصر قسطنطينية ـ كلهم يحبون من وراء الحدود أن يعتبرهم السلطان أنصاراً له وأحلافاً ، ولكن لم يطوق السلطان عنقه بمنة أحد من هؤلاء الأنصار و « الاتحاديين » فلم يساعدوه قط ، وإنما حضروا إليه ليهنئوه بما أحرزه من النجاح في الصراع الذي خاضه السلطان صلاح الدين وحده » .

« ولا يمكن أن يقال في أحد من قواد السلطان ـ الذي كان يستشيرهم ـ أنه استأثر بالأمر لدى السلطان : إلا ما كان في آخر حياته من أمر أخيه العادل ، نعم قد نظم السلطان مجلساً يشير عليه في أمور الحرب وغلب رأيه الخاطىء ـ في بعض الأحيان ـ على رأي السلطان مع صحته وسداده كما وقع في « صور » و « عكة » ولكن لا يمكن لأحد أن يدل على عضو من أعضاء هذا المجلس كان لرأيه في نفس السلطان تأثير أكثر من رأي غيره ، وإن إخوته وأبناءه وأبناء إخوته وزملاءه القدماء وعماله الجدد والقضاة العقلاء والوزراء المتحفظين والثقات الأوفياء والوعاظ المتعصبين والعلماء الكبار كلهم أجمعوا على الجهاد ، وساهموا فيه بالفعل ، ولم يألوا جهداً في النصح لمولاهم وتعزيزه ، كل حسب قوته وكفاءته ، وهل كان فيهم أحد ممن نسي أميرهم ومولاهم ؟! » .

« وهل كان في مثل الموقف الحرج والمأزق المتلاحم الذي يشوش الفكر ويشتت البال ويجهد النفس إلا قلب واحد غلاب تمكن من جميع القلوب ، وإلا إرادة واحدة جبارة قهرت سائر النفوس ، وكانت هذه الإرادة إرادة السلطان صلاح الدين وذلك القلب قلبه »[١] .

وفاة السلطان :

وبعد ما قام بواجبه المقدس أحسن قيام ، وحصن العالم الإسلامي من خطر الصليبيين ، استأثر الله بابن الإسلام البار في ٢٨ من صفر ٥٨٩هـ وهو في السابعة والخمسين من عمره[٢] .

ويتحدث القاضي ابن شداد عن وفاة السلطان ، فيقول :

« ولما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر ـ وهي الثانية عشرة من مرضه ـ اشتد مرضه وضعفت قوته ، ووقع في أوائل الأمر من أول الليل ، وحال بيننا وبينه النساء ، واستحضرت أنا والقاضي الفاضل تلك الليلة وابن

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص : ٣١٠ ـ ٣١٢ .

(٢) صرح ابن كثير أن السلطان ولد في سنة ٥٣٢هـ .

الزكي ، ولم يكن عادته الحضور في ذلك الوقت ، وحضر بيننا الملك الأفضل ، وأمر أن نبيت عنده ، فلم ير القاضي الفاضل ذلك رأياً ، فإن الناس كانوا في كل ليلة ينتظرون نزولنا من القلعة ، فخاف إن لم ننزل أن يقع الصوت في البلد ، وربما نهب الناس بعضهم بعضاً ، فرأى المصلحة في نزولنا ، واستحضار الشيخ أبي جعفر إمام « الكلاسة » ـ وهو رجل صالح ـ ليبيت بالقلعة ، حتى إذا احتضر رحمه الله بالليل حضر عنده وحال بينه وبين النساء ، وذكره الشهادة ، وذكره الله تعالى ، ففعل ونزلنا ، وكل منا يود فداءه بنفسه ، وبات في تلك الليلة ـ رحمة الله عليه ـ على حال المنتقلين إلى الله تعالى ، والشيخ أبو جعفر يقرأ عنده القرآن ، ويذكره الله تعالى ، وكان ذهنه غائباً من ليلة التاسع ، لا يكاد يفيق إلا في أحيان » .

« ولقد حكى لي لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى : ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ ﴾ [التوبة : ١٢٩] تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه » .

« وكانت وفاته بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسعة وثمانين وخمسمئة » .

« وكان يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين ، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لا يعلم إلا الله تعالى ، وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداءه بنفوسهم ، وما سمعت هذا الحديث إلا على ضرب من التجوز والترخص إلا في ذلك اليوم ، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالنفس »[١] .

ويقول ابن شداد :

« إن السلطان لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وجراماً واحداً ذهباً، ولم يخلف ملكاً ، ولا داراً ، ولا عقاراً، ولا بستاناً ، ولا قرية ، ولا مزرعة ، ولا شيئاً من أنواع الأملاك »[٢] .

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص : ٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

(٢) نفس المصدر : ص ٦ .

« وما أمكننا أن ندخل في تجهيزه ما قيمته حبة واحدة إلا بالقرض ، حتى في ثمن التبن الذي بلت به الطين . . . وجميع ما احتاج إليه من الثياب في تكفينه قد أحضره القاضي الفاضل من وجه حل عرفه »[١] .

السلطان الزاهد :

ويتحدث القاضي ابن شداد عن سيرة السلطان وخلاله وأخلاقه ومزاياه فيقول :

« وكان ـ رحمة الله عليه ـ حسن العقيدة ، كثير الذكر لله تعالى ، قد أخذ عقيدته على الدليل بواسطة البحث مع مشايخ أهل العلم وأكابر الفقهاء .

« وأما الصلاة فكان ـ رحمه الله تعالى ـ شديد المواظبة عليها بالجماعة ، حتى أنه ذكر يوماً أن له سنين ما صلى إلا جماعة ، وكان إن مرض يستدعي الإمام وحده ، ويكلف نفسه القيام ويصلي جماعة ، وكان يواظب على السنن الرواتب ، وكان له صلوات يصليها إذا استيقظ في الليل ، وإلا أتى بها قبل صلاة الصبح (على مذهب الشافعية) ، ولقد رأيته ـ قدس الله روحه ـ يصلي في مرضه الذي مات فيه قائماً ، وما ترك الصلاة إلا في الأيام الثلاثة التي تغيب فيها ذهنه » .

« وأما الزكاة فإنه مات ـ رحمه الله تعالى ـ ولم يحفظ ما تجب عليه به الزكاة ، وأما صدقة النفل ، فإنها استغرقت جميع ما ملكه من الأموال » . (ولم يخلف شيئاً من الأملاك كما نقلنا عن ابن شداد فيما سبق) .

« وأما صوم رمضان فإنه كان عليه من فوائت بسبب أمراض تواترت عليه في رمضانات متعددة ، وكان القاضي الفاضل قد تولى ثبت تلك الأيام . . . ومع كون الصوم لا يوافق مزاجه ألهمه الله تعالى الصوم وأقدره على ما قضاه من تلك الفوائت ، فكان يصوم وأنا أثبت الأيام التي يصومها ، لأن القاضي كان غائباً ، وكان الطبيب يلومه ، وهو لا يسمع ، ويقول :

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص ٢٥١ .

لا أعلم ما يكون ، فكأنه كان ملهماً ما يراد به رحمه الله تعالى » .

« وأما الحج فإنه كان لم يزل عازماً عليه ناوياً له في العام الذي توفي فيه ، فإنه صمم العزم عليه ، وأمر بالتأهب ، وعملنا الرفادة ، ولم يبق إلا المسير ، فاعتاق عن ذلك بسبب ضيق الوقت وخلو اليد عما يليق بأمثاله ، فأخر إلى العام المستقبل فقضى الله ما قضى » .

« وكان ـ رحمه الله تعالى ـ يحب سماع القرآن العظيم . . . وكان يستقرىء من يحرسه في الليل ـ وهو في برجه ـ الجزءين والثلاثة والأربعة وهو يسمع ، وكان ـ رحمه الله تعالى ـ خاشع القلب رقيقه ، غزير الدمعة إذا سمع القرآن ، يخشع قلبه وتدمع عينه في معظم أوقاته » .

« وكان ـ رحمه الله ـ شديد الرغبة في سماع الحديث ، ومتى سمع عن شيخ ذي رواية عالية وسماع كثير ، فإنه إن كان ممن يحضر عنده استحضره وسمع عليه ، فأسمع من يحضره في ذلك المكان من أولاده ومماليكه المختصين به ، وكان يأمر الناس بالجلوس عند سماع الحديث إجلالًا له ، وإن كان ذلك الشيخ ممن لا يطرق أبواب السلاطين ويتجافى عن الحضور في مجالسهم سعى إليه وسمع عليه ، وكان ـ رحمه الله ـ يحب أن يقرأ الحديث بنفسه ، وكان يستحضرني في خلوته ، ويحضر شيئاً من كتب الحديث ، ويقرؤها هو ، فإذا مر بحديث فيه عبرة رق قلبه ، ودمعت عينه » .

« وكان ـ رحمه الله ـ كثير التعظيم لشعائر الدين . . ولقد أمر صاحب حلب الملك الظاهر ـ أعز الله أنصاره ـ بقتل شاب يقال له : السهروردي ، قيل عنه إنه كان معانداً للشرائع مبطلاً » .

« وكان ـ قدس الله روحه ـ حسن الظن بالله ، كثير الاعتماد عليه ، عظيم الإنابة إليه ، ولقد شاهدت من آثار ذلك ما أحكيه ، وذلك أن الفرنج ـ خذلهم الله ـ كانوا نازلين ببيت نوبة ، وهو موضع قريب من القدس الشريف ـ حرسها الله تعالى ـ بينهما بعض مرحلة ، وكان السلطان بالقدس ، وقد أقام يزكا[1]

(١) اليزك : لفظ فارسي معناه طلائع الجيش .

على العدو محيطاً به ، وقد سير إليهم الجواسيس والمخبرين ، فتواصلت الأخبار بقوة عزمهم على الصعود إلى القدس ومحاصرته ، وتركيب القنابل عليه ، واشتدت مخافة المسلمين بسبب ذلك ، فاستحضر الأمراء وعرفهم ما قد دهم المسلمين من الشدة ، وشاورهم في الإقامة بالقدس ، فأتوا بمجاملة باطنها غير ظاهرها ، وأصر الجميع على أنه لا مصلحة في إقامته بنفسه ، فإنه مخاطرة بالإسلام ، وذكروا أنهم يقيمون هم ، ويخرج هو ـ رحمه الله ـ بطائفة من العسكر يكون حول العدو كما كان الحال بعكة ، ويكون هو ومن معه بصدد منع ميرتهم والتضييق عليهم ، ويكونون هم بصدد حفظ البلد والدفع عنه ، وانفصل مجلس المشورة على ذلك ، وهو مصر على أن يقيم هو بنفسه ، علماً منه أنه إن لم يقم أحد ، فلما انصرف الأمراء إلى بيوتهم جاء من عندهم من أخبر أنهم لا يقيمون إلا أن يقيم أخوه الملك العادل أو أحد أولاده ، حتى يكون هو الحاكم عليهم والذي يأتمرون بأمره ، فعلم أن هذه إشارة منهم إلى عدم الإقامة ، وضاق صدره ، وتقسم فكره ، واشتدت فكرته » .

« ولقد جلست في خدمته في تلك الليلة ـ وكانت ليلة الجمعة ـ من أول الليل إلى أن قارب الصبح ، وكان الزمان شتاء ، وليس معنا ثالث إلا الله ، ونحن نقسم أقساماً ، ونرتب على كل قسم بمقتضاه حتى أخذني الإشفاق عليه والخوف على مزاجه ، فإنه كان يغلب عليه اليبس ، فشفعت إليه حتى يأخذ مضجعه لعله ينام ساعة ، فقال ـ رحمه الله ـ : لعلك جاءك النوم ، ثم نهض ، فما وصلت إلى بيتي وأخذت لبعض شأني إلا وأذن المؤذن ، وطلع الصبح وكنت أصلي معه الصبح في معظم الأوقات ، فدخلت عليه وهو يمر الماء على أطرافه ، فقال : ما أخذني النوم أصلاً ، فقلت : قد علمت ، فقال : من أين ؟ فقلت : لأني ما نمت ، وما بقي وقت للنوم . ثم اشتغلنا بالصلاة ، وجلسنا على ما كنا عليه ، فقلت له : قد وقع لي واقع ، وأظنه مفيداً إن شاء الله تعالى ، فقال : وما هو ؟ فقلت له : الإخلاد إلى الله تعالى ، والإنابة إليه ، والاعتماد في كشف هذه الغمة عليه ، فقال : وكيف نصنع ؟ فقلت : اليوم الجمعة ، يغتسل المولى عند الرواح ويصلي على العادة بالأقصى موضع

مسرى النبي ﷺ ، ويقدم المولى التصدق بشيء خفيّ على يد من يثق به ، ويصلي المولى ركعتين بين الأذان والإقامة ويدعو الله في سجوده ، فقد ورد فيه حديث صحيح ، وتقول في باطنك : إلهي قد انقطعت أسبابي الأرضية في نصرة دينك ، ولم يبق إلا الإخلاد إليك والاعتصام بحبلك والاعتماد على فضلك ، أنت حسبي ونعم الوكيل ـ فإن الله أكرم من أن يخيب قصدك ، ففعل ذلك كله ، وصليت إلى جانبه على العادة ، وصلى ركعتين بين الأذان والإقامة ، ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر على شيبته ، ثم على سجادته ، ولا أسمع ما يقول ، فلم ينقض ذلك اليوم حتى وصلت رقعة من « عز الدين جرديك » ، وكان على اليزك يخبر فيها أن الفرنج مختبطون ، وقد ركب اليوم عسكرهم بأسره إلى الصحراء ووقفوا إلى قائم الظهيرة ، ثم عادوا إلى خيامهم ، وفي بكرة السبت جاءت رقعة ثانية تخبر عنه بمثل ذلك ، ووصل في أثناء النهار جاسوس أخبر أنهم اختلفوا . . ولما كانت بكرة الإثنين جاء البشير يخبر أنهم رحلوا عائدين إلى جهة الرملة »(١) .

مكارم الأخلاق :

وكان السلطان مع زهده وورعه ونقاء جيبه يتحلى بالعدل والعفو ، والحلم والجود ، والمروءة والكرم ، والصبر والصرامة ، والثبات والاستقامة ، وغيرها من مكارم الأخلاق ومحاسن الأوصاف ، يقول ابن شداد :

« وكان يجلس للعدل في كل يوم إثنين وخميس في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير وصغير ، وعجوز هرمة وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً ، على أنه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يرد قاصداً للحوادث والحكومات ، وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما في الليل أو النهار ، ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه ، ولم يرد قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة ، وهو

(١) « النوادر السلطانية » ص ٦ ـ ١٠ .

مع ذلك دائم الذكر والمواظبة على التلاوة رحمة الله عليه . . وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قضيته ، وكشف ظلامته واعتنى بقصته ، ولقد رأيته واستغاث إليه إنسان من أهل دمشق يقال له : ابن زهير ، على « تقي الدين » ابن أخيه ، فأنفذه إليه ليحضر إلى مجلس الحكم ، وكان « تقي الدين » من أعز الناس عليه وأعظمهم عنده ، ولكنه لم يحابه في الحق »[١] .

وكان السلطان ذا حلم أصيل وتؤدة ، وقد روى المؤرخون قصصاً من قوة احتماله ، وشدة حلمه ، وصبره على الأذى ، وإحسانه إلى من أساء إليه ، لو رويت عن أوساط الناس لكانت موضع الدهشة والاستغراب ، فكيف من ملك قاهر ، وسلطان قوي !! وقد طلب مرة ماءً للشرب ، وتأخر إحضاره فكرر الطلب ولم يحضر ، حتى اتفق ذلك خمس مرات ولم يحضر ، لم يزد على أن قال : إخواني إني أموت عطشاً ! فأحضر وشربه السلطان ، ولم يلم أحداً على تأخيره ، وأبل من مرض طال به ، ودخل الحمام ليستحم ، فوجد الماء شديد السخونة ، فطلب ماءً بارداً ، فأحضر الخادم الماء ، ووقع عليه الإناء الذي فيه ، ولم ينج من الموت إلا بلطف من الله ، فما زاد أن قال : إذا كنتم تنوون قتلي فأخبروني بذلك ، واعتذر الخادم وسكت السلطان ، وذكر القاضي ابن شداد أخباراً كثيرة من صفحه عن الأمراء ، وسعة صدره وحلمه[٢] .

وقد سجل القاضي بهاء الدين قصصاً عديدة للسلطان في عفوه وحلمه ، وصفحه عن أخطاء جنوده وزلات أصحابه[٣] .

وأما في جوده وسخائه : فكان السلطان رحمه الله ـ كما صرح به ابن شداد ـ : « ربما يهب الأقاليم ، وفتح « آمد » وطلبها منه ابن قره أرسلان فأعطاه إياها ، ورأيته قد اجتمع عنده جمع من الوفود بالقدس الشريف ، وكان قد عزم على التوجه إلى دمشق ، ولم يكن في الخزانة ما يعطي الوفود ، فلم أزل أخاطبه في معناهم حتى باع أشياء من بيت المال وفضضنا ثمنها عليهم ،

---

(١) « النوادر السلطانية » ص١١ .
(٢) راجع « النوادر السلطانية » ، وما ألف في أخباره .
(٣) « النوادر السلطانية » ص٢١ ـ ٢٤ .

ولم يفضل منه درهم واحد . . . وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً أن يفاجئهم مهم لعلمهم بأنه متى علم به أخرجه ، وسمعته في معرض حديث جرى يقول : يمكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب ، فكأنه أراد بذلك نفسه ـ رحمه الله تعالى ـ »[١] .

ويقول ابن شداد في موضع آخر :

« وكان السلطان كثير المروءة ، ندي اليد ، كثير الحياء ، مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف ، وكان يكرم الوافد عليه ، وإن كان كافراً . . . ولقد رأيته وقد دخل عليه صاحب « صيدا » بالناصرة فاحترمه وأكرمه ، وأكل معه الطعام ، ومع ذلك عرض عليه الإسلام ، فذكر له طرفاً من محاسنه وحثه عليه »[٢] .

وكان السلطان كريم النفس رقيق القلب ، يتوجع للمظلوم ويرثي له ، ويجبر مصابه ، يدل على هذا ما يحكي ابن شداد في كتابه فيقول :

« ولقد كنت راكباً في خدمته في بعض الأيام قبالة الإفرنج ، وقد وصل بعض اليزكية ، ومعه امرأة شديدة التخوف ، كثيرة البكاء متواترة الدق على صدرها ، فقال اليزكي : إن هذه خرجت من عند الإفرنج فسألت الحضور بين يديك ، وقد أتينا بها ، فأمر الترجمان أن يسألها عن قصتها ، فقالت : اللصوص المسلمون دخلوا البارحة إلى خيمتي وسرقوا ابنتي ، وبت البارحة أستغيث إلى بكرة النهار ، فقال لي المملوك : السلطان هو أرحم ، ونحن نخرجك إليه تطلبين ابنتك منه ، فأخرجوني إليك ، وما أعرف ابنتي إلا منك ، فرق لها ودمعت عينه ، وحركته مروءته ، وأمر من ذهب إلى سوق العسكر يسأل عن الصغيرة من اشتراها ويدفع له ثمنها ويحضرها ، وكان قد عرف قضيتها من بكرة يومه ، فما مضت ساعة حتى وصل الفارس والصغيرة على كتفه ، فما كان إلا أن وقع نظرها عليها ، فخرت إلى الأرض تعفر وجهها

(١) نفس المصدر : ص١٣ ـ ١٤ .
(٢) « النوادر السلطانية » : ص٢٤ .

بالتراب ، والناس يبكون على ما نالها ، وهي ترفع طرفها إلى السماء ولا نعلم ما تقول ، فسلمت ابنتها إليها وحملت حتى أعيدت إلى عسكرهم »[١] .

ويقول ابن شداد :

« إنه ما أحضر بين يديه يتيم إلا ترحم على تخلفه وجبر قلبه ، وأعطاه وجبر مصابه ، وإن كان له من أهله كبير يعتمد سلمه إليه ، وإلا أبقى له من الخير ما يكفي حاجته وسلمه إلى من يعتني بتربيته ويكفلها ، وكان لا يرى شيخاً إلا يرق له ويعطيه ويحسن إليه[٢] » .

خلال الفتوة والفروسية :

ويدل على صبره واستقامته في الشدائد والأهوال ما حكى عنه القاضي بهاء الدين ، فقال : إنه رآه بمرج عكة « وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه ، بحيث لا يستطيع الجلوس ، وإنما يكون منكباً على جانبه إن كان بالخيمة ، وامتنع من مد الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس ، وكان يأمر أن يفرق على الناس ، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو ، وقد رتب الناس ميمنة وميسرة وقلباً بغية القتال ، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة المغرب يطوف على الأطلاب ، صابراً على شدة الألم وقوة ضربان الدماميل ، وأنا أتعجب من ذلك فيقول : إذا ركبت يزول عني ألمها حتى أنزل !! وهذه عناية ربانية »[٣] .

ولم يزل يطارد العدو في معركة ـ وهو في حالة المرض ـ إلى أن دخل الليل فضربت له خيمة لطيفة ، يقول القاضي ابن شداد :

« وبتنا تلك الليلة أجمع ، أنا والطبيب نمرضه ونشاغله ، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى ، حتى لاح الصباح ، ثم ضرب البوق وركب هو وركبت

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص٢٦ .
(٢) « النوادر السلطانية » : ص٢٨ .
(٣) نفس المصدر : ص١٨ .

العساكر ، وأحدقت بالعدو ، ورحل العدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر ، وضايقهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة ، وفي ذلك اليوم قدم أولاده بين يديه احتساباً وجميع من حضر منهم ، ولم يزل يبعث من عنده حتى لم يبق عنده إلا أنا والطبيب . . وبقي ـ رحمه الله ـ في مرضه والعساكر على ظهور الخيل قبالة العدو إلى آخر النهار ، ثم أمرهم أن يبيتوا على مثل ما باتوا عليه بارحتهم ، وعدنا إلى منزلنا في الليلة الماضية »[١] .

وكان السلطان من « عظماء الشجعان » يضرب به المثل في الشجاعة ، وقوة النفس ، وشدة الجأش ، ومن ذلك ما يروي ابن شداد ، فيقول :

« وكان لا بد له من أن يطوف حول العدو في كل يوم مرة أو مرتين . . . وكان رحمه الله تعالى ـ إذا اشتد الحرب ـ يطوف بين الصفين ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، ويرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها ، وكان يشارف العدو ويحاوره ـ رحمه الله ـ ، ولقد قرىء عليه جزءان من الحديث بين الصفين ، وذلك أني قلت له : قد سمع الحديث في جميع المواطن الشريفة ، ولم ينقل أنه سمع بين الصفين ، فإن رأى المولى أن يؤثر عنه ذلك كان حسناً ، فأذن في ذلك فأحضر جزء كما أحضر من له به سماع ، فقرىء عليه ، ونحن على ظهور الدواب بين الصفين ، نمشي تارة ونقف أخرى »[٢] .

« وما رأيته استكثر العدو أصلاً ولا استعظم أمرهم قط »[٣] .

« وقد حارب في بعض الأحيان عدواً يبلغ عدده إلى خمسمئة ألف أو ستمئة ألف ، فنصره الله على عدوه ، فقتل وأسر خلقاً كثيراً منهم » .

« ولقد وصل في ليلة واحدة نيف وسبعون مركباً على عكة ـ وأنا أعدها ـ

(١) « النوادر السلطانية » : ص١٩ ـ ٢٠ .
(٢) « النوادر السلطانية » : ص١٦٥ .
(٣) نفس المصدر : ص١٥ .

من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس وهو لا يزداد إلا قوة نفس »[١] .

« ولقد انهزم المسلمون في يوم المصاف الأكبر بمرج عكة ، حتى القلب ورجاله ، ووقع الكؤوس والعلم ، وهو ـ رضي الله عنه ـ ثابت القدم في نفر يسير حتى انحاز إلى الجبل ، يجمع الناس ويردهم ويخجلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى نصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ، ولم يزل رحمه الله مصابراً لهم ، وهم في العدة الوافرة »[٢] .

ويدل على بعد همة السلطان ، وقوة إرادته وصلابة عزمه وتحمسه لدينه ، ما يحكي ابن شداد أن السلطان قال له ذات يوم : « أما أحكي لك شيئاً في نفسي ؟ إنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل ، قسمت البلاد وأوصيت وودعت ، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم واتبعتهم فيها حتى لا أبقي على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت »[٣] .

علم السلطان وفضله :

وكان السلطان عالماً فاضلاً نسابة . يقول ابن شداد : « إنه كان حافظاً لأنساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بسيرهم وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيلهم ، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث كان يستفيد محاضره منه ما لا يسمع من غيره »[٤] .

وذكر بعض المؤرخين أنه كان حافظاً لحماسة أبي تمام بتمامها[٥] .

ويتحدث « لين بول » عن أوائل حياته ، فيقول :

« وكان ميله الطبعي إلى علوم الدين ، فكان يسمع الأحاديث من علماء

---

(١) « النوادر السلطانية » : ص١٥ .
(٢) نفس المصدر : ص١٥ ـ ١٦ .
(٣) « النوادر السلطانية » : ص١٧ .
(٤) نفس المصدر : ص٢٧ .
(٥) « البداية والنهاية » لابن كثير ج ٣ ، ص٥ .

عصره ، ويعكف على البحث عن دلائلها ورواتها والنقاش حول مسائل الفقه وتفسير آيات القرآن ، وفضلاً على ذلك ، فكان أحب شيء إلى نفسه أن يدعم مذهب أهل السنة والجماعة بحجج دامغة ودلائل قوية ثابتة »[١] .

انقراض الدولة الفاطمية ومكرمة أخرى للسلطان :

وكانت سيطرة صلاح الدين على مصر نقطة انقراض دولة العبيديين[٢] المعروفة بـ« الفاطمية » التي ظلت تجول وتصول في البلاد الإسلامية طوال قرنين وثمانية وستين عاماً ، وأثرت في ثقافة جزء كبير من العالم الإسلامي وأخلاقه وحضارته تأثيراً كبيراً وكان عصرهم مليئاً بالعجائب العقائدية ، والأحكام الغريبة ، والقوانين المضحكة ، نقدم بعض نماذجها نقلاً عن كتاب (الخطط والآثار) للمقريزي :

« أمر في المواريث بالرد على ذوي الأرحام ، وأن لا يرث مع البنت أخ ولا أخت ولا عم ولا جد ، ولا ابن أخ ولا ابن عم ، ولا يرث مع الولد الذكر أو الأنثى إلا الزوج أو الزوجة والأبوان والجدة ، ولا يرث مع الأم إلا من يرث مع الولد » .

واعتبر الخروج من هذا القانون عداوة لفاطمة رضي الله عنها .

« وصار صوم شهر رمضان والفطر على حساب لهم . . . وانقطع طلب الهلال من مصر » .

« وفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمئة أمر العزيز بن المعز بقطع صلاة التراويح من جميع البلاد المصرية » ، « وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة

---

(١) « السلطان صلاح الدين » : ص٢٦٢ .

(٢) أجمع محققو الأنساب أن بني عبيد لا ينتمون إلى أهل البيت النبوي بصلة ، وإنما ينتمون إلى رجل اسمه عبيد ، كان مجوسياً ، أو يهودياً ، وقد استوعب الموضوع القاضي أبو بكر محمد بن الطيب في كتابه : « الكشف عن أسرار الباطنية » ، والقاضي عبد الجبار في كتابه : « تثبيت دلائل النبوة » ، والمقدسي في كتابه : « كشف ما كان عليه بنو عبيد » .

ضرب رجل بمصر ، وطيف به في المدينة من أجل أنه وجد عنده كتاب « الموطأ » لمالك بن أنس رحمه الله »[١] .

« وفي ٣٩٣هـ قبض على ثلاثة عشر رجلاً ، وضربوا وشهروا على الجمال ، وحبسوا ثلاثة أيام من أجل أنهم صلوا صلاة الضحى » .

« وفي ٣٩٥هـ قرىء سجل آخر فيه منع الناس من أكل الملوخية التي كانت محببة لمعاوية بن أبي سفيان ، ومنعهم من أكل البقلة المسماة بالجرجير المنسوبة لعائشة رضي الله عنها » .

« وكتب في صفر من هذه السنة على سائر المساجد ، وعلى الجامع العتيق بمصر من ظاهره وباطنه من جميع جوانبه ، وعلى أبواب الحوانيت والحجر وعلى المقابر والصحراء : سب السلف ولعنهم ، ونقش ذلك ولون بالأصباغ والذهب »[٢] .

« شرب الخمر ورخص فيه للناس وفي سماع الغناء وشرب الفقاع ، وأكل الملوخية وجميع الأسماك ، فأقبل الناس على اللهو ، وتفاقم الأمر في شدة البلاء ، وصاح الناس بالظاهر : الجوع الجوع ! يا أمير المؤمنين لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك فالله الله في أمرنا »[٣] .

« وفي ٤٢٤هـ ركب ولي العهد من القاهرة إلى مصر وقد زينت الطرقات ، فكان إذا مر بقوم قبلوا له الأرض . . . وبويع بالخلافة ، وعمره يومئذ سبع سنين »[٤] .

وكان حكم السلطان صلاح الدين نهاية هذا العصر المضحك الغريب ، وفاتحة عهد جديد ، بدأت تندرس فيه معالم الشيعة والرفض من مصر ، وازدهرت السنة وانتشرت ، وأسست المدارس والمعاهد التي كان يدرس فيها

(١) « الخطط والآثار » : ج ١/ص ٣٤٠ .
(٢) « الخطط والآثار » : ٢/ ٣٤١ .
(٣) « الخطط والآثار » : ٢/ ٣٥٤ .
(٤) « الخطط والآثار » : ١/ ٣٥٥ .

علماء السنة علوم الشريعة الإسلامية ، وأخذت تتضاءل رواسب عهد العبيديين ، حتى غابت واختفت ، وقد أصبح مذهب الإسماعيلية ـ الذي ظل في مصر كدين رسمي طيلة ثلاثة قرون ـ غريباً في وطنه ، وطريداً في مركزه ، وشريداً في معقله .

« واختفى مذهب الشيعة والإسماعيلية والإمامية حتى فقد من أرض مصر كلها »[١] .

وكان عصر حكم العبيديين عصراً ابتلي فيه الإسلام ابتلاءً عظيماً ، ومني فيه بمحنة كبيرة ، انتهكوا فيه محارم الله ، وتلاعبوا بالشريعة الإسلامية ، ونالوا من السنة وعقائد الإسلام ، فكان العلماء وأهل السنة مقهورين ومستضعفين ، منخفضي الرؤوس أذلاء ، ليس لهم حرمة ولا قيمة ، ولا شوكة ولا سلطان ، وأما الطغاة والأوباش والأوغاد والأجلاف فألقي حبلهم على غاربهم ، يعيثون في الأرض فساداً ، وقد استفحل أمرهم وتفاقم شرُّهم .

ويتحدث العلامة المقدسي عن هذا العصر في كتابه « الروضتين في أخبار الدولتين » ، فيقول :

« وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها ، وذلك من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومئتين إلى سنة سبع وستين وخمسمئة . وفي أيامهم كثر أعداء أهل السنة ، واستحكم أمرهم ، ووضعوا المكوس على الناس ، واقتدى بهم غيرهم ، وأفسدوا عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام ، كالنصيرية والدرزية والحشيشية ـ نوع منهم ـ وتمكن دعاتهم منهم ـ لضعف عقولهم وجهلهم ـ ما لم يتمكنوا من غيرهم ، وأخذت الفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة إلى أن منَّ الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكي ، وتقدمه مثل صلاح الدين ، فاستردوا البلاد ، وأزالوا هذه الدولة عن رقاب العباد »[٢] .

---

(١) « الخطط والآثار » : ١/ ٣٥٥ .

(٢) كتاب « الروضتين في أخبار الدولتين » : ١/ ٢٠١ .

وكان من الطبيعي أن يفرح أهل السنة والمؤمنون الصادقون بهذه الثورة في الحكم ، التي كانت مقدمة لثورة في الدين والأخلاق ، ويعرب العلامة المقدسي ـ الذي ولد قبل تسعة وعشرين عاماً من هذه الثورة ، وشاهد ما أعقبها من آثار وتقلبات ـ عما أفعم قلبه من غبطة وفرح كبير ، فيقول : « انقرضت تلك الدولة وزالت عن الإسلام بمصر بانقراضها الذلة »[1] .

وقد حدث العلامة الحافظ ابن القيم في كتابه « الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة » عن انتشار الباطنية وعواقبه ثم يذكر انقراض هذه الدولة بأيدي نور الدين وصلاح الدين بعبارة تتدفق بالقوة والحماس :

« ثم خمدت دعوة هؤلاء في المشرق ، وظهرت من المغرب قليلاً قليلاً ، حتى استفحلت وتمكنت ، واستولى أهلها على كثير من بلاد المغرب ، ثم أخذوا يطؤون البلاد حتى وصلوا إلى بلاد مصر ، فملكوها ، وبنوا بها القاهرة ، وأقاموا على هذه الدعوة مصرحين بها هم وولاتهم وقضاتهم ، وفي زمانهم صنفت رسائل إخوان الصفا والإشارات والشفا وكتب ابن سينا ، فإنه قال : كان أبي من أهل الدعوة الحاكمية ، وعطلت في زمانهم السنة وكتبها والآثار جملة إلا في الخفية ، وشعار هذه الدعوة تقديم العقل على الوحي ، واستولوا على بلاد المغرب ، ومصر والشام والحجاز ، واستولوا على العراق ، وأهل السنة فيهم كأهل الذمة من المسلمين ، بل كان لأهل الذمة من الأمان والجاه والعز عندهم ما ليس لأهل السنة ! فكم أغمد من سيوفهم في أعناق العلماء ، وكم مات في سجونهم من ورثة الأنبياء ، حتى استنقذ الله الإسلام والمسلمين من أيديهم في أيام نور الدين وصلاح الدين ، فأبل الإسلام من علته ، بعد ما وطن نفسه على العزاء ، وانتعش بعد طول الخمول حتى استبشر أهل الأرض والسماء ، وأبدر هلاله بعد أن دخل في المحاق ، وثابت إليه روحه بعد أن بلغت التراق ، وقيل من راق ، واستنقذ

(١) كتاب « الروضتين في أخبار الدولتين » : ١/ ٢٠١ .

الله بعبده وجنوده بيت المقدس من أيدي عبدة الصليب ، وأخذ كل من أنصار الله ورسوله من نصرة دينه بنصيب »[١] .

والكتب التي تؤرخ هذا العصر تحدثنا أن هذا النبأ السار تلقى ترحيباً بالغاً من العالم الإسلامي بوجه عام والشام والعراق بوجه خاص ، وكاد يطير المسلمون كلهم فرحاً وسروراً .

وبالجملة فإن صلاح الدين بينما هو ـ بالوقوف في وجه الغزاة الصليبيين الطامعين ـ قد أنقذ العالم الإسلامي من الرق السياسي والفوضى الخلقية والثقافية ، وأنجاه من براثن الزاحفين من الغرب ، إذا هو ـ بالقضاء على الدولة الفاطمية العبيدية ـ سد أبواب الفساد الذي قد أخذ يستشري ويشيع الباطنية والإسماعيلية لا في مصر فحسب ، بل في العالم الإسلامي كله ، وتمخض عن الفوضى الفكرية والتدهور العقائدي ، والتفسخ الخلقي الذي ظلت الأمة الإسلامية المنكوبة فريستها طيلة ثلاثة قرون .

إن التاريخ الإسلامي المجيد لن ينسى هذين العملين اللذين قام بهما السلطان صلاح الدين الأيوبي ، ولن يتخلى أحد المسلمين في أي عصر ومصر من منة هذا المجاهد الكردي الباسل المغوار .

* * *

(١) « الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة » : ١/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤ .

الإمام السَّرهندي ومنهجه في الإصلاح والتربية[١]

اختار الله للدَّعوة الإسلامية في الهند أصحاب قلوبٍ رقيقة ؛ لأنَّ الشعب الهندي هو رقيق الشعور ، قوي العاطفة ، يفعل فيه الحبُّ والحنان ما لا يفعله المنطق والبرهان ، فاختار الله للدَّعوة الإسلامية في الهند ، أصحاب قلوبٍ لينةٍ خفاقةٍ ، وعيونٍ دامعةٍ فيَّاضةٍ ، هؤلاء الذين كانت عيونهم تدمع لكلِّ مفجوعٍ منكوب ، وكانوا يؤوون كلَّ طريدٍ وشريد ، ويلجئون كلَّ من أقصته الأسرة ، وطردته القرية .

كان الفرق بين البرهمي وغير البرهمي أكبر من الفرق بين الإنسان والحيوان ، إنَّ الكتب التي تناولت هذا الموضوع ، (النظام الطبقي والاجتماعي في الهند) كثيرةٌ[٢] ، ثم كان غير البراهمة طبقات ، ثم هنالك سيدات مات أزواجهن فكن يحرقن أنفسهن مع أزواجهن ، وكان ذلك من العادات التي تفرَّدت بها الهند .

فكان أولئك الربانيون يلجئونهم في ملاجئهم العلمية والروحية ، ويطعمونهم معهم ، ويجلسونهم على مائدةٍ واحدةٍ ، ما كان هنالك من المألوف أن يؤاكل إنسان إنساناً ، ولا يزال هذا في الهند ، إذا سافرتم في القطار ترون صديقين من غير المسلمين يتحدثان ، ويتلاطفان ، فإذا حضر الطعام صرف هذا وجهه إلى الغرب ، وهذا وجهه إلى الشرق ، بدأ يأكل هذا ، وبدأ يأكل ذلك ، كأنه لا لقاء بينهما ، فهؤلاء الدعاة والمربون كانوا يعاملون أولئك اللاجئين معاملة أولادٍ ، وكانوا يجلسونهم على مائدةٍ واحدةٍ ،

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها السادس ، المجلد الواحد والثلاثون ، عام ١٩٨٦م .

(٢) ليراجع للتفصيل كتاب العلامة الندوي « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » و « السيرة النبوية » . طبع دار ابن كثير ، دمشق .

ويفضِّلونهم على أنفسهم ، وأولادهم ، وبذلك انتشر الإسلام انتشاراً هائلاً في هذه البلاد التي تشبه قارة .

وكانوا مع هذا الزهد والابتعاد عن قبول الصِّلات الملوكية ، يشرفون على الحكومة ، ويراقبونها من بعد ، كالنار يصطلي بها الإنسان ، ويستدفىء بها ولا يمسها فيحرقه ، وكان ذلك إلهاماً من الله تعالى .

أنا أومن بأنَّ الداعية المخلص ، لا يكون داعيةً إلا إذا كان ملهماً مؤيداً من الله ، فكانوا يراقبون الدولة ، ويراقبون اتجاهاتها ، وميولها ، ويرون هل المجتمع الإسلامي إلى خيرٍ أم إلى شرٍّ ، وإلى صلاحٍ أم إلى فساد ، وهل هناك اتجاهٌ موافقٌ للإسلام أم معارضٌ للإسلام ؟ فإذا كان هناك اتجاه معارضٌ للإسلام جرُّوا الحبل من بعيدٍ ، وباحتياطٍ ، وأشاروا على الملك بما هو صالحٌ للعباد والبلاد ، وبما فيه تأييدٌ للدين ، وتقوية للمسلمين ، وقد تكون لهم يدٌ خفيَّةٌ في اختيار ملكٍ ، أو عزلٍ ونصب .

فإذا سنحت لهم فرصةٌ لكلمةِ حقٍّ عند سلطان جائرٍ ، كانوا من أفصح الناس ، وأشجعهم ، أحكي لكم قصةً واحدةً :

إنَّ محمد تغلق عرف في تاريخ الهند بالجبروت والطغيان ـ بل بالجنون والهوس ـ ويسمَّى في تاريخ الهند « السلطان العاقل المجنون » إنَّه كان رجلاً علاَّمة ، وهو أول ملك من ملوك الهند اطلع على مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ، وأعجب بها ، وإنَّه كان في آخر القرن الثامن ، وكان شديد الإنكار على المنكرات والبدع ، وقد عسكر مرَّةً بقرب عالم رباني اسمه الشيخ قطب الدين منور ، وجاء العلماء والشيوخ يسلِّمون عليه ، ولزم الشيخ بيته ، فلم يأته ، وغضب الملك ، وطلبه إلى دهلي عاصمة البلاد . ولما حضر البلاط ، ودخل الديوان رأى الأمراء ، والوزراء ، والحكام ، ورجال البلاط واقفين سماطين[1] متخشعين ، مسلحين في هيئة تنخلع منها القلوب ، وكان معه ولده نور الدين ، وكان حديث السن لم يزر بلاط الملك في حياته ، ففزع

---

(١) أي : صفين متقابلين .

لهذا المنظر الغريب ، وامتلأ رعباً ، فناداه الشيخ قطب الدين بصوتٍ عالٍ قائلاً : يا ولدي العظمة لله !، يقول نور الدين : إني استشعرت فيَّ قوَّةً غريبةً بعد هذا النداء ، وزالت الهيبة من نفسي ، وذابت . وبدا الجميع عندي كأنه قطيع من ضأنٍ أو معز ، وسأل الملك الشيخ ، وعاتبه قائلاً : « إننا مررنا بزاويتكم فلم تشرفونا بزيارتكم ، وموعظتكم » فأجاب الشيخ : إنَّ هذا الفقير لا يجدر بمقابلة الملوك ، إنَّه يعيش في عزلةٍ ويدعو للملك ، ولجميع المسلمين ، فعليكم أن تعذروني في هذا الأمر ، وبعد انصرافه قال الملك لوزرائه : إنه صافح كثيراً من الشيوخ والعلماء فكانت أيديهم ترتعش خوفاً وإشفاقاً ، أمَّا هذا الشيخ ؛ فما وجدت في كفه ليناً ، وضعفاً ، وما رأيت في يده ارتعاشاً ، بل صافحني بقوَّة ، وحرارةٍ زائدةٍ ، واعتزاز نفس .

وقدم إليه الملك مئة ألف « تنكة » (قطعة ذهب) فقال الشيخ : سبحان الله ! تكفيني أقتان من أرز ، وسمن بفلسٍ واحد ، ماذا أفعل بهذا المال الكثير ؟ ولكن قيل له : إنَّ الملك يسخط إذا لم يقبل هذه الهدية ، وينقم منه ، فقبل الشيخ ألفي روبية ، وقسمها بين إخوانه ، وأصحابه ، وذوي الحاجة ، هذه قصَّةٌ من القصص الكثيرة[١] .

والآن أتحدَّث إليكم عن دور الإصلاح والتنظيم : لما رسخت الحكومة الإسلامية في الهند ، وانتشر الإسلام انتشاراً واسعاً في جميع أنحائها ، تأثر المسلمون بمواطنيهم الهنود ، فانتقلت إليهم عادات الجاهلية ، وانتقلت إليهم بعض العقائد الخرافية ، وتسرَّب إليهم الشرك ، والبدع ، وتغلغلت فيهم الفلسفة اليونانية ، والفلسفة الهندية القديمة ، وعن طريق هاتين الفلسفتين انتقلت إليهم اتجاهاتٌ ، ونزعاتٌ لا يقبلها الإسلام ، فهنالك جاءت مرحلة الإصلاح والتنظيم ، ولما جاءت هذه المرحلة ، قيَّض الله في هذه المرحلة الدقيقة رجالاً غيارى متألمين للإسلام ، وهبوا نفوسهم ، وأرواحهم ، ومواهبهم ، وذكاءهم لقيادة المسلمين في هذه البلاد .

---

(١) نُقلت القصة بطولها من كتاب العلامة الندوي « المسلمون في الهند » إتماماً للفائدة وإكمالاً للحديث .

واتَّفق أنَّ أكبر ملكٍ عرفه تاريخ الهند ، هو الملك المغولي السلطان جلال الدين أكبر بن همايون بن بابر مؤسس الحكومة المغولية في الهند ، اتجه اتجاهاً معارضاً للإسلام ، ونشأ فيه عداءٌ للإسلام ، وعنادٌ شديدٌ للدِّين الإسلاميِّ وصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، وعطفٌ شديدٌ على البراهمة ، وعقائدهم ، وعاداتهم .

هذه مرحلةٌ أدقُّ من مرحلة الجاهلية المحضة ، إذا كانت بلادٌ لا تعرف الإسلام فقضيتها قضيةٌ سهلةٌ ،إذا تعرفت بالإسلام ، فقد تعرفت بالإسلام الحقيقي ، والدين الخالص ، ولكن إذا ثار الملوك والحكَّام على الإسلام ، وانحرفوا عن الجادة ، وارتدُّوا عن الإسلام ، أو عارضوه ، فهنا العقدة الكبرى .

إنَّ « أكبر » كان أولًا مغرماً بدراسة الدِّيانات ، كان من سوء حظه أنَّه كان أمياً ، أو شبه أمي ، لم تسمح حياته الخاصة بدراسةٍ وثقافةٍ ـ ولكن مع ذلك عنده غرام بالمقارنة بين الدِّيانات ـ والإنسان إذا كان جاهلاً وليست عنده الوسائل الكافية للمقارنة الأمينة ، والوصول إلى النتائج الصحيحة ؛ فهذه محنةٌ عظيمة ، وهذا الرجل كان يجمع بين طبيعتين متناقضتين ، جاهلٌ ولكنَّه كان مفرط الذكاء ، سريع الانفعال عصبياً ، ومغرماً بالمقارنة بين الدِّيانات ، فجمع علماء أهل السنة ، وعلماء الشيعة ، وعلماء الطوائف الإسلامية ، التي انحرفت عن الإسلام ، وعلماء البراهمة ، والبوذيين ، والمجوس ، والمسيحيين ، وكان يثير موضوعاً خلافياً يناظر فيه هؤلآء العلماء ، فكانوا يتناقرون كالدِّيكة ، ويتناطحون كالتيوس ، وكان يتفرَّج على ذلك ، ويتسلَّى به ، كما كان الملوك في العصر القديم يتفرجون على قتال التيوس وبعض الطيور ، هذه المناظرات قد غرست في قلبه الشكوك ، وصار ينسلخ عن الإسلام رويداً رويداً حتى انسلخ تماماً .

ثم العامل الثاني الذي أثَّر فيه ، وعدل به عن الإسلام ، هو حبُّ العلماء الزائد للدنيا ، وتنافسهم في الجاه ، والمال ، كان في بلاطه علماء يعتبرون من كبار العلماء في عصره ، ولكنَّهم مع الأسف الشديد ، كانوا متنافسين تنافساً

شديداً في الجاه ،وكان كلٌّ واحدٍ يريد أن يستأثر بالملك ، وكان بعضهم ادَّخر مالًا عظيماً ، وكان بعضهم استخرجت من مقبرة أسلافه لبنات من ذهب كان قد خبأها ، فلما اطلع هذا الرجل على هذه المناظرات ، واطلع على مواضع الضعف في هؤلاء العلماء الكبار ، الذين كان أحدهم المحدِّث الأكبر ، والآخر قاضي القضاة والمفتي الأكبر ، رأى أنَّهم لصوص الدنيا ، وأنَّهم لا يقلُّون عن عباد الدنيا في حب المال ، فانسلخ عن الإسلام .

وأقول لكم ـ أيها الإخوان ! ـ عن تجربة واختبار : إنَّ الذي يرتد عن الإسلام يكون أكثر عناداً للإسلام ، وأكثر معارضةً للإسلام والمسلمين من أتباع كلِّ ديانة ، مسيحيين كانوا أو يهوداً ، وهذا الذي تشهدونه اليوم في بعض البلاد العربية والإسلامية ؛ التي يحكمها الذين ولدوا في الإسلام ، ونشؤوا في بيتٍ مسلم ، في بيئةٍ مسلمة ، ثم كرهوا الإسلام ، وأبغضوه لتأثيرٍ أجنبي ، أو بفعل ثقافةٍ ، أو فلسفة ، فهم دائماً أشدُّ عناداً للإسلام من الهنادك ، والمجوس ، والمسيحيين . ونعود إلى القصَّة فنقول : إنَّ « أكبر » عادى الإسلام عداءً شديداً ، حتى يروى عنه أنَّه كان لا يستطيع أن يسمع اسم محمد ، كانت تثور ثائرته إذا سمع هذا الاسم الكريم ، فكان لا يملك نفسه ، وقد أصدر الأوامر الشديدة بأن كل من سجل عليه أنَّه ذبح بقرةً فإنه يقتل ، إنَّه أحلَّ الخنزير ، وأحلَّ الخمر ، ولكنَّه حرم ذبح البقر ، وحرَّم على رجال بلاطه أن يسموا أولادهم محمداً ، أو أحمد .

هذه فترةٌ دقيقةٌ جداً ، تقرِّر مصير الهند ، وتقرر مصير المسلمين في هذه البلاد التي فتحوها بدمائهم ، هذه البلاد التي هجروا فيها وفي سبيلها أوطانهم ، هذه البلاد التي عاشت فيها أجيال ، ونبغ فيها علماء ، ومؤلفون ، ونهض فيها دعاة ومربُّون ، هل يتجرَّد المسلمون فيها عن دينهم ؟ هل يلفظ فيها الإسلام نفسه الأخير ، هل يكتب عليه الفناء ؟ .

هنالك قام رجلٌ له فضلٌ على كل مسلم في الهند ، هو الشيخ أحمد بن عبد الأحد العمري السَّرهندي (٩٧١ ـ ١٠٣٤هـ) ـ رحمه الله تعالى ـ وكان عالماً كبيراً مشاركاً في علومٍ كثيرةٍ ، وكان إذا أراد أن يكون له مركزٌ كبيرٌ علميٌّ

كان يمكن أن يتصدَّر مجلس السلطان أكبر ، وكان هنالك مَنْ دونه في العلم ، ومَنْ دونه في الذكاء ، ولكنَّه ملكته فكرةٌ واحدةٌ : حرام على هذه البلاد أن ترتدَّ عن الإِسلام ، وأن يحرم المسلمون فيها حقَّهم أن يعيشوا كراماً أحراراً شرفاء ، يزاولون شعائرهم الدينية ، ويحافظون على خصائصهم ، وشخصيتهم الإِسلامية ، ملكته هذه الفكرة حتى حالت بينه وبين كلِّ لذَّةٍ ، فوهب نفسه ، وحياته لها ، ترونه في رسائله (وأصلها بالفارسية ، وقد نقلت إلى العربية) كيف يبكي دماً ، وكيف يبكي على الإِسلام . إنَّ رسائله دافقة بالحياة ، الإنسان إذا قرأ هذه الرسائل يشعر بأن فيها شعلةً إيمانيةً ، ولهيباً من إيمانٍ وصراحةٍ وحزن ، فيقول في إحدى رسائله ، كتبها إلى أحد كبار الدولة : « واويلاه ! واحزناه ! وامصيبتاه ! إنَّ أتباع محمد عليه الصَّلاة والسَّلام الذي هو حبيب ربِّ العالمين ، بهذا المكان من الذلِّ والهوان ، والكفار ، والمشركون ، والوثنيون يتمتعون بالحرية ، وهذا في عهدِ رجلٍ يتسمى بالإِسلام » إنه ينعزل عن مركز الحكم ، يجلس بعيداً ، ولكنَّه لم يزل متصلاً برجال البلاط والأمراء ، يكتب إليهم الرسائل البليغة التي تسيل عذوبةً ، وتشتعل ناراً في وقتٍ واحدٍ ، والتي تعتبر من أقوى الرسائل الدعوية والإصلاحية في المكتبة الإِسلامية . إنَّه لم يزل يثير غيرتهم الإيمانية ، ويلهب فيهم جمرة الإيمان التي كانت مدفونةً تحت الرماد ، فيزيل عنها التراب ، فيقول للواحد منهم : « أنت مسلم والحياة عارضةٌ ، والملك لا يعيش دائماً ، وهذا الحكم لا يدوم ، اتق الله في نفسك ، اتق الله في أمتك ، اتق الله في بلادك » هذا كان دأبه على مرِّ الأيام حتى استطاع أن يجرَّ إليه عدداً كبيراً من الأمراء ، والوزراء ، وكانت سياسة البلاد تمرُّ بمرحلةٍ دقيقةٍ جداً ، لأنَّه إذا ثار ضدَّ هذا الملك الجبار ، الملك الذي ارتد عن الإِسلام ، وقد سمعنا قصة ارتداده وثورته على الإِسلام ، فإن معنى ذلك أنَّ هذه البلاد ستذهب إلى الهنادك ، فيستولون عليها لأنَّهم بالمرصاد ؛ فلم يوافق على أن يعارض الحكومة بالسيف ؛ لأنَّ هذه الحكومة إذا ضعفت فمعنى ذلك أنَّ الهنادك يستولون عليها ، وأنَّهم سيخلفون المسلمين ، فكان من الاحتياط ومن الحكمة ، وكان من السياسة ألا تضعف شوكة المسلمين المادية والعسكرية ،

فاقتصر على الدَّعوة ، واقتصر على الرفق ، وعلى الحكمة .

فلما مات هذا الرجل خلفه ابنه وخليفته نور الدين جهانكير ، وكان أحسن سيرةً ، وأسلم عقيدةً من أبيه الراحل .

طلب السلطان الإمام السرهندي إلى مقرِّه ، وأكَّد على حاكم سرهند أن يوجهه إليه كيفما استطاع ، فتوجه الإمام مع خمسةٍ من أصحابه ، ومريديه ـ كانوا إذ ذاك عنده ـ ولما قرع سمع السلطان مجيء الإمام بعث الأمراء والأعيان ليستقبلوه في الطريق ، ونصب له خيمة بجوار قصره ، وطلبه في البلاط للمقابلة ، ولما دخل عليه في البلاط لم يأت بالآداب ، والتقاليد التي كان يلتزم بها الوافدون على السلطان ، فلفت بعض أبناء الدنيا ممن لا يخاف الله نظر السلطان إلى أن الإمام لم يراع أدب الدخول عليه ، ولم يأت بالتحية المعتادة للملوك[1] ، فسأله السلطان عن السبب ، فقال إنني لم أزل متقيداً بالآداب والأحكام التي دعا إليها الله ورسوله ـ ﷺ ـ ولا أعرف غير هذه الآداب ، فغضب السلطان وقال : اسجد لي[2] ، فقال الإمام : ما سجدت لغير الله قط ، ولن أسجد لغيره أبداً فتغيظ السلطان ، وزاد غضبه ، وأمر بفرض الإقامة الجبرية عليه في قلعة كواليار[3] .

لقد كانت هذه الإقامة الجبرية في سجن كواليار تنطوي على حِكَم ، ومصالح دينيةٍ كثيرةٍ تسبب له الحبُّ والقبول في الناس ، وتزيده زكاء نفس ، وسموَّ روحٍ ، وإشراق باطنٍ ، فشمر هذا السجين كسجين مصر عن ساق الجدِّ والاجتهاد في الدَّعوة ، والإرشاد في أولئك المسجونين الذين كانوا معه ،

(١) كانت هذه التحية تقليداً سائداً في البلاط منذ عهد الملك أكبر ، وكانت تعدُّ من التأدب بالآداب الملوكية وكانت على ثلاثة أصناف ، أولها : الكورنش ، وهو أن يضع يمينه على جبينه ويطأطيء رأسه إلى الصَّدر . وثانيهما : التسليم وهو أن يضع ظاهر الكف من يمناه على الأرض ويقوم ويضع باطنه على الرأس . وثالثها : السجدة ، كما يسجد في الصلاة .

(٢) حضرات القدس ص١١٧ .

(٣) أيضاً ص١١٦ .

ونادى وراء جدران السجن بأعلى صوته ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] ، مما اهتزت له أركان القلعة ، وارتجت الجدران ، وسمع صداه في الخارج ، يذكر بعض المؤرخين : أنَّ آلافاً من السجناء من غير المسلمين اهتدوا على يديه ، ودخلوا بصحبته ، وتربيته ، وإرشاده ، ودعوته في الإسلام ، وأنَّ مئاتٍ من السجناء والمسلمين تابوا على يديه ، وبايعوه ، وتمتعوا بصحبته[١] حتى بلغوا درجات الإحسان .

كان لمرافقته دخلٌ كبيرٌ في نشأة النزعة الدينية الجديدة في الملك جهانكير وعنايتة بتعمير المساجد المنهدمة من جديد ، وشغفه بإقامة المدارس الدينية في المناطق المفتوحة ، وما ظهر منه عام ١٠٣١هـ بمناسبة فتح قلعة كانكره من عواطف إسلامية ، وإظهار شعائر الإسلام فيها[٢] فقد أمر ببناء أوَّل مسجدٍ في القلعة ، وذبح البقرة ، وهو يدلُّ على حدوث التحوُّل ، والتقدُّم في التديُّن الذي يمكن معه القول بأنَّه كان غيضاً من فيض مرافقة الإمام السرهندي وصحبته .

ولم يزل الشيخ مذكراً للملك ، وناصحاً ، ومشجعاً يرشده ، ويوجهه ، ويراسله ، وقد طلب مرَّةً من أحد أمرائه أن يرشح له عدداً من العلماء يذاكرهم في الأمور الدينية ، فلما علم الشيخ بذلك ؛ قال : لا ، إنَّ العلماء إذا اجتمعوا فإنَّهم يتنافسون ، ويتناظرون ، فهذا يفسد الملك ، وهذا الذي حدث في العهد السابق ، وأضرَّ بالإسلام ، رجلٌ زاهدٌ في الدنيا ، متعمِّق في الدين ، راسخٌ في العلم أفضل من أن يُختار عددٌ من العلماء ، وهم يتصارعون ، ويتناظرون ، ويظهرون براعتهم وحذقهم ، وهذا لا أراه لك رأياً ، وكان كما قال ، ولم يزل نور الدين جهانكير يتدرَّج من صالحٍ إلى أصلح ، ومن حسنٍ إلى أحسن ، حتى محا كثيراً من آثار أبيه السيئة ، وأزال كثيراً من بدعه ، ومحاربته للإسلام .

---

(١) كتاب Preaching of Islam (الدعوة إلى الإسلام) لمؤلفه البروفيسور آرنلد Arnold ص٤١٢ الطبعة الثالثة « دائرة معارف الأخلاق والديانات » ص٧٤٨ ج٨ .

(٢) انظر « تزك جهانكيري » ص٣٤٠ وراجع للتفصيل الباب السابع منه ، وليلاحظ أنَّ هذه القلعة كانت قد فتحت على يد قائدٍ هندكي .

وخلف الملك نور الدين جهانكير نجله شهاب الدين الملقب بشاه جهان ، وهو الملك المسلم الخاشع لله ، وهو الذي لمَّا تربع على عرش الطاؤوس الذي أنفق عليه الملايين نزل ، وخرَّ لله ساجداً ، يثبت عبوديته وإسلامه ، ويحمد الله على الملك الذي آتاه ، ولم يزل الشيخ والحبل في يده ، فيقبضه ، ويرخيه ، إذا رأى من المصلحة أن يرخيه ؛ أرخاه ، وإذا رأى من المصلحة أن يجرَّه ؛ جرَّه .

وخلف الشيخ أحمد ابنه النجيب المتمم لعمله ، والأمين على دعوته الشيخ محمد معصوم بن أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي (١٠٠٧ ـ ١٠٧٩هـ) وله فضل كبيرٌ في تربية السلطان « عالمكير » أورنك زيب بن شاهجهان الذي يعدُّ من أكبر ملوك المسلمين ، وليس في الهند فقط ، بل في تاريخ الإسلام (يعني بعد نور الدين ، وصلاح الدين ، وبعض ملوك المسلمين الصَّالحين) هو الذي دون « الفتاوى الهندية » وجعلها قانوناً للدَّولة ، وهو الذي طبَّق الأحكام الشرعية بدقةٍ وعنايةٍ ، وحفظ القرآن الكريم ، وجمع أربعين حديثاً وشرحها ، وله عوائد والتزاماتٌ لا يقدر عليها كثير من العلماء والعباد فضلاً عن الملوك والسلاطين ، هذا الرجل قلب تيار الحياة ، وأرسخ قواعد الإسلام في هذه البلاد ، وربط مصيرها بالمسلمين ، وبالعلم ، والدين ، وأزال خطر زوال الإسلام وجلاء المسلمين ، وكما وقع في إسبانيا قبل قرنين ، وهذه ناحية من نواحي جهاد الشيخ أحمد ، وتجديده الأولى .

وبغضِّ النظر عن حياة أورنك زيب الشخصية التي اتفق المؤرخون على أنه كان فيها متديناً ، متورعاً ، متمسكاً بالشريعة ، عاملاً بها ، محافظاً على نوافل الطاعات ، فضلاً عن الفرائض والواجبات ، نكتفي بما يتعلق بالسياسة الشرعية التي في مملكته الواسعة ، وتنظيم الشعائر الإسلامية ، وتنفيذ الأحكام الشرعية ، وبما له من أثرٍ عميقٍ في المجتمع الإسلامي الهنديِّ ، والإصلاح الاجتماعيِّ .

يقول المؤرخ في حوادث العام الثاني من ولاية السلطان الموافق عام ١٠٦٩هـ :

أسَّس التقويم المتبع في الإدارة والولاية منذ عهد السلطان جلال الدين أكبر على أول « فروردي » التي تدخل فيها الشمس برج الحمل ، ويزدهر الربيع وكان تاريخ جلوس السلطان قريباً من هذا التاريخ ، فوضع التقويم بدءاً من شهر « فروردي » إلى شهر « اسفنديار »[١] ، وسمى الشهور « شهوراً إلهية » ، ولمَّا كان هذا الأمر يشبه طريقة السلاطين المجوس عبَّاد النار ، بدأ السلطان ـ مراعاةً للشريعة الإسلامية ـ التقويم الهلالي العربي للشهور والسنين لجلوسه ، وإدارته ، ومهرجاناته ، وأمر بتقديم التقويم العربي الهلالي على التقويم الشمسي ، وأمر بإلغاء الاحتفال بمهرجان نوروز .

ويعلم جميع الناس أنَّ الشهور الهلالية تتغير دائماً ، وتحدث مشاكل وتعقيدات في استخدام التقويم الهلالي ، ولكنَّ هذا السلطان المتدين لم يبال بمشاكل هذا التقويم ، وينتهي عن الاحتفال بمهرجان « نوروز » لتشبهها بطريقة عباد النار المجوس ـ أصلاً ـ وقرَّر بداية تاريخ الجلوس الثاني بغرَّة شهر رمضان ، وهكذا بدأ تقويماً جديداً للجلوس ، وأبدل مهرجان نوروز ، بمهرجان عيد الفطر[٢] .

ويذكر المؤرخ وقف السلطان للدخل الكبير الذي كان يأتي الدولة من طريق غير شرعي ، فيقول :

« أمر السلطان بإلغاء « راهداري » ـ ضريبة الطريق ـ الذي كان يؤخذ على جميع الحدود والثغور ، وتوضع جميع وارداته في خزانة الدولة ، فكان دخلها ، ودخل خراج « بلغاري » الذي يسمى « ته بازاري » ، يزيد على مئات الآلاف ، ويدخل الخزانة السلطانية ، كما ألغى السلطان جميع الواردات التي كان دخلها من الحانات ، والخمارات ، والغرامات ، وما يقدَّم إلى الموظفين والحكام إظهاراً للشكر ، وغير ذلك مما يبلغ الملايين من الروبيات ، وكان دخلاً كبيراً للدولة »[٣] .

---

(١) وهما شهران في التقويم الإيراني القديم .
(٢) أيضاً ص٨٣ ـ ٨٤ .
(٣) أيضاً ص٩ .

كانت الحسبة منصباً خطيراً في الحكومات الشرعية ، وشعاراً ظاهراً من شعائر الخلافة الإسلاميَّة ، وألف كثير من العلماء لبيان مسؤوليات هذه الوظيفة المهمة ، ونوعية العمل فيها كتباً بعنوان « الحسبة في الإسلام » وكانت هذه المهمة الخطيرة مهجورةً معطلةً في الحكومات المسلمة في الهند ، وأحيا السلطان هذه السنة أيضاً .

يقول المؤرخ :

« عين السلطان الشيخ عوض وجيه محتسباً ، وأمره بأن ينهى الناس عن جميع المحرمات ، خاصةً عن شرب الخمور ، وتناول الحشيش ، وجميع المسكرات ، وجميع الفواحش ، ويمنعهم ـ قدر المستطاع ـ من جميع المسيئات والمنكرات »[١] .

ويقول المؤرخ في حوادث ووقائع السنوات من عام ١١ للجلوس إلى ٢١ للجلوس ، الموافق عام ١٠٧٨هـ :

« كان السلطان يزداد ـ كلَّ يوم ـ اهتماماً بإجراء الأحكام الشرعية ، وتنفيذها ، ومراعاة الأوامر والنواهي الإلهية ، فكان يصدر فرامين مفصلةً لإلغاء دخل « راهداري » و « بانداري » الذي كان يبلغ مئات الآلاف من الروبيات كل عام ، وكان يدخل في الخزانة السلطانية ، وكان يأمر بإغلاق الحانات والخمارات ، ومكامن الريبة والفساد »[٢] .

ويزيد قائلاً :

« أمر السلطان بإلغاء الرقص والغناء ، ونهى عن اجتماع الناس تحت قصر السلطان لزيارته ، ورؤية طلعته من نافذةٍ في أعلى القصر ـ وكان هذا تقليداً من التقاليد السلطانية المخترعة ، ويسمَّى « جهروكه درشن » وترك

---

(١) أيضاً ص٩٢ ، ذكر مؤلف « نزهة الخواطر » اعتماداً على كتب التاريخ بالفارسية ، إن عالمكير نسخ عام ١٠٦٩هـ ثمانين نوعاً من الخراج والضرائب ، التي كان دخلها السنوي للخزانة السلطانية ثلاثة ملايين روبية .

(٢) أيضاً ص٢٧٥ ـ ٢٧٦ باختصار .

نفسه الجلوس على النافذة ، استنكاراً لهذه التقاليد غير الشرعية .

كان السلاطين المسلمون في الهند ـ حسب معتقدات الهنادك وعاداتهم القديمة ـ يثقون كثيراً بالتنجيم والمنجمين ، ويعينون الأيام والشهور لأعمالهم الخاصة حسب ما يقرر المنجمون في ضوء علم التنجيم ، فقضى السلطان عالمكير على هذه العقيدة والعادة المتبعة ، وأهم من ذلك : أنَّ الأحكام القضائية كانت تقتصر على محاكم الحكام والأمراء وأحكامها ، فعيَّن السلطان عالمكير قضاةً شرعيين ، وأعطاهم السلطة المطلقة فيما يتعلق بالقوانين الشرعية .

« الشعراء والمنجمون الذين كانت لهم مكانةٌ واعتبارٌ في الدولة ، (خاصة في عهد السلطان شاهجهان) منعوا من ممارسة أعمالهم ، وعين القضاة للشؤون الداخلية والمرافعات الجزئية والكلية ، وحصل لهم من التمكن والاستقلال في شؤونهم ما بعث الأمراء وأعيان الدولة على الغبطة والحسد »[(١)] .

أما الناحية الثانية من نواحي التجديد ؛ فقد عارض الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي البدع ، والعقائد الشركية ، والشعائر الجاهلية المجوسية ، والفلسفية اليونانية أشدَّ المعارضة ، وهو الذي شنَّ الحرب على فكرة وحدة الوجود ؛ التي كان لها سحرٌ عجيبٌ على العقول والنفوس ، ونفوذٌ عميقٌ في العلوم والآداب ، وكوَّن معسكراً كبيراً له قيمته وأهميته إزاء معسكر وحدة الوجود ؛ الذي كاد يكون المعسكر الوحيد في الهند وفي البلاد العجمية ، فعارض هذه الفكرة معارضةً شديدةً ، وحاربها حرباً شعواء لا هوادة فيها ، ولا رفق .

* * *

(١) أيضاً ص٢٧١٧ ، وراجع كتاب كذلك (Aurangzeb & His Age) لمؤلفه الفاضل ظهير الدين الفاروقي « أرنك زيب وعصره » الباب بعنوان A. Reformer .

الملك الصالح المصلح

السلطان محيي الدين أورنغ زيب عالمكير

أما بعد ، فإنه يصعب الحكم على جميع أعمال أي حاكم أو سلطان لدولة ما من الدول ، وجميع عاداته وأخلاقه ، وأحكامه وأقضيته وإجراءاته ، بأنها موافقة ـ مئة في المئة ـ للتعاليم الإسلامية ، والأحكام الشرعية ، ولا يمكن أن يقال ذلك إلا في الخلفاء الراشدين المهديين ، وبعض الولاة الذين كانوا على سيرة سيدنا عمر بن عبد العزيز ، في إقامة الخلافة على منهاج النبوة ، كما يتعذر الإدراك الدقيق للمصالح والضرورات التي اتخذت في ضوئها هذه الإجراءات السياسية والإدارية ، التي تختلف فيها الآراء ، وأنه ما مدى واقعية تلك الصورة التي تتجلى لهذه الأعمال والإجراءات في ضوء بيانات المؤرخين وتصريحاتهم ، وإلى أيِّ حد تقوم على الصدق والواقع ؟ فمن الصعب جداً ـ بعد مضيّ مدة طويلة ، وعدم توفر الشواهد والوثائق التاريخية المعتبرة ـ أن نحكم عليها حكماً قطعياً حاسماً .

ورغم كل ذلك ما يوجد لدينا من الوثائق التاريخية الثابتة عن السلطان محيي الدين أورنغ زيب عالمكير (١٠٢٨ ـ ١١١٨هـ) يدلنا بكل وضوح ، ويورث فينا الاعتماد على أن السلطان كان متأثراً بالغ التأثر بحركة الإمام السرهندي الإصلاحية التجديدية ، ومحاولاته المتواصلة الصامتة لإحداث تغيير أساسي في الدولة وتحويل اتجاهها من هدم وتخريب للإسلام ، إلى بناء وتعمير وتمكين له[١] كما كان متأثراً معجباً غاية الإعجاب بربانية أبنائه الكرام

---

(١) يراجع للتفصيل كتاب « الإمام السرهندي » (الجزء الثالث من رجال الفكر والدعوة في الإسلام) للعلامة الندوي ، طبع دار ابن كثير ، دمشق .

وأفراد أسرته الآخرين ، وإخلاصهم ، وصفاء نفوسهم وشخصياتهم المؤثرة الآخذة بمجامع القلوب ، وقد كان انسجم مع دعوة الإمام وحركته وأهدافه كل الانسجام ، وكان يريد أن يخطو خطوات جريئة ، ويحدث تغييرات عميقة بعيدة المدى في نظام الدولة ، وفي المجتمع المسلم الخاضع لهذا النظام ، ونفذ ـ لأول مرة ـ بعض الإصلاحات التي كانت تؤثر على اقتصاد الدولة ، تطبيقاً لبعض الأحكام الصريحة في الشريعة الإسلامية .

وقد اتفق المؤرخون على أنه كان فيها متديناً متورعاً ، يتمسك بالشريعة ويعمل بها ، والتي نكتفي في الإشارة إليها ببعض الأمثلة التي تلقي الضوء على نبذة من حياته الدينية .

يقول مؤرخ الهند الأستاذ ذكاء الله الدهلوي :

« كان شهر رمضان وكانت تهب السموم اللافحة ، وكان النهار طويلاً ، ولكن السلطان يصوم النهار ، ويقرأ الأوراد ، ويتلو القرآن ، ويحفظه غيباً ، ويكتب ويؤلف ، ويدير دفة شؤون الدولة ، ويقوم بأعمال المحكمة والقضاء والسلطة ، وبعد أن يدخل « مسجد غسل خانه مسجد الدرة » المعروف في داخل القلعة الحمراء فيصلي المكتوبات والتراويح والنوافل حتى ينتصف الليل ، فيتناول قليلاً من الطعام ، وقليلاً ما يهجع وينام ، ويحيي بقية الليل بالقيام ، ويحيي بعض الليالي ذات الخيرات والبركات كلها ، وهكذا يقضي شهر رمضان » .

ويقول المؤرخ وهو يصف حاله عند احتضاره :

« غلبته الحمى العام الواحد والخمسين من جلوسه ، الموافق ١١١٨هـ ، والتزم الصلاة بالجماعة ـ رغم شدة المرض ـ أربعة أيام ، لكمال تورعه وتقواه ، وكان قد كتب وصية من قبل ، أوصى فيها بأن ينفق أربع روبيات ونصف روبية ـ وهي ما بقي مما اكتسبه بيده بخياطة القلانس ـ فيشترى بها ما يحتاج إليه في التكفين والتدفين ، وتوزع ثمانمئة وخمس روبيات ، وهي ما حصلت له من أجرة كتابة المصاحف ، على الفقراء والمساكين ، ولما كان يوم الجمعة ٢٨/ ذي القعدة عام ٥١ للجلوس ، الموافق ١١١٨هـ صلى السلطان

صلاة الفجر ، ثم اشتغل بالتهليل ، حتى فارق هذه الدنيا الفانية بعد أن تعالى النهار ، ورحل للأبد إلى دار القرار »[١] .

عين السلطان الشيخ عوض وجيه محتسباً وأمره بأن ينهى الناس عن جميع المحرمات ، خاصة عن شرب الخمور ، وتناول الحشيش وجميع المسكرات ، وجميع الفواحش ، ويمنعهم ـ قدر المستطاع ـ من جميع السيئات والمنكرات .

ويقول المؤرخ في حوادث ووقائع السنوات من عام ١١ للجلوس إلى ٢١ للجلوس ، الموافق عام ١٠٧٨هـ .

« كان السلطان يزداد ـ كل يوم ـ اهتماماً بإجراء الأحكام الشرعية وتنفيذها ، ومراعاة الأوامر والنواهي الإلهية ، فكان يصدر فرامين (أوامر رسمية) مفصلة لإلغاء الضرائب غير المشروعة التي كانت تبلغ مئات الآلاف من الروبيات كل عام ، وكانت تدخل في الخزانة السلطانية ، وكان يأمر بإغلاق الحانات والخمارات ، ومكامن الريبة والفساد »[٢] .

ويزيد قائلاً :

« أمر السلطان بإلغاء الرقص والغناء ، ونهى عن اجتماع الناس تحت قصر السلطان لزيارته ، ورؤية طلعته من نافذة في أعلى القصر ـ وكان هذا تقليداً من التقاليد السلطانية المخترعة ، ويسمى « جهروكة درشن » وترك نفسه الجلوس على النافذة استنكاراً لهذه التقاليد غير الشرعية »[٣] .

« تكفل السلطان ـ لتنفيذ القوانين الشرعية في سائر البلاد ، وتوفير التسهيلات للقضاة ـ بترتيب المسائل الفقهية ، وتدوينها من جديد ، وكوَّن لأجل ذلك لجنة من العلماء البارعين ليرتبوا المسائل في عبارة سهلة واضحة ترتيباً جيداً ، ويقتصروا في المسائل على ظاهر الرواية ، ولا يلتفتوا إلى « النوادر » إلا عند الضرورة »[٤] .

---

(١) « الإمام السرهندي » ص٣٠٠ .
(٢) أيضاً ص ٣٠٢ .
(٣) أيضاً ص ٣٠٢ .
(٤) أيضاً ص ٣٠٣ .

ويقول المؤرخ نفسه :

« وصدر الأمر في تلك الأيام ـ بأن المسلمين عند مقابلة السلطان ينبغي أن يقتصروا على أن يقولوا : السلام عليك ، ولا يضعوا أيديهم على رؤوسهم مثل الكفار ، ويجب على الحكام والأمراء أن يتبعوا ذلك مع الخاصة والعامة »[١] .

يقول الدكتور محمد إقبال الشاعر الإسلامي المشهور في إحدى قصائده :

« ذاك السلطان أورنك زيب ذو المجد السامق الذرى الذي تباهي به الأسرة الكوركانية[٢] وتعتز به ، علا به نجم المسلمين ، وارتفعت مكانتهم ، ونالت به الشريعة الإسلامية عزها وكرامتها ، كان السهم الأخير في كنانة الإسلام ، للحرب الحامية بين الكفر والإيمان ، تعرضت الأمة الإسلامية لمحنة عظيمة بسبب بذرة الإلحاد والزندقة ، التي بذرها أكبر[٣] وسقاها ونماها ، والتي نشأت ـ مرة ثانية ـ في فطرة داراً شكوه ، وكانت شموع القلوب في الصدور خامدة مظلمة بسبب الفساد الشامل والظلام الحالك .

هنالك قيض الله ـ سبحانه وتعالى ـ السلطان عالمكير ، ذلك الزاهد الغيور ، والفارس الجسور ، الذي اجتباه الله ـ عز وجل ـ لإحياء الدين وتجديد الإيمان واليقين ، فحرقت صواعق سيوفه المهندة بيادر الكفر والزندقة ، وأضاءت شموع الدين في محافل المسلمين ، وتخرص المتخرصون من قصار النظر وضعاف النفوس ، فحكموا عليه بأحكام قاسية ، وقاسوه بمقاييسهم الزائفة[٤] ، ولم يعرفوا عمق مداركه وأبعاد تفكيره ، لقد كان فراشة متهافتة على شعلة التوحيد ، وكان في بلاد الشرك والوثنية كإبراهيم في نار نمرود ،

---

(١) وأيضاً ص ٣٠٤ .

(٢) الأسرة المغولية التركية .

(٣) هو السلطان جلال الدين أكبر التيموري ، جد السلطان أورنك زيب ، الذي خطط تحويل شبه القارة الهندية من الإسلام إلى البرهمية ديناً وحضارة وفلسفة ، ونفذ كثيراً من ذلك بمساعدة من حوله من العلماء الملحدين ، ورجال البلاط المارقين .

(٤) إشارة إلى كتاب المؤرخين المغرضين من غير المسلمين ، والشائعات التي شاعت عنه في أوساط غير المحققين من المسلمين .

ونسيج وحده في صف الملوك والسلاطين ، ومثالًا فريداً في زمرة الزهاد والناسكين »[١] .

ويقول الأديب الكبير المؤرخ الأستاذ علي الطنطاوي في كتابه « رجال من التاريخ » :

« حكم الهند كلها خمسين سنة كوامل ، وكان أعظم ملوك الدنيا في عصره ، وكانت بيده مفاتيح الكنوز ، وكان يعيش عيش الزهد ، ما مد يده ولا عينه إلى حرام ، ولا أدخله بطنه ، ولا كشف له إزاره ، وكان يمر عليه رمضان كله لا يأكل إلا أرغفة معدودة من خبز الشعير ، من كسب يمينه من كتابة المصاحف لا من أموال الدولة .

هذا هو الملك الذي قلت أنه كان بقية الخلفاء الراشدين ، وما رأى الناس بعده ، وقلما رأوا قبله مثله ، رحمة الله على روحه الطاهرة »[٢] .

وقد شرح الله صدر صاحب كلمة التقديم أن ينشر ما جاء في الجزء السادس من كتاب والده العلامة السيد عبد الحي الحسني (م١٣٤١هـ) الذي أسماه « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر » في ثمانية أجزاء في تراجم أعلام المسلمين في الهند ، ويعاد طبعه للمرة الثالثة باسم « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » من ترجمة ضافية للسلطان بعنوان « عالمكير بن شاه جهان سلطان الهند » التي تمتد على ١٤ صفحة من القطع الكبير ، وهي وثيقة تاريخية ، وترجمة ضافية تحتوي على معلومات مستقاة من مصادر موثوق بها ، وخلاصة منيرة لسيرته وحياته ، ومآثره وإصلاحاته ، بقلم مؤرخ أمين يعتمد على معلومات وشهادات تاريخية عادلة ثابتة .

وقد رأى كاتب التقديم أن لهذا الملك المسلم ، الذي سمي بحق محيي الدين محمد أورنك زيب عالمكير ، حقاً أن يتعرف به القراء العرب والمسلمون خارج الهند ، ولهم الحق أن يتعرفوا به ويقروا به عيناً ويزدادوا

---

(١) « رموز بيخودي » الديوان الفارسي ص ٩٨ .

(٢) رجال من التاريخ للأستاذ علي الطنطاوي ، مقال « بقية الخلفاء الراشدين » ص١٨٨ .

إيماناً بتأثير الإسلام في الأجيال والعهود المختلفة والأسر الحاكمة المطلقة .

وقد سبق لكاتب هذا التقديم أن أفرز ترجمة السلطان المظفر البطل الناصر لدين الله ، السلطان صلاح الدين الأيوبي فاتح بيت المقدس[1] ، ومعيد فلسطين والقدس إلى دولة الإسلام والمسلمين ، من كتابه « تاريخ دعوت وعزيمة » الجزء الأول ، نقله إلى العربية الأستاذ محمد أجمل الإصلاحي الندوي ، وطبعته مكتبة دار القلم في دمشق ، وها هو القسم الثاني من سلسلة أبطال الإسلام والملوك الصالحين ، المنفذين لأحكام الشريعة المطهرة ، المقيمين لدولة الإسلام ، والعائشين في ظل أحكام الشريعة والدين تطبيقاً وتنفيذاً ، وحماية وحمية ، عسى أن يكون في ذلك حافز لأولي الأمر وأصحاب السلطة والنفوذ في الأقطار الإسلامية والمجتمعات المسلمة ، للاحتذاء بحذوهم ، ومثير لغيرتهم الدينية ، وحميتهم الإسلامية ، وما ذلك على الله بعزيز .

* * *

(١) قد سبقت هذه الترجمة في صفحة ٣٦ من هذا الكتاب .

شيخ الإسلام أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي وخطته في الإصلاح والتجديد[(١)]

قام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدَّهلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦هـ) المشهور بالشيخ ولي الله بعملية التجديد والإصلاح ، وهو أحد حكماء الإسلام ونوابغه وكبار المفكرين الإسلاميين (في الهند) ، من طراز الإمام الغزالي ، وشيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد لاحظ خمس نقط في حياة الشعب الهندي .

خطته في الإصلاح :

١ ـ إنَّ كثيراً من المسلمين قصَّروا في فهم التوحيد الإسلامي ، وأحاطت بعقيدتهم غيومٌ من الجهالات والظنون الفاسدة ، والعادات الجاهلية ، فلا بدَّ من إبراز هذا « التوحيد » في نقائه ووضوحه ، وشرح ما كان عليه أهل الجاهلية من اعتقادٍ في الله ؛ حتى يظهر الفرق بين عقيدتهم وبين ما جاء به الإسلام .

٢ ـ يجب أن يكون للشعب اتصالٌ مباشرٌ بالكتاب والسنَّة ، وقد حال العلماء بينه وبين دراسة القرآن وفهمه ، بعلَّة تعذر فهمه للعامة ، وخوف انحلال سلطتهم الروحية ، وسيادتهم العلمية ، فلم يترجموا ألفاظ القرآن إلى لغة البلاد ، ولم ينشروا كتب الحديث ، فلا بدَّ إذاً من نقل معاني القرآن وأحكامه إلى لغة البلاد ، والإقبال على كتب السنة وحديث رسول الله ـ ﷺ ـ .

٣ ـ ثقافة علماء الهند ضعيفةٌ ضئيلةٌ في العلوم الدِّينية ، وبضاعتهم مزجاةٌ

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثاني ، المجلد الواحد والأربعون ، عام ١٩٩٦م .

في الحديث خصوصاً ، فلا بدَّ من نشر علم الحديث ، فدرس الصحاح ، والموطأ ، وأقبل على دراسة هذه الكتب ، حتى أصبحت للهند مكانةٌ مرموقةٌ في العالم الإسلامي في خدمة الحديث ، بفضل جهود هذا البيت العظيم ومؤسسته .

٤ ـ لاحظ أنَّ العالم الإسلامي سوف يستقبل عصراً عقلياً ، وثورةً فكريةً ، فلابدَّ من شرح نظام الخلافة في الإسلام ، وأساليب الإسلام ، وأسسه في تنظيم الحياة والمجتمع ، فألَّف كتباً لا تزال فريدةً في مكتبة الإسلام العامرة ، (حجة الله البالغة) و (إزالة الخفاء في خلافة الخلفاء) .

٥ ـ لاحظ أنَّه لا أمل في نهضة الأسرة الملكية الهندية ، وتجديد شباب الدولة التيمورية ؛ لأنه ـ كما قال ابن خلدون ـ :

« إذا نزل الهرم بدولة لا يرتفع » فلا فائدة في بذل القوة لإصلاحها وتقويتها ، ولا بدَّ من إعداد جماعةٍ تحدث انقلاباً إسلامياً ، وتؤسس دولةً إسلاميةً جديدةً على أساسٍ دينيٍّ علميٍّ جديد .

نجاحه في عمله :

قام الشيخ ولي الله وأصحابه بمهمة هذا التجديد الإسلاميِّ خير قيام ، فنشروا العلم الصحيح ، وأذاعوا مصادر الدين الأولى ، وألفوا كتباً دسمةً قويةً مبتكرةً ، تمهد العقول والنفوس لإحداث انقلابٍ إسلاميٍّ ، وإنشاء دولةٍ إسلاميَّةٍ ، وخرَّج تلاميذاً ورجالًا يقومون بهذه المهمة ، وقام بعده نجله الأكبر سراج الهند الشيخ عبد العزيز الدَّهلوي (م ١٢٣٩هـ) فدرَّس وألَّف ، وخرَّج ، وخلَّف التلاميذ الكبار والعلماء الفحول ، نشروا علم الحديث ، وشمروا عن ساق الجدِّ ، في نصر الدين ، ومحاربة البدع ، والدعوة إلى الكتاب والسنة ، وتزكية النفوس ، حتى نفقت سوق الحديث ، وقامت دولة العلم ، واستعدَّت النفوس للنصر المؤزر للدين .

لم يقتصر الإمام الدَّهلوي على هذه الخطابات الخاصَّة لهذه الطبقات الخاصَّة من الناس ، بل شدَّد النكير على تلك الطقوس والتقاليد الهندوكية ، والبدع والشعائر غير الإسلامية التي تسرَّبت إلى المجتمع المسلم ، وشاعت

فيه بسبب الاختلاط الطويل بالهنادك ، ومواطنتهم بعدَّة قرون ، وعدم الاهتمام بالسنَّة المشرفة ، والحديث الشريف ، وغفلة العلماء ، وتقصيرهم ، وعدم شعور الحكومة المسلمة بمسؤوليتها ، وفقدان الحسِّيَّة الدينية ، فالتزم بها المسلمون التزاماً شديداً .

شنَّع الشيخ عبد العزيز الدَّهلوي على تلك المعتقدات الباطلة ، والأوهام والخرافات الجاهلية ، وتقليد غير المسلمين ، وأتباعهم ، وعابهم عليه ، وقد كان عامة العلماء المشتغلين بالعلوم العقلية والفنون الحكمية لا يعيرون لهذه العادات والتقاليد الجاهلية بالًا ، ويرونها هيِّنةً خفيفةً ، أو يتغاضون عنها فراراً من الوقوع في المشاكل ، ومعارضة الجماهير .

الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ـ رحمه الله ـ ورفقته ، وتأثيرهم في الحياة :

وفي الربع الأول من القرن الثالث عشر الهجري قام السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٠١ ـ ١٢٤٦هـ) الذي تخرج على الشيخ عبد العزيز ـ ومعه الشيخ محمد إسماعيل بن عبد الغني بن الشيخ ولي الله الدَّهلوي ـ فدعا الناس إلى الدين الخالص ، والتوحيد ، واتِّباع السنة ، وحارب الشرك ، والجاهلية ، والبدع محاربةً سافرةً شديدةً ، وبثَّ في الشعب روحاً دينيةً قويةً لم تعهد من قرونٍ متطاولةٍ ، ودعا الناس إلى الإيمان ، والإحسان ، والتقوى ، والجهاد في سبيل الله ، وقام بجولاتٍ واسعةٍ في الهند ، تاب في خلالها ألوفٌ من المسلمين ، وأقفرت الحانات ، وغصَّت المساجد ، وكسدت سوق البدع ، والتف حوله المخلصون ، والعلماء الربانيون ، وخرج للحج عام ١٢٣٦هـ ومعه أكثر من سبعمئة رجل ، وتشرف بالبيعة والتوبة مئات ألوفٍ من المسلمين في هذا السفر ، وكان الناس يقصدونه من كل صقعٍ ، ويدخلون في الخير أفواجاً ، حتى لم يحرم ذلك المرضى في المستشفى ، وكان الناس يتساقطون عليه كالفراش ، وأسلم عددٌ كبيرٌ من الكفار ، وكان من تأثير مواعظه ودخول الناس في الدين وانقيادهم للشرع أن وقفت تجارة الخمر في كلكتا ـ وهي كبرى مدن الهند ومركز الإنجليز ـ وأقفرت الحانات ، واعتذر الخمارون عن دفع ضرائب الحكومة لكساد السوق ، وتعطل تجارة الخمر .

وتدلُّ الإحصاءات الدقيقة الأمينة للمنتفعين بهذه الدعوة ، والتيار الدينيِّ القويِّ العاصف ، على قوة تأثير الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ـ رحمه الله ـ ، واتساع نطاق من انتفع به ، وتغيَّرت حياته عقائدياً وعملياً ، وخلقياً ، فقد تحقَّق أن من بايع وتاب عل يده يبلغ عددهم إلى ثلاثة ملايين شخصاً ، ومن أسلم على يده من الوثنيين وغير المسلمين يبلغ عددهم إلى أربعين ألفاً ٤٠٠٠٠ .

الشيخ إسماعيل الشهيد ـ رحمه الله ـ :

أما الشيخ إسماعيل الشهيد ، فقال الشيخ محسن بن يحيى الترهتي في « اليانع الجني » :

« ـ إنَّه كان أشدهم في دين الله ، وأحفظهم للسنَّة ، يغضب لها ، ويندب إليها ، ويشنِّع على البدع وأهلها » .

وقال العلامة صدِّيق بن حسن القنوجي (م ١٣٠٧هـ) في « الحطة بذكر الصحاح الستة » في ذكر الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدَّهلوي :

إن ابن ابنه المولوي محمد إسماعيل الشهيد ـ رحمه الله ـ اقتفى أثر جدِّه في قوله ، وفعله جميعاً ، وتمَّم ما ابتدأه جده ، وأدَّى ما كان عليه ، وبقي ما كان له ، والله تعالى مجازيه على صوالح الأعمال ، وقواطع الأقوال ، وصحاح الأحوال ، ولم يكن ليخترع طريقاً جديداً في الإسلام ، كما يزعم الجهال ، وقد قال الله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] ، وهو رحمه الله تعالى أحيا كثيراً من السنن المماتات ، وأمات عظيماً من الأشراك والمحدثات ، حتى نال درجة الشهادة العليا ، وفاز من بين أقرانه بالقدح المعلَّى ، وبلغ منتهى أمله ، وأقصى أجله .

أما كتاب « تقوية الإيمان » فإنَّه كتاب أصبح شعاراً وعلماً للدَّعوة إلى التوحيد ، وبيان الحقِّ الصريح ، وقد نفع الله به خلائق في شبه القارة الهندية ،

لا يحصيهم إلا من أحصى رمال عالج ، وحصى البطحاء ، وقد بلغ عددهم إلى ملايين من غير شكٍّ .

وقد صدر هذا الكتاب عن قلبٍ جريح يتقطَّع بمشاهدة ما كان عليه المسلمون في ذلك اليوم من بعدٍ من التعاليم الإسلامية ، وخضوعٍ للوثنية الهندية ، وتمسُّكٍ بالعادات الجاهلية ، وقد زاد في تأثيره وقبوله ، دموع عينٍ باكيةٍ على الإسلام ، ودمٍ زكيٍّ أريق في سبيل إحياء هذا الدين ، وإدالته من الجاهلية ، وتأسيس حكومةٍ شرعيَّةٍ تقوم على منهاج الكتاب والسنة ، ويكون الدِّين كلُّه لله .

وقد قرن ـ رحمه الله ـ الدُّعاء بالدعوة ، والجهد بالجهاد ، والشهادة للحقِّ بالشهادة في الحقِّ ، وذلك لباب التوحيد ، وغاية الإخلاص ، وكمال الصدق ، وتمام الوفاء ، وصدق الله العظيم :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] فكان لكتابه من القبول والتأثير ، والذيوع والانتشار ما لا يكون إلا لكتابات كبار المخلصين ، والعلماء العاملين ، والدُّعاة المجددين .

وسرُّ قوَّة الكتاب صراحته ، وتشخيصه للأدواء ، ومظاهر الشرك ، ومواضع الانزلاق ، وأنه يضرب على الوتر الحساس ، ويصيب ضعف الاعتقاد ، وما فتن به المسلمون في العهد الأخير من الغلوِّ ، والتقديس ، والتعظيم ، وتقليد الأمم الوثنية ، والعادات الجاهلية في صميمه ، وقد اعتاد الناس ألا يفزعوا للمواعظ والخطب التي تلقى على المنابر ، أو البحوث العلمية التي تتناول موضوع التوحيد والشرك بصفةٍ إجمالية عامَّةٍ ، إذا لم تتعرض للأمراض التي يعانونها ، والأخطاء التي يرتكبونها ، العادات التي لا يمكنهم الفطام عنها ، وللأشخاص والأماكن والشعائر التي يغلون فيها ، فيتجاهلون كلَّ ذلك ، ويتظاهرون بأنَّ الواعظ أو الكاتب لا يعنيهم ، وإنما يعني المشركين القدامى ، وعباد الأوثان في الجاهلية الأولى ، أما إذا تعرَّض هذا الكاتب ، أو الواعظ لواقع حياتهم ، ووضع يده على عللهم ،

وأسقامهم ، وحدَّد مواضع فتنتهم ؛ لم يسعهم أن يتغافلوا عنه ، فأعلنوا الحرب عليه ، ونادوا بعدائه ، وهذا شأن الدَّاعي المخلص الذي ملكته الفكرة ، واستحوذ عليه الشعور ، وتذوَّق القرآن ومنهج الأنبياء في دعوتهم تذوقاً حقيقياً ، فإنَّه يتدبَّر القرآن ، ويرضي ربه ، ويريح ضميره ، ويبرىء ذمته[١] .

مدرستان للداعين إلى الكتاب والسنَّة والعاملين بالحديث :

ونشطت حركة نشر الحديث ، والدَّعوة إلى الكتاب والسنة ، ونبذ البدع والخرافات بعد ما قام تلاميذ الإمام ولي الله الدَّهلوي ، وأنجاله ، وأحفاده بتدريس كتب الحديث ، ومعاداة البدع ، والعادات الجاهلية المحلية ، وقام السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ـ رحمه الله ـ ، والعلامة محمد إسماعيل الشهيد ـ رحمه الله ـ ، بالدَّعوة إلى الدين الخالص ، والعقيدة الصحيحة السنيَّة ، والرجوع إلى ما كان عليه السَّلف الصالح والقرون المشهود لها بالخير ، ونشطت العقول ، وتحركت الهمم ، وكثر الدعاة إلى الدين ، والمكافحون للفساد ، وكثر المعتنون بعلوم الكتاب والسنَّة ، والمؤلفون في المقاصد الدينية ، في اللغة الأردية الشعبية في أسلوبٍ سهلٍ واضحٍ .

ونشأت من هذه الحركة التعليمية الدَّعوية مدرستان للحديث والسنة ؛ إحداهما : مدرسة « صادق فور[٢] السلفية » ورائدها العلامة ولايت علي العظيم آبادي من كبار خلفاء السيد الشهيد ، وأحد العلماء الربانيِّين في الهند في العهد الأخير .

ويقول العلامة السيد عبد الحي الحسني ـ رحمه الله ـ وقد حضر دروسه ، وأجازه الشيخ في الحديث :

---

(١) نقل العلامة الندوي هذا الكتاب إلى العربية وسماه : « رسالة التوحيد » وقد اطلع عليه أحد الأساتذة السعوديين الكبار ، فقال : « هذا منجنيق التوحيد » .

(٢) صادقفور : حيٌّ من أحياء مدينة « پتنا » عاصمة ولاية « بيهار » كانت مركزاً لأنصار السيد الشهيد ـ رحمه الله ـ .

« رزقه الله سبحانه عمراً طويلاً ، ونفع بعلومه خلقاً كثيراً من أهل العرب والعجم ، انتهت إليه رئاسة الحديث في بلاد الهند ، وكان آيةً ظاهرةً ، ونعمةً باهرةً من الله سبحانه في التقوى ، والديانة ، والزهد ، والعلم ، والعمل ، والقناعة ، والعفاف ، والتوكل ، والاستغناء عن الناس ، والصدق ، وقول الحق ، والخشية من الله سبحانه ، والمحبة له ولرسوله ـ ﷺ ـ ، وكان شديد الإنكار على ما خالفه من المذاهب ، مُداعباً ، مزَّاحاً ، متواضعاً ، حليماً ، ذا جراءةٍ ونجدةٍ »[1] .

* * *

(١) ليرجع إلى الجزء الثامن من كتاب « الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام » .

السيِّد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد
مجدِّد القرن الثالث عشر(١)

الحمد لله ربِّ العالمين ، وصلَّى الله على سيِّدنا ومولانا محمَّدٍ وعلى آله وأصحابه الطَّاهرين الطيبين ، ومن اتبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّين .

أما بعد ! فلم تزل سنَّة الله في عباده ولا تزال ـ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ـ أن يبعث فيهم ـ وقد أخذ الشيطان قيادهم ، وذهب بهم النسيان مذهبه حتى ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : ١٩] ـ مذكراً مبشراً منذراً .

فترى أنَّ الإنسان يذكر شيئاً فكأنَّه لا ينساه أبداً ، ثم يضرب عنه صفحاً ، فكأنه لم يكن قطُّ على ذكرٍ منه ﴿ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف : ٥٤] .

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴾ [طه : ١١٥] ، ﴿ وَلَـٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾ [الفرقان : ١٨] ، ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٤] ، ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٥] ، ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة : ١٣] ، ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر : ١٩] ، فلا بدَّ من التذكير ولا غنى عنه ﴿ ۞ وَٱتْلُ

(١) هذه أول مقالة للعلامة النَّدوي كتبها وهو في الخامسة عشرة من عمره ونشرها العلامة رشيد رضا في مجلته الغراء « المنار » في عدد (ذي الحجة) ١٣٤٩هـ مايو ١٩٣١م .

عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ [يونس : ٧١] ، ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ﴾ [إبراهيم : ٥] ، ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية : ٢١] .

وكان محمد ﷺ خاتم النبيين ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] به أكمل الله للبشر دينهم ، وأتمَّ عليهم نعمته .

مجددو الأمة ومصلحوها بعده :

قال ﷺ : « لا تزال طائفةٌ من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرُّهم من خالفهم » رواه الشيخان ، وغيرهما وفي السنن : « إن الله يبعث على رأس كل مئة عامٍ من يجدِّد لهذه الأمة أمر دينها » رواه أبو داود ، وغيره .

فلم يزل في هذه الأمَّة من جدَّد لها أمر دينها ، وأيقظها وقد طال بها الكرى ، وبثَّ فيها روح الحياة والعمل .

وأرجو أن يكون السيد الإمام أحمد بن عرفان مجدِّد القرن الماضي ، وأنا على ثقةٍ وبصيرةٍ إن شاء الله ، فمنه كان عصر النهضة الإسلامية ، وإليه يرجع فضل النشأة الحاضرة .

حالة الهند العامّة في عهد نشأته :

انتهت الحرب السياسية التي دارت بين المسلمين واليسوعيين في القرن الثامن ، وذهبت على أثرها السياسة الإسلامية ؛ إذ ذهبت الحمية الإسلاميَّة ، وسكرة العزَّة المدنيَّة ، وفقد العالم الإسلامي نشاطه وروحه ، ولم يبق يومئذٍ من الإسلام إلا اسمه ، ومن الدين إلا رسمه .

طرأت على الهند حوادث سياسيةٌ ، فكثر المفسدون ، وأخذوا يعيثون فيها فساداً ، ويغرسون بذور الفتنة استئثاراً بالإمارة ، فلم يكن فيها من يكبح جماحهم ، ويقطع دابرهم ، فحدثت ثورةٌ بعد ثورةٍ ، وبغوا ، وطغوا ، وأكثروا فيه الفساد ، وانقطعت وسائل الرَّاحة ، والطمأنينة حتى إذا احتلَّت الهندَ الإنكليزُ لعبت يدهم بسياسته ، وساروا على قاعدة « فرِّق تسد » وأوقدوا نار العداوة بين أمراء الهند وملوكها ، حتى صار بأسهم بينهم شديداً ، وصار

يقتل بعضهم بعضاً ، وكانوا مع الحروب الدَّاخلية يحاربون عدواً آخر وهو الفرنساويون ، فانكسروا ، وانكسر الفرنساويون ، وآل الأمر إلى الإنكليز .

أما ملوك دهلي[١] فبقوا كأعجاز نخلٍ خاويةٍ ، أو خشب مسندةٍ ، حتى إذا استشهد المغفور له السلطان طيبو الذي حارب الإنكليز ، ودفع عن المسلمين سنة تسع وتسعين وسبعمئة وألف ميلادية ؛ ضاقت على المسلمين أرض الهند ، وكادت تلفظهم .

إنَّ مما امتاز به العرب عن غيرهم أنَّهم إذا دخلوا قريةً غيَّروا دينها ، ومدنيتها ، واجتماعها ، ومعاشرتها ، وآدابها ، ولسانها من غير جبرٍ ، ولا استكراه ، وانقاد أهلها رضاً وطاعةً لهم ، وحباً وكرامةً لطاهر عواطفهم الملية ، ولكرمهم وتقواهم ، وحسن معاملتهم لهم .

وأما ملوك الهند وفاتحوه ؛ فقد خلوا من تلك العواطف الملية الطاهرة ، وإنما ألجأتهم إليه مطامعهم ، فزحفوا ، وفتحوا عليه وحكموا ما شاء الله أن يحكموا ، فداس أكثرهم أحكام الإسلام ، وشرائع الدِّين ، كما يظهر من أعمالهم المنكرة التي يأباها كلُّ ذي ضميرٍ حيٍّ فضلاً عن المتدينين .

فالتيموريون لما استقرَّت بهم الحكومة أراد بعضهم أن يستتب أمره ، فلم يجد بداً من معاضدة الوثنيين له ، فألان جانبه لهم ، حتى ازورَّ جانبه عن المسلمين ، ومال إليهم ميلاً شغله عن الدين ، بالرغم من المتدينين ، فتزوج فيهم ، وخرَّ لأوثانهم ، وصار كأنَّه واحد منهم ، لا يخيَّل لأحدٍ أنه مسلم ، ثم أمرهم بعبادة شخصه ، فخرُّوا له سجداً ، وكفَّروا له[٢] .

فهذا كان شأن الحكومة الإسلامية في الهند في ربيع حياتها ، أو ريعان شبابها ، فما ظنُّك بها في وهنها وهرمها ؟

اتخذوا القرآن هزؤاً ، بل كان تلقينه والاستمساك به ذنباً لا يغفر ، فلم

---

(١) دهلي : مهد الحكومة الإسلامية ومدفنها كانت بغداد الهند وقرطبتها عدَّة قرون .
(٢) يقال : كفَّر الرِّجال للملك مثلاً : إذا خضع له ، فوضع يده على صدره وطأطأ رأسه وانحنى تعظيماً له .

يكن يوجد للقرآن ترجمةٌ في أي لسان إلا الترجمة الفارسية المنسوبة إلى الشيخ سعدي رحمه الله ، حتى إنَّ الشيخ العلامة ولي الله بن عبد الرحيم الدَّهلوي حين ترجمه خشي على نفسه ، واضطر أن يهاجر من الهند .

وأمَّا الحديث فلم يبق إلا رواياتٌ وأساطير كأساطير ألف ليلة وليلة ، كانوا يسجدون بين يدي القبور سجودهم بين يدي الله ، فكان القبر قبلتهم التي يتوجهون إليها ، وملجأهم الذي يلجؤون في شدائدهم وحاجاتهم إليه ، فكانوا يزينونه ، ويزخرفونه ، ويطوفون به ، ويعكفون عليه ، وكانت تعقد عليه الأسواق ، وتجتمع عندها المواكب ، وكلُّ امرىءِ رضي بشيخه رائداً ، وإلى النجاة قائداً ، حتى إذا توفي أحدهم دفنت معه صحيفة عليها اسم شيخه ، ونسبه ظناً أنَّها تقيه سوء العذاب .

ثم المتصوفون ـ تصوفاً مبتدعاً ـ أحلّوا ما حرم الله ، وجعلوا المنكر معروفاً ، والباطل حقاً ، واعتدوا وأسرفوا ، واتبعوا أهواءهم ، فضلُّوا وأضلُّوا ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، واتَّخذوا دينهم لهواً ولعباً ، ولذةً وطرباً ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، وكان الإسلام يومئذٍ كالمسيحية ما هي إلا أوهام ، ومعتقداتٍ ، وأسماء سموها استغناءً بها عن الأعمال .

أخلاقهم ومعاشرتهم :

فسدت أخلاقهم فساداً ما وراءه غاية ، كانت أنديتهم أندية الرِّجس ، زينتها المومسات ، حتى إنَّ كبار الأشراف كانوا يرسلون صغارهم يتعلمون منهنَّ الآداب ، وكانوا يشتغلون بالقمار ، والخمر ، والمسكرات ، والملاعب السَّافلة ، ولم يكن لهم شغل عنها .

وأما الأمراء ؛ فقد جرى بينهم من الأمور من الأمور السَّافلة الدنيئة ما لا طاقة لذي شرفٍ ولا أدب على سمعه .

بلغ النساء تحت رجلٍ واحدٍ عدد المئات ، ولا خلاق لهنَّ ، وكان نكاح الأيامى عاراً وعيباً وفضيحةً ، حتى كانوا يقتلون من ينكحها ، ولا نصيب للبنات .

لم يأت على المسلمين حينٌ من الدَّهر مثل هذا الحين ، فقد ابتلوا بلاءً عظيماً ، ذهبت ريحهم ، وخابوا ، وخسروا لما فقدوا الدِّين والسياسة ، فكانت الأمَّة كمريضٍ نهكته الأمراض ، وبلغت منه مبلغها ، وجرت مجرى الرُّوح والدَّم ، وثقلت عليه وطأة الدَّاء ، وذهب رئيس أعضائه ، وحارت فيه الأطباء ، وبلغ اليأس منتهاه .

فما ظنك برجلٍ قام لمعالجته ؟ ما ظنُّك برجلٍ قام في مثل هذا الوقت لرأب الثَّأي[1] ، ورتق الفتق ، ما ظنُّك برجلٍ قام للمدافعة عن المسلمين لما ضاقت عليهم الأرض ، وكادت تميد بهم ؟ ما ظنُّك برجلٍ جاهد في سبيل الله حقَّ جِهاده ، وأبلى بلاءً حسناً ، وسقى الشجر الإسلاميَّ في الهند بدمه بعدما عراه الذُّبول .

خلاصة تاريخية لنشأته وجهاده الإصلاحي :

ولادته :

ولد في غرَّة المحرم الحرام سنة إحدى ومئتين وألف ـ وقيل : في صفر ـ من أسرةٍ كريمةٍ ببلدة (رائي بريلي) من أعمال لكهنؤ في زاوية جدِّه السيد علم الله النقشبندي البريلوي ، من ذرية الأمير الكبير بدر الملة المنير شيخ الإسلام الأمير قطب الدين أحمد بن محمد المدني ، ومن أبٍ كريمٍ اسمه السيد عرفان ، ينتهي نسبه إلى حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

دراسته :

لما بلغ الرابعة من عمره دخل المكتب ، ومرَّت به سنوات لم يرغب في تلقي العلوم المتعارفة إلا نقش المفردات والمركبات من الكتاب ، وسوراً حفظها من القرآن الكريم ، فلم يرض له الله أن يستأثر بلبه شيء غيره ، وكان صنوه الكبير العالم الأديب السيد إسحاق بصدد تعليمه ، وهو لا يميل إلى

---

(١) الثَّأْيُ والثَّأَي : الخرْم ، والفساد ، والضعف ، وأثر الجرح ، يقال : رأب الثأي ورتقه ؛ أي : أصلح الفاسد .

القراءة ، فقال أبوه : دعوه وشأنه ، وكلوه إلى الله سبحانه ، فأعرض عنه ، ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره عكف على القرآن ، وعني به ، فكان يتدبَّره ليلاً ونهاراً ، فعلت مداركه ، وصقلت مرآة قلبه ، ولم تكد نفسه تقنع من خدمة الضعفاء ، وأبناء السبيل ، والأرامل ، والأيتام ، فكان يذهب إلى بيوتهم ، ويقضي حوائجهم ، ويستقي ، ويحتطب لهم ، ويجتلب الأمتعة من السوق ، قائماً صائماً محيياً ليله في دعاءٍ أو صلاةٍ تضرُّعاً .

من رائي بريلي إلى لكهنؤ :

لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره حتى ذاق مرارة اليتم ، فاضطرَّ أن يتولَّى أمر أسرته ، وألجأته قلَّة الوسائل إلى مهاجرة الوطن ، فشخص إلى لكهنؤ مع سبعة رجال من عشيرته ، ولم يكن لهم إلا فرسٌ واحدٌ كانوا يتعاقبون عليه (يتناوبونه) وهو يترك نوبته لهم ، واحتاجوا إلى حمَّال يحمل أثقالهم ، فسألهم أن يضعوها على رأسه ، وألحَّ عليهم ، وجعل ينشدهم الله ، فوضعوها ، وبلغ لكهنؤ فاحتملها ، فلقيه أحد رجال السياسة ، فاحترمه ، وأحسن مثواه ، وفوَّض إليه خدمتين من الخدمات العسكرية فأعطاهما لرجلين من رفقائه ، وكان يصنع له طعاماً جيداً كلَّ يومٍ فلا يأكل منه ، بل يتركه لأصحابه ، ويأكل خبزاً بحتاً قفاراً ، رؤي منه يومئذ من الرشد ، والسعادة ، والصدق، والعفاف ، والكرم ، والتقوى ، والإيثار على نفسه ما بهر أصحابه.

ورأى يوماً شرطياً ومعه حمَّال يحمل دَنّاً ملآن يحمله خوفاً منه ، ولا يكاد يحمله ، ويبكي ، فتقدَّم إليه ، وشفع له ، فأبى إلا أن يحمله مكانه ، فرضي وحمله .

نشأته الروحانية :

وتوجَّه إلى دلهي ، وكان فيها يومئذٍ حضرة الشيخ العلاَّمة عبد العزيز بن ولي الله[1] فلما بلغه أنَّه سبط الشيخ

(١) الشيخ الإمام العالم الكبير العلاَّمة المحدث عبد العزيز بن ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدَّهلوي سيد علمائنا في زمانه ، وابن سيدهم ، لقبه بعضهم سراج الهند ، =

أبي سعيد[١] ، وابن أخ السيد نعمان[٢] احترمه غاية الاحترام ، وأسكنه في

= وبعضهم حجَّة الله ، ولد ليلة الخميس لخمس ليال بقين من رمضان سنة تسع وخمسين ومئة وألف (١١٥٩هـ) حفظ القرآن الكريم ، وأخذ العلم عن والده ، فقرأ عليه بعضاً ، وسمع منه بعضاً آخر بالتحقيق والدراية ، والفحص والعناية ، حتى حصلت له ملكة راسخة في العلوم ، ثم أخذ عن أجلة أصحاب والده ما فاته وانتفع بهم ، كان ـ رحمه الله تعالى ـ أحد أفراد الدنيا بفضله ، وآدابه ، وعلمه ، وذكائه ، وفهمه ، وسرعة حفظه ، اشتغل بالدرس والإفادة ، وله خمس عشرة سنة ، ندرس ، وأفاد حتى صار في الهند العلم الفرد ـ تخرج عليه الفضلاء ، وقصدته الطلبة من أغلب الأرض ، وتهافتوا عليه تهافت الظمآن على الماء ، وكان مع الأمراض المؤلمة والأسقام المفجعة ـ لطيف الطبع ، حسن المحاضرة ، جميل المذاكرة ، فصيح المنطق ، مليح الكلام ، ذا تواضعٍ ، وبشاشةٍ ، وتودُّدٍ لا يمكن الإحاطة بوصفه ، وجملة القول فيه : إن الله تبارك وتعالى قد جمع فيه صنوف الفضل وأشتاته التي فرقها بين أبناء عصره في أرضه . مختصراً من كتاب « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر » للعلاَّمة الفاضل السيد عبد الحي رحمه الله الرائي بريلوي ناظم ندوة العلماء سابقاً .

(١) السيد الشريف أبو سعيد بن محمد ضياء الدين بن آية الله بن الشيخ الأجل علم الله النقشبندي البريلوي أحد العلماء الربانيين ، ولد ونشأ ببلدة رائي بريلي ، ثم رحل إلى دهلي ، ولازم الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدَّهلوي ، وأخذ عنه ـ كان شيخاً جليل الوقار ، عظيم الهيئة ، كريم النفس ، مسدي الإحسان ، مقري الضيفان ، سافر إلى الحجاز مع أصحابه ، ووصل إلى مكة المباركة في شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين ومئة وألف (١١٨٧هـ) واستعد بالحجِّ ، وسافر إلى المدينة المنورة وأقام بها ستة أشهر يشتغل في خلالها بالعلم ، والقراءة ، والمذاكرة . وكان ـ رحمه الله ـ جالساً تجاه المرقد النبوي عن زيغ البصر ، فرآه كأنَّه خرج من الحجرة المباركة ، وجلس قدَّامه ، وتبسم ، فحكي أنه كان يقول : إنِّي رأيت رسول الله ﷺ في المدينة بهذه العين ، ورحل إلى الطائف ثم إلى الهند ، ومات في رمضان سنة ثلاث وتسعين ومئة وألف (١١٩٣هـ) ببلدة رائي بريلي ، فدفن بها . « نزهة الخواطر » .

(٢) السيد الشريف نعمان بن نور بن هدى بن علم الله الحسني النصيرآبادي العالم الصالح ، ولد ونشأ بنصير آباد على بضع أميال من رائي بريلي واشتغل بالعلم زماناً في بلدته ، ثم سافر إلى لكهنؤ ، وقرأ على الشيخ عبد الله ، ثم رجع إلى رائي =

مسجد الأكبر آبادي عند صنوه عبد القادر ، وأوصاه به ، فتلقى منه شيئاً نزراً من العلم ، بايع الشيخ عبد العزيز ، وأخذ عنه الطريقة حتى نال حظاً وافراً من العلم والمعرفة ، وفاق الأقران ، وأتى بما يتحيَّر منه أعيان البلدة في العلم والمعرفة ، وكان ذلك في سنة اثنتين وعشرين ومئتين وألف (١٢٢٢هـ) .

ثم غلب عليه شوق الجهاد في سبيل الله ، فذهب إلى معسكر الأمير المجاهد . . . . نواب ميرخان ، ولبث عنده بضع سنين ، وكان يشتغل بالحرب ، ويقوم ويصلِّي حتى تورمت رجلاه ، وكان يحرضه على الجهاد ، فلما رأى أنَّه يضيع وقته في الإغارة ، ويقنع بحصول المغنم ؛ تركه ، ورجع إلى دهلي ، فدخل في بيعته الشيخ عبد الحي بن هبة الله البرهانوي ، وكان فاضلاً متضلِّعاً إماماً عالماً كبيراً ، والشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدَّهلوي ، وكان ممن يشار إليهم بالبنان ، فجعل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فكأن الله جمع قلوب أهل التقوى على محبته ، والدُّعاء له ، فنهض من دهلي مع جماعة من الأنصار ، ودار القرى والبلاد ، فنفع الله به خلقاً كثيراً من عباده ، وناظروه ، وكابروه ، وهو ثابت لا يداهن ، وله إقدامٌ ، وشهامةٌ ، وقوَّة نفسٍ توقعه في أمورٍ صعبةٍ ، فيدفع الله عنه ، وكان دائم الابتهال ، كثير الاستعانة ، قويَّ التوكُّل ، ثابت الجأش ، ذاكراً لله تعالى في كلِّ أمر ، ورجاعاً إليه في سائر الأحوال ، وقافاً عند حدوده ، وأوامره ، ونواهيه حتى دخل بلدته « رائي بريلي » وكان توفي صنوه المرحوم إسحاق بن عرفان ، فخطب حليلته فهاج الناس ، وكبر عليهم ، أنكروا عليه ذلك ، فلم يأبه لإنكارهم ، وما زال يدافعهم ، ويخطب حتى تزوَّجها ، فكان أول نكاح في السادة والأشراف بأرض الهند ، ثم تزوَّج الفاضل الشيخ عبد الحي بأخت الفاضل الشيخ

= بريلي ، وبايع السيد محمد بن علم الله البريلوي ، ولازمه زماناً ولما توفي السيد محمد المذكور لازم ولده محمد عدل ، وأخذ عنه الطريقة ، ثم ساح البلاد ، وأدرك المشايخ الكبار ، منهم الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدَّهلوي ، وخلق آخر من المشايخ ، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين ، فحجَّ ، وزار ، وراح إلى القدس ، والخليل وتوفي في أثناء السفر لخمس خلون من جمادى الآخرة سنة ١١٩٣هـ بالقدس الشريف ، وله رسائل ومصنفات . « نزهة الخواطر » .

إسماعيل ، وكانت أرملةً كبيرةَ السن ، ثم توارث فيهم .

وكان الشيخ إسماعيل بن عبد الغني ، والشيخ عبد الحي بن هبة الله المذكورين ، وخلقٌ آخر من العلماء والمشايخ في ركابه يأخذون عنه الطريقة ، ويكتسبون عنه ، فلبث ببلدة « رائي بريلي » ما شاء الله ، ثم سافر إلى لكهنؤ ، فبايعه ألوف من الرِّجال ، وتلقَّاه الوزير معتمد الدولة بالترحيب والإكرام ، وعرض عليه خمسة آلاف من النقود ، وكان السيد الإمام في تلك الأيام يجهِّز للهجرة والجهاد ، فتعرض له الحجُّ .

الحجُّ :

الحجُّ قبل الجهاد ، فإنَّه تمرينٌ له ، وتحريضٌ عليه ، فالوقوف بعرفة يشبه القيام في ساحة الجهاد ، وفي السعي بين الصَّفا والمروة والطواف ما يزيد شوقاً إلى الشهادة ، فالله قبل أن يأمر بالجهاد بيَّن أحكام الحج وشعائره ، وقال ﷺ : « أفضل الجهاد حجٌّ مبرور » وقال عمر رضي الله عنه : شدُّوا الرِّحال في الحجِّ ، فإنه أحد الجهادين ، رواه البخاري ، فأراد السيِّد الإمام ألا ينزل بالعدو حتى يحجَّ ليزدادوا شوقاً إلى الشهادة ، وخلوصاً لله ، واستعداداً في سبيله ، ولتبلغ شهرتهم ونشاطهم أشدَّها .

وكأن الناس امتنعوا عن الحجِّ لما رأوا شرَّ الأعراب (البدو) وفسادهم ، فأراد أن يحيي هذا الركن العظيم، فسار رحمه الله ومعه سبع وخمسون وسبعمئة من أصحابه ، وليس معه إلا دراهم معدودة ، فركب ، وبذلها على المساكين ، وقال : نحن أضياف الله ، لا نلجأ إلى الدِّينار والدرهم ، ومرَّ على مواضع عديدةٍ وبلاد ، فدخل في بيعته خلق ، وانتفع به أقوامٌ لا تعدُّ ، حتى وصل إلى « كلكتا » وأقام بها أياماً بإذن الحاكم العام للهند ، ثمَّ ركب ، وذهب إلى الحجاز سنة سبع وثلاثين ومئتين وألف ، فحصل له الوقائع الغريبة في هذا السفر حتى بلغ مكة فبايعه العلماء والشيوخ ، منهم الشيخ محمد عمر مفتي مكة ، وهو من أساتذة شيخ العلماء الشيخ عبد الله سراج ، والسيد عقيل ، والسيد حمزة ، والشيخ مصطفى إمام المصلَّى الحنفي ، والشيخ شمس الدين المصري ، وكان خطيباً ببيت الله الحرام ، وانتفع به خلق كبيرٌ من أهل الحرمين .

وعرَّب لهم الشيخ عبد الحي كتاب « الصِّراط المستقم » للشيخ إسماعيل، وحجَّ ، وزار ، وقفل بعد سنة حتى وصل إلى « رائي بريلي » في سنة تسع وثلاثين ومئتين وألف ، فلبث بها سنتين .

وبعث الشيخ إسماعيل والشيخ عبد الحي إلى بلادٍ شتَّى للتذكير والإرشاد ، فدارا البلاد ، وهدى الله بهما خلقاً كثيراً من العباد .

وكان السيد الإمام يتجهَّز للهجرة والجهاد ، فخرج مع أصحابه في سنة إحدى وأربعين من بلدته ، وسافر إلى بلاد أفغانستان ، فلما وصل إلى بلاد « بنجتار » وقف بها ، وحرَّض المؤمنين على الجهاد ، وبعث أصحابه إلى « كابل » وكاشغر ، وبخارى ليحرضوا ملوكها على الشركة والإعانة ، فبايعه الناس ، واجتمع تحت لوائه ألوف من الرِّجال ، فرجع إلى الهند .

الجهاد :

﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء : ٧٥] ، وكان يومئذٍ على بنجاب قومٌ طوال الشعور ، يقال لهم « سيكه » وهم قومٌ أولو بأسٍ شديدٍ ، نهض كبيرهم « كرونانك » في زمان بابر « مؤسس الحكومة التيمورية في الهند » ولد سنة ١٤٩٠م وهو صاحب ديانتهم ، وله كتابٌ فتصدَّى لقتالهم بعض الملوك التيمورية في الهند فلجؤوا إلى الجبال حتى ضعف أمر المسلمين ، فغلبوا على « بنجاب » فأوقدوا للمسلمين نار الحرب ، ومنعوهم العذب ، وفعلوا بهم الأفاعيل ، وأجلسوهم الخوف[١] واستحلُّوا دماءهم وأعراضهم ، ومنعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ، وسعوا في خرابها .

فبعث إليهم الشيخ إسماعيل وكان رحمه الله بالغاً في الشجاعة والإقدام ، وتعلَّم فنون الحرب ، والمسابقة ، والرمي ، والسباحة ، حتى صار لا يدانيه أحدٌ فيها ، فرجع وأخبره بما رأى فعزم على الرحيل ، وكتب إلى الدولة

---

(١) أي : ألزموهم إياه .

الإنكليزية ألا يتعرَّض لها ، فلم تتعرَّض له ، فسار على بركة الله ، ومعه عشرة آلاف ، فأتى كابل ، وبشاور حتى أقام على موضع « حوشيكي » .

ثم قدم « نوشيره » وعسكر هناك وكتب إليهم كتاباً إتماماً للحجَّة أن أجيبوا دعوتنا دعوة الإسلام ، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله ، وأقمنا على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم ، أو الجزية نقبل منكم فنكف عنكم ، وإن احتجتم إلينا نصرناكم ، فإن أبيتم فالمناجزة ، ولستم أجرأ على الموت منا ، وهو أحبُّ إلينا من الخمر والفسق إليكم ، والسلام على من اتبع الهدى .

فسرحوا القائد « بده سنكه » في عشرة آلاف ، فأقام على بضع أميال من « نوشيره » وبينهم وبين المسلمين نهر .

فلما بلغ السيد مسيره تعبَّأ للقتال ، وولى الحروب رجالًا ، فجعل على المقدمة الشيخ إسماعيل ، واستخلف على الميمنة الشيخ محمد يوسف ، وعلى الميسرة محمد يعقوب ، والشيخ « بدهن » وعلى الساقة إلهي بخش خان ، وعلى القلب رجالًا ، وكان بنفسه على الميمنة ، وسيَّر تسعمئة متبوع معروفين بالنجدة والبأس ، وأمَّر عليهم « إلهي بخش خان » وأمرهم بالإغارة ليلًا ، فأغاروا عليهم ، واشتدَّت الحرب ، وطال القتال ، حتى كان لهم الفتح بإذن الله ، وانهزم الكفار ، وولَّوا الدبر ، وكانوا كما تقدَّم عشرة آلاف ، فقتل منهم سبعمئة ، وأُصيب من المسلمين اثنان وسبعون ما بين قتيل وجريح ، ولم تزل الوقائع تقع بينهم وبين المسلمين ، فكانت الدولة للمسلمين عليهم ، يهزمهم الله أشدَّ هزيمةٍ ، وينصر أولياءه حتى أنَّ خمسين رجلاً هزموا نحو خمسمئة .

ولكن أتى من الخوانين والأفاغنة ما استنكره ذوو الرأي والعلم ، فاتفقوا على أن يبايعوه ، فتكون الأمة أمَّةً واحدة ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، فمن تولى منهم اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء : ١١٥] .

فبويع في جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين ومئتين وألف ، وخطب له ، وذكر اسمه على المنابر ، فازدادوا عدداً وقوّةً ، حتى بلغ عددهم إلى مئة ألف ، ولكن تعصب أعداء الله ورسوله في شأنه ، وشأن أتباعه فنسبوا طريقته إلى محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه الله ، ولقبوهم بالوهابية ، وزين لهم الشيطان قولهم ، فصدوا عن السبيل ، وابتغوا الفتنة ، وقلبوا له الأمور ، ورغبوا إلى الكفار ، وصاروا أولياءهم في الخفاء ، ولم يألوا شراً ، حتى جعلوا في عشائه سمّاً ، فأغمي عليه ، ولم يفق سبعة أيام ، فكانت الهزيمة على المسلمين ، حتى إذا كان اليوم الثامن أفاق فأخبره الخبر وأسروا ، وقد أفتى علماء الأمة بقتلهم ، فعفا عنهم ولم يعاقبهم ، وتوفي الشيخ محمد يوسف في تلك الأيام .

وقدمت الوفود وفيها الشيخ العلاّمة عبد الحي ، ومعهم أموال ، وغنائم ، فأخصبوا ، وكان قد فني الزاد ، وأعوز القوت حتى أكلوا الخبط ، وأغاروا على موضع « دمكله » وصار الشهيد في اثني عشر رجلاً ، فأغار على موضوع « شنغزي » فعزم وقتل من الكفار يومئذ مئة ، وأهدى إليه « سليمان شاه » عظيم « كاشغر » جاريةً ، فلم تزل معه حتى استشهد ، فذهبت إلى « تونك » حيث أقامت حتى توفيت وولد منها ابنته السيِّدة هاجر .

ولما علم المنافقون أنَّه ظهر له مكرهم ، وغدرهم جعلوا يحاربونه علانيةً ، ونصبوا له العداوة ، فقاتلهم على مواضع كثيرةٍ ، وفتح الله له ، وجرح أميرهم « يار محمد خان » فمات منه ، فحنق أخوه « سلطان محمد خان » وناهز حصن « هند » وفيه ستون رجلاً أو يزيدون ، فأحاط بهم ، وقال : لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم أحداً ، فنزلوا فاستمكن منهم ، وقال : أقتلكم على قبر أخي ، فأوشك أن يقتلوا ، لولا أن الله وقاهم شره ، وكفاهم أمره ، فبلغوا سالمين .

وقاتل الكفار على مواضع عديدةٍ ، فكان الفتح حليفه ، وبادر الشيخ إسمـاعيل ، فغلب على « هوتي مروان » [موضع] ثم صار السيد رضي الله عنه ومعه الشيخ إسماعيل رحمه الله ففتح بشاور ، وأرسل إليه الأمير سلطان

محمد خان يستعفيه ، ويسأله أن يترك له تلك البلاد ، فعفا عنه وأجابه .

وأمَّر على القضاء الفاضل السيد مظهر علي رحمه الله ، وأقيمت الحدود والأحكام الشرعية ، ولكن لم تمض أيام قلائل حتى غدر عدو الله ، ونقض العهد ، فقتل السيد القاضي والأمراء والعمال على الصَّدقات .

فلما بلغه ـ رضي الله عنه ـ الخبر أراد الهجرة من تلك الأرض ؛ لأنها أرض فساد وبغيٍ وغدر ، فجمع الناس ، فشكر لهم ، ودعا لهم ، ثم ودعهم فبكوا ، وقالوا : لا نطيق فراقك ، فأصحبهم كرهاً منه .

وأمر على تلك البلاد فتح محمد خان ، وأمره بتقوى الله ، وطاعته ، والاستعانة بالله في الأمور ، والرجوع إلى كتاب الله ، ثم غادر تلك البلاد فما فارقهم حتى هجم الكفار عليهم ، فأخذهم الله بغدرهم ونفاقهم فقتلوا ونهبوا ولم يبق منهم إلا القليل .

ووصل السيد ـ رضي الله عنه ـ موضع راج دواري من أعمال كاغان في شعبان سنة ست وأربعين ومئتين وألف حيث ولدت بنته السيِّدة هاجر .

وسار الشيخ إسماعيل في أربعمئة أو نحوها فلم يُبْقِ جيشاً إلا هزمه ، ثم رجع فلحقه .

وتوجه القائد شير سكنه إلى « بالاكوت » فبادره السيد ، فسبقه إليه ، وغلب عليه .

وسدَّ الطرق والثغور ، وأجلس على ثغر بعض من لم يكن ينبغي أن يعوَّل عليهم ، فأخذوا منهم الرشوة ، ودلوهم عليه ، وأدخلوا الثغر ، فلم يشعر المسلمون بهم حتى هجموا عليهم ، فبادر السيد وبادروا يقاتلونهم ، ووثب الشيخ إسماعيل ، فشقَّ صفوفهم ، وخرقها ، وجعل لا يرتفع له شيءٌ إلا حطمه .

إذ أتاه الرجل من ورائه فعلاه بالسيف فرضي الله عنه وأرضاه لم يزل قائماً حتى برد فوقع ، وأكرم الله من أكرمه يومئذٍ بالشهادة وبقي منهم من بقي عرضةً للقتل والنهب .

وأما السيد ـ رضي الله عنه ـ فلقي ربه ، فبلغ منتهى أمله ، وأقصى أجله ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ وتفرَّق الناس فيه ، فمنهم من يقول : إنه استشهد ، ومنهم من يقول ـ وهو الضَّال ـ : إنَّه غاب ، وسيخرج ويملأ الدنيا قسطاً وعدلًا .

وللناس فيما يعشقون مذاهب .

وذهب بزوجته وابنته الشيخ « ولي محمد » إلى « طونك » وتفرقت الجماعة بعده وآخرون لجؤوا إلى الجبال ، فلم يزالوا قائمين بأمرهم إلى يومنا هذا لم يضرَّهم من خالفهم .

الطريقة :

وهنا أصلٌ عظيم لا يجوز إهماله ، ولا بدَّ من معرفته ، وبه تعرف مزية السيد الإمام على غيره ، وكبير فضله ، وعظيم شأنه ، بما خصه الله تعالى بفضله ، ومنَّ عليه ، وأيده إلى الصراط المستقيم ، وهو أنَّ القوم اختصروا على العلوم ، والمعارف ، والأحوال ، والمواجيد ، والأذواق ضرباً عن الشريعة ، وحسبوها من المقاصد ، فأفسدوا الأمر ، فبيَّن أنَّه لا بدَّ من اتِّباع الشريعة ، والانتماء إلى النبي ﷺ ، واقتفاء آثاره ، والحرص على اتباع سنته ، وهديه ﷺ ، وهو أقوم وأهم ، ولا تكون السعادة إلّا به ، ولا يتمُّ الأمر بدونه ، وهو الأصل ، فسدَّ بذلك طريق الإلحاد على كثيرٍ ممَّن يتستَّر بزي الصوفية ، أنكر أهواءهم الزائغة ، وردَّ على المبتدعين ، ونقض بدعهم ، ومكائدهم ، وحيلهم ، وما أحدثوا ، وفرق بين البدعة والسنَّة ، وأنَّ الشريعة متكفلةٌ بجميع السعادات الدنيوية والأخروية ، ولا يوجد مطلبٌ يحتاج في تحصيله إلى غير الشريعة ، وأمَّا الطريقة والحقيقة فهما خادمتان للشريعة وتحصيلها ، ولتكميل الشريعة لا غير ، فسدَّ الله به ثلمة ظاهر الدين ، كما رقع به خرق باطنه ، فهذب به ما شاء .

ونظر في الطريقة واجتهد ، ثم بيَّن أنَّه لا بدَّ للسالك من أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يكون أشدَّ حباً لله ، وهذا أصلِ الإيمان ، وأن يقدِّمه على نفسه ، وما أمر به على ما تأمر به نفسه ، ثم يلتذُّ به ، حتى

ينشرح له صدره ، وتقرَّ به عينه ، وتطمئن له نفسه ، ولا يرتاح إلّا إليه ، ويشتغل عن غيره ، وأن يتتبَّع آثار النبي ﷺ ، فالسعادة موقوفة عليه ، ومعلقةٌ به ، ويواظب على الأعمال ، ثم أن يحيي قلبه بالموعظة ويعمره بذكر الله ، ويزكِّي نفسه ، ويهذب أخلاقه ، ويجتنب الرذائل كالبخل ، والحسد ، والكبر ، والكذب ، والرِّياء ، والسمعة ، والطمع ، والحرص ، وغيرها مما نهى الله عنه ، وما يمنع عن نزول بركات الله ورحمته ، وأن يبتعد عما يشغله عن طاعة الله ، ويحضُّه على معصيته ، وليكن أشدَّ الناس حرصاً على الطاعات ، والتقرب إلى الله ، وأشدَّهم فراراً عن المعاصي ، وما يبعده عن الله ، وألا يعصي الله في طاعة الخلق ، ويجتنب البدعة ، ثم سرد فيه أبحاثاً لطيفةً وأحسن الكلام ، وسماه « الطريقة النبوية » ثم بيَّن طريق الولاية ، ومن شاء فليراجع « الصراط المستقيم » للشيخ إسماعيل .

جماعته :

الشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي :

الشيخ العالم الكبير العلامة المجاهد في سبيل الله الشهيد إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدَّهلوي أحد أفراد الدُّنيا في الذكاء ، والفطنة ، والشهامة ، وقوة النفس ، والصلابة في الدين ، ولد بدلهي لاثني عشر ربيع الآخر سنة ثلاث وتسعين ومئة وألف ، وتوفي والده في صباه ، فتربى في رعاية عمِّه الشيخ عبد القادر بن ولي الله الدَّهلوي ، وقرأ عليه الكتب المدرسية ، واستفاد من عمِّه الشيخ رفيع الدين ، والشيخ عبد العزيز أيضاً ، ولازمهم مدَّةً طويلة ، وصار بحراً زاخراً في المعقول والمنقول ، ثم لازم السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي ، وأخذ عنه الطريقة ، وسافر معه إلى الحرمين الشريفين في سنة سبع وثلاثين ومئتين وألف ، فحجَّ ، وزار ، ورجع معه إلى الهند ، وساح البلاد والقرى بأمره سنتين فانتفع به خلقٌ لا يحصى بحدٍّ ، وعدٍّ ، ثمَّ سافر معه إلى خراسان سنة إحدى وأربعين ومئتين وألف ، فجاهد معه في سبيل الله ، وكان كالوزير للإمام يجهِّز الجيوش ، ويقتحم المعارك العظيمة بنفسه ، حتى استشهد في « بالاكوت » من أرض

« كاغان » وكان نادرة من نوادر الزمان ، وبديعة من بدائعه الحسان ، مقبلاً على الله بقلبه وقالبه ، مشتغلاً بالإفادة والعبادة مع تواضعٍ ، وحسن أخلاقٍ ، وكرم وعفافٍ ، وشهامة نفس ، وصلابة دين ، وحسن محاضرة ، وقوة عارضة ، وفصاحةٍ ورجاحةٍ، فإذا جالسه منحرفُ الأخلاق أو مَنْ له في المسائل الدِّينية بعض شقاقٍ جاء من سحر بيانه بما يؤلف بين الماء والنار ، ويجمع الضبَّ والنون فلا يفارقه إلا وهو عنه راض ، وقد وقع مع أهل عصره قلاقل وزلازل ، وصار أمره أحدوثةً ، وجرت فتن عديدة في حياته ، وبعد مماته ، والناس قسمان في شأنه فبعضهم مقصِّرٌ به عن المقدار الذي يستحقّه ، بل يرميه بالعظائم ، وبعض آخر يبالغ في وصفه ويتعصَّب له ، كما يتعصب أهل القسم الأول عليه ، وهذه قاعدة مطَّردةٌ في كلٍّ من يفوق أهل عصره في أمر .

وأمَّا مختاراته في المسائل الشرعية فمنها : أنَّه ذهب إلى أن رفع اليدين في الصَّلاة عند الافتتاح والركوع والقيام منه والقيام إلى الثالثة سنة غير مؤكدة من سنن الهدى ، فيثاب فاعله بقدر ما فعل إن دائماً فبحسبه ، وإن مرَّةً فبمثله ، ولا يلام تاركه ، وإن تركه مدَّة عمره ، ومنها أن رفع المسبِّحة في أثناء التشهيد عند التلفظ بكلمة التوحيد ثابتٌ بحيث لا مردَّ له ، وإنَّ في مسألة القراءة خلف الإمام دلائل من الجانبين قويةٌ والأظهر أنَّ القراءة أولى ، فيقول فيه بقول محمد كما نقل عنه صاحب الهداية ، والجهر بالتأمين أولى من خفضه ؛ لأن روايات الجهر أكثر وأوضح ، وترك الجهر بالتسمية أولى من الجهر بها ؛ لأنَّ روايات النفي أكثر ، وأوضح من روايات الإثبات ، ووضع اليد على الأخرى أولى من الإرسال ، والإرسال لم يثبت عنه ﷺ ، بل ثبت الوضع ، كما روى مالك في الموطأ وغيره في غيره ، والوضع تحت السرة وفوق السرة متساويان ، والقنوت وتركه متساويان .

ومما ذهب إليه أن تجزؤ الاجتهاد وتجزؤ التقليد لا بأس به ، وإنَّ التزام تقليد شخصٍ معيَّنٍ لم يجمع على لزوم الاستمرار عليه ، وما اشتهر من منع التقاط الرخص أيضاً خلاف واتباع غير الأئمة الأربعة أيضاً مما لم يجمع على منعه ، واتباع مذهب الحنفية ليس تقليد شخص معيَّن ، فوحدة هذا المذهب اختيارية .

وكذلك وحدة سائر المذاهب الأربعة أيضاً ، فلا يلزم متبعها نقصان كما لا يلزم متبع المذهب الحنفي .

والحاصل : أنَّه لا يجوز التزام تقليد شخص معيَّن مع تمكن الرجوع إلى الروايات الدَّالة على خلاف قول الإمام المقلَّد ـ بفتح اللام ـ والتقليد المطلق جائز ، وإلا لزم تكليف كل عامي ، وإنَّ قول الصحابي من السنَّة في حكم الرفع ، وفهم الصحابي ليس بحجةٍ لا سيما إذا كان مخالفاً لأجلة الصحابة رضي الله عنهم .

مصنفاته :

وأمَّا مصنفاته فهي عديدةٌ أحسنها كتابه « الصراط المستقيم » بالفارسي جمع فيه ما صحَّ عن شيخه السيد الإمام قولًا وفعلاً ، وفيه بابان من إنشاء صاحبه الشيخ عبد الحي بن هبة الله الصديقي البرهانوي ، ومنها : (إيضاح الحق الصريح في القبر والضريح) في بيان حقيقة السنَّة والبدعة ، ومنها (منصب إمامت) في تخصيص منصب النبوَّة والإمامة ، وهو مما لم يسبق إليه .

ومنها رسالة في مبحث إمكان النظير وامتناع النظير ، كلُّها بالفارسية ، ومنها : مختصر له بالعربي في أصول الفقه ، ومنها : رسالة بالعربية في (ردِّ الإشراك والبدع) مرتبة على بابين ، ومنها : (تنوير العينين في إثبات رفع اليدين) بالعربية ، ومنها (سلك نور مزدوجة له) بالهندية ، ومنها « تقوية الإيمان » كتاب له مشهور بالهندي ، وهو ترجمة الباب الأول من رسالة في ردِّ الإشراك(١) .

وقال أحمد بن محمد البيهقي الدَّهلوي في آثار الصناديد : إنَّ له رسالة في المنطق ادَّعى فيها أنَّ الرابع من أجلى البديهيات والشكل الأول خلافه ، وأقام على ذلك الادعاء من البراهين ما لم يندفع ولم يتجرأ على دفعها أحد من معاصريه .

---

(١) نقل العلامة الندوي هذا الكتاب إلى العربية أسماه « رسالة التوحيد » وقد اطلع عليه أحد الأساتذة السعوديين الكبار ، فقال : « هذا منجنيق التوحيد » .

وقال الشيخ محسن بن يحيى الترهتي في اليانع الجني : إنه كان أشدَّهم في دين الله ، وأحفظهم للسنَّة ، يغضب لها ، ويندب إليها ، ويشنِّع على البدع ، وأهلها ، من مصنفاته كتاب الصراط المستقيم في التصوُّف ، والإيضاح في بيان حقيقة السنَّة والبدعة مشهوران ، يرغب الناس فيهما ، ومختصر في أصول الفقه وقرَّة العينين (صوابه تنوير العينين) انفرد فيها بمسائل عن جمهور أصحابه ، واتبعه عليها أناس من المشرق من (بنكله) وغيرها أكثر عدداً من حصى البطحاء ، وله كتاب آخر في التوحيد والإشراك ، فيه أمور في حلاوة التوحيد والعسل وأخرى في مرارة الحنظل ، فمن قائلٍ : إنَّها دسَّت فيه ، وقائلٍ : إنَّه تعمَّدها .

قال السيد صديق بن حسن القنوجي في أبجد العلوم ـ بعد ما نقل تلك العبارة ، أقول : ليس في كتابه الذي أشار إليه وهو المسمَّى (برد الإشراك) في العربية وبتقوية الإيمان بالهندية شيء مما يشان به عرضه العلي ، ويهان به فضله الجلي ، وإنما هذه المقالة الصادرة عن صاحب اليانع الجني ، مصدرها تلميذ الشيخ فضل حق الخير آبادي ، فإنَّه أول من قام بضدِّه ، وتصدَّى لرده في رسائله التي ليست عليها أثارة من علم الكتاب والسنة .

وقال (في الحطَّة بذكر الصحاح الستة) في ذكر الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدَّهلوي : إنَّ ابن ابنه محمد إسماعيل الشهيد اقتفى أثر جده في قوله ، وفعله جميعاً ، وتمَّم ما ابتداه جدُّه وأدَّى ما كان عليه ، وبقي ما كان له ، والله تعالى مجازيه على صوالح الأعمال ، وقواطع الأقوال ، وصحاح الأحوال ، ولم يكن ليخترع طريقاً جديداً في الإسلام ، كما يزعم الجهال ، وقد قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٩] .

وطريقة هذا كله مذهب حنفي ، وشرعة حقٍّ مضى عليها السَّلف ، والخلف الصُّلحاء ، من العجم والعرب العرباء ، ولم يختلف فيه اثنان ، ممن قلبه مطمئن بالإيمان ، كما لا يخفى على من مارس كتب الدين ، وصحب أهل

الإيقان ، كيف وقد ثبت في محله أنَّ الرجل العامل بظواهر الكتاب وواضحات السنة أو بقول إمام آخر غير إمامه الذي لا يقلده لا يخرج عن كونه متمذهباً بمذهب إمامه ، كما يعتقده جهلة المتفقهة ، ويتفوَّه بها الفقهاء المتقشفة من أهل الزمان ، المحرومين من حلاوة الإيمان ، وهو رحمه الله تعالى أحيا كثيراً من السنن المماتات ، وأمات عظيماً من الإشراك والمحدثات ، حتى نال درجة الشهادة العليا ، وفاز من بين أقرانه بالقدح المعلَّى ، وبلغ منتهى أمله ، وأقصى أجله ، ولكن أعداء الله ورسوله تعصبوا في شأنه ، وشأن أتباعه ، وأقرانه ، حتى نسبوا طريقته هذه إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب النَّجدي ، ولقبوهم الوهابية ، وإن كان ذلك لا ينفعهم ولا يجدي ، لأنهم لا يعرفون نجداً ولا صاحب نجد وما له به ولا بعقائده في كلِّ ما يأتون ويذرون من ذوقٍ ولا وجدان[1] بل هم أهل بيت علم الحنفية ، وقدوة الملَّة الحنيفية ، وأصحاب النفوس الزكية ، وأهل القلوب القدسية ، المؤيدة من الله ، الذاهبة إلى الله ، تمسَّكوا عند فساد الأمَّة بالحديث والقرآن ، واعتصموا بحبل الله وعضُّوا عليه بالنواجذ كما وصاهم رسولهم ، ونطق به القرآن .

والشيخ إسماعيل قتل في سبيل الله لست ليال بقين من ذي القعدة سنة ست وأربعين وألف بمعركة « بالاكوت » وقبره ظاهرٌ مشهورٌ بها يزار ، ويتبرك به (من نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر للعلاَّمة السيد عبد الحي) .

مولانا عبد الحي البرهانوي :

الشيخ الإمام الكبير العلاَّمة عبد الحي بن هبة الله بن نور الله الصدِّيقي البرهانوي ، أحد العلماء المشهورين ، وعباد الله الصَّالحين ، ولد بقرية بُرهانه ـ بضم الموحدة ـ ونشأ بها ، ودخل دهلي ، فلازم الشيخ عبد القادر ولي الله العمري الدَّهلوي ، وقرأ عليه الكتب المدرسية ، وأخذ عن الشيخ عبد العزيز ابن ولي الله ، وانتفع به نفعاً عظيماً ، وكان الشيخ عبد العزيز يحبُّه حبّاً

(١) لو كان هذا المؤرخ يعرف عقيدة صاحب نجد لعلم سبب نسبة هؤلاء إلى طريقته ، وهو تمسكهم بالحديث والقرآن على طريقة السلف الأول (كتبه مصححه) .

مفرطاً ؛ لأنَّ عمَّته كانت في بيت الشيخ عبد العزيز ، ولأن عبد العزيز قرأ الفقه على جدِّه نور الله ، ولذلك زوجه الشيخ المذكور بابنته ، وأقرأه بعد ما ترك التدريس لإخوته ، كما في مقالات الطريقة .

وكان عبد الحي مفرطَ الذكاء ، قويَّ الحفظ ، شديدَ الاشتغال بالبحث والمطالعة ، حلو الكلام ، وفصيح المنطق ، درس ، وأفاد مدةً بدهلي ، ثم لازم السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي في حياة شيخه عبد العزيز ، وأخذ عنه الطريقة ، وسافر معه إلى الحرمين الشريفين سنة سبع وثلاثين ومئتين وألف ، فحجَّ ، وزار ، وعرَّب الصراط المستقيم لأهل الحرمين ، وبعث إليه القاضي محمد بن علي الشوكاني بعض مصنفاته مع الإجازة العامة لمروياته ، ورجع إلى الهند مع الإمام المذكور ، وساح البلاد والقرى بأمره سنتين ، فانتفع به خلقٌ لا يحصى بحدٍّ وعدٍّ ، ثم سافر معه إلى خراسان سنة إحدى وأربعين للجهاد ، فتوفي بها على فراشه ، وكانت آخر كلمة رطب بها لسانه : اللهم ألحقني بالرفيق الأعلى .

قال محسن بن يحيى الترهتي في (اليانع الجني) : إنَّه كان من أحسنهم (يعني أصحاب الشيخ عبد العزيز) خبرة بالفقه ، وأمرسهم بالكتب المدرسية ، رأيت له رسالةً في حثِّ الناس على تزويج أياماهم ، وردعهم عن استقباح ذلك .

ولعبد الحي مصنفات غير ما ذكره الترهتي منها : البابان من الصراط المستقيم بالفارسي في السلوك على طريق الولاية ، ومنها : تعريب الصراط المستقيم ، ومنها رسالة في حكاية المناظرة التي جرت بينه وبين الشيخ رشيد الدين الكشميري الدَّهلوي ، ومنها : فتاوى كثيرةٌ مشهورةٌ لا تحويها الدَّفاتر .

وكان آيةً من آيات الله سبحانه في التقوى ، والعمل وتأثير الوعظ ، وقلَّة الأمل ، وإيثار القناعة في الملبس والمأكل ، كثير الصَّمت ، شديد التوكل ، جليل الوقار ، محبَّاً للسنة السنيَّة ، مبتعداً عن الرسوم والبدع ، قد غشيه نور الإيمان ، وسيما الصَّالحين ، يغضب إذا مدح ، ويستبشر إذا نُصح ، والقلم

يعثر في المدح لعدم إمكان الإحاطة به ، توفي لثمان خلون من شعبان سنة ثلاث وأربعين ومئتين وألف بقرية خارا من خراسان ، فدفن بها (من نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر للعلاَّمة السيد عبد الحي) .

مولانا ولايت علي الصادقبوري :

الشيخ الإمام العالم المحدِّث ولايت علي بن فتح علي بن وارث علي بن محمد سعيد الهاشمي الصادقبوري العظيم آبادي ، أحد العلماء الربَّانيين ، ولد بصادقبور سنة خمس ومئتين وألف ، واشتغل بالعلم مدةً ببلدته ، ثم سافر إلى لكهنؤ ، وقرأ الكتب المدرسية على الشيخ أشرف بن نعمة الله اللكناوي ، وبايع سيدنا الإمام أحمد بن عرفان البريلوي الشهيد .

ثم رجع إلى بلدته ، وأقام الجمعة والجماعة ، اشتغل بالتدريس والتذكير مدَّةً ، ثم لازم شيخه السيد أحمد المذكور ، وأخذ الحديث عن الشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدَّهلوي ، وسافر معه إلى خراسان ، وجاهد في الله مدَّةً ، ثم بعثه شيخه السيد أحمد إلى بلاد الدَّكن ، فسافر إلى حيدرآباد ، وأقام بها زماناً ، وهدى الله به بعض عباده ، ثم سمع بشهادة السيد في معركة بالاكوت فرجع إلى بلدة عظيم آباد ، وأقام بها سنتين ، ثم سافر إلى الحجاز ، فحجَّ وزار ، وأسند الحديث عن الشيخ عبد الله سراج مفتي الأحناف بمكَّة المكرمة ، ثم راح إلى اليمن ، ونجد ، وحضرموت ، وغيرها من أقطار العرب ، وأخذ عن القاضي محمد بن علي الشوكاني .

ثم عاد إلى الهند ، وبعث أخاه عنايت علي إلى خراسان ، ثم ارتحل بنفسه ، وغزا على كشمير ، وحصل له الفتوحات العظيمة ، فلاذ صاحب كشمير بالإنكليز ، فوقعوا فيه ، وأخذوه وأتوا به إلى لاهور ، وأمره عظيم الهند أن يفرق الجنود ، ويذهب بنفسه إلى عظيم آباد ، ولا ينتقل من بيته سنتين ، فرضي بذلك ، وأقام ببلدته ، وعكف على التدريس ، والتلقين ، والتذكير حتى انقضت المدَّة ، فارتحل مع أهله وعياله ، ودار البلاد .

ثم ذهب إلى خراسان ، واشتغل بالتدريس ، والتلقين ، وتعليم الفنون الحربية ، وتجهيز الجيوش ، وكان ربع القامة ، مائلاً إلى الطول ، أسمر

اللون ، أزج الحاجبين ، كث اللحية ، يلوح على وجهه علامات الفكر ، ومخايل الذلِّ ، والافتقار ، وكان حريصاً على اتباع السنَّة السنيَّة ، لم يزل يتتبع السنن في كتب الحديث ، والسير ، ويعمل بها كما في الدرِّ المنثور .

وقال القنوجي في (إبقاء المنن) : إنِّي لقيته في قنوج ، وحضرت في تذكيره ، فما رأيت أحداً أسرع تأثيراً منه .

مات في شهر الله المحرم سنة تسع وستين ومئتين وألف (نزهة الخواطر ، وبهجة المسامع والنواظر ، للعلاَّمة السيد عبد الحي رحمه الله تعالى) .

مولانا كرامت علي الجونبوري :

الشيخ الصَّالح كرامت علي بن إمام بخش بن جار الله بن كل محمد بن محمد دائم الصديقي الحنفي الجونبوري أحد أكابر الفقهاء الحنفية ، ولد لسبع عشرة خلون من المحرم سنة خمس عشرة ومئتين وألف بمدينة جونبور .

وقرأ بعض الكتب المدرسية على الشيخ أحمد علي الجرياكوتي ، وبعضها على مولانا أحمد الله الأنامي ، وبايع على يد السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي ، ولازمه زماناً ، ثم سافر إلى بنكاله ، ودار البلاد للإرشاد ، وكان الناس بدويين جاهلين ، لا يعرفون التمدُّن ، ولا يلبسون الثياب إلا ما يسترون به عوراتهم ، وكانوا يفرُّون من أهل الحضر ، فاحتال ، وصرف مالاً جمّاً على إلباسهم الثياب الرفيعة ، وإطعامهم الأطعمة اللذيذة ، فاشتاقوا إليها ، واجتمعوا لديه ، فأرشدهم إلى الحقِّ ، وهداهم إلى الدين الخالص ، فأنقذهم الله سبحانه به ، وجعله نافذ الكلمة ، فصار الناس يعظِّمونه ، ويتلقَّون إشاراته بالقبول ، وله مصنفاتٌ في الفقه ، والسلوك منها : مفتاح الجنة ، وزينة المصلِّي، وزينة القارىء ، وزاد التقوى ، والكوكب الدُّري ، والدعوات المسنونة ، وشرح الجزري ، ونور الهدى ، ورفيق السالكين ، وفيض عام ، ومكاشفات رحمت ، وقوة الإيمان ، ونسيم الحرمين ، وغيرها من الكتب والرسائل .

وكان مجوِّداً يقرأ القرآن بلحنٍ شجيٍّ يأخذ بمجامع القلوب ، سافر إلى الحرمين الشريفين ، فحجَّ ، وزار ، وأخذ القراءة عن السيد إبراهيم المدني ،

والسيد محمد الإسكندراني ، وكان قليل الخبرة بالحديث ، مات يوم الجمعة لثلاثٍ خلون من ربيع الآخر سنة تسعين ومئتين وألف « برنكبور » من أعمال بنكاله كما في مفيد المفتي وغيره « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر للعلاَّمة السيد عبد الحي » .

مولانا محمد علي الرامبوري :

الشيخ العالم المحدِّث محمد علي بن عنايت علي بن فضل علي الحسيني النقري الدَّهلوي ، ثم الرامبوري ، كان شقيق العلامة حيدر علي ، وصنوه الصغير ، وتلوه في العلم والعمل ، أخذ الطريقة عن السيد الإمام المجاهد أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي ، ولازمه مدَّةً من الزمان ، فاستخدمه السيد ورخَّصه إلى مدراس[1] فسار إليها واشتغل بالإرشاد والموعظة ، وكان في تأثيره تذكيرٌ عجيبٌ ، تاب على يده الكريمة ألوفٌ من الرجال والنساء ، وأنابوا إلى الله سبحانه ، ورفضوا البدع والأهواء ، حتى نهض زعماء البدعة ودعاتها إلى خصامه ، وكفَّروه ، وأحرقوا « تقوية الإيمان » للشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدَّهلوي ، فثارت الفتنة العظيمة ، وكان جمال الدين بن علاء الدين اللكهنوي رأس تلك الفئة العادية ، كفَّره ، وسعى إلى الحكام ، فأمروا بجلائه من مدراس حتى خرج منه ، واستخلف خان عالم المدراسي من بعده بمدراس ، وهو ممن أخذ عنه جدِّي السيد عبد العلي النصير آبادي الحديث وأسند عنه ، مات سنة ثمان وخمسين ومئتين وألف « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر للعلاَّمة السيد عبد الحي » ـ رحمه الله ـ .

مولانا سخاوت علي الجونبوري :

الشيخ العالم الكبير المحدِّث سخاوت علي بن رعايت علي بن درويش علي بن بدر علي العمري الجونبوري أحد العلماء المشهورين ، ولد سنة خمس وعشرين ومئتين وألف ، وقرأ الرسائل المختصرة على الشيخ قدرت علي الردولوي ، قرأ بعض المتوسطات على الشيخ أحمد الله الماني ، وبعضها على

---

(١) كذا في الأصول والمراد : أنَّه أجازه وأنفذه .

الشيخ أحمد علي الجرياكوتي، والمطولات على الشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدَّهلوي ، والشيخ عبد الحي بن هبة الله البرهانوي ، وأخذ الطريقة عن السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد البريلوي ، ولازمه برهة من الزمان ، ثم رجع إلى جونفور ، ونزع الجامع الكبير عن أيدي الشيعة ، وأقام فيه الجمعة والجماعة ، وعمَّره بالمدرسة القرآنية ، ثم سار إلى « باندا » ودرَّس به سنتين ، ثم عاد إلى جونبور ، ولبث بها زماناً ، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين مع خاله المفتي محمد غوث الجونبوري سنة أربع وستين ومئتين وألف ، فحجَّ ، وزار ، ورجع إلى الهند ، ودرَّس ، وأفاد بها مدَّة ، ثم هاجر إلى مكة المباركة مع عياله سنة اثنتين وسبعين وتوفي بها ، وكان عالماً محدِّثاً فقيهاً زاهداً ، جمع العلم والعمل ، والورع ، وقيام الليل ، والسداد في الرواية ، وقلَّة الكلام فيما لا يعنيه ، وقلَّة الخلاف على أصحابه ، انتفع به وبدروسه خلقٌ كثيرٌ من أهل الهند ، ومن مصنفاته : القويم في أحاديث النبي الكريم ، والأسلم في المنطق ، ورسالة في الناسخ والمنسوخ ، ورسالة في معرفة أوقات الصَّلاة ، ورسالة في الهيئة ، ورسائل عديدةٌ في الفقه والسلوك .

مات لستٍّ خلون من شوال سنة أربع وسبعين ومئتين وألف بمكة المباركة ، كما في تجلِّي نور « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر للعلاَّمة عبد الحي » ـ رحمه الله ـ .

* * *

الإمام
الذي لم يوفَّ حقَّه من الإنصاف والاعتراف

قاد السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد رحمه الله (١٢٠١ ـ ١٢٤٦هـ) حركةً إسلاميةً كبرى في شبه القارة الهندية ، لم يعرف لها نظيرٌ في الشمول ، وعمق التأثير ، ومشابهة الدَّعوة الإسلامية الأولى ، لا في قرنه الثالث عشر الهجري ، بل في عدَّة قرونٍ من تاريخ الإسلام والمسلمين الأخير ، وظلَّ يناضل على أوسع جبهةٍ نعرفها من إصلاح المجتمع ، وتربية الرِّجال ، والوعظ والإرشاد ، والكفاح ، والجهاد ، ولم يكن تأثيره مقصوراً على العهد الذي نشأ فيه ، والجيل الذي عاصره ، والمجال الذي عمل به ، بل خلف أثراً عميقاً واسع المدى على الجيل الذي أعقبه ، وعلى دعاة الإصلاح والعاملين في المجال الإسلامي ، الذين جاؤوا بعده ، كالحركة الفرائضية في بنغال الشرقية ، والدَّعوة السلفية في الهند ، ومركز الدعوة والتربية في « صادق فور بتنه » ومركز تعليم الكتاب والسنة للعلماء الغزنويين في أمرتسر ، ومدرسة ديوبند ، وندوة العلماء في لكهنؤ ، وحركة التحرير وإجلاء الإنجليز ؛ التي كانت قيادتها في المرحلة الأولى بيد العلماء ، والقادة من جماعته ، وحركة التأليف والترجمة الواسعة النطاق في مختلف أنحاء الهند ؛ التي ملأت الفجوة الواقعة بين الشعب والثقافة الإسلامية الأصيلة ، والتعرف بالكتاب والسنة ، فكان في كلٍّ ذلك أثرٌ ملموس للحركة التي قام بها هؤلاء المجاهدون ، أو كانت وليدة دعوته ؛ التي هزت المشاعر ، وأشعلت المواهب ، وعلى الحركة العلمية ، والتفكير الإسلامي ، واللغة ، والأدب[١] لأنَّ دعوته الإصلاحية

(١) قد وضع كثير من الفضلاء بحوثاً علمية ، وألقوا محاضراتٍ قيمة في جامعات الهند ، وفي جامعات أوربة الشهيرة ، في موضوع تأثير أدب الدعوة ـ ويعنون بها =

الشعبية استخدمت لغة أردو كأداة تفهيم ، وغرس للمعاني العميقة في قلوب الدَّهماء والجمهور ، فاتجهت إلى تسهيلها وتهذيبها ، وإحلالها مكان الفارسية التي كانت لغة العلم والتأليف في زمنه ، وإبعادها عن التنميق والصناعة اللفظية التي كان يعتمد عليها الأدباء والشعراء ، ونشأت مكتبةٌ ذات قيمةٍ في اللغة والأدب .

إنَّه دعا إلى الدِّين الخالص[1] ، وأشعل في القلوب شعلة الإيمان ، والحماسة الإسلاميَّة ، والجهاد في سبيل الله ، ونظَّم جماعةً كبيرةً وأحسن تربيتها الدِّينية والحربية ، وخرج معها مهاجراً في سبيل الله (في ٧ من جمادى الآخرة سنة ١٢٤١هـ) من طريق بلوجستان ، وأفغانستان ، إلى حدود الهند الشمالية ، ليتخذها مركزاً لدعوته ، وليتقدَّم منها إلى الهند ؛ لإجلاء الإنجليز ، وتأسيس دولةٍ إسلاميَّةٍ على منهاج الكتاب والسنة ، وإثارة الغيرة الإسلامية في نفوس المسلمين ، وأولي الأمر ، وقادة الرأي ، وأنذرهم بالخطر المحدق بالوجود الإسلاميِّ ، ونبههم على نوايا « الأخطبوط » الإنجليزي ، ومخططاته التوسعية ، وراسل أمراء المسلمين وغير المسلمين في الهند ، وملوك البلاد الإسلامية المستقلة ككابل ، وهرات ، وبخارى ، وغيرها ، وأرسل إليهم رسله ورسائله الرقيقة المرققة ، الدافقة بالقوَّة والحماس الإسلامي ، وفراسة المؤمن الألمعي ، وعلوٍّ همة القائد العصامي ، والإمام الدينيِّ الذي هيأه الله لهذا الأمر العظيم ، وسمت همته ، وبعد نظره ، حتى فاق في ذلك كبار السياسيين في عصره ، وبعد عصره ، وما ذلك إلا لإحياء ما مات من السنن ، واندرس من معالم الإسلام ، ولإدالة الإسلام من الجاهلية ، والسنَّةِ من البدعة ، وإجراء الأحكام الشرعية على من دان

= دعوة السيد أحمد الشهيد والشيخ إسماعيل الشهيد ـ في اللغة الأردية والأساليب الأدبية في الهند .

(١) للاطلاع على دعوته السافرة القوية إلى التمسك بعقيدة التوحيد القرآنية النقية ، ونبذ الشرك والبدع ، يرجع إلى كتابه « الصراط المستقيم » بالفارسية وكتاب « تقوية الإيمان » للشيخ محمد إسماعيل الشهيد (بالأردية) وترجمتها العربية المسماة « برسالة التوحيد » بقلم كاتب هذه السطور .

بالإسلام ، ونطق بالشهادتين ، وليدخلوا في السلم كافَّةً ، لا يشوبه غرضٌ سياسيٌّ ، أو طموح شخصيٌّ ، أو علوٌّ في الأرض أو فساد[1] .

وكان هذا السَّفر الشاق المضني من الهند مع جيشٍ من المهاجرين لا يقلُّ عن جهادٍ ، ولا يتغلَّب على صعوباته إلا الإيمان القوي ، والعزم الراسخ ، والفكرة المتغلغلة في الأحشاء ، القاهرة للشعور بالألم والتعب ، مصدقاً لقوله تعالى : ﴿ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء : ١٠٤] ، فقد اعترضت لهم في الطريق صحارى قاحلة ، لا ماء فيها ، ولا ميرة ، ومفاوز يتلف فيها الإنسان ، ويتيه فيها الخرِّيت ، وعبروا ممر « بولان » مدخل أفغانستان ، وهو كنفقٍ طويل في الجبل يمتدُّ على خمسةٍ وخمسين ميلاً ، يكتنفه جبلان يبلغ ارتفاع بعضهما إلى ٥٧٠٠ قدم ، ويبلغ المضيق بينهما في الغالب إلى ٤٠٠ أو ٥٠٠ ذراع ثم ممر « كوزك » الضيق الهائل الذي هو في جبل « التوبة » قبل قندهار .

واستُقبل السيد في « قندهار » و « غزنين » و « كابل » استقبالاً ملوكياً ، لم يستقبل مثله عالمٌ ، أو قائدٌ ، أو حاكمٌ منذ مدَّةٍ طويلة ، وأقبلت عليه البلاد حكومةً وشعباً إقبالاً فيه الحماس الدِّيني ، والكرم الأفغاني ، والآمال البعيدة ، والتبرم من الأوضاع ، والاستشراق إلى قيادةٍ مخلصةٍ تنقذهم من هذا التفكك ، وعدم الثقة ، والخضوع للحكومات السُّلالية والعشائرية ، وتستخدم طاقاتهم التي فتحوا بها الهند مراراً لصالح الإسلام ، والجهاد ، والشهادة في سبيل الله .

وواصل السير إلى « بشاور » فـ « هشت نغر » حيث تهافت عليه الناس تهافت الفراش على النور ، حتى وصل إلى « نوشهره » في ١٨ من جمادى الأولى سنة ١٢٤٢هـ (١٨ ديسمبر سنة ١٨٢٦م) ومن هنا أرسل إلى رنجيت سنغ كتاب إعلام بالجهاد .

---

(١) اقرأ مجموعة رسائله بالفارسية ، وكتابه « الصراط المستقيم » الفصل الخاص بضرورة الجهاد .

وبويع بالإمارة والإمامة في ١٢ من جمادى الآخرة سنة ١٢٤٢هـ ، وقرئت باسمه الخطبة ، ودخل الناس في بيعته أفواجاً ، وجاءه أمراء المناطق ، ورؤساء القبائل ، وكبار العلماء فبايعوه على السَّمع ، والطاعة ، والجهاد في سبيل الله ، وكتبوا إلى حكام « بشاور » يخبرونهم بذلك ، فاستحسنوا فعلهم ، وأبدوا استعدادهم للدخول فيما دخلوا فيه ، وأرسل السيد الإمام ، والعلامة الشيخ إسماعيل الشهيد ، رسائل إلى علماء الهند وأعيانها ، ورؤسائها يخبرانهم بذلك ، فاستبشروا به ، وأيَّدوه ، وبايعه الأمير يار محمد خان ، والأمير سلطان محمد حاكما « بشاور » ، وأخوهما الأمير بير محمد خان أخيراً ، واجتمع تحت رايته في معركة « شيدو » نحو مئة ألف مقاتل .

وبدأ الحرب مع « السيخ » على الطريقة الإسلامية[١] مطابقاً للسنَّة النبوية ، وقد احتلوا « بنجاب » واستولوا عليها ، وكانت لهم سيطرة على حدود الهند الشمالية الغربية والقبائل الأفغانية الحرَّة ، وهددوا سلامة أفغانستان ، وزحفوا إليها مراراً ، وتعرَّض المسلمون الذين كانوا يشكلون الأكثرية في « بنجاب » وحكموها منذ القرن الخامس الهجري للإهانة ، والإبادة ، والاضطهاد الدِّيني ، فكان لا بدَّ من انتصارٍ لهم ودفاعٍ عنهم ، ودرء الخطر عن البلاد الإسلامية الصميمة ، وكانت لبنجاب أهمِّيةٌ استراتيجيةٌ كبيرةٌ ، وكانت الحرب مع « رنجيت سنغ »[٢] أكبر قائد نبغ في أواخر القرن الثامن عشر المسيحي ، وأقوى حاكم عسكري في عصره ، وانتصر المجاهدون في أكثر المعارك الحربية ، وعلى الجيوش التي كان يسرحها رنجيت سنغ حاكم « بنجاب » ، يقود بعضها قائدان إيطاليان محنكان ، قد قاتلا بجوار نابليون الكبير في الحروب التي دارت بينه وبين إنكلترا ، وهما الجنرال فينتورا ،

---

(١) الدَّعوة إلى الإسلام أولًا ، ثم الجزية ، ثم القتال ، الطريقة التي تناساها ملوك المسلمين ، وزعماؤهم منذ زمنٍ طويل .

(٢) ١٧٨٠ ـ ١٨٣٩م وصلت مملكته إلى كابل شمالًا وغرباً ، وإلى شواطىء نهر « جمنا » جنوباً وشرقاً ، اقرأ للتفصيل كتاب Ranjit Singh لمؤلفه Sir Lepel Griffin .

والجنرال ألارد ، وظهر من المجاهدين من الشجاعة ، والحنين إلى الشهادة ، والطاعة للأمير ، والتأدُّب بآداب الشرع في الحرب والسلم ، ما جدَّد ذكريات القرون الأولى .

وأسسوا فعلاً دولةً شرعيةً في الحدود الهندية الشمالية والغربية ، تشتمل على « بشاور » وما جاورها من البلدان والقرى ، ونفذوا الحدود الشرعية ، وطبقوا النظام الإسلامي ، المالي والإداري تطبيقاً دقيقاً ، وشهد التاريخ نموذجاً للخلافة الإسلامية الراشدية ، بعد ما توالت قرونٌ طويلةٌ على حكومات المسلمين شبه « العلمانية » و « الزمنية » فيما يتصل بالأحكام الشرعية ، والقوانين الإسلامية .

ولكن ذلك لم يدم طويلاً ، فوقع ما تكرر في التاريخ الإسلامي من نزوة الأهواء ، وهجوم الجاهلية الجريحة الموتورة ، فلم يرض هذا الوضع القبائل التي تقطن هذه المنطقة لاصطدام هذا النظام بمآربها الشخصية ، وأعرافها القبلية الجاهلية ، فقام بعض أمرائها ، ورؤساء القبائل يقودهم سلطان محمد خان حاكم « بشاور » وهو الذي منحه السيد أحمد ما فتحه من بلاده ، بعد ما أعطى العهود والمواثيق ، وأقسم بالله جهد أيمانه أنَّه سيحكم هذه البلاد بحكم الله وشريعته ، ويحقق ما أراده السيد من فتح هذه البلاد ، فقتلوا العاملين على الصَّدقات ، والمعينين على الحسبة والقضاء ، المنبثين في المدن والقرى[١] بقسوةٍ قلَّ نظيرها في تارخ الثورات والثارات[٢] ، وثبت أنَّها كانت مؤامرةً أسهم فيها رؤساء القبائل ، ومن كان عليه الاعتماد ، وكان المفروض أنه يقوم بدور « الأنصار » نحو المهاجرين في سبيل الله ، وقلبوا هذا النظام رأساً على عقب ، واضطر المجاهدون إلى أن يختاروا مركزاً آخر لنشاطهم ، وتحقيق أهدافهم ، من إقامة الحكم الإسلامي ، والتحرُّك إلى الهند ، فصرفوا العنان إلى منطقة « هزارا » ووادي « كشمير » وقد وجه أمراء هذه المنطقة الدَّعوة إلى السيد ، ووعدوه بالنَّصر ، وشدِّ الأزر .

---

(١) يقارب عددهم مئة وخمسين رجلاً من صفوة المسلمين ولبابهم .
(٢) اقرأ فصل « بأي ذنب قتلت » في كتاب « إذا هبت ريح الإيمان » ص١٦٨ .

وفي طريقهم إلى كشمير ، وقعت المعركة الحاسمة الأخيرة في وادي « بالاكوت » مع جيش « السيخ » الذي كان يقوده الأمير شير سنغ بن رنجيت سنغ ، وقد دلَّه بعض المسلمين المأجورين إلى هذا الوادي الضيق الوعر المسالك ، ووقعت المعركة الحامية ، واستشهد الإمام السيد أحمد ، وصاحبه العلامة محمد إسماعيل بن عبد الغني (ابن شيخ الإسلام عبد الرحيم المعروف بولي الله الدَّهلوي) وكبار أصحابهما بعد بطولاتٍ نادرةٍ ، وشجاعةٍ خارقةٍ للعادة ، وذلك في ٢٤ من ذي القعدة ، عام ١٢٤٦هـ ، (٦ من مايو سنة ١٨٣١م) .

واتخذ خلفاء السيد وأصحابه ـ وعلى رأسهم الشيخ ولايت علي العظيم آبادي وأخوه وأولاده ـ مركزاً لهم في « ستهانه » المنطقة القبائلية الحرَّة ، وانتقلت المعركة من « السيخ » الذين ضعف شأنهم ، وفقدوا السلطة[١] ، إلى الإنجليز الذين استولوا على الهند ، وأسسوا فيها حكومةً منظَّمةً قويةً ، وقد كان هذا الانتقال ، من مقاصده الحقيقية ، والغاية القصوى التي كان يرمي إليها ، كما صرح به في رسائله التي كتبها إلى أمراء الهند من المسلمين ، وغير المسلمين ، وملوك الأقطار الإسلامية في آسيا الوسطى .

ولم يزل خلفاؤه وأتباعهم في الهند قائمين على الحقِّ ، باذلين في ذلك النفس والنفيس ، والإنجليز يطاردونهم ، ويضطهدونهم ، ويصادرون أملاكهم ، وأموالهم ، ويحاكمونهم محاكماتٍ طويلةً عريضةً[٢] . وقد حكم على بعضهم بالشنق وبالنفي المؤبد ، وعلى بعضهم باعتقالٍ طويلٍ مع أعمالٍ شاقةٍ[٣] ، وهم صابرون محتسبون ، لا يضطربون ، ولا يتزعزعون ،

---

(١) استولى الإنجليز على المملكة التي أنشأها رنجيت سنغ ـ الذي حاربه السيد أحمد الشهيد ـ في سنة ١٨٤٩م ، يعني بعد شهادة السيد بثماني عشرة سنة ، وانقرضت هذه الدولة انقراضاً كلياً .

(٢) اقرأ كتاب The Great Wahabi Case (محاكمة قضية الوهابية الكبرى) وكتاب ـ W. W. Hunter «Our Indian Musalmans» ـ (مسلمو الهند) .

(٣) اقرأ فصل « امتداد تاريخ الجهاد والبطولة » وفصل « من الشنق إلى النفي » في كتاب=

ولا يلينون ، ولا يستكينون ، حتى كانت ثوة ١٨٥٧م ، التي تزعمها المسلمون ، وأسهم فيها المواطنون ، وأخفقت لأسباب يطول ذكرها ، وقوبل زعماؤها بصفة خاصَّةٍ والمسلمون بصفة عامَّةٍ بوحشيةٍ نادرةٍ[1] واستتبَّ الأمر للإنجليز ، ودخلت الهند في الحكومة البريطانية بصورةٍ عامَّة .

وبقي هذا الوضع إلى ١٩٤٧م ، حين نالت الهند الاستقلال ، وكان التقسيم ، وقامت الجمهورية الهندية ، وقامت دولة باكستان المسلمة ، وهي تشتمل على أكثر المناطق التي كانت مركز نشاط المجاهدين وكفاحهم ، وكانت في مقدمة مخطط هذه الحركة الإصلاحية الجهادية ، وهدفها الأول ، وإن كانت النسبة بعيدة ، والتفاوت عظيماً بين ما أراده السيِّد الإمام ، ودعا إليه ، وجاهد في سبيله ، وبين ما قامت له باكستان ، ومثَّلته على المسرح السياسي ، والإداري ، والخلقي .

لشتان ما بين اليزيدين في الوغى   يزيد سليم والأغر ابن حاتم

كان هذا المخطط السياسيُّ الحربيُّ الذي اتبعه السيد الإمام أفضل مخطَّطٍ يُتصور في الفترة التاريخية التي وضع فيها هذا المخطط ، وفي الوضع الدقيق المعقد الذي كان يواجهه ، لا يدرك سلامته ، وبعد غوره ، وبعد النظر الذي صدر عنه هذا المخطط إلا من عرف الخلفيات ، والتجارب التي ألجأت إلى اتخاذ هذه الخطوة . ودرس الواقع السياسي ، والاجتماعي ، والعسكري الذي كانت تعيشه الهند في أوائل القرن التاسع عشر المسيحي بدقةٍ ، وتفصيلٍ ، فقد أخفقت كلُّ المحاولات التي قام بها القادة والأمراء لتخليص الهند من النفوذ الإنجليزي وإقامة حكومةٍ قويَّةٍ حرَّةٍ ، كان فيهم مثل القائد العصامي السلطان تيبو الشهيد ١٢١٤هـ (١٧٩٩م) في ألمعيته ، وشهامته ، وأمير خان (م١٢٥٠هـ) في فروسيته ، وشجاعته ، ومن قبلهما النواب سراج الدولة أمير مرشد آباد (م١١٧٠هـ) والنواب شجاع الدولة حاكم أوده (م١١٨٨هـ) رغم

= المؤلف « إذا هبت ريح الإيمان » .

(١) اقرأ كتاب العلامة الندوي « المسلمون في الهند » فصل « الدور الذي قام به المسلمون في تحرير الهند » .

وسائلهما المتوفرة وجيوشهما الجرارة ، وذلك لسياسة الإنجليز المؤسسة على قاعدة « فرِّق تسد » ولعدم وجود منطقةٍ حرَّةٍ بعيدة عن النفوذ الإنجليزي يمارس فيها النشاط الجهادي الخالص بطمأنينةٍ ، وثقةٍ .

والمخططات السياسية والعسكرية توضع دائماً على التحرِّي للأفضل الأسلم ، والتأمُّل المخلص ، واستشارة أهل النصح والإخلاص ، ويضمُّ إلى كلِّ ذلك ـ إذا كان القائد دينياً يريد وجه الله وإعلاء كلمته ـ كثرة الدعاء والابتهال ، والاستخارة ، ثمَّ التوكل على الله ، ولا شكَّ أنَّ السيد الإمام قد استوفى هذه الشروط ، ولم يقصِّر فيها أيَّ تقصير .

ولا يجوز تسليط مقاييس عصرية ، أو محلِّية على شخصيةٍ أو حركةٍ سبقتا في الزمان ، أو اختلفتا في المكان ، والحكم على محاولةٍ مخلصةٍ جادةٍ تفانى فيها صاحبها ، ووضع فيها أعزَّ ما عنده ، بنتائج ظهرت بمشيئة الله تعالى ، ولحكمة يعلمها ، فإذا كان هذا هو الميزان الوحيد والحاكم على الأعمال بالإخفاق والنجاح ؛ خسرنا أجمل ما عندنا في التاريخ الإسلاميِّ من جهدٍ ، وجهادٍ ، وسعيٍ ، واجتهادٍ ، فإنَّ المعوَّل على النية ، وبذل ما في الوسع ، وتحرِّي الصِّحَّة والصواب ، لا على النتائج ، والمكاسب ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

ومن خصائص دعوته وجماعته التي تلفت النظر ، أنَّها كانت تجمع بين جهاد النفس وجهاد العدوِّ ، وبين الحبِّ لله ، والبغض لله ، وبين الزهد والعبادة ، والحميَّة الدينية ، والعزَّة الإسلاميَّة ، وبين السيف والمصحف ، والعقل والعاطفة ، وبين التسبيح في المسجد والبيت في ظلام الليل ، وبين التكبير في ساحة الجهاد على صهوات الخيل ، وبين الدَّعوة إلى « الدِّين الخالص » وتصحيح العقيدة ، والتربية الإسلاميَّة الصحيحة ، وبين تطبيق الشريعة الإسلاميَّة ، وتنفيذ حدود الله ، وإقامة الحكومة على منهاج الخلافة الراشدة ، وتكوين المجتمع الإسلاميِّ المتكامل ، والعمل بقوله تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال : ٣٩] .

ومن مآثره الجليلة : أنَّه أحيا ركن الإسلام « الجهاد في سبيل الله » حسب تعاليم الإسلام ، وآدابه ، وطريقة النبي ﷺ وأصحابه بعد فترةٍ زمنيةٍ طويلةٍ ، كاد يندرس فيها هذا الركن ، ويطوى في صحائف السنَّة المطهَّرة ، والسيرة النبوية ، وتاريخ المجاهدين الأولين ، والغزاة المخلصين الذين كانوا يقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا ، وليكون الدين كلُّه لله ، ولا يبتغون به عرضاً من الحياة ، أو تشييد ملكٍ ، ودولةٍ لأسرتهم ، وأبنائهم ، وقد أهمله ملوك الإسلام ، أو استغلوه لقضاء مآربهم ، أو إشباع شهوة الملك والفتح ، وشغل عنه ـ أو عجز ـ دعاة الإصلاح ، والمعلِّمون ، والمربُّون حتى كادت الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، تجهل قيمته ، وأهميته ، وفضله ، ومكانته في الإسلام ، وحتى أصبح أقلَّ أهميةً من كثيرٍ من أبواب الفقه[١] داخلاً في قائمة المستحبات والعزائم الطويلة .

وقد كان ضرر هذا الإهمال على العالم الإسلامي كبيراً وفادحاً ، فقد عاث فيه المفسدون ، واجترأ عليه السفلة وأراذل الناس ، وخضدت شوكة الإسلام والمسلمين ، وأصبح المسلمون في بلادهم التي فتحوها بحدِّ السيف ، وحكموها قروناً طويلةً فريسة القتل والتدمير ، وعرضة الإهانة والتذليل ، تُهدم مساجدهم ، وتنتهك أعراضهم ، وتُهدر كرامتهم ، وانطبق عليهم قول رسول الله ﷺ : « وإذا تركتم الجهاد سلَّط الله عليكم ذلًّا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم »[٢] وقد كان العالم الإسلاميُّ خصوصاً ما بعد منه عن مركز الخلافة العثمانية صورةً صادقةً لهذا الوضع المزري المهين .

ويكفي القارىء أن يقرأ الفصل القيِّم في ضرورة الجهاد في الكتاب القيم « الصراط المستقيم » (ص٩٥ ـ ٩٦) (وهو من إملاء الإمام السيد أحمد وإفادته) وقد جاء فيه : ومن شكَّ في وخامة نتيجة ترك الجهاد ، وما عاد به

---

(١) كما يقول وزير السيد وترجمانه العلامة إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي في رسالة له إلى أحد علماء الهند ومشايخها : « إنَّ الجهاد قد صار الاهتمام به عند العلماء لا يزيد على اهتمامهم بتعليم كتاب الحيض ، والنفاس ، وتعلمه » .

(٢) رواه أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما .

على الهند من شرٍّ وضرر ، وخيَّم به عليه بسببه الذلُّ والهوان فليسرح طرفه في أطرافها عند كتابة هذه السطور في سنة ١٢٣٣هـ ، وما آل إليه أمرها ، وما تردَّت فيه من ضعفٍ واستكانةٍ ، وذلٍّ ومهانةٍ ، وبؤسٍ وشقاءٍ ، وكيف نزعت عنها البركة ، وفارقها البهاء .

وقد عاش « الجهاد » بفضل جهاده في إحياء هذا الركن العظيم ، واحتلَّ مكانه في حياة المسلمين ، وتفكيرهم واهتمامهم ، وفي الأدب الإسلاميِّ ، والشعر الهندي[1] ، حتى زالت هيبة الموت ، والجراحة في سبيل الله ، وحنَّت النفوس إلى الشهادة حنين الطائر إلى وكره ، وتنافس الشبان ، والأثرياء ، والمتنعمون في الهجرة والجهاد ، وألفوا حياة التقشُّف والخشونة ، والإيثار والفداء ، وكانت الأبيات التي قيلت في الحثِّ عليه ، والشوق إلى الشهادة ترنيمةً تنوم بها الأمهات أبناءهن ، وينشدنها في مناسباتٍ كثيرةٍ .

ويليه إحياء نظام الإمارة ، والإمامة في الإسلام ، الركن الإسلامي الذي قد أخلَّ به المسلمون من مدَّةٍ طويلة ، فتفرقت كلمتهم ، وتمزَّق شملهم ، وانفرط عقد حياتهم ، وصاروا يعيشون كقطعان من الغنم ، لا راعي لها ولا حارس ، وقد سمَّت الشريعة الإسلامية هذا النمط من الحياة « الجاهلية » وحذَّرت من الحياة على هذه الحال والموت فيها ، وأنكرت أن تمر بالمسلمين ساعة لا أمير لهم ، ولا إمام ، وقد سبقت هذه الجماعة إلى إحياء هذه السنة العظيمة ، والركن الإسلامي ـ كما سبقت إلى فضائل أخرى ـ حين ضيعه

---

(١) اقرأ القصيدة الرنانة في فضل الجهاد لأحد أئمة الشعر الهندي في منتصف القرن الثالث عشر الهجري ، وصاحب مدرسة أدبية شعرية خاصة الأستاذ مؤمن خان الدَّهلوي (١٢٦٨هـ) المعروفة بمزدوجة الجهاد ، والقصيدة المثيرة الحماسية للعالم الفقيه الشيخ خرم علي البلهوري (١٢٧١هـ) التي كانت تقرأ أمام صفوف المجاهدين عند المعركة في معركة السيد الإمام ، وقد نظم أحد أبناء أسرته هو السيد عبد الرزاق الحسني الكلامي ملحمةً إسلاميةً تشتمل على خمسةٍ وعشرين ألف بيت في فتوح الشام وغزوات الصحابة ، انتشرت في الهند ، وكانت تقرأ في بيوت العلماء وعامة المسلمين . وكان كل ذلك نتيجة الجو الذي ساد على الهند بعد الجهاد الذي دعا إليه وقام به .

المسلمون في أكثر أنحاء العالم الإسلاميِّ ، وفي أطول مدَّةٍ من تاريخهم .

ولو لم تكن للسيد الإمام مأثرةٌ غير إحيائه لهذين الركنين ، وتحبيبهما إلى نفوس المسلمين ، وإعادة اعتبارهما وقيمتهما في حياتهم ، لكفاه فخراً وعظمةً ، فكيف ، وله مآثر جانبيةٌ أخرى ، كإحياء ركن الحجِّ في الهند ، الذي تعرض لحملة علمية وفقهية تحاول إسقاط فرضيته عن المسلمين في الهند ، لحيلولة البحار ، وكثرة الأخطار[1] ، وسنة تزويج الأيامى الذي كان المسلمون في الزمن الأخير يتعيَّرون منه ، ويعدُّونه سبةً وعاراً ، قد يؤدي إلى مطاردة من يرتكب هذه الجريمة ، وإقصاء الزوجين ، ومصارمتهما ، وأصبح ذلك عرفاً في البيوتات الشريفة ، والأسر الكريمة ذات النسب والحسب ، وقد ظهر ذلك في آخر الدولة المغولية بتأثير الاختلاط بالهنادك الذين يحرمون نكاح الأيم تحريماً باتاً ، وقد ألف في الدفاع عن هذا العرف الجاهلي وتبريره بعض كبار العلماء كتباً ورسائل .

وكذلك تزويج العوانس في القبائل الأفغانية اللاَّتي تعرضن لتعطيله أو تأخيره تأخيراً عظيماً (بسبب المحافظة على الأعراف الأفغانية) لقبائح عظيمة ، ومنكراتٍ شرعية وحياةٍ غير طبعيةٍ قاسية ، إلى غير ذلك من إزالة منكراتٍ كثيرةٍ ، ومحو آثار الجاهلية ورواسبها ، من شعائر الرفض والحضارة الهندكية ، والبدع ، والانحرافات التي وقعت في حياة المسلمين في الهند بتأثير عناصر غير إسلامية ، وضعف علوم الكتاب والسنَّة .

وكذلك إقامة النظام المالي ، والقضائي الإسلامي[2] ونصب الحسبة ، وتنفيذ الحدود الشرعية ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدَّعوة إلى غير ذلك من مهمات الخلافة الإسلامية الصحيحة ، وسمات المجتمع الإسلامي المثالي .

---

(١) اقرأ عنوان « مجتمع إسلامي متجول » في كتاب العلامة الندوي « إذا هبت ريح الإيمان » .

(٢) اقرأ عنوان « يد الله مع الجماعة » و« تجديد النظام الشرعي في كتاب العلامة الندوي « إذا هبت ريح الإيمان » (طبع دار ابن كثير) .

ولكن[1] لن يكون من المغالاة في شيءٍ إذا قلنا : إن أيَّ شخصيةٍ وحركةٍ ـ باستثناء رسول الإنسانية محمد ﷺ ـ لم تكن هدف التضليل ، والكتابة التي تتسم بعدم الشعور بالمسؤولية في أوربة ، كما كانت شخصية الإمام المجاهد السيد أحمد بن عرفان الشهيد ، وحركته التي شرحناها آنفاً .

ولعلَّ بعض القراء يخطر بباله أنَّ نصيب المصلح الكبير ، والدَّاعي الشهير إلى التوحيد ، الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥هـ ـ ١٢٠٦هـ) من معاداة الكتَّاب والمؤلفين وخصومه من العلماء ، وأشباه العلماء ، وافترائهم وتضليلهم ، لم يك أقلَّ من السيد بل كان أكثر ، وأعظم منه ، ولكن لا يعزبنَّ عن البال ، أن الشيخ لم يكن هدف المؤلفين الغربيين ، وتجريحهم ، وتجنيهم مثل ما كان السيد ، لأنَّ الأحوال السياسية لم تقتض ذلك ، ولم تقم حرب بين أتباع الشيخ وبين قوَّةٍ أجنبيةٍ استعمارية ، كما كان الشأن مع السيد وأتباعه في الهند ، وجلُّ ما كتب في الردِّ على الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، وتنفير الناس عنه ، كان بالعربية ، والتركية ، والفارسية ، والأردية ، لغات المسلمين الشرقية ، أما اللغات الأوربية فما دعت الحاجة إلى استخدامها للدِّعاية ضده ، ونسج الأساطير ، والافتراءات حوله ، ويبدو كأنَّ الكتَّاب في هذا الموضوع لم يتحملوا أيَّ جهد ، ولم يشعروا بأيِّ حاجةٍ إلى دراسة مخلصةٍ ، ومطالعةٍ جدِّية في هذا الموضوع ، أو أنهم اعتمدوا على الشائعات فقط ، أو آثروا صناعة التاريخ بدلًا من كتابة التاريخ ، فكل ما كتبوه ، كان نسيج خيالهم ، أو أنَّهم قصدوا كتابته لأمرٍ ما في أنفسهم .

إنَّ النهضة الأخيرة في أوربة التي تسمَّى (Renaissance) أدت إلى حريَّة الفكر ، وروح البحث عن الحقيقة ، والتماس الصِّدق ، وتحمُّل الجهد في سبيل العلم ، والتحقيق ، وتجنيب العصبية الدينية ، ورفض الإيمان بالخرافات والثقة بكلِّ شيءٍ بدون التنقيب عن حقيقته وبيئته ، كانت تحمل

---

(١) هذا الفصل الخاص بنقد المؤلفين الغربيين من تعريب الأستاذ واضح رشيد الندوي ، لما جاء في مقال للعلامة الندوي تقديماً لكتاب « سيد أحمد شهيد » (Saiyid Ahmad Shaheed) .

على الاعتقاد بأنَّ الكتاب لن يكونوا بعد هذه النهضة الفكرية فريسةً للعناد الدِّيني ، والعلمي ، والفكري ، والأغراض السياسية أثناء الكتابة على موضوعٍ علميٍّ ، وتاريخيٍّ بحت ، والبحث عنه ، بل إنَّ الكتاب سيقومون بمحاولةٍ مخلصةٍ جادَّةٍ للبحث عن الواقع ، كطالبٍ باحثٍ عن الحقِّ .

وخاصَّةً كان يتوقع من الكتاب ورجال القلم في المنتصف الأخير للقرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين أنَّهم سيتجنبون ضيق الفكر ، ويبدون تسامحاً ، وسعة صدر ، وطول أناة ، ويؤثرون تحقيقاً غير مُتحيِّز ، كما أبداه كتاب القرون الوسطى ، ومؤلفوها ؛ الذين عاشوا في ظل الحروب الصليبية ، والذين كانوا خاضعين للعواطف والأحاسيس أكثر من خضوعهم للحقائق ، ولكن عادة الدهر أن يأتي بعجائب ، فإنَّ حياة الإنسان مركبةٌ من التناقضات الغريبة ، وقد يضطر الإنسان إلى أن يشاهد ، ويقبل ما لا يتوقعه ، وما لا داعي له .

لم يكن السيد أحمد الشهيد شخصيةً أسطوريةً ، أو حكايةً من حكايات ألف ليلة وليلة ، أو بطلاً من أبطال ما قبل التاريخ ، إنه نشأ ، وترعرع ، وتربى في العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر الميلادي ، وكان مركز تعلمه وتربيته ، ونشأته تلك المنطقة العامرة من مناطق الهند الشمالية ؛ التي كانت تحتلُّ من ناحية العلم والأدب ، والمدنية والثقافة ، والأهمية السياسية المكانة الأولى ، وكانت تعرف في الحكم الإنجليزي الولايات المتحدة لآجرا وأودها (United Provinces of Agra & Oudh)[١] .

ثم قامت صلته مع الأسرة الوليي اللهية الشهيرة في دهلي ، التي طبقت الآفاق ، وذاع صيتها في مجال العلم والتعليم والتربية ، وخضعت لها الهند بكاملها ، وكانت أسرته أسرة الأشراف الحسنيين الشهيرة في أوده ، وقد أنجبت هذه الأسرة خلال خمسمئة عام ماضية ، علماء ومشايخ ، ذاع صيتهم في الآفاق ، وكانت تتمتَّع بسمعةٍ طيبةٍ ينظر إليها بعين التبجيل والإكرام

(١) وهي تعرف الآن بالولاية الشمالية (Utter Pradesh) .

لشرفها ، والزهد والوقار ، والغيرة الدِّينية في سائر المناطق المجاورة ، وكانت دائماً موضع ثقةٍ واحترامٍ لدى ملوك دهلي المغول ، واعترفوا بعلو نسبها وشرفها ، وتضمَّنت جميع الكتب الفارسية في السير والتراجم ، تراجم أشهر رجال هذه الأسرة النبيلة ومناقبها[١] .

ثم إنَّه انضم إلى جيش أمير خان أحد الأمراء الأفغانيين الطامحين ، في منطقة « سنبهل » (أترابرديش) لنيل التربية الحربية والفروسية ، طوعياً ، وكان قد حظي خلال هذه المدة باحترامٍ فائقٍ ، ثم إنَّ حياة الأمير أمير خان أيضاً وأحواله لم تكن مظلمةً ، فلم تكن له أيَّ علاقةٍ مع البندار[٢] (Pindaris) وقد ألفت عدَّة كتب عنه .

ولما رجع السيد إلى وطنه أمَّه العلماء ، والمشايخ ، والأشراف ، والأمراء ، وبايعوه ، ولازموا صحبته بحبٍّ واحترام للاستفادة منه ، وللوصول إلى درجة الإحسان ، والتحلِّي بصفات الإيمان ، وتقاطروا عليه تقاطراً لا يوجد له نظير في الهند في العهد الأخير ، وقام السيد بجولاتٍ واسعةٍ متعدِّدةٍ للإصلاح والدَّعوة للمناطق المجاورة والبعيدة ، حيث تدفق عليه سكان هذه المناطق ، وهبَّت موجةٌ من التوبة والإصلاح ، ومكافحة الشرك والبدع ، ما شهدها التاريخ المعاصر له .

ثم توجه للحجِّ سنة ١٢٣٦هـ بصحبة سبعمئة شخص ـ وهو عدد ضخم بالنسبة لذلك العصر ؛ الذي قلت فيه وسائل النقل والمواصلات ـ بعزيمةٍ وكرامةٍ ، ورفاهيةٍ لا يوجد نظيرها في تاريخ ملوك الهند ، ولا في تراجم ، وكتب السير للمشايخ والعلماء ، وانبعثت حياةٌ جديدةٌ في المنطقة الواسعة

---

(١) ليرجع إلى كتب التراجم والسير ، وخاصة كتاب « نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر » لمؤلفه العلامة السيد عبد الحي الحسني مدير ندوة العلماء سابقاً ، (م ١٣٤١هـ) في ثمانية أجزاء بالعربية ، طبع دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد الهند .

(٢) طائفة من المغيرين وأهل الفروسية . ظهرت في عهد الفوضى واضطرب الأمن في الهند ، وكثر ذكرها في كتابات الإنجليز .

الكثيفة العمران ، الواقعة على ضفة نهر « الكنج » (Ganges) من وطنه « رائي بريلي » إلى « كلكتا » التي كانت منتهى سفره البرِّي ، وساد عليها حماسٌ جديدٌ ، ودخلت مدنٌ كثيرةٌ على بكرة أبيها في بيعته على التوبة والجهاد ، وانخراط الناس قاطبةً في سلك الإصلاح والتربية ، لم يشذَّ منهم إلا شاذٌّ .

ووصل إلى مكة المعظمة ، والمدينة المنورة سنة ١٢٣٧هـ حيث قوبل بحفاوةٍ لم تلقها شخصيةٌ دينيَّةٌ من أبناء بلدٍ عجمي منذ مدَّةٍ طويلةٍ ، وكان ذلك العهد الذي كانت جماعة المصلح الشهير الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تلقى مطاردةً ومحاربةً من الحكومة التركية ونوابها ، وكان ذكر اسمها محرماً يسوق إلى عقابٍ أليم ، مثيراً للشكوك والريبة ، فلا يوجد أيُّ دليل على لقائه مع أي زعيمٍ من زعماء هذه الجماعة ، وقد كان ارتقاؤه الفكري قد تمَّ وبلغ ذروته قبل هذه الرحلة ، والدليل على ذلك أنَّ كتابه « الصراط المستقيم » الذي لم ينسج على منواله ، قد تمَّ تأليفه في سنة ١٢٣٣هـ قبل وصوله إلى الحجاز بأربع سنوات ، والكتاب يدلُّ على نضج فكره ، ونبوغه ، واقتناعه العظيم بما يقرره ، ويدعو إليه ، وليس اقتباس داعية ، أو عالمٍ من آخر ممن سبقه في ذلك ، أو فاق بعيب ، وقد جرت سنة الله بذلك ، واستمرَّ عمل تلقيح الأفكار والفهوم في الغابر والحاضر ، ولكنَّ ذلك في قضية السيد أحمد لا يؤيده التاريخ والواقع ، لذلك أوضحناه هنا إنصافاً للتاريخ ، وشهادةً للحق ، وكانت طريقته للإصلاح ، وعقيدته ودعوته التي كان القرآن والحديث منبعها ، ومصدرها محدَّدةً ، بينةً ، واضحة الملامح والقسمات .

ثم بدأ السيد (سنة ١٢٤٢هـ ـ ١٨٢٦م) نشاطه للجهاد ، وإحياء الخلافة الإسلامية التي كانت حدودها تمتدُّ ـ كما يتضح من خطته وفكرته ـ بين الهند وتركستان ، بل تركية ، وجعل مناطق القبائل المتحرِّرة مركزاً ومعقلاً لحركته ، ومنطلقاً لدعوته ، وقام برحلةٍ طويلةٍ شاقَّةٍ للوصول إلى هذا المركز مع قافلةٍ كبيرةٍ ، زار فيها الهند ، وبلوجستان ، وأفغانستان ، وواجه فيها متاعب تقشعر من ذكرها الأبدان ، وتفاصيلها مسجلةٌ تسجيلاً دقيقاً في رسائل وتقارير متصلة الحلقات ، ومتوفرة المعلومات ، ولا تترك خيمة نصبها ، ولا مسافةً قطعها ، وتتضمَّن كذلك وصف كلِّ منطقةٍ جغرافياً ، ومدنياً ، ولا يتوقع أكثر منه من أيِّ

رحلةٍ رسميةٍ للعصر الحاضر ، ثم إنَّه لم يقطع صلته عن الهند من ذلك المكان ، فأقام صلته مع الهند ، واطلع العلماء الهنود على خططه ونواياه ، وخطواته برسائل تتعلَّق بالدَّعوة والنظام الرسمي ، لا تزال محفوظةً لدى أسرٍ كثيرةٍ ، ومكتبات في الهند ، ومكتبة إنديا آفس (India Office Library) في لندن ، وكانت التقارير للعمليات العسكرية التي قام بها ، تسجَّل ، وتقيَّد ، حتى أثناء الحرب في ساحة القتال .

إنَّ الاهتمام الذي أبداه الكتاب بحياة الإمام الشهيد الذي استشهد في ٦ من مايو ١٨٣٠م ـ ١٧ من ذي القعدة ١٢٤٦هـ في « بالاكوت » وتسجيل كلِّ حادثٍ صغيرٍ وكبيرٍ له علاقة بحياته ، يتعذر أن يلاحظ في تخليد حياة أيِّ مصلحٍ أو زعيمٍ خلال القرون الأخيرة الماضية ، ويستحقُّ أن يذكر في هذا المجال مجهودان :

مجهود بذل بطريقةٍ منظَّمةٍ واجتماعيةٍ بأمر النواب وزير الدولة أمير إمارة تونك فور شهادة الإمام ، حيث اجتمع لفيف من أصحاب الإمام في تونك من الذين لازموا صحبته مدَّةً طويلة ، وشاركوا في عملياتٍ حربية معه ، وتعرَّفوا عليه عن كثب ، وكانوا معه ليلاً ونهاراً ، فسجَّلوا انطباعاتهم ، ومعلوماتهم ، والأحداث التي شاهدوها بأمِّ أعينهم ، ولعله هو أوَّل عملٍ مجمعي (Academic) تحقَّق ، وهذا السجل الحافل للوقائع المخطوط يعرف بـ« وقائع أحمدي » وهو في أربعة مجلدات كبار ، وهي محفوظةٌ في مكتبة ندوة العلماء .

والسفر الآخر الموثوق به ، هو الذي ألفه السيد جعفر علي النقوي (م ١٢٨٨هـ) بالفارسية باسم « منظورة السعداء في أحوال الغزاة والشهداء » وينحدر مؤلف هذا السفر القيم من أسرةِ ساداتٍ وعلماء في مديرية « كور كهبور » السابقة ، وهي تعرف الآن بـ« بستي » وكان عالماً كبيراً ، وأديباً في الفارسية ، واشترك في الجهاد بنفسه ، وكان أسند إليه منصب « باشكاتب » للجيش ، وفي ذلك ما يضمن معرفته الدقيقة ، ومسايرته الحثيثة للأحداث ، ومجاري الأمور ، ويؤمن صدق تسجيله ، وكلُّ ذلك مضافاً إلى ما ألفه رفقة الإمام الشهيد ، ومن أدركهم في هذا الموضوع باللغة الأردية ، والفارسية .

وأجمع كتابٍ ، وأكمله على الموضوع كتاب « سيد أحمد شهيد » للكاتب الباكستاني الكبير ، وأديب الأردية المشهور ، المرحوم الأستاذ غلام رسول مهر ، رئيس تحرير صحيفة « انقلاب » في أربعة مجلدات ضخام مجموع صفحاتها ١٩٢١ ، ويكاد يكون هذا الكتاب موسوعةً في سيرة هذا الإمام ، وحركته ودعوته ، والتعريف بجماعته وكبار أصحابه ، وقد طبع في « لاهور » وتلقي بالقبول والعناية في الأوساط العلمية والأدبية .

ولكاتب هذه السطور كتاب « سيرة سيد أحمد شهيد » باللغة الأردية كذلك ، وقد ظهر هذا الكتاب في مجلدٍ واحدٍ يبلغ عدد صفحاته ٤٦٢ ، سنة ١٩٣٩م ، وقد كتب له البحاثة الإسلامي الكبير العلاَّمة الدكتور السيد سليمان الندوي رئيس مجمع دار المصنفين (في أعظم كره الهند) مقدمةً بليغةً لها مكانةٌ في كتاباته الأدبية ، وكان ذلك مشجعاً كبيراً للمؤلف الشاب الذي كان لا يزال في الرابعة والعشرين من عمره ، وكان الكتاب باكورة مؤلفاته ، وكان الإقبال عليه عظيماً لتعطُّش المسلمين في الهند إلى تاريخٍ وحكاياتٍ ، تبعث فيهم الثقة والاعتزاز ، وتثير فيهم الإيمان والحنان ، لأجلِ الأجواء التي كانت تسود الهند في ذلك الزمان ، ولتوقهم إلى حكمٍ ذاتيٍّ ، وإنشاء قوَّةٍ إسلاميَّة سياسيَّةٍ ، فنفدت هذه الطبعة بسرعةٍ غريبةٍ ، وتلتها طبعاتٌ في الهند ، وباكستان ، والمؤلف يتناوله بالزيادة ، والتحسين ، حتى صار الكتاب أضعاف الطبعة الأولى ، وظهرت الطبعة الخامسة في باكستان ١٩٧٤م والسادسة في الهند سنة ١٩٧٨م في مجلدين ضخمين مجموع صفحاتهما ١١٤٥ صفحة ، والكتاب مزيَّنٌ بعدَّة خرائط تاريخية ذات قيمة ، وصور فوتوغرافية للأماكن الأثرية ، والوثائق التاريخية .

وقد صدر أخيراً كتاب « سيد أحمد شهيد » « Saiyid-Ahmad Shaheed » باللغة الإنجليزية في الأسلوب العصري الحديث ، مؤسساً على دراسةٍ واسعةٍ ، وعلى وثائق تاريخيةٍ ، وتقارير رسميةٍ ، وشهاداتٍ أجنبية ، لصاحبه السيد محيي الدين ، أصدره المجمع الإسلامي العلمي في لكهنؤ ، الهند ، يقع في ٤٢٧ صفحة بالقطع الكبير ، والحرف الدقيق ، هذا عدا ما ظهر من

البحوث ، والرسائل العلمية ، والكتب الكبيرة في باكستان ، وأوربة ، وأمريكا .

ومع الأسف أنَّ مكتبة اللغة العربية لا تزال قليلة البضاعة في هذا الموضوع ، وقد بقي العالم العربي يجهل هذه الشخصية الفذة ، والأعلام من جماعته المخلصة ، وأهمية دعوته ، وحركته زمناً طويلاً ، ولعلَّ أول مجهودٍ بذل في هذا السبيل هو مقال هذا الكاتب المسهب ، الذي نشره المرحوم العلامة السيد رشيد رضا في مجلته العالمية « المنار » الغرَّاء في سنة ١٣٤٩هـ ـ ١٣٥٠هـ[١] (١٩٣١م) ، واهتمَّ بهذا المقال ، فنشره رسالةً مفردةً أسماها ترجمة « السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، مجدِّد القرن الثالث عشر »[٢] ونفدت في مدَّةٍ قريبة ، وكان مؤلف هذه الرسالة لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، فلم تكن في مستوى الكتب التي تؤلف عند النضج الفكري ، والدراسة الوافية ، والتجربة الواسعة .

وقد وفق الكاتب لوضع كتابٍ متوسِّط في أسلوبٍ قصصي شائق ، جمع فيه حكايات من تاريخ هذه الحركة الكبيرة ، وصاحبها العظيم ، تلقي الضوء على مراميه البعيدة ، وتأثيره العميق ، وأخلاق من صحبه ، وتأثر به ، مع استعراضٍ مجملٍ لتاريخ هذه الدَّعوة ، ومراحل حياة صاحبها ، أسماه « إذا هبت ريح الإيمان » صدرت منه ثلاثة طبعات من لكهنؤ ، وبيروت .

ومن يجهل هذه الشخصية الكبيرة المعروفة التي سُجِّلت حياتها بهذا الاهتمام والتفصيل بأقلام أصحابها ومعاصريها ومن أتى بعدهم من مولده إلى شهادته ، وأضيء كلُّ جانبٍ من جوانب حياته اللامعة ؟! لا يجهل هذه الشخصية إلا من أغمض عينيه ، وطبق منافذ السَّمع والفؤاد ، وصمَّم على ألا يرى النور الوهاج :

إنَّ الإصرار على إعادة أساطير وقصصٍ ، وإشاعاتٍ كاذبةٍ ، والتخبط في

---

(١) ظهرت الحلقة الأولى من هذه السلسلة في مجلة « المنار » عدد ذي الحجة سنة ١٣٤٩هـ ، مايو سنة (١٩٣١م) .

(٢) تقع في أربعين صفحة ، وطبعت في مطبعة المنار بمصر .

المتاهات الفكرية ، والحديث المترجم بعد أن تنور كلُّ جانبٍ من جوانب هذه الحركة ، وسُجِّل كلُّ حادثٍ من الأحداث المتَّصلة بها بطريقٍ عصريٍّ منظَّم ، يكشف عن تناقض للعصر الجديد ، وضلالٍ علميٍّ غريبٍ لا مبرر له .

نقدِّم فيما يلي بعض الأمثلة التي تلقي الضوء على هذا الموقف المضلِّل الذي اتخذه كثيرٌ من كتاب الغرب ؛ الذين اشتهروا بالتنقيب ، والبحث الدقيق على الموضوعات التاريخية ، واختاروا ذلك شعاراً لهم .

قال « هيوكس » : (Thomas Patrik Hughes) في « قاموس الإسلام » (Dictionary of Islam) في مقال « الوهابية » :

« ثم لما توجه رجلٌ مضطربٌ قلقٌ من الهند إلى مكة للحجِّ للتكفير عن ذنوبه ، فقبل تأثير المبشرين الوهابيين هناك الذين كانوا ينشرون دعوتهم الوهابية سرياً في الحجَّاج ، عاد اللصُّ ، وقاطع الطريق السيد أحمد الذي ينحدر أصله من « رائي بريلي » بعد تأدية مراسم الحج في مكة عام ١٨٢٢م بعزم إعادة الهند الشمالية بكاملها إلى راية الإسلام » .

وقال « أولف كيرو » (Olaf Caroe) في مقاله (The Pathan) : « الأفغان » صفحة ٣٠١ :

« كان السيد أحمد متبعاً لأمير خان الذليل في زمانه ، والذي كان حشد قواتٍ مرتزقةً في وسط الهند خلال عمليات الإنجليز ضد « البندار » وبعد أن تشتت جيش أمير خان فقد السيد أحمد وظيفته » .

ويقول (P. Hardy) في مقال « المسلمون في الهند البريطانية » (The Muslims of British India) ص٥١ .

« ولد السيد أحمد في أسرةٍ غريبة ، لعلَّها كانت مكونةً من أفرادٍ يعيشون على وظائف عادية ، وقضى حياته بين ١٨٠٩ ـ ١٨١٨م كجندي في جيش الأمير خان البنداري ، الذي صار فيما بعد أمير تونك ، ولعلَّه لم يكن يتميز بشيءٍ خلال هذه المدَّة عن غيره من اللصوص البندار » .

ويقول هنتر « W. W. Hunter » الذي كان موظفاً مدنياً مسؤولاً مدَّةً طويلة

في الهند في كتاب « المسلمون الهنود » (Our Indian Musalmans) ص٦٠ ـ ٦١ :

« طرد السيد أحمد بتهمة كونه وهابياً بذلةٍ وإهانةٍ من مكة » .

وقال في صفحة ٢٤ :

« وهكذا وصل إلى « بومباي » في العام التالي متستراً في ملابس الحاج ليكتم حياته التي قضاها كقاطع طريق » .

هذه هي بعض النماذج النادرة لكتَّاب التاريخ المتحضرين والباحثين « المحققين » ، التي تنمُّ عن الكتابة بدون مسؤولية وتحرٍّ ، ولم يكن ذلك يتوقع من المؤرخين للقرن العشرين الذين تتوفر لديهم تسهيلات السفر ، وفرص الحصول على معلوماتٍ دقيقةٍ ، والبحث عن الواقع طبقاً للمبادىء المقرَّرة للتاريخ .

ومما يؤسف له : أنَّ كتاب الشرق الأوسط وآسيا الذين اضطروا إلى الكتابة عن الوهابية والمهدوية ، وحركة الجهاد في الهند ، قد حذوا حذوهم ، وقلدوهم تقليداً أعمى واعتمدوا على هذه المصادر ، ولم يأتوا بشيءٍ من تلقاء أنفسهم سوى نقل ما كتبه هؤلاء المؤرخون الأوربيون .

ومما يزيد في العجب والشكوى صنيع أولئك الكتاب العرب الذين كان يمكنهم الحصول على معلوماتٍ صحيحةٍ عن طريق الاستفادة ـ مباشر أو غير مباشر ـ من المواد العلمية والتاريخية في الهند ، والذين كانت تربط بينهم وبين أولى الأفكار الصحيحة والاتجاهات السديدة من علماء الهند ، والمؤسسات والمراكز العلمية والدينية ، صلاتٌ وثيقةٌ ، وقد جربوا ما نسجته الأغراض السياسية والعصبية الحزبية من افتراءاتٍ ، وأكاذيب ضدَّ المصلح الديني العظيم في القرن الثاني عشر الهجري الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله (م١٢٠٦هـ) ، تراكم بها الغبار الكثيف على شخصيته وأعماله ، وقد احتجوا فعلاً ضدَّ هذا الموقف ، وانتقدوه ، وندَّدوا به .

وإليك قطعةً كنموذج من كتاب « الشيخ محمد بن عبد الوهاب »[1] :

---

(١) تأليف العلامة أحمد بن حجر بن محمد آل أبو طامي بن علي قاضي المحكمة =

« كذلك غزت الدَّعوة بعض المقاطعات الهندية بواسطة أحد الحجاج الهنود ، وهو السيد أحمد ، وقد كان هذا الرجل من أمراء الهند ، وذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج بعد أن اعتنق الإسلام[١] ، سنة ١٨١٦م ، فلما التقى بالوهابيين في مكة اقتنع بصحة ما يدعون إليه ، وأصبح من دعاة المذهب الذين تملكهم الإيمان ، وسيطرت عليهم العقيدة »[٢] . . . إلخ .

إنَّها في الواقع نتيجةٌ مؤلمةٌ ومؤسفةٌ للتطفُّل على مائدة الكتاب الأوربيين ، والثقة الكاملة بكل ما يقولون ويكتبون ، وعدم السعي وراء البحث والتنقيب عن الحقِّ بطريقٍ مباشر ، وقد وقع فريسة هذه السطحية ، والتقليد الأعمى الدكتور أحمد أمين[٣] الكاتب والأديب المصريُّ المشهور ، صاحب سلسلة « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » الشهيرة ، وبعضُ الكتاب العرب الآخرون ، الذين اقتصروا في استنادهم على المراجع الإنجليزية ، والفرنسية فحسب ، واعتمدوا عليها كلياً .

يدل على ذلك ما قاله الدكتور أحمد أمين في كتابه « زعماء الإصلاح في العصر الحديث » في ترجمة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، وقد جاء فيه :

« وقام في الهند زعيم وهابيٌّ اسمه السيد أحمد ، حجَّ سنة ١٨٢٢م ، هناك آمن بالمذهب الوهَّابي ، وعاد إلى بلاده ، فنشر هذه الدَّعوة في « بنجاب » وأنشأ بها شبه دولة وهابية وأخذ سلطانه يمتدُّ حتى هدَّد شمال

= الشرعية بقطر ، وقد قدَّم له ، وصححه سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز ، وقامت بطبعه ونشره المملكة العربية السعودية ، في مطبعتها الحكومية بمكة المكرمة عام ١٣٩٥هـ ص٨٨ ـ ٨٩ .

(١) لم يتنبه المؤلف وهو يكتب بقلمه كلمة « السيد » أنَّ الرجل كان مسلماً قد ورث الإسلام كابراً عن كابر فما معنى اعتناقه ـ يا ترى ـ للإسلام بعد ؟

(٢) ص٧٨ ـ ٧٩ ، واقرأ أيضاً ص١٩ من الكتاب ، فقد مضى المؤلف يتحدث عن السيد أحمد رحمه الله وحركته على نفس هذا الغرار .

(٣) اقرأ كتابه « المهدوية والمهدويون » .

الهند ، وأقام حرباً عواناً على البدع والخرافات ، وهاجم الوعاظ ورجال الدين هناك ، وأعلن الجهاد ضدَّ من لم يعتنق مذهبه ، ويقبل دعوته ، وإنَّ الهند دار حرب ، ولقيت الحكومة الإنجليزية متاعب كثيرة شاقة من أتباعه ، حتى استطاعت إخضاعهم[١] » .

ولعلَّ عدد الأخطاء التاريخية إذا لم نقل ـ المغالطات ـ في هذه القطعة الصغيرة لا يقلُّ عن عدد السطور التي اشتملت عليها ، وهي من الوضوح بمكانٍ لا تحتاج فيه إلى نفيٍ ومناقشة ، يعرف ذلك بداهة من كان له إلمام قليلٌ بسيرة هذا الإمام ، وتاريخ دعوته وجهاده ، ومن كان له اطلاعٌ عابرٌ على تاريخ الهند في هذه الفترة الزمنية ، وما ذلك إلا لأنَّ معلوماته مستعارةٌ أو مستقاةٌ من مصدر إنجليزي ، عوَّل عليه كلياً ، ولم ير حاجة إلى أن يدرس سيرة الرجل ، وتاريخ دعوته وجهاده دراسةً وافيةً أصيلةً ، أو يذاكر في هذا الموضوع ، من له خبرةٌ به من رجال الهند ، والعلماء الذين كانوا يزورون مصر بين حينٍ وآخر ، ولو فعل ذلك لوضعه في طليعة « زعماء الإصلاح في العصر الحديث » بدل سيد أحمد خان صاحب حركة التعليم العصري الغربي في الهند ، والسيد أمير علي صاحب كتاب (Spirit of Islam) « روح الإسلام » وقد نبهت الدكتور على ذلك شخصياً في بعض لقاءاتي معه في مصر ، في يناير سنة ١٩٥١م ، وقد جرى الحديث عن كتابه المذكور ، ونبهته على مكانة الإمام السيد أحمد الشهيد ، والعلاَّمة إسماعيل الشهيد ، وعلى الأخطاء التي صدرت من قلمه في ترجمة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، حين تحدَّث عن الشيخ أحمد الشهيد ، فاعترف أنَّ معلوماته عنهما غير وافيةٍ ، وأنَّه لم يعرف مكانتهما الحقيقية في تاريخ الفكر الإسلامي والتأثير على حياة المسلمين في الهند[٢] .

وأمثال هذه الكتابات للكتاب العرب المسلمين ، تجعل الإنسان ينشد قول الشاعر العربي :

---

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، ص٢١ .

(٢) راجع كتاب العلامة الندوي « مذكرات سائح في الشرق العربي » ص٣٧ وملاحظاته عن كتابه « زعماء الإصلاح في العصر الحديث » .

وظلم ذوي القربى أشدُّ مضاضةً على النفس من وقع الحسام المهنَّد

ولا أدلّ على عظمة المرء وجلالة شأنه ومكانته الحقيقية ، من شهادات أولي الرأي والفكر من معاصريه ، فإليك نبذاً من شهاداتهم في هذا المقال الموجز :

يقول أحد الكتاب ، والمؤرخين الهنود ، الذي طبق صيته الشرق والغرب ، وهو المؤلف الكبير النواب السيد صديق حسن خان (أمير بهوپال م١٣٠٧هـ) ، ذلك الذي شهد بأمِّ عينيه تأثير تعليم السيد وتربيته ، وعاشر طائفة من أولئك الأفراد الذين تربوا في مدرسته مباشرةً ، وذلك في كتابه « تقصار جيود الأحرار » :

« إنَّه كان آيةً من آيات الله في هداية عباده ، وإصلاح حالهم ، والرجوع بهم إلى الله وعبادته ، وبلغ خلقٌ كثيرٌ ، وعالمٌ بأسره إلى درجة الربانية « والإحسان » بتعليمه وتربيته ، وتزكيته القلبية والجسمية ، وتطهرت الهند من أدناس الشرك ، والبدع ، والخرافات ، والأوهام ، بفعل مواعظ أصحابه وخلفائه ، واهتدت إلى جادة الكتاب والسنة ، ولا تزال مواعظه وتعاليمه تفعل فعلها ، وتؤتي أكلها » . ويضيف قائلاً :

« وقصارى القول : إننا لا نعلم رجلاً يدانيه في جلالة شأنه ، وفضله في أيِّ جزءٍ من أجزاء العالم المعاصر ، وما جناه الخلق من المنافع الإيمانية ، والمكاسب الرُّوحية من هذه الجماعة الحقَّة ، لم ينالوا عشر أعشاره من العلماء والمشايخ المعاصرين الآخرين » .

ويقول علامة عصره ، وأستاذ أساتذة عهده ، الشيخ حيدر علي الرامبوري الطونكي ، (م ١٢٧٣هـ) أحد تلاميذ الإمام الشيخ عبد العزيز بن ولي الله الدَّهلوي في رسالته : « صيانة الناس عن وسوسة الخناس » :

« أشرق نور إصلاحه وتربيته ، كأشعة الشمس بكلِّ قوةٍ ودفعةٍ على البلاد ، وفي قلوب العباد ، وجعل يتقاطر عليه من الناس من كتب لهم الله السعادة في الأزل ، ويتوبون من الشرك والبدع ؛ التي كانوا قد وقعوا فريستها ، وعاشوا فيها كعامة الناس في عصرهم ، فتمسَّكوا بأهداب التوحيد ،

والكتاب ، والسنَّة ، وقام خلفاؤه ، وأتباعه المؤمنون بجولاتٍ واسعة في البلدان والقرى ، وهدوا مئات الألوف من الناس إلى منهج الشريعة المحمدية ـ على صاحبها الصَّلاة والسلام ـ فمن حالفهم التوفيق الإلهي ، وكانوا سعداء أخذوا يسيرون على هذا الدرب القويم ، وبث أتباعه في جميع النواحي حتى يواصلوا القيام بالتربية والإرشاد ، وتلقين التوبة ، والذين كانوا يكرهون الصلاة والصيام ، ويتعاطون الحشيش ، وكان الخمر والأشربة المحرَّمة قوام حياتهم ، ويصدعون على رؤوس المحافل والمجالس ، ـ سخرية واستهزاءً ـ بأنَّ الصلاة لم تأمر بها الشركة الهندية الشرقية الحاكمة في الهند ، وأنَّ الصيام لم يفرضه مجلس (حكومي) فضلاً عن الزكاة والحج ، وكانت الرشوة والزنى ، وإيذاء عباد الله ، والربا ، شغلهم الشاغل ، وقد عمَّ الاختلاط فيما بين الرجل والمرأة دون نكاحٍ شرعيٍّ ، كالبهائم والأنعام مما كثر به أولاد الزنى ، وكان هناك مئاتٌ في الشباب والشيوخ لم يختتنوا كاليهود والنصارى ، فتاب هؤلآء ، وأولئك كلهم ؛ بفضل تعليم السيد وتربيته عن ذنوبهم ، واستغفروا الله ، وتناكحوا ، واختتنوا ، وعادوا إلى حياة الطهر والصفاء ، والعفَّة والحياء ، وحسنت توبتهم ، وصاروا أتقياء يخافون الله ، وكان يبايعه في وقت واحدٍ عشرة آلاف من الناس ، وقد اعتنق الإسلام بفضل جهوده الإصلاحية والتربوية كثير من الهنادك ، والشيعة ، ومن يمارسون « يوگ » (الرياضة الهندكية) ، وصدقوا في إسلامهم ، وأخلصوا في إيمانهم ، حتى حضره سرِّياً بعض النصارى ، وأسلموا على يديه ، دون أن يشعروا بذلك قومهم ، وأقبل آلاف العلماء ـ بعدما تخرجوا عليه في التربية والإحسان ـ على إصلاح الخلق ، فمنهم من اتخذ الإرشاد ، والإصلاح ، والتربية ، والتزكية شعاره ، ودثاره ، ومنهم من انقطع كلياً إلى وضع الكتب الدينية ، وتفسير الآيات القرآنية ، وشرح الأحاديث النبوية ، وألفوا ، وصنَّفوا ، ونشروا كتباً ورسائل في لغتهم الأم ، ترغِّب الناس في العبادة ، وترهبهم من المعاصي ، وبذلك جعلوا كثيراً من الجهلاء ـ الذين كانوا لا يستطيعون أن يتلفظوا بكلمة الإسلام صحيحةً ـ علماء ، يعرفون الدين والإسلام ، ومنهم من سلكوا

الطريقين معاً[١] (يعني : عنوا بالتعليم إلى جانب التأليف والتصنيف) .

ويقول أحد العلماء في أوائل هذا القرن ، الذين لهم خبرةٌ واسعةٌ بأحوال الهند وأخبارها ، وهو الشيخ عبد الأحد : « أسلم على يدي السيد أحمد رحمه الله أكثر من أربعين ألف هندوكي ، وغير هندوكي من الكفار ، وبايعه ثلاثة ملايين من المسلمين ، ولو وضعنا في الاعتبار سلسلة البيعة والإرشاد التي لا تزال متصلة الحلقات ، وتجري حتى اليوم على أرض الله، عن طريق أتباعه، وأتباع أتباعه، ليكون قد دخل في بيعته ملايين الملايين من الناس »[٢] .

ويقول العالم الرباني الشهير ، المجاهد في سبيل الله الشيخ ولايت علي العظيم آبادي رحمه الله (م١٢٦٩هـ) .

« ما إن دوت دعوته في الهند ، إلا وجعل الناس يترامون عليه ترامي الفراش على النور ، حتى كان يبايعه عشرة آلاف نسمة في يومٍ واحد ، وتكثرت جماعته مع الأيام وتوسَّعت ، وانسلخ آلاف الناس عن دياناتهم الباطلة ، ودخلوا في الإسلام ، وبايعه في مدة ستة أعوام فحسب ثلاثة ملايين من المسلمين الهنود ، بالإضافة إلى نحو مئة ألف رجل بايعوه خلال رحلته للحجِّ والزيارة ، والذين بايعوه كان فيهم آلاف من العلماء والفقهاء ، ومئات من حفاظ القرآن الكريم ، ومئات من رجال الإفتاء والقضاء ، وكثير من أولي التجربة والحنكة الذين ساحوا ، وطوَّفوا ، وجربوا الحلو والمرَّ ، مما يدلُّ دلالةً واضحةً على مدى ما كان يتمتَّع به من حسن القبول والتأييد العجيب من الله ، فكان تنجذب إليه قلوب الناس انجذاب الحديد إلى المغناطيس ، ويبايعونه مندفعين راغبين »[٣] .

ويمضي قائلاً وهو يتحدَّث عن تأثير هذه الدَّعوة ، وما أحدثته من تغيراتٍ عميقةٍ في الحياة والمجتمع :

---

(١) « صيانة الناس عن وسوسة الخناس » طبع ١٢٧٠هـ ، ص٤ ـ ٥ ـ ٦ .
(٢) « سوانح أحمدي » للشيخ محمد جعفر التهانيسري .
(٣) « رسالة الدعوة المتضمنة للرسائل التسع » للشيخ ولايت علي العظيم آبادي رحمه الله ، ص٦٥ .

« قوة هذه الجماعة الإيمانية وتأثيرها تسترعي الانتباه ، فكلٌّ من انضمَّ إليها بالإخلاص ، وتشرف بالبيعة ، عاد من ساعته يكره الدنيا ، ويقبل إلى الآخرة ، ويخاف يوم الحساب ، ولا تزال تزداد كيفيته هذه يوماً فيوماً ، ويتخلَّى عن كلِّ معاني الشرك والبدع ، ويرسخ في قلبه العظمة ، والمحبة لله ، وتأخذ بمجامع قلبه معاني الإجلال والإكبار والاحترام نحو الشرع الإسلاميِّ ، والحنين إلى الصلاة ، والكراهية لكل من ينحرف عن طريق الله ، ولو كان أباه أو جدُّه ، أو ابنه وبنته ، أو تلميذه أو أستاذه ، أيّاً كان ، فإن مخافة الله تأخذ من قلبه كلَّ مأخذ ، فلا يبقى فيه مجال للمجاملة أو المداراة ، وكثيرٌ من الناس قد انقطعوا عن وظائفهم ، وأعرضوا عن حرفهم إذا كانت غير مباحةٍ لدى الشريعة الإسلاميَّة ، أو كم منهم من هجر راحته ، ووطنه ، وخرج لله لا يلوي على شيء ، وأقبل إلى الصَّلاة والعبادة بفضل هذه الجماعة عالمٌ من الناس ، حتى أضحى المضلِّلون والخرافيون يؤكِّدون على أتباعهم الصلاة ؛ مخافة أن ينفضُّوا من حولهم »[١] .

وهناك عددٌ من الكتَّاب ورجال القلم الغربيين الذين اعترفوا ـ إلى جانب الخطأ في الفهم ، أو تقوُّل الكذب عن تعمُّدٍ وإرادة ـ بالتأثير الخالد العميق البعيد المدى لحركة السيد الإصلاحية والجهادية ، ولتعليمه وتربيته ، وبعظمة مقاصده وأهدافه ، وضخامتها وأصالتها ، يقول الكاتب الأوربي المعاصر « اسمث » (Wilfred Cantwell Smith) الذي درس الحركات ، والمؤسسات التي ظهرت في البلاد الإسلامية دراسةً وافيةً في كتابه (Islam in Modern History) « الإسلام في التاريخ المعاصر » :

« إلا أنَّ الهدف المنشود من وراء الحركة ، وقوتها النشيطة ذات الحيوية ، قد بقيت تفعل فعلها على طريقةٍ أشمل وأبقى ، كان من الممكن أن يضغط على محاولة إجلاء الكفار ، وقد أخمدت هذه المحاولة فعلاً ، ولكن كان من المستحيل أن يقضي على محاولة إحياء المجتمع الإسلامي ، والعود به إلى

---

(١) نفس المصدر : ص٦٥ .

سيرته الأولى وذلك يدل على مقاصده الصحيحة ، وقد ظلَّت فكرة قوَّة الإسلام في الهند باقيةً في القرن العشرين ، وظلَّت تسيطر على المجتمع ، بل وتنفخ في الروح وتحركه »[١] .

ويقول « هاردي » (P. Hardy) في كتابه « المسلمون في الهند البريطانية » (The Muslim of British India) :

« لم يكن السيد أحمد يهدف إلى إعادة القوة إلى الأسرة المغولية الحاكمة ، أو الطبقة الأرستقراطية ، المؤلفة من الأمراء والأشراف ، وإنما كان يرمي إلى إنشاء مجتمع إسلامي مثالي على غرار المجتمع الإسلامي الأول على حدود الهند ، إنَّه كان يعتقد أنَّ المجتمع المثالي سيكسب المسلمين قوةً تمكِّنهم من التغلب على الهند ، وإخضاعها لله في يومٍ من الأيام ، ولم تلق دعوته ورسالته تجاوباً لدى الطبقة العليا ، وإنما استجابت لها الطبقة السفلى من المجتمع الإسلامي في الهند ، وكانت هذه الطبقة ـ قبل قيام المجتمع الصناعي ـ تضم الفلاحين الصغار ، ومثقفي المدن والقرى ، والأساتذة والمعلمين ، وبائعي الكتب ، وأصحاب التجارة والدَّكاكين ، والموظفين الرسميين الذين يشغلون وظائف عادية ، وأولي الصناعات والحرف »[٢] .

وكان لهذه الجماعة ودعاتها ، والمشرفين على نشاطها نظامٌ دقيق ، عميق الجذور ، واسع النطاق ، قد شمل المناطق الشرقية من الهند ، وكانت شبكة من الدُّعاة الدينيين ، والجامعين للعشر والصدقات ، والمجندين للمتطوعة للجهاد ، ومربيهم تربيةً عسكريةً ، لم يطلع على تفاصيلها أحد إلا وملكته الدَّهشة والاستغراب ، يقول ألدُّ أعداء هذه الجماعة والحركة وليم هنتر (W.W Hunter) في كتابه « المسلمون الهنود » :

« كان يواصل هؤلاء جهودهم دون مللٍ وسآمة مثل الإرساليات المسيحية ، وكانوا مخلصين متجرِّدين عن الأغراض ، وكان أسلوب حياتهم

---

(١) Islam in Modern History طبع نيويورك ١٩٥٧م ، ص٨ .
(٢) « المسلمون في الهند البريطانية » طبع بكمبردج ١٩٧٢م ، ص٥٤ .

فوق كلِّ شبهة ، وكانوا يحملون مهارةً على إرسال المعونات المالية ، والمتطوعين (إلى مركز المجاهدين) وكان هدفهم أولًا وآخراً هو إصلاح الدين ، وتزكية النفوس » .

« ولا يسعني أن أتحدث عنهم من غير شعور بالعظمة والاحترام نحوهم ، كان أكثرهم يبدؤون حياتهم كشباب أتقياء نزيهين مستعدين ، ويظلُّون مدَّة حياتهم على حالهم في التفاني في الدين ، وحماسهم للعقيدة ـ قد عهدت إلى حدٍّ تجربتي أنَّ المبشرين « الوهابيين[١] أعمق إخلاصاً وإحساناً ، وأقلُّ غرضاً ذاتياً » .

ويتحدَّث رئيس الشرطة الإنجليزي في مقاطعة بنغال عن انتشار هذه الجماعة وسلوكها :

« يبلغ عدد أتباع كلِّ مبشرٍ من مبشري هذه الجماعة ثمانين ألف نسمة ، ويعيشون فيما بينهم بمساواةٍ كاملةٍ ، كلٌّ منهم يرى حاجة أخيه حاجته الشخصية ، ولا يصدُّ أحداً منهم عذرٌ ما عن مساعدة أخيه ، كلَّما ألمت به ملمة »[٢] .

« واكتسحت الثورة جميع مديريات بنغال الشرقية ، والفلاحون المسلمون عبر طريق الكنج فيما بين « بتنه » والبحر يرسلون دعمهم المالي أسبوعياً إلى مركز الثوار » .

أما ما أثارته هذ الحركة والدَّعوة من روح الجهاد والتضحية ، والفداء ، فلا يوجد نظيره في شبه القارة الهندية ، في الحاضر والغابر ، يقول هنتر :

« قد ذكر لي أحد الإنجليز ، وهو صاحب مصنعٍ كبيرٍ في « الولايات المتحدة لآجرا وأوده » أنَّ المتدينين من عمال مصنعه المسلمين يقتطعون جزءاً من مرتباتهم لمعسكر « ستهانه »[٣] ، أما المتحمِّسون منهم ؛ فهم يقومون

---

(١) هكذا اعتاد الغربيون أن يسموا هذا الجماعة ، ومن نحا نحوهم من الكتاب .
(٢) « المسلمون الهنود » لوليم هنتر ، الرسالة ١٠٠ ، ١٣ مايو ١٨٤٣م .
(٣) مركز المجاهدين في الحدود الشمالية الغربية الحرَّة بعد شهادة الإمام السيد أحمد .

بالرحلة إلى « ستهانه » من حينٍ لآخر ، ويقومون بالخدمة ، فإن كان العمال الهنادك يطلبون المسامحة لممارسة تقاليدهم الدينية لدى موت آبائهم وأجدادهم ، فإنَّ المسلمين كانوا يطلبون الإجازة لعدة شهور لكي يساهموا في أداء فريضة الجهاد مع « المجاهدين » ولا يدري أي أبٍ وهابي متى ينسلُّ ابنه المتحمِّس في الدين من بيته للجهاد » .

ويقول المستر جيمس أوكينلي (James Okinealy) .

« ولم يكن ضعاف القلوب من مسلمي بنغال أقلَّ من الأفغانيين في الضراوة ، والحماسة للجهاد » .

أما بعد ! فقد آن الأوان لتقييم هذا الإمام الكبير الذي لا ينبغ إلا في قرون متطاولةٍ تقييماً صحيحاً ، وتحديد مكانته بدقَّةٍ وأمانةٍ في تاريخ الإصلاح والتجديد ، وفي تاريخ الفكر الإسلامي والبطولة الإسلامية ، فقد أزيح الستار عن جوانب عظمته[1] ، وأهدافه ومراميه ، ومخططاته الإصلاحية والجهادية ، وعن سموِّ همته ، وبعد نظره ، وألمعيته في الزمن الأخير .

ومن فهم هذا الدين وأساغه في إطار قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران : ١٦٤] .

والذي تجلَّت عليه آفاق هذا الدين الواسعة ، وأعماقه الغائرة ، وأبعاده المترامية ، بين عقيدةٍ وعبادةٍ ، وأخلاقٍ وسلوكٍ ، وتزكيةٍ وتربيةٍ ، وصلةٍ عميقةٍ وثيقةٍ بالله ، وربانيةٍ قرآنيةٍ نبوية ، وسياسيةٍ قويَّةٍ عادلةٍ راشديَّةٍ[2] وفهم الإسلام في صورته الأولى الأصلية ؛ التي مثلها صحابة الرسول ، وتابعوهم بإحسان ، (لا في صورته المجزأة الممزقة التي انقسمت بين الظاهر والباطن ،

---

(١) أحسن ما كتب في هذا الموضوع وما يلقي ضوءاً على ذلك ، ولو بإشارة وكتابة ، كتاب « منصب الإمامة » ، الفذ ، للعلامة محمد إسماعيل الشهيد ، بالفارسية .

(٢) نسبة إلى الخلفاء الراشدين .

والجسم والروح ، والدين والسياسة ، ولا في الصورة المشوَّهة التي كانت انعكاساً للفلسفات الغربية ، والتفكير الغربي . وردَّ فعلٍ من حيث لا يشعر به صاحبها) أنصف هذه الشخصية وأعجب بها ، وأحلَّها مكانها اللائق بنوابغ الإسلام وأعلام التاريخ الإسلامي .

وإنما كانت سيرة هذا الرجل ، وفهمه للإسلام ، ونهوضه لإعادته إلى دعوته الأولى ، وقوته الأولى ، نابعاً من دراسة القرآن العميقة . وإشعاعاً من السيرة النبوية ، وحبه العميق لها ولصاحبها ، وقد امتزج كلُّ ذلك بلحمه ودمه ، وسرى في عروقه وجسمه ، ثم كانت تهيئةً من الله ، وتربيةً منه ؛ لشدة حاجة المجتمع الإسلامي المعاصر إلى مصلحٍ كبيرٍ ينفخ فيه روحاً جديدةً ، وحياةً جديدةً ، ولصدق نيته ، وصفاء طويَّته ، وتجرُّده عن الأغراض ، وحب العلوِّ والطموح ، وكثرة دعائه ، وابتهاله إلى الله ، فهو لا يقاس على القادة القوميين والزعماء السياسيين ، ومؤسسي الحكومات والدول ، ومنشئي الجماعات والحركات .

ومن تذوق « النهج النبوي المحمَّدي » في الأخذ ، والردِّ، والاستحسان، والاستهجان ، والأخلاق ، والعادات ، والعبادة ، والدعاء ، والسياسة ، والحكم ، النهج الذي نستطيع أن نسميه المزاج النبوي ، أو الطبيعة التي يطبع عليها الأنبياء ، فيعرف ما يجيش في صدورهم ، وما يقلق بالهم ، ويؤرقهم في الليل ، ويشغلهم في النهار ، ويفجر ينابيع قلوبهم ، ويجري السيل من عيونهم ، ويلهمهم الحكمة وفصل الخطاب . ويهدي بهم كبار الضلَّال والمعاندين ، فمن تذوَّق هذا الذوق ؛ ملك المفتاح الذي يفتح به هذا الكنز ، ويتعرَّف به على هذه الشخصية الفريدة ، التي أُغلقت على كثيرٍ من القراء ، وأُبهمت على كثيرٍ من الباحثين ، الذين سيطر عليهم التفكير المادي الروتيني ، وخضعوا للمقاييس والمفاهيم ، والمثل العصرية .

﴿ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [النور : ٤٦] .

* * *

العلاَّمة الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمن العثماني الكيرانوي وكتابه « إظهار الحق »[١]

يُسعد كاتب هذه السطور أن يكتب في موضوع يتصل بعَلَم من أعلام هذه الأمة ، قيَّضه الله للذبِّ عن حوزة الإسلام ، وإظهار الحق ، وإزالة الشكوك ، وإزالةِ الأوهام[٢] ، حين كان الخوض في هذا الموضوع مجازفةً بالحياة ودعوة للموت الزؤام ، وأتى في ذلك بحجج وبراهين لم يسبق إليها ، ولقي خصومه على يده من الهزيمة والانتكاس ما لم يلقوه من قبل ، وانتهت إليه الرئاسة في هذا الفن في القرن الرابع عشر الهجري (القرن التاسع عشر الميلادي) ، وطبقت شهرته الآفاق وسلَّم له معاصروه وأقرانه وعلماء العالم الإسلامي بالإمامة والزعامة في هذا الموضوع ، ألا وهو مولانا (رحمة الله الكيرانوي) ، مؤلف هذا الكتاب « إظهار الحق » ، ومؤسس المدرسة الصولتية بمكة المكرمة ، ودفين المعلاة (١٢٣٣هـ ـ ١٣٠٨هـ) .

مأثرةٌ عظيمة تكفي للبلوغ به إلى درجة العلماء الخالدين والأبطال المجاهدين ، أنه وقف في الدفاع عن الإسلام وتمحيص الحق والباطل ودحض الشبهات وإعادة الثقة إلى نفوس المسلمين ورفع معنوياتهم ، واعتزازهم بفضل دينهم على الأديان كلها ، وإعجاز كتابهم وخلود رسالة نبيهم ﷺ في أحوال رهيبة وساعات عصيبة ، ووقف في وجه خصوم[٣] كانوا ينتمون إلى الفاتحين

---

(١) طُبع الكتاب على نفقة الشؤون الدينية بدولة قطر بعناية سعادة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، مدير الشؤون الدينية ، ومراجعته ، سنة ١٤٠١هـ (١٩٨٠م) .

(٢) تلميح بأسماء مؤلفات العلامة الشيخ محمد رحمة الله الكيرانوي المكي الثلاثة الشهيرة وهي : « إظهار الحق » ، و « إزالة الأوهام » ، و « إزالة الشكوك » ، وله كتاب رابع في نفس الموضوع وهو « أصح الأحاديث في إبطال التثليث » .

(٣) القساوسة الأوروبيون .

الذين يتمتعون بأكبر سلطة وقوة في ذلك العصر ، وحكومات قوية ومملكة لا تغرب عنها الشمس ، ومدنية زاهرة دافقة بالحياة والنشاط ، وكان هو بالعكس ينتمي إلى شعب[1] جريح القلب والجسم ، متحطِّم الأعصاب ، ضعيف الثقة بتراثه وأمجاده ، يعيش في عزلة عن العالم ، ينظر إليه الإنجليز كالمنافس الطبيعي الوحيد ، والخطر الحقيقي على زحفهم وتقدمهم في آسيا وإفريقية بصفة خاصة ، وقد انتشر القسس ـ النصارى الأوروبيون والمتنصِّرون الهنود ـ ، في مدن الهند وقراها ، بحماس زائد ونشاط كبير ، يدعون أنصاف المتعلمين والأميين إلى دين الفاتحين الأقوياء الأغنياء الذين حالفهم الجد ، وواكبهم النصر في كل ميدان ، وكفى بذلك دليلاً على صدق الدين الذي يدينون به في عيون الجهلاء الضعفاء .

وقد ضعفت معرفة علماء المسلمين ـ فضلاً عن عوامهم ودهمائهم ـ بالنصرانية ومصادرها ـ بما فيها العهد القديم والجديد وشروحهما وتفاسيرهما وتاريخهما ـ وتطورها وارتقائها ، وما طرأ عليها من تغييرات وتحويلات ، وما مرَّ بها من أحداث وما عبث بها من حكومات ومجامع ، كانوا في شغل شاغل بما كانوا يدرسونه من علوم دينية شرعية ، أو فنون عقلية يونانية[2] ، وبحوث كلامية وفقهية ، وتحقيقات تفسيرية وحديثية ، فكان هذا الزحفُ العلميُّ والعقائدي مفاجأة لعلماء المسلمين ، شبيهة بتبييت أو غارة في ظلام الليل ، وكان الوقوف في وجهها ومقاومتها يحتاج إلى شجاعة معنوية ، وحمية دينية متأججة ، وصبر طويل ، وهمة عالية ، تحثُّ على دراسة المسيحية من

(١) الشعب المسلم الهندي .

(٢) يستثنى من ذلك أفذاذٌ من أصحاب الاختصاص في دراسة الديانات الأجنبية والاطلاع على العهد القديم والجديد ، من علماء أسرة حكيم الإسلام ولي الله الدهلوي ، الذين كانوا يدرسون التوراة والإنجيل مع ما يدرسونه من الكتب والصحف ، والشواذ من علماء الهند المتبحرين أمثال العلامة السيد آل حسن الموهاني (١٢٨٧هـ) صاحب كتابي (الاستفسار والاستبشار) ، والشيخ عنايت رسول الجرياكوتي (١٣٢٠هـ) صاحب كتاب (البشرى) الذي درس اللغة العبرانية وأتقنها .

ينابيعها الأصلية ، واستعراض واسع لما كتب عنها ، إثباتاً ونفياً ، وتوثيقاً ومعارضةً ، ونقداً وبحثاً ، وكان الذي يبدأ بهذه الرحلة الطويلة المضنية يشعر بأنه سائرٌ في نفق طويل مظلم .

وكانت وسائل هذه الدراسة وموادها مفقودة أو نادرة ندوراً كبيراً ، وقد وضع أكثرها في اللغات الأجنبية ، وكان من أقربها إلى علماء هذه البلاد ـ شبه القارة الهندية ـ اللغة الإنجليزية ، وكانوا حديثي العهد بها ، وقد زهّدهم فيها وكرَّهَها إليهم أنها لغة الفاتحين المهينين لهم ، ولا يتوقع وجود هذه المصادر في هذه البلاد لأنَّ ذلك ينافي مصلحة الدعوة إلى النصرانية ، ويضعف موقف الدعاة إليها ، ويثير عليهم مشاكل جديدة ، فكانوا على إقصائها من هذه البلاد أحرص منهم على جلبها أو تزويد المكتبات بها .

كل ذلك كان يعقّد مهمة الشيخ رحمة الله وزملائه ، الذين وهبوا حياتهم للدفاع عن الإسلام ، ودحض الشبهات حوله ، والوقوف أمام القسس و (المبشرين) ـ كما كانوا يسمون أنفسهم ـ في موقف الدفاع بدل موقف الهجوم ، وتلك هي الحكمة الحربية (والاستراتيجية) الجدلية التي ما زالت ولا تزال سياسة القادة المحنَّكين ، والحذاق العسكريين ، ولكن ذلك لم يفت في عضد الشيخ الذي هَيَّأه الله ليخوض هذه المعركة الحاسمة التي لا بد أن يخوضها الشعب المسلم الهندي الذي واجه الدعوة المسيحية وجهاً لوجه ، قبل أن يواجهها شعب آخر في قطر إسلامي أو عربي ، فكان يتوقف عليه مصير الشعوب الإسلامية والشعوب العربية كلها ، التي كانت هذه الدعوة في طريقها إليها ، فإذا قدَّر الله أن يخرج هذا الشعب الأعزل المثخن بالجراح من هذه المعركة الجدلية الكلامية والعلمية الاستدلالية ، فاتحاً مظفراً ، مرفوعَ الرأس شامخاً بأنفه ، تراجع هذا السيل على أعقابه أو ضعف مدُّه وطغيانه .

قام الشيخ رحمة الله وشمَّر عن ساق الجد والاجتهاد ، ونذر لله أن لا يهدأ حتى يدرس مصادر النصرانية ومراجعها ، دراسةً عميقة دقيقة ، ويغوص فيها وينقِّب . وقد شحذ عزمه على ذلك قدوم القس الطائر الصيت فندر (Funder) من إنكلترا ، وقد قام بنشاط كبير وحماس زائد في مناظرة علماء الهند ، وقد

تحدَّاهم تحدياً سافراً ، وقام بجولةٍ في مديريات الهند يخطب في المجامع ويدعو إلى النصرانية ، وكانت المشكلة مشكلة اللغة ، وكان الشيخ لا يعرف اللغة الإنجليزية ، ولتعلم اللغات الأجنبية سنٌّ طبيعية قد تخطَّاها الشيخ الذي ظلَّ زمناً طويلاً مشغولاً بالعلوم الدينية والعقلية ،وكان (فندر) لا يعرف إلا اللغة الإنجليزية ، فأين القنطرة التي تصل بينهما ، وأين الرجل الذي يساعد الشيخ رحمة الله في الاطلاع على المصادر الأجنبية والوثائق المسيحية التاريخية ؟.

هناك قَيَّضَ الله له مسلماً غيوراً ـ ولله جنود السموات والأرض ـ وهو الدكتور (محمد وزير خان الأكبر آبادي) ، الذي سافر إلى لندن سنة (١٨٣٢م) يدرس الطب الجديد ، وقد نال فيها شهادةً عاليةً وأتقنَ اللغة الإنجليزية ، ودرس اللغة اليونانية ، وعُني بدراسة المسيحية من مصادرها الأصلية ، واقتناء كتبها ، واستصحب هذه المكتبة الثمينة[١] إلى الهند ، وكان عضد الشيخ الأيمن في هذا الجهاد العلمي الكبير الذي كان جهاد الساعة وواجب الوقت .

ولما أكمل الشيخ (رحمة الله) مهمته في الدراسة ، وأخذ عدته وعتاده لخوض المعركة وقد استفحل أمر (فندر) ورأى أنَّ الجو قد خلا له فازداد جرأةً وتحدياً ، ورأىٰ الشيخ (رحمة الله) أنه لا سبيل إلى الحد من نشاط هؤلاء القسس ـ وفي مقدمتهم وعلى رأسهم القس (فندر) ـ وإعادة الثقة إلى نفوس المسلمين ومقاومة (مركب النقص) فيهم إلا مناظرة فندر في جمع حافل يحضره المسلمون والمواطنون ، والحكام الأوروبيون والنصارى والمتنصِّرون ، وكان فندر كثير الإدلال بكتابه « ميزان الحق »[٢] فخوراً متبجحاً به ، ويرى أنه ليس من السهل معارضته ونقضه من علماء المسلمين .

---

(١) ساهم الدكتور في ثورة ١٨٥٧م وهاجر على إثرها إلى مكة المكرمة حيث لحق بالشيخ رحمة الله ومات ودفن بالبقيع .

(٢) صدرت له الطبعة الثامنة باللغة الفارسية سنة ١٨٤٩م من آكره ، والطبعة الثالثة باللغة الأردية سنة ١٨٥٠م .

حرص الشيخ رحمة الله على مناظرة القس (فندر) كل الحرص ، فراسله في هذا الموضوع وألحَّ عليه بالظهور أمام الجمهور وعلماء المسلمين ، واستعان في ذلك بكل من يرى فيه غناءً أو تأثيراً ، ولما رأى القس أنه لا مناص له من هذه المناظرة ، قبلها راضياً أو مكرهاً ، وهو لا يقدِّرُ نتائجها تقديراً صحيحاً ، وتقرَّر عقد مجلس المناظرة في ١١ من رجب سنة ١٢٧٠هـ (١٠ من أبريل ١٨٥٤م)[١] في أكبر آباد ـ آكره ، إحدى مديريات الولاية الشمالية الرئيسية وأحد مجالات النشاط التبشيري في الهند ، وفي حيٍّ من أحيائها المعروفة بحارة (عبد المسيح)[٢] .

بدأ الحفل في اليوم المعيَّن والساعة المحدَّدة ، وقد حضرها ولاة المديرية من حكام وقضاة وبعض كبار موظفي الثكنة الإنجليزية من الإنجليز ، وحضر القس الشهير فندر (Funder) والقس وليم كلين (William Clean) وعدد كبير من أعيان البلد ووجهائه ، ومن أبناء البلد المسلمين والمسيحيين والهنادك والسيخ ، وكان الدكتور محمد وزير خان بجوار الشيخ رحمة الله يساعده ويتعاون معه ، وكانت خمس قضايا موضوع البحث والمناظرة وهي :

١ ـ التحريف في الكتاب المقدس « العهد القديم والجديد » .

٢ ـ وقوع النسخ .

٣ ـ التثليث .

٤ ـ نبوَّة محمد ﷺ .

٥ ـ صدق القرآن وصحته .

وقد تقرَّر أنه إذا انتصر الشيخ رحمة الله في المناظرة يدخل فندر في الإسلام ، وإن كان بالعكس يتنصَّر الشيخ .

أسفرت هذه المناظرة ـ التي لفتت أنظار المعنيين بالقضية في داخل البلد

(١) قبل الثورة بثلاث سنوات .

(٢) منسوبة إلى أحد المتنصرين من أبناء البلد ، ويظهر من ذلك نفوذ حركة التنصير في داخل البلد .

وخارجه ، وكانت حديث النوادي والشغل الشاغل والمقيم المقعد في البلد - عن اعتراف القس (فندر) بوقوع التحريف في ثمانية مواضع من الإنجيل ، وقد أفزع ذلك الولاة وأنصار (فندر) وشيعته ، ولكنه سهم أطلق من القوس فلا رادَّ له .

وتزايد عدد الحاضرين في الغد ، وازداد عدد الحكام الإنجليز ، والمسيحيين والهنادك والسيخ وحضرها جمٌّ غفير من المسلمين ، وأصرَّ (فندر) على أنَّ الأخطاء التي وقعت في الإنجيل كانت من سهو الكاتب ، أما العبارات التي تتضمن عقيدة التثليث وألوهية المسيح والفداء والشفاعة فهي من التحريف ، وقد رد عليه الشيخ بقوله : (إنك ما دمت قد اعترفت بوقوع التحريف في الإنجيل فقد أصبح هذا الكتاب مشكوكاً فيه برمته) ، وانتهى البحث عند ذلك ، ولم يرجع القس إلى البحث والمناظرة في اليوم الثالث[١] ، وكان من الواضح أنه انسحب من ميدان المناظرة ، وكان انتصاراً رائعاً للجانب الإسلامي ، قويت به معنويات المسلمين وتشجعوا على مواجهة القسس ورد دعاويهم ، وفقدت الدعوة التبشيرية الكثيرَ من اعتبارها وقيمتها .

وبعد عامين قامت ثورة ١٨٥٧م التي كانت المحاولة الأخيرة اليائسة للتخلص من (الأخطبوط) الإنجليزي وطرح نيره ، وعلى أثر إخفاقها تعرَّضَ المسلمون لرد فعلٍ عنيف من جهة الإنجليز الفاتحين الموتورين الذين كانوا يعتبرون المسلمين أصحاب الفكرة والقيادة في هذا النضال ، والمواطنين تابعين لهم ، فكان حنقهم شديداً على علماء المسلمين وأهل الخطر منهم ، ومن له شأن في المجتمع الهندي ، يعلقونهم على المشانق ويقتلونهم بتعذيب وإهانة ، ويبحثون عن كل من كانت له كلمة مسموعة أو نفوذ في المجتمع ، وكان من ضمنهم وفي مقدمتهم الشيخ رحمة الله الكيرانوي الذي انتصر عليهم

---

(١) راجع للتفصيل « البحث الشريف في مسألتي النسخ والتحريف » في حكاية هذه المناظرة وخبرها للشيخ رفاعي الخولي على هامش « إظهار الحق » طبع المطبعة العلمية بإستانبول عام ١٣١٥هـ .

في المعركة الدينية ، وأسهم في الكفاح ضدهم ، وقد اختفىٰ مدة في قرية صغيرة ، ولما دخلت الجيوش الإنجليزية في هذه القرية أخذ المنجل ، ودخل في مزرعة ، وتشاغل بحصاد الحقل كفلاح صغير مغمور .

واستطاع بذلك أن ينجو بنفسه ويصل إلى (سورت) ميناء الهند ، ويهاجر منها إلى البلاد المقدسة ، وكان ذلك في سنة (١٨٦٢م) ، يعني بعد الثورة بخمس سنوات ، وصودرت أملاكه التي كانت كبيرة وواسعة ، وبيعت بالمزاد العلني ، وكان ذلك في أيام خلافة السلطان عبد العزيز العثماني ، وإمارة الشريف عبد الله بن عون ، ولما عُرِفَت منزلته العلمية في مكة وبلاؤه في الدفاع عن الإسلام سمح له بالتدريس في الحرم المكي ، وتوثَّقت بينه وبين عالم مكة الجليل الشيخ (أحمد بن زيني دحلان) الصداقة ، وهو الذي كان له الفضل في التعريف به عند الشريف وعلماء مكة وأعيانها .

وصادف أنَّ القس (فندر) بعدما قضى فترةً في الأقطار الأوروبية كألمانيا وسويسرا وإنچلترا ، أرسلته الإرسالية الكنسية في لندن إلى القسطنطينية ليقوم بالدعوة والتبشير في مقر الخلافة الإسلامية وقلب العالم الإسلامي ، وقد قابل السلطان عبد العزيز ، وحكى له قصة المناظرة في الهند ، وذكر أنه كان للمسيحية فيها انتصار على الإسلام ، وأهمَّ ذلك السلطان عبد العزيز خليفة المسلمين ، وكتب إلى شريف مكة يأمره بالاتصال بأهل الخبرة من حجاج الهند ، والحصول على المعلومات الصحيحة عن هذه المناظرة وثورة (١٨٥٧م) ، وإحاطة الباب العالي بحقيقة الأمر ، وكان الشريف قد اطلع على حقيقة الأمر عن طريق شيخ العلماء (السيد أحمد دحلان) ، فكتب بذلك إلى الآستانة ، وذكر أن العالم المسلم الذي كان بطل هذه القضية موجودٌ في مكة ، فأنفذ السلطان بطلبه إلى الآستانة ، وتوجه الشيخ إليها في سنة ١٢٨٠هـ (١٨٦٤م) ، ولما علم القس (فندر) بتوجهه إلى القسطنطينية غادر العاصمة لساعته ، وعقد السلطان مجلساً للعلماء والوزراء وحكى فيه الشيخ قصة المناظرة ، وكيف انتصر فيها الإسلام على المسيحية ، وقصَّ قصة ثورة (١٨٥٧م) وحينئذ فرض السلطان قيوداً على نشاط المبشِّرين والإرساليين في الدولة العثمانية

وسَنَّ في ذلك قوانين صارمة ، وكثيراً ما كان السلطان يجتمع بالشيخ بعد صلاة العشاء ويصغي إلى حديثه ويحضر هذا المجلس خير الدين باشا التونسي الصدر الأعظم ، وكذلك شيخ الإسلام وغيره من كبار العلماء .

واقترح السلطان عبد العزيز والصدر الأعظم خير الدين باشا على الشيخ بعدما سمعا قصة المناظرة ، وعرفا طولَ باعه وواسع اطلاعه في هذا الموضوع ، وقوة عارضته واقتداره على نقد المسيحية ومصادرها ، أن يؤلِّف كتاباً بالعربية يتناول فيه القضايا الخمس التي دار عليها البحث في مناظرة (أكره) بالتحقيق والتفصيل ، وقبل الشيخ هذا الاقتراح ، وبدأ في تأليف كتاب « إظهار الحق » وهو مقيمٌ في الآستانة في شهر رجب ١٢٨٠هـ وأكمله في ذي الحجة في نفس السنة يعني في ظرف ستة أشهر ، وقدَّمه إلى السلطان ، ولكنه ذكر في المقدمة أنَّ هذا التأليف كان تحقيقاً لرغبة شيخ العلماء « السيد أحمد بن زيني دحلان » ، فكلمه في ذلك خير الدين باشا ، وقال إنه كان امتثالاً لأمر أمير المؤمنين ، فكان اللائق أن ينوِّه بذلك إكراماً لمركز الخلافة وإنصافاً للواقع ، فاعتذر الشيخ وقال : إن هذا العمل كان واجباً أن يكون خالصاً لوجه الله لا يشوبه غرض دنيوي ، أو تزلّف إلى أمير أو سلطان ، وقد سبق أن شيخ العلماء رغب إلي في ذلك ، وترجاني أن أقيِّد خبر هذه المناظرة ، وكنت قد بدأت بجمع بعض المواد في مكة ، وله فضل في تقديمي إلى شريف مكة ، وهو الذي كان السبب في وصولي إلى سدَّة الخلافة ، لذلك آثرته بالذكر والاعتراف بالفضل .

وهكذا ظهر هذا الكتاب إلى حيِّز الوجود ويمتاز بعدة ميزات :

١ ـ **الأولى** : أنَّ المؤلف آثر خطة الهجوم على خطة الدفاع التي لا تزال أقوى وأكثر تأثيراً في النفس ، فإنها تلجىء الخصم إلى أن يتخذ موقف الدفاع، وأن يقف في قفص الاتهام ويدافع عن نفسه وينفي التهمة ، وكان مما تورط فيه علماء المسلمين قديماً أنهم وضعوا التوراة والإنجيل والقرآن على مستوى واحد ، وبذلك نالت هذه الصحف القديمة ما لم تكن تستحقه من الثقة والتقدير ، مع أن أصحابها أنفسهم لا يدعون أنها كلها كلام الله ، والوحي المنزل من السماء

بنصه وفصِّه ، كما هو الشأن مع القرآن الكريم والمؤمنين به[١] .

وقد كان شيخ الإسلام (تقي الدين أحمد بن تيمية) موفقاً كل التوفيق في إيثار خطة الهجوم في كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح »[٢] ، مع أنَّ قيمة الصحف الأربعة للإنجيل لا تعدو عند المحققين قيمة كتب السيرة والحديث من الطبقة الثانية والثالثة ، ليس لها سند متصل صحيح ، وقد ألفت بعد رفع المسيح في فترات مختلفة ، وفيها أشياء من كلام المسيح وأشياء من أفعاله ومعجزاته[٣] .

وقد تفطَّن الشيخ (رحمة الله) بدقة دراسته وأصالتها وأصاب المِحَزَّ ، فغيَّر ذلك وجه البحث والجو الذي تقوم فيه المناظرة ، وأفقد الخصومَ الموقف المشرف الذي تمتعوا به واستغلوه زمناً طويلاً .

٢ ـ **الميزة الثانية** : أنَّ المؤلِّف تجنَّب البحوث الدقيقة التي يتَّسع فيها الجدال ويكثر فيها القيل والقال ، بل اعتمد في الكتاب على التناقضات الواضحة والبديهيات الجلية التي لا تقبل التأويل ، واستخرج منها نتائج كنتائج رياضية لا يختلف فيها اثنان ، فقد أثبت أنَّ التوراة والإنجيل مليئة بالاختلافات والتناقضات ، وقد وقعت فيها أخطاء فاحشة عدَّ منها مئة وثمانية ١٠٨ خطأً ، وبرهن بذلك على أنها كلها ليست إلهاماً من الله ، وأنَّ التحريف قد وقع في « الكتاب المقدس » لا محالة ، من زيادة ألفاظ ، وحذف كلمات ، وعبارات إلحاقية ، وبذلك أصبح هذا الكتاب شديد الوطأة على من يؤمن بكونه صحفاً سماوية منزّلةً وصلت إلى البشر عن طريق الوحي والإلهام .

٣ ـ تعرَّض المؤلف فيه لمغالطات النصارى وتمويههم ، ورد عليها في أسلوب سائغ مقنع ، وتعرَّض لإثبات النسخ ووقوعه في الديانتين السابقتين وصحفهما .

---

(١) راجع كتاب العلاَّمة الندوي « النبوة والأنبياء في ضوء القرآن » ، فصل « الصحف السماوية السابقة والقرآن في ميزان العلم والتاريخ » طبع دار القلم ـ دمشق .

(٢) الكتاب في أربعة أجزاء ، وتقع في ١٢٩٥ صفحة ، طبع في مصر عام ١٣٢٢هـ .

(٣) راجع للتفصيل الجزء الثاني من « الجواب الصحيح » : ص١٠ .

٤ ـ وضع المؤلف العلاَّمة حقيقة التثليث في النصرانية على محك العقل ونقدها نقداً علمياً ، يستسيغه كل من رُزق العقل السليم والذوق الصحيح .

٥ ـ لم يكتف المؤلف بنقد المسيحية وعقائدها وصحفها ، بل أضاف إلى ذلك الحديث عن القرآن الكريم وإثبات أنه كلام الله لا شك في ذلك ، وأجاب في هذا الصدد على كل ما عارضه به النصارى وما اعترضوا به على القرآن ، وذكر في ذلك نبذةً من سيرة الرسول ﷺ ومعجزاته ، والبشارات التي وردت في شأنه ، وقد ذكر ثماني عشرة (١٨) بشارة ، وحقق صحة الأحاديث .

لذلك كان الإقبال على هذا الكتاب كبيراً ، والعنايةُ به عظيمة ، وقد ظهرت له الطبعة الأولى في عام (١٢٨١هـ) في إستانبول ، ونقله عالم تركي إلى اللغة التركية وسماه بـ « إبراز الحق » ، وقامت الحكومة العثمانية بترجمة الكتاب إلى عدة لغات .

ونقله أحد الكتاب بالإنجليزية في الهند إلى اللغة الإنجليزية ، ولا زالت هذه الترجمة موجودة في مكتبات الهند ، والباكستان[1] .

وترجمه الشيخ (غلام محمد الرانديري) إلى الكجراتية إحدى لغات الهند الإقليمية . وترجم أخيراً إلى اللغة الأردية « بائبل سي قرآن تك » ، ومعناها « من العهدين القديم والجديد إلى القرآن » وهذه الترجمة في ثلاثة مجلدات ، قام بها الشيخ « أكبر علي السهارنفوري » أستاذ الحديث في دار العلوم ـ كراتشي ـ وقدَّم له فضيلة الشيخ محمد تقي العثماني بمقال مسهب في تاريخ المسيحية وشرح عقائدها ومبادئها ، ونقدها نقداً علمياً ، وتستحق هذه المقدمة العلمية القيمة أن تنشر مفردة وتنقل إلى العربية والإنجليزية .

واشترى القسس كميات كبيرة من طبعات الكتاب وأتلفوها إحراقاً وإبادةً ليتغيَّب الكتاب من السوق ، وقد أعيد طبعه في مصر مراراً ، وأخيراً قامت وزارة الأوقاف والأمور الدينية في المغرب ، وأصدرت له طبعة ممتازة في

(١) مع الأسف لم ينزل هذا الكتاب إلى السوق ولا إلى المكتبات في الهند أو إنجلترا لأسباب سياسية وغيرها .

١٣٨٤هـ وأثنى على الكتاب وعلو مكانته كبار العلماء في الشرق العربي ، منهم الشيخ (عبد الرحمن بك باجه جي زاده) في كتابه « الفارق بين المخلوق والخالق » ، ومنهم الشيخ (عبد الرحمن الجزيري) عضو هيئة كبار العلماء في مصر في كتابه « أدلة اليقين » ، والعلامة السيد (رشيد رضا) منشىء مجلة « المنار » في تقديمه لإنجيل برنابا ترجمة الدكتور (خليل سعادة المسيحي) ، والأستاذ عمر الدسوقي في مقدمة كتاب « إظهار الحق » .

أما الأوساط النصرانية الأوروبية فناهيك بما كتبته كبرى صحف إنجلترا تعليقاً على هذا الكتاب : (لو دام الناس يقرؤون هذا الكتاب لوقف تقدُّم المسيحية في العالم) .

* * *

العلاَّمة السيد صديق حسن القنوجي

يسعدني أن أقدِّم لكتاب أُلِّف عن حياة الأمير السيد (صديق حسن خان) وآثاره ، وشعوري بهذه السعادة والاغتباط يرجع إلى عدة أسباب سأتناول شرح بعضها في هذا التقديم القصير .

لقد ولدت في بيت : كان موضعه الأثير الحبيب ، بل هوايته التأليف في سِيَر الرجال وطبقاتهم ، وتراجم العلماء وأهل الفضل ، وخاصةً الذين أنجبتهم أرض الهند ، ونبغوا في شبه القارة الهندية منذ دخول الإسلام في هذه البلاد إلى هذا القرن ، ونشأتُ في بيئةٍ كان الحديث الدائر المتكرر في أوساطها ومتعة المتحدثين فيها ، الإشادة بالمُثل والقيم الإنسانية والعلمية ، والتنويه بسماتِ العلماء الكبار ، ومجالات اختصاصهم وتبريزهم ، والشعائر الغالبة عليهم ، والتغنّي بنبوغ أصحاب النبوغ ، وعبقريةِ أصحاب العبقريات في مختلف العصور والأمصار في إكبار وإعظام ، بل في شيءٍ من الهيام ، فثارت في نفسي ملكة الإعجاب بمواضع العظمة والنبالة ، ومكارم الأخلاق وعلوّ الهمة ، وسموّ النفس لدى أفراد البشر بصرف النظر عن جنسيتهم ، ووطنيتهم ، وعصرهم التاريخي ، وكان ذلك في سنٍّ مبكرة لا تبعث فيها هذه الملكة في غالب الأحيان ، والملكات البشرية المودعة في طبائع الأطفال قد يثيرها باعث خاص ـ من بيئة وتربية وحوادث مخصوصة ـ فتنقدح وتتفتق قبل أوانها الطبيعي المعتاد ، وقد كانت هذه قصة كاتب هذه السطور ، ولا يدَّعي في ذلك تفرُّداً أو بدعاً من الأمر .

وقد نشأتُ بصفة خاصة على حب التفنّن في الفضائل ، والجمع بين الأشتات ، بل الأضداد من الفضائل الإنسانية ، وأنواع العلوم والمعارف ، والآداب والثقافات ، وعلوّ الهمة ، والقدرة الفائقة على التنسيق بينها ، وتسخيرها للوصول إلى غايةٍ مثلى ، وخدمة العلم والدين ، حتى لو أدى ذلك

إلى المشاركة في علوم وآداب يتحاشى عنها كثير من علماء الدين ويعدونها من حثالة العلوم ، وبراية الآداب[١] ، ويستخدم العلماء الممتازون هذه العلوم والآداب في سبيل إثبات الدين ، والدعوة إلى الله ، ويخرجون لأهل عصرهم : ﴿ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل : ٦٦] .

ونشأتُ كذلك على حب من يوفقه الله ويقويه على الجمع بين الرئاستين العلمية والعملية ، والحسنيين الدنيا والآخرة ، والنقيضين (في عرف الناس) من إمارةٍ أو وزارة في جانب ، والاشتغال بالتأليف والتدريس أو التربية والإرشاد والإصلاح ، وإزالةِ الفساد في جانب آخر ، ولذلك نشأتُ على معرفة العلاّمة الأمير السيد صديق حسن خان معرفةً أكثر وأعمق من المعرفة التي تنشأ عن الكتب ، وتعتمد على السماع والرواية ، وعرفت مواضع النبوغ والعظمة في هذه الشخصية الكبيرة التي كانت من مفاخر عصره ومن مفاخر الهند ، وكان بحقٍّ في لفظ صاحب « نزهة الخواطر » الذي يتحرّى الدقة والأمانة في وصف الرجال وتقييمهم ، ولا يكيل المدح جزافاً :

(علاّمة الزمان ، وترجمان الحديث والقرآن ، محيي العلوم العربية ، وبدر الأقطار الهندية ، السيد صديق حسن بن أولاد حسن بن أولاد علي الحسيني البخاري القنوجي ، صاحب المصنفات الشهيرة والمؤلفات الكثيرة)[٢] .

ويقول :

(وكان غايةً في صفاء الذهن ، وسرعة الخاطر ، وعذوبة التقرير ، وحسن التحرير ، وشرف الطبع ، وكرم الأخلاق ، وبهاء المنظر ، وكمال المخبر ، وله من الحياء والتواضع ، ما لا يساويه فيه أحد ، ولا يصدق بذلك إلا من تاخَمه وجالَسه ، فإنه كان لا يعدُّ نفسه إلا كأحد الناس)[٣] .

---

(١) البراية : ما يسقط عند نحت القلم ، وهو المرذول الذي لا ينفع .
(٢) نزهة الخواطر : ٨/ ١٨٧ .
(٣) أيضاً : ص١٥٢ .

وكذلك كان إعجابي وإكباري بنابغة القرن التاسع الهجري ، وأحد أبناء الهند الأفذاذ (خواجه عماد الدين محمود الكيلاني) ، وزير الدولة البهمنية الكبيرة(٨١٣ ـ ٨٨٦هـ) ، تلميذ الإمام شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني ، ومؤلف كتاب « مناظر الإنشاء » ، ومؤسس أكبر جامعة في بلدة بيدر ، يقول عنه مؤرخ الهند ومترجم نوابغها العلاّمة عبد الحيّ الحسني :

(كان عالماً كبيراً بارعاً في المعقول والمنقول ، لا سيما الفنون الرياضية وصناعة الطب والإنشاء وقرض الشعر ، وكان باذلًا سخياً شجاعاً ، حسنَ العقيدة ، حسنَ الفعال ، يجزل على أهل العلم صلات جزيلة ، ويرسلها إلى خراسان وما وراء النهر ، والعراق ، وكان لا يأكل مما يحصل له من أقطاع الأرض شيئاً بل يصرفها على مستحقيها ، وكان يحفظ رأس ماله ، وينمّيه بالتجارة فيأكل ما يحصل له منها) .

وله آثار باقية في أرض (الدكن) ، منها المدرسة العظيمة بأحمد آباد بيدر ، وتلك العمارة في غاية الحسن والحصانة لا يوجد لها نظير في بلاد الدكن ، بناها في سنة ست وسبعين وثمانمئة ، وتاريخه « ربنا تقبل منا » .

ويقول :

(تدرَّج إلى الإمارة ، واستوزره علاء الدين شاه البهمني ، وجعله جملة الملك ، ثم لقَّبه محمد شاه البهمني بخواجه جهان)[١] .

وكذلك كان إعجابي بالأمير قائد الجيوش المغولية الأكبر عبد الرحيم خانخانان ، الذي يقول عنه العلاَّمة السيد عبد الحي الحسني :

(لم ينهض من الهند مثله ، ولا من غيرها من الأقاليم السبعة[٢] ، من يكون جامعاً لأشتات الفضائل)[٣] .

---

(١) « نزهة الخواطر » : ٣/ ١٧١ ـ ١٧٣ ، وترجم له السخاوي في الضوء اللامع وذكره طاش كبرى زاده في « مفتاح السعادة » .
(٢) لعله يريد في القرن الحادي عشر وما يتصل به .
(٣) « نزهة الخواطر » : ٥/ ٢٢١ .

ويتقدَّم فيقول :

(وكان له من النقادة التامة ، والشهامة الكاملة ، وعلوِّ الهمَّة والكرَم ما لا يمكن وصفه ، مع المعرفة للأدب ومطالعة كتبه ، والإشرافِ على كتب التاريخ ، ومحبةِ أهل الفضائل ، وكراهةِ أرباب الرذائل ، والنزاهة والصيانة ، والميل إلى معالي الأمور ، حتى لم أجد ممن كان قبله أو بعده من يساويه في مجموع كمالاته ، وكان مع ذلك لا يعفي نفسه عن مطالعة الكتب ، فإذا كان على ظهر الفرس وقت طعنة أو نهضة رأيت الأجزاء في يده ، وإذا كان يغتسل رأيت الأجزاء في يد خدَّامه يحاذونه وهو يطالعها ويغتسل)[١] .

وكذلك الأمير الكبير نَوَّاب مرتضى بن أحمد البخاري (١٠٢٥هـ) الذي يقول عنه العلاَّمة الحَسَني :

(لم يكن له نظير في زمانه في السياسة والتدبير ، والسخاء والكرم ، والمحبة لأهل الفضائل ، والمَيْل إلى معالي الأمور . . « لقبه جهانكير بن أكبر شاه » بصاحب السيف والقلم)[٢] .

وكان من هؤلاء الأفذاذ النوابغ الذين جمعوا بين أشتات الفضائل ، وأنواعِ المحامد والشمائل ، العلاَّمة الأمير السيد صديق حسن خان ، أمير ولايةَ بهوفال ، وكان اسمه من الأسماء الأولى التي طرقت أذني في طفولتي ، وذلك بسبب الوشائج والصلات الوثيقة التي كانت بيني وبين أسرة الأمير ، وهي وشائج العقيدة السنية الخالصة ، وارتباط والده العلاّمة السيد أولاد حسن القنوجي الروحي والديني بكبير أُسرتنا وشرفها الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد ، الذي بايعه الأول على الدعوة إلى الله ، والعمل بالشريعة والسنّة والجهاد في سبيل الله ، حتى كان موضع ثقته وسفيره الخاص إلى بعض الملوك والكبراء ، ووشيجة القرابة كذلك .

وقد عاش الأمير السيد صديق حسن فترةً من الزمن في إمارة (تونك) ،

---

(١) « نزهة الخواطر » : ٥/٢٢٢ ـ ٢٢٣ .
(٢) راجع للتفصيل « نزهة الخواطر » : ٥/٤١٣ .

التي كانت من مواطن أُسرتنا بعد شهادة الإمام السيد أحمد ، زيادة على ذلك كان نجله الأكبر العلاّمة السيد نور الحسن من أعزِّ أصدقاء والدي ، ومن توثَّقت بينهما المحبة والوداد ، والانسجام بين الأذواق والأخلاق ، جاء في كتابه « نزهة الخواطر » :

(وكان له حبٌّ زائد لجامع هذا الكتاب ، على أنه أكبر منه سناً وأغزر منه علماً ، ويُكثر التردّد عليه ، ويبالغ في تعظيمه ، ويحرص على مجالسته ، ويبث إليه بذات نفسه)[١] .

ولا أزال أذكر مرافقتي لوالدي في زياراته له ، وقد كان يبيت بعض الليالي في قصره وأنا معه ، وقد توفي في حياة والدي (سنة ١٣٣٦هـ) ، فكان كثير التحسُّر عليه دائم الذكر له .

وقدَّر الله ، بعد وفاة الأمير السيد نور الحسن ، أن أقضي فترة لا تقلُّ عن ثلاث سنين في منزله بلكهنؤ مع أخي الأكبر الدكتور السيد عبد العلي الحسني ، مدير ندوة العلماء سابقاً ، كأحد أبناء الأسرة ، وذلك بين العاشرة والثانية عشرة من سني ، أسمع الكثيرَ من أخبار العلاَّمة الأمير ، وأتقلَّب بين أبناء هذه الأسرة النجيبة داخل المنزل وخارجه ، فوعيت الكثير ، وعشت الزمن الماضي حساً وشعوراً وخيالاً ، ثم لما تقدَّمت في السن والثقافة ، وبدأت أشدو بالعربية ، وأفهم وأكتب فيها ، بدأت أقرأ بعض مؤلفاته التي كانت في مكتبته الثمينة ، التي أودعها وَرَثة الأمير في مكتبة ندوة العلماء الكبيرة ، وكنت أسمع كثيراً من أخباره ومناقبه ، وبعض المآخذ عليه ممن أدرك عصره أو جلس إلى بعض معاصريه وعارفيه من العلماء والمؤلفين ، وكان شيخي في الحديث العلاَّمة حيدر حسن بن الشيخ أحمد حسن خان التونكي الأفغاني (م ١٣٦١هـ) ، شيخ الحديث ورئيس الأساتذة في دار العلوم ندوة العلماء ، تلميذ العلاَّمة المحدِّث الشيخ حسين بن محسن الأنصاري اليماني ، أستاذ السيد صديق حسن ، وربما أدرك الأمير وزاره

---

(١) راجع للتفصيل « نزهة الخواطر » : ٥/٥٠٦ .

وعرفه عن كثب ، وقد وُلد مولانا حيدر حسن خان حوالي سنة إحدى وثمانين ومئتين وألف .

إنَّ جمعه بين الرئاستين العلمية والعملية لا يأتي إلا لأفراد الناس في فترات قليلة ، وكثرت مؤلفاته التي بلغ عددها إلى اثنين وعشرين ومئتين ، وإذا ضُمَّت إليها الرسائل الصغيرة بلغت إلى ثلاثمئة ، وقد قام في مجال التأليف والإنتاج العلمي بما لو قامت به مجامع كبيرة في الشرق والغرب ، لاستحقت الإعجاب والتقدير ، وذلك كلُّه رغم المآخذ التي لا يخلو عنها كثير من كبار المؤلفين من تلخيص أو تجريد ، أو نقل من لسانٍ إلى لسانٍ آخر ، أو استعانةٍ بالزملاء والفضلاء ، أو اقتباسٍ من مؤلفات سابقة ، ثم تشجيعه للحركة العلمية التأليفية ، ونشر آثار السلف والعلماء المحققين الناصرين للسنة ، كالعلاّمة محمد بن علي الشوكاني ، والعلاّمة السيد محمد بن إبراهيم الوزير ، والأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني ، وحكيم الإسلام أحمد بن عبد الرحيم ، المعروف بوليِّ الله الدهلوي . . وغيرهم .

ومن مآثره التي لا تُنسى ولا يغمط حقها ، أنه أمَر بطبع « تفسير ابن كثير » (مع فتح البيان) ، و « فتح الباري » للعلاّمة ابن حجر ، وقد اشترى نسخة من « الحديدة » وكانت بخط (ابن علان) ، وطبعهُ بمطبعة بولاق في مصر ، وكلَّف طبعه خمسين ألف روبية[1] ، وأهداه إلى أهل العلم ، والمشتغلين بالحديث في الهند وخارجها ، وقد انتسخ « سنن الدارمي » عند قفوله من الحج ، والبحرُ هائجٌ والسفينةُ مضطربة .

ومن مآثره وحسناته أنه كان السبب في انتقال العلاّمة الشيخ حسين بن محسن الأنصاري اليماني الانتقال الأخير الدائم ، وإقامته في بهوفال ، وهو الذي انتهت إليه رئاسة تدريس الحديث الشريف ، وانتشرت إجازته في الهند في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، وتخرَّج عليه أئمة تدريس الحديث ، وكبار أساتذته في شبه القارة الهندية ، وبوجود العلاَّمة الأمير على منصة

---

(١) ويبلغ هذا القدر من المال إلى مليون روبية في هذا العصر .

الرئاسة والإمارة ، وطلوع السهيل اليماني في جواره وحماه ، أصبحت بهوفال محطَّ رِحال العلماء ، ومنتجعَ روَّاد الحديث ، وكانت لعلم الحديث نهضة وانتفاضة لا نظير لها حتى في البلاد العربية ، وفي مراكز هذا العلم القديمة ، ونشطت حركة التأليف والتدريس والشرح في طول الهند وعرضها ، وكان للسنّة وحمَلَتها ، والدعاة إليها جولة وصَوْلة ، وكان لأهل البدع ضعف واختفاء في ربوع هذه الإمارة الإسلامية التي ملك زمام الأمور فيها مدة من الزمن ، وكانت له فيها الكلمة المسموعة ، والأعلام المرفوعة .

هذا وقد لقي الأمير من كثير من علماء العرب ومؤرخيهم شبه انصراف عنه ، وعدم إنصاف ، والسببُ في ذلك يرجع إلى عدم وجود كتاب أُلِّف في حياته وآثاره وتقييمه تقييماً علمياً تاريخياً ، وإزاحة الستار عن مناقبه ومآثره العلمية والإصلاحية ، ومكانته في تاريخ العلم والتأليف والإصلاح والدعوة في الهند ، ولم أجد أحداً من علماء العرب يعرف علوَّ منزلته ويشيد بفضله ، ويشتغل بمؤلفاته ويثني عليها ، أكثر من العلاّمة (محمد بن مانع) رحمه الله ، مدير المعارف الأسبق في المملكة العربية السعودية ، ووزير المعارف في دولة قطر سابقاً ، فما كنت أحضر له مجلساً في الخمسينات الأولى الميلادية إلا ويتطرَّق الحديث بمناسبةٍ أو غير مناسبة إلى ذكر العلاّمة الأمير والحاجة إلى إحياء كتبه ونشرها .

وقد كان من تيسير الله تعالى وحكمته أن قيَّض للكتابة في موضوع حياته وآثاره الأخ العزيز (محمد اجتباء الندوي) ، الذي اختار هذا الموضوع لرسالة الدكتوراه التي قدَّمها لجامعة علي كراه الإسلامية ، وهو حفيد المصلح الكبير الداعي إلى الله الشيخ جعفر علي الحسيني النقوي (م١٢٨٨هـ) ، أحد خلفاء السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٤٦هـ) وزميل والد العلاّمة الأمير السيد أولاد حسن في الدعوة والجهاد ، والارتباط بإمام هذه الدعوة ـ السيد الإمام الشهيد ـ ورفيقه وعضده الأيمن العلاّمة محمد إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله الدهلوي .

وقد التقى في تأليفه لهذا الكتاب عوامل من البحث والتحقيق ، والجد والعناء ، والحب والعاطفة ، وقد أعان المؤلف على إتمام هذا العمل وإيفائه

حقه معرفته للغة الفارسية التي فيها عددٌ كبير من مؤلفات الأمير ، وكان كاتباً قديراً رشيقاً فيها ، كما كان من الكتَّاب المعدودين في العربية في الهند الذين لا يجاوز عددهم رؤوس الأنامل[١] .

وكذلك معرفة اللغة الأردية التي يحذقها كأبنائها ، وفيها عددٌ من مؤلفات الأمير أيضاً وأعانته على التأليف القدرة على اللغة الفصيحة والكتابة العربية السلسة الرشيقة ، والروح النديّة الهادئة المتزنة البعيدة عن الغلوِّ والتطرف ، والعصبية والتعسف ، وما أحسن إذا اجتمعت هذه العوامل القوية ـ التي قد تبدو متناقضة ـ في كتابة كاتب ، وتأليف مؤلف .

وإضافة إلى كل ذلك أعان المؤلف تمكنه من الإفادة من مكتبة ندوة العلماء الكبيرة ، ومكتبة العلاّمة الأمير التي أودعها نجلاه الأمير السيد نور الحسن والسيد علي حسن ، مكتبة ندوة العلماء ، ولاتصاله الوثيق بندوة العلماء والقائمين عليها ، وكذلك صلته بالرجال الذين يعتبرون مراجع في هذا الموضوع ، لذلك كله جاء كتابه حاوياً لوصف البيئة والمجتمع الذي ولد وعاش ونبغَ فيه الأمير ، والملابسات والأجواء التي اكتنفت حياته ، والعوامل التي لعبت دورها في تكوينه العقلي والنفسي والعلمي ، ووصف معاصريه وأصدقائه ، والمشاكل التي واجهها ، واتجاهاته وذوقه ، ثم استعرض كتبه ومؤلفاته، والدراسة المقارنة لها ومناقشتها، وتحديدُ مكانته العلمية والتأليفية، ومكانةُ آثاره العلمية والدينية إلى غير ذلك من البحوث النافعة المنيرة .

وأشعر وأنا أقرأ هذا الكتاب[٢] بغبطة وسرور، وكنت من ضمن المختبرين لهذه الرسالة ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على نبيِّه وصفيِّه محمدٍ وآله وصحبه .

* * *

---

(١) ذكر للعلاَّمة الندوي العلاَّمةُ محمد بهجة الأثري علامة العراق ، أنَّ في مقدمة الكتَّاب المعدودين الذين لا مغمز في عربيتهم الذين نبغوا في الهند ، العلامة السيد صديق حسن ، ووالدكم العلامة السيد عبد الحي الحسني .

(٢) قد طبع الكتاب في دار ابن كثير بدمشق عام ١٩٩٩م .

شاعر الإسلام : الدكتور محمد إقبال
حياته وثقافته ، شاعريته وإنتاجه

ولد محمد إقبال في « سيالكوت » مدينة في بنجاب سنة ١٨٧٧م ، وهو سليل بيت معروف من أوسط بيوتات البراهمة في كشمير ، أسلم جده الأعلى قبل مئتي سنة ، وعرف ذلك البيت منذ ذلك اليوم بالصلاح والتصوف ، وكان أبوه رجلاً صالحاً يغلب عليه التصوف .

تعلم محمد إقبال في مدرسة إنجليزية في بلده ، وجاز الامتحان الأخير بامتياز ، ثم التحق بكلية في ذلك البلد ، حيث تعرف بالأستاذ السيد مير حسن ، أستاذ اللغة الفارسية والعربية في الكلية ، وكان من نوادر المعلمين الذي يطبعون تلاميذهم بطابعهم ، ويبعثون فيهم ذوق العلم ، فأثر في الشاب الذكي كل تأثير ، وغرس فيه حب الثقافة والآداب الإسلامية ، ولم ينس إقبال فضله إلى آخر حياته .

ولما قضى وطره في الكلية سافر إلى لاهور ، عاصمة بنجاب ، وانضم إلى كلية الحكومة ، حيث حضر الامتحان الأخير في الفلسفة ، وبرز في اللغة العربية والإنجليزية ونال وسامين ، وأخذ شهادة (B.A.)[1] ، بامتياز ، وفي لاهور اتصلت أسبابه بالأستاذ الإنكليزي الشهير « سيرتوماس أرنولد » صاحب كتاب « الدعوة إلى الإسلام » (The Preaching of Islam) وعميد الكلية الإسلامية في علي كره سابقاً ، وبالأستاذ عبد القادر المحامي والأديب الشهير وقاضي محكمة الاستئناف بعد ، وعضو مجلس الهند سابقاً ، ومنشىء أول مجلة علمية أدبية في لغة أردو ، اسمها « مخزن » وكان إقبال قد نظم قصيدته

(١) شهادة متوسطة في الآداب في النظام التعليمي الإنجليزي الهندي تعادل ليسانس في مصر وغيرها .

الأولى البديعة « جبل هماله » وهي فارسية التركيب ، إنجليزية الأفكار ، ونشرها الأستاذ عبد القادر في مجلته سنة ١٩٠١م ، ونظم عدة قصائد أدبية توجد في مجموع شعره الأول ، وكان لها دوي في أندية الشعر والأدب ، واجتلبت العيون نحو الشاعر المبدع ، وفي هذه المدة أخذ محمد إقبال درجة (M.A.)[١] في الفلسفة بامتياز ، ونال وساماً وعين على إثره أستاذاً للتاريخ والفلسفة والسياسة في الكلية الشرقية في لاهور ، ثم أستاذاً للإنجليزية والفلسفة في كلية الحكومة التي تخرج منها ، وأشاد بكفاءته وغزير علمه الأساتذة والطلبة جميعاً ، وحاز ثقة وزارة المعارف ، ثم سافر إلى لندن سنة ١٩٠٥م حيث التحق بجامعة « كامبردج » وأخذ شهادة عالية في الفلسفة وعلم الاقتصاد ، ومكث في عاصمة الدولة البريطانية ثلاث سنين ، يلقي محاضرات في موضوعات إسلامية أكسبته الشهرة والثقة ، وتولى في خلال تلك المدة تدريس آداب اللغة العربية في جامعة لندن ، مدة غياب أستاذه أرنولد ، ثم سافر إلى ألمانيا وأخذ من جامعة « ميونخ » الدكتوراه في الفلسفة ثم رجع إلى لندن ، وحضر الامتحان النهائي في الحقوق ، وانتسب إلى مدرسة علم الاقتصاد والسياسة في لندن ، وتخصص في المادتين ، ورجع إلى الهند سنة ١٩٠٨م سالماً غانماً ، ولما مر بصقلية في طريقه إلى الهند ، سكب على ترابها دموعاً ، وقال قصيدة افتتحها بقوله : « ابك أيها الرجل أدمعاً ، فهذا مدفن الحضارة الحجازية » .

ومن دواعي العجب أن كل هذا النجاح حصل لهذا النابغة ، وهو لم يتجاوز اثنين وثلاثين عاماً من عمره ، وأقام له أصدقاؤه والمعجبون بعبقريته حفلة تكريم ، واشتغل الشاعر الفلسفي والاقتصادي الخبير والسياسي الحاذق في عدة لغات ، بالمحاماة لكن ما كان هواه المحاماة ، فكان يقضي أكثر أوقاته وجل همه في تأليف الكتب وقرض الشعر ، وكان يحضر حفلات جمعية « حماية الإسلام » السنوية وينشد فيها قصائده ، ومنها « العتاب والشكوى » التي اشتكى فيها إلى الله على لسان المسلمين ما حل بهم ، وذكر أعمال

(١) وهي تعادل « الماجستير » في مصر .

المسلمين الخالدة في سبيله وفي سبيل الجهاد والإصلاح ، ثم نظم قصيدة أجاب فيها على لسان الحضرة الإلهية ، بين فيها تقصير المسلمين ، وإهمالهم للدين ، وعدم إتقانهم أمر الدنيا ، تبريراً لما جزوا به من الخزي والهوان ، وسرعان ما سارت بهما الركبان ، وتغنى بهما الأطفال والشبان ، وحفظهما الرجال والنساء ، وهما عندهم أشهر من « قفا نبك » وهما قصيدتان بديعتان مبتكرتان في الأسلوب والمعاني والغرض ، وقال « النشيد الوطني » و « أنشودة المسلم » كلاهما سار مسير المثل ، وصار الأول النشيد الوطني الوحيد الذي لا تزال ترتج به الحفلات المشتركة الشعبية في الهند ، والثانية أنشودة المسلم التي تفتتح بها اجتماعات المسلمين .

ثم نشبت الحرب البلقانية والطرابلسية سنة ١٩١٠م وما يوم حليمة بسر ، فكان لها في نفسية الشاعر أعمق أثر ، جرحت عواطفه وقلبه فتحرك ساكنه ، وهاج خاطره ، وجعلت منه عدواً لدوداً للحضارة الغربية والإمبراطورية الأوروبية ، وأملاه حزنه ووجده قصائد كلها دموع حارة في سبيل المسلمين ، وسهام مسمومة في صدور الأوروبيين ، وتتجلى هذه الروح في جميع ما نظم وقال في هذه الفترة ، فمن قصائده « البلاد الإسلامية » رد على الوطنية ، و « دعوة إلى الجامعة الإسلامية » و « يا هلال العيد » و « المسلم » و « فاطمة بنت عبد الله » (وهي فتاة مسلمة استشهدت في جهاد طرابلس) و « محاصرة أدرنة » و « الصديق » و « بلال » و « الحضارة الحديثة » و « الدين » و « شكوى إلى الرسول » وقد نعى في هذه القصيدة على الزعماء والقادة ، الذين يتزعمون المسلمين وليست عندهم صلة روحية بالنبي ﷺ ، يقول : « أنا بريء من أولئك الذين يحجون إلى أوربة ويشدون إليها الرحال مرة بعد مرة ولا يتصلون بك أبداً في حياتهم ولا يعرفونك » و « هدية إلى الرسول » وقد قال فيها : « إنه حضر عند النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ : ماذا حملت إلينا من هدية ؟ فاعتذر الشاعر عن هدايا الدنيا ، وقال : إنها لا تليق بمقامكم الكريم ، ولكني جئت بهدية ، وهو زجاجة يتجلى فيها شرف أمتك وهو دم شهداء طرابلس » .

ثم انفجر البركان الأوروبي سنة ١٩١٤م ، وحدث ما حدث فانقلب

الشاعر داعياً مجاهداً ، وحكيماً فيلسوفاً ، يتكهن بالأخبار ، ويقول الحقائق ، وينظم الحكم ، ويشب من حماسته نيراناً ، ويفجر إيمانه وثقته أنهاراً ، وجاش صدره وفاض خاطره وسالت قريحته ، وفي تلك المدة نظم غر قصائده منها : « خضر الطريق » وفيها قطع ، منها « الشاعر والتجول في الصحراء » و « الحياة » و « الحكومة » و « الرأسمالية » و « الأجير » و « عالم الإسلام » و « طلوع الإسلام » وكلها آية في الشعر والحكمة وحقائق الحياة ، أما « طلوع الإسلام » فهي بيت القصيد في شعره لا يوجد لها نظير في الشعر الإسلامي في القوة والانسجام ، وقد طبع سنة ١٩٢٤م أول مجموع شعره باسم « بانك درا » يعني جرس القافلة ، فكان إقبال الناس عليه عظيماً ، وحظي من القبول ما لم يحظ به شاعر ، وأعيد طبعه مراراً بعدد كبير .

ثم بدأ العهد الأخير الذي انتهى إلى وفاته ، وقد ازداد فكره نضجاً ، وأفق معارفه اتساعاً ، وقد انتظمت دعوته ، واتضحت رسالته ، فنشر له عدة كتب فارسية ، وقد آثر اللغة الفارسية لشعره لأنها أوسع من الأردية ، وهي اللغة الإسلامية التي تلي اللغة العربية في الأهمية ، والانتشار في العالم الإسلامي ، ويتكلم بها قطران مهمان إيران وأفغانستان ، وتفهم في الهند ، ويحذقها كثير من أهلها وأهل تركستان وروسيا وتركية ، ونشر مجموعتين بالأردية ، فأما الدواوين الفارسية فهي « أسرار خودي » يعني (أسرار معرفة الذات) و « رموز بيخودي » (أسرار فناء الذات) و « بيام مشرق » (رسالة الشرق) في جواب كتاب « جوته » « تحية الغرب » ، و « زبور عجم » و « جاويد نامه » و « بس جه بايد كرد أي أقوام شرق » (ماذا ينبغي أن تعلمه الشعوب الشرقية) و « مسافر » و « أرمغان حجاز » (هدية الحجاز) وبالأردية « بال جبريل » (جناح جبريل) و « ضرب كليم » (ضرب موسى) ، وغير هذه الكتب محاضرات ألقاها في مدينة « مدراس » طبعت باسم :

«Reconstruction of religious Thought in Islam»

ومحاضرات ألقاها في جامعة كامبردج ، وقد اعتنى بهذه المحاضرات المستشرقون وعلماء الفلسفة والدين اعتناء عظيماً ، وعلقوا عليها أهمية

كبيرة ، وترجم أكثر كتبه إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية والطليانية والروسية ، وممن تولى هذا النقل الأستاذ الإنكليزي الشهير الدكتور نكلسن ، فترجم بالإنجليزية « أسرار خودي » و « رموز بيخودي » وألفت في ألمانيا وإيطاليا مجامع وهيئات باسمه لدرس شعره وفلسفته ، وانتخب الدكتور رئيساً لحفلة الرابطة الإسلامية (Muslim League) السنوية التي عقدت في سنة ١٩٣٠م في « إله آباد » وعرض في خطبته فكرة باكستان أول مرة ، وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في بنجاب ، وذهب مندوباً للمسلمين يمثل مؤتمر المسلمين (Muslim Conference) في مؤتمر المائدة المستديرة الثاني سنة ١٩٣٠م ـ ١٩٣١م .

وجاءته الدعوة في لندن من حكومة فرنسا وإسبانيا وإيطاليا ، فزار القطرين الأخيرين ، وألقى في « مجريط » محاضرات في الفن الإسلامي ، وزار مسجد قرطبة ، وصلى فيه لأول مرة في التاريخ بعد جلاء المسلمين ، وذرف على تربته دموعاً غزاراً ، وتذكر العرب الأولين الذين حكموا هذه الأرض ثمانية قرون ، واستنشق في جوه وهوائه أريج حضارتهم ، وشعر كأن هذا المسجد العظيم يشكو إليه حرمانه من سجود المؤمنين ، وجو قرطبة يشكو إليه بعد عهده من الأذان ، وظمأه إلى ذلك ، فقال الشعر الرقيق الذي يعد من القطع الأدبية الخالدة ، ونظم قصيدة من أبدع قصائده[١] .

وكان في زيارته لهذه البلاد موضع حفاوة نادرة وإكرام بالغ ، وقابله السنيور موسوليني ، وكان من قراء كتبه والمعجبين بفلسفته ، وتحدث معه طويلاً ، وسألته حكومة فرنسا أن يزور مستعمراتها في شمال إفريقية ، ولكن الشاعر الإسلامي الغيور رفض دعوتها ، وأبى أيضاً أن يزور جامع باريز ، وقال : إن هذا ثمن بخس لتدمير دمشق وإحراقها ، وأثناء إقامته بأوروبة أقيمت له عدة حفلات تكريم أقامها له أصدقاؤه وأساتذته في جامعة كامبردج ، وجامعة روما ، وجامعة السوربون ، وجامعة مجريط ، والمجمع الملكي في روما ، وفي طريقه إلى الهند عرج على القدس واشترك في المؤتمر الإسلامي

---

(١) تظهر هذه القصيدة في هذه المجموعة ، انظر « في جامع قرطبة » .

الشهير ، وقال في أثناء الطريق قصيدته البديعة « ذوق وشوق »[١] .

وفي سنة ١٩٣٢م لبى دعوة السلطان الشهير نادر خان ملك أفغانستان في بعثة تتألف من فقيد العلم والشرف سر رأس مسعود حفيد سر أحمد خان ، ورئيس جامعة عليكرة الإسلامية ، والأستاذ الكبير السيد سليمان الندوي ، وتحدث إليه الملك الفقيد طويلاً ، وأفضى إليه بذات صدره وبكيا طويلاً ، ولما زار قبر السلطان محمد الغزنوي فاتح الهند ، والحكيم سنائي لم يملك عينيه وافتضح باكياً ، وقال قصيدة حكيمة بديعة[٢] ، وعلى إثر رجوعه من كابل نظم منظومته « مسافر » .

وكان الشاعر يشتكي أدواء يغلبها وتغلبه ، وانحرفت صحته أخيراً ، وظل أياماً طويلة رهين الفراش ، ولم يزل لسانه يفيض بالشعر ، ويملي الكتب والمقالات ، ويقابل الأصدقاء والزوار والعواد ويحادثهم في شؤون إسلامية وعلمية ، ومما نشر له في هذه الأيام مقالة مستفيضة في الرد على القومية ، تناقلتها الصحف وتحدث بها الناس ، ومما قال قبل وفاته بأيام : « جنة لأرباب الهمم ، وجنة للعباد والزهاد ، قل للمسلم الهندي : أبشر ، فإن في سبيل الله جنة أيضاً » وقال قبل وفاته بعشر دقائق : « ليت شعري ! هل تعود النغمة التي أرسلتها في الفضاء ، وهل تعود النفحة الحجازية ، قد أظلني موتي وحضرتني الوفاة فليت شعري ! هل حكيم يخلفني . . .؟ » ، وقال وهو يجود بنفسه : « أنا لا أخشى الموت ، أنا مسلم ، ومن شأن المسلم أن يستقبل الموت مبتسماً » ، وكان ذلك آخر برهان أقامه على صدق الإسلام ، وإيمان المسلم ويقينه ، ولفظ نفسه الأخير في حجر خادمه القديم على حين غفلة من العواد والأصدقاء والتلاميذ والإخوان في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، وغربت هذه الشمس التي ملأت القلوب حرارة ونوراً قبل أن تطلع شمس ٢١ أبريل ١٩٣٨ .

---

(١) ظهرت هذه القصيدة في هذه المجموعة بعنوان « في فلسطين » .
(٢) انظر « في غزنين » .

لماذا ترجمت شعر إقبال ؟[1]

نشأت في عصرٍ وفي بيئةٍ بلغ فيها شعر محمد إقبال قمَّة مجده وشهرته ، وفي جيلٍ فتن به أكثر ممَّا فتن بشعر شاعرٍ ، وأدب كاتبٍ ، فلا عجب إذا أعجبت به صغيراً ، وعنيت به كبيراً .

إنَّ أسباب الإعجاب بشعر محمد إقبال كثيرةٌ ، وللمعجبين به أن يتحدَّثوا عن أسباب إعجابهم ، وهي ترجع في الغالب إلى موافقة الهوى والتعبير عن النفس ، فالإنسان إنَّما يحبُّ نفسه ، ويطوف حولها ، ويعيش فيها ، ويحبُّ كل ما وافق نفسه ، وترجم عن ضميره ، ولا أبرىء نفسي ، فربما أحببت شعر محمد إقبال لأنِّي رأيته يوافق هواي ، ويعبر عن ضميري وخواطري ، وينسجم مع عقيدتي وتفكيري ، ويتناغم مع عاطفتي ومشاعري .

قرأت شعره في الصبا ، وعنفوان شبابي ، وحاولت أن أنقل بعض قطعه الأدبية إلى العربية ، ولم أكن قد قرأت له في ذلك العهد إلا مجموع شعره « بانك درا » وقد صدرت له دواوين فارسية لم أكن قد قرأتها ، وتذوقتها في ذلك الحين لضعف ثقافتي الفارسية ، وكانت زيارتي الأولى في سنة ١٩٢٩م .

وقد صدر في هذه المدة ديوانان جديدان له في أردو ـ بعد فترةٍ طويلةٍ انقطع فيها عن الشعر في أردو ، وآثر الفارسية لرسالته وشعره ـ كان لهما دويٌّ عظيمٌ في الأوساط الأدبية ، والإسلاميَّة . وشاعريته فيهما أقوى ، وفكرته أنضج ، وأحصف ، ورسالته أوضح ، وقد قدِّر لي أن أقرأ « ضرب كليم » وأتذوقه أكثر من « بال جبريل » وإن كان من المقدور والمقرَّر أن يكون إعجابي بـ « بال جبريل » وعنايتي به بعد في الترجمة والنقل ، أكثر وأعظم .

كنت مدرساً في دار العلوم التابعة لندوة العلماء ، ومقيماً مع أخي الأستاذ فقيد العربية في الهند مسعود الندوي منشىء مجلة « الضياء » العربية ، وكنا

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثالث والرابع ، المجلد الخامس ، عام ١٩٦٠م .

نتناشد شعر إقبال ، وكان الأستاذ مسعود من شيعة إقبال ، ومن كبار المتحمِّسين له ، وكان يغيظنا أنَّ طاغور أشهر في الأقطار العربية من إقبال ، وإعجاب إخواننا العرب والأدباء في مصر ، وسورية بشعره أكثر ، وكنَّا نعدُّ ذلك تقصيراً منَّا في تعريف شعر إقبال ، وكلما رأينا تنويهاً بشعر طاغور وإطراءً في مجلةٍ عربيَّةٍ ـ وما أكثر ما كنا نرى ذلك في المجلات العربية ـ قوي عزمنا على ترجمة شعر إقبال ، ورأيناه أمانةً في أعناقنا .

وفي عام ١٩٥٠م سافرت إلى الحجاز ، ومصر ، وسورية ، ونشطت في هذه الرحلة التي استغرقت أكثر من عام لكتابة عدَّة مقالات عن إقبال ، وفكرته ، وشعره ، وألقيتها محاضراتٍ في دار العلوم ، وفي جامعة فؤاد الأول (جامعة القاهرة الآن) ومقالة كتبتها في دمشق عام ١٩٥٦م في زيارتي الثانية لسورية هي مقالة « محمد إقبال في مدينة الرسول » أذيعت في محطة الإذاعة السورية .

وفتر العزم لترجمة شعره خصوصاً وقد علمت أنَّ الأستاذ الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام عاكفٌ على ترجمة شعره بالشعر ، وهو من أجدر الناس بهذا العمل ، وأقدرهم عليه لجمعه بين الثقافتين الفارسية والعربية ، ولانسجامه الفكري مع إقبال ، وعقيدته ، ودعوته ، وقد ظهرت له عدة دواوين ، وقد ذكر لي بعض الأصدقاء : أنَّها لا تؤثر في نفس القارىء ، لا تثيرها إثارة الشعر البليغ الرقيق ، ولا تعطي صورةً كاملةً واضحةً لفكرة إقبال ورسالته ، ولا تبرز شهرته ، وما قيل عنه ، وتصفحت بعض هذه الدواوين فرأيت : أنَّ ذلك لا يرجع إلى ضعفٍ في الترجمة ، ونقص في العلم ، أو الفهم ، وهذه الدواوين برهان ساطع على مقدرة الأستاذ عزام الغريبة على النظم العربي ، واقتداره على القوافي الصعبة ، ولكنَّه لم يكن محسناً إلى نفسه ، ومواهبه يوم قرَّر أنه يترجم الشعر بالشعر ، وذلك الذي أفقد شعر إقبال قوَّته ، وانسجامه ، وأفقد الترجمة بهاءها ، ورواءها ، وتأثيرها ، وأضفى على هذا العمل الأدبي العظيم شيئاً من الغموض قد يحول بين القارىء وبين التذوُّق والتمتُّع بالشعر الجميل ، والمعاني الرقيقة ، وكان الأمثل للأستاذ عزام ـ وهو من أدباء العربية ومن كبار المنشئين فيها ، ومن البارعين في اللغة الفارسية من أبناء العرب ـ أن

يتشرَّب فكرة إقبال ، ثم يصبها في القالب العربي كما فعل ذلك في بعض مقالاته التي ظهرت في « الرسالة » و « الثقافة » وكانت بارعةً مؤثرةً ، ولكلِّ لغةٍ جوٌّ خاصٌّ ، ونفسيَّةٌ خاصَّةٌ ، ومنهج تفكيرٍ ، وأسلوب تعبير ، وتشبيهاتٌ ، ومجازاتٌ تتعلق ببيئتها ، ومجتمعها ، وتاريخها ، ومزاجها ، ومواسمها ، وفصولها ، إذا ترجمت حرفياً ؛ فقدت جمالها ، ومعناها ، ولم تؤدِّ رسالتها ، وعلى كلٍّ فإنَّ عمل العلامة الدكتور عبد الوهاب عزام مأثرةٌ إسلاميةٌ أدبيةٌ جليلةٌ ، تستحقُّ كلَّ تقديرٍ ، وإعجاب ، وشكرٍ ، واعترافٍ ، وهي تدلُّ على علوِّ كعبه في اللغة العربية ، وعلوِّ همَّته ، وجودة قريحته ، وإخلاصه ، ومثابرته ، وحبه للإسلام ، والفكرة الإسلامية ، وقد كان من سعادة الدكتور محمد إقبال أن يرزق مترجماً ، وترجماناً كالدكتور عبد الوهاب في علمه ، وفضله ، ونبالته ، ونزاهته ، ولا شكَّ أنَّ روح إقبال مسرورةٌ شاكرةٌ لعمله ، جزاه الله أفضل جزاء ، وكافأه على هذه المبرَّة خير مكافأة .

ولعل الأمد كان يطول على هذه الفترة ، وفتور الهمَّة في الترجمة ، وقد أشغل عنها لشواغل وعوائق كثيرةٍ ، ولكن حدث ما جدَّد في النشاط ، وحرَّك العزم ، وذلك لأني قرأت في مجلة « المسلمون » التي تصدر من دمشق كلمة رقيقة مخلصة لأديب العربية الكبير ، وكاتبها القدير الأخ الأستاذ علي الطنطاوي ، يحثُّني فيها على ترجمة بعض قصائد إقبال ، يعرف بها مكانة الرَّجل ، وقوة شاعريته ، وسموِّ رسالته ، ويقول في كتابٍ مفتوح وجَّهه إليَّ : (هل لك أن تختار من شعر إقبال ما يجعلنا نتذوَّق طعم أدبه ، ونلمُّ بطريقته ، وتتجلَّى أسباب عظمته ، فإنَّ كل ما قرأنا من كلامه مترجماً إلى العربية لم يعرفنا به ، ولم يدلَّنا عليه . . . . فهل تضيف يا أخي يا أبا الحسن إلى مآثرك هذه المأثرة ، فتفتح للعرب كوَّةً على هذه الروضة المحجبة ، أو تحمل إليهم زهراتٍ منه ، فتحسن بذلك إلى العرب وباكستان ، وإلى الأدب والإسلام)[١] .

وقد صادف هذا الاقتراح مني هوًى ، ونشاطاً وأثار القريحة التي خمدت ،

---

(١) المسلمون العدد الثالث المجلد السادس .

وفترت من زمانٍ ، فترجمت قصيدته البديعة في « مسجد قرطبة » في جلسةٍ واحدةٍ ، وشعرت باستعدادٍ في نفسي ورغبةٍ لذيذةٍ في الترجمة لا أستطيع لها دفعاً ، وجاءت المقالات تترى ، ونشرت في بعض المجلات العربية الإسلاميّة ، واقتصرت في الترجمة والنقل على الدواوين التي لم يتناولها المرحوم العلامة عبد الوهاب عزام بالتعريب ، وكان لديوانه « بال جبريل » أكبر نصيب من هذه التراجم .

أما بعد : فإني لا أعتقد في إقبال عصمةً ، ولا قداسةً ، ولا إمامةً ، ولا منصب « اجتهاد » في الدِّين ، ولا أبالغ في إجلاله ، والاستشهاد بأقواله . حيث بالغ كثيرٌ من الكتاب المعاصرين والمؤلفين المتطرفين . إنَّني أعتقد أنهم ـ كما أنَّ الحكيم السنائي ، وفريد الدين العطار ، والعارف الرومي ـ كانوا أرفع منه مكانةً بكثيرٍ من التأدب بآداب الشرع ، والجمع بين الظاهر والباطن ، والدَّعوة والعمل ، وقد كانت له في محاضراته التي ألقاها في مدراس أفكار فلسفيةٌ ، وتفسيراتٌ للعقيدة الإسلامية قد لا نوافقه عليها ، ولا أعتقد ـ كما يعتقد كثير من الشباب المحمِّسين ـ أنَّه لم يفقه الإسلام عالمٌ مثله ، ولم يحط بعلومه وحقائقه غيره ، إنني لم أزل ـ والحقُّ أحقُّ أن يقال ـ في كلِّ دورٍ من أدوار حياتي وثقافتي معتقداً أنَّه لا يزيد على أن يكون تليمذاً من تلاميذ الثقافة الإسلامية النجباء الأذكياء ، درسها دراسةً مخلصةً ، وكان لا يزال في حاجةٍ إلى التعمُّق والرسوخ فيها ، والاستفادة من معاصريه الكبار[1] وكانت في شخصيته الكبيرة النادرة جوانب ضعف ، لا تتفق مع عظمته العلمية ، وعظمة رسالته ، وشعره ، لم يجد وقتاً كافياً وجوّاً ملائماً لإكمالها ، وتسديدها .

إنَّ جل ما أعتقده أنَّ إقبال شاعر أنطقه الله ببعض الحكم والحقائق في هذا العصر ، وأنطقه الله الذي أنطق كلَّ شيءٍ ، أنطقه كما أنطق الشعراء والحكماء قبل عصره ، وفي غير مصره ، إنَّني أعتقد أنَّه كان صاحب فكرةٍ واضحةٍ ،

---

(١) ولم يزل يستفيد فعلاً من العلامة الكبير أنور شاه الكشميري ، والأستاذ الكبير مولانا السيد سليمان الندوي ، ورسائله إليه وإلى صديقنا الجليل الأستاذ مسعود الندوي تدلُّ على سماحة نفسه ، وتواضعه ، وروحه العلمية .

وعقيدة حازمةٍ عن خلود الرسالة المحمَّدية وعمومها ، وعن خلود هذه الأمة وصلاحيتها للبقاء والازدهار ، وعن كرامة المسلم ، وأنه خلق ليقود ويسود ، وعن تهافت المبادىء والفلسفات والدَّعوات التي ظهرت في هذا العصر ، كالقومية ، والوطنية ، والشيوعية ، ووجدت فيه من وضوح الفكرة ، وشدَّة الاقتناع بها ، والتحمس لها ، والشجاعة في نشرها ، وفي نقد هذه الفلسفات ما لم أجده مع الأسف في كثيرٍ من رجال الدين ؛ لعدم اكتناههم بحقيقتها ، واطلاعهم على نواياها ، وأهدافها ، وأسسها ، وتاريخها .

وأخيراً ولا آخراً وجدته شاعر الطُّموح ، والحبِّ ، والإيمان ، وأشهد على نفسي أني كلما قرأت شعره جاش خاطري ، وثارت عواطفي ، وشعرت بدبيب من المعاني والأحاسيس في نفسي وبحركة للحماسة الإسلامية في عروقي ، وتلك قيمة شعره ، وأدبه في نظري .

* * *

من روائع محمد إقبال

دعاء طارق[١]:

« إنَّ العالم في حاجةٍ إلى دمٍ عربي زكي ، فلا يروي غليله ، ولا يشفي عليله إلا الدم العربي الطاهر ، ها إن الأزهار والورود في الغابة في انتظار أن تسقى بهذا الدم القاني ، وتترفل في حلته ، وقد قدمنا لنزرع نفوسنا ، ونريق دماءنا في هذه الأرض النائية لتخصب الإنسانية بعد جدب طويل ، ويحلَّ الربيع بعد انتظارٍ شاقٍّ طال أمده » .

نزل طارق بن زياد ـ القائد الشابُّ ـ بجيشه العربيِّ المسلم على أرض إسبانيا ، مدخل أوربة ، وأمر بإحراق السفن التي حملت الجيش الإسلامي لتتقطع بالمسلمين أسباب الرجوع ، ويستطيع أن يقول لإخوانه : « أيها الناس ! أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدوُّ أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر »[٢] ، فيثير ذلك فيهم القوَّة الكامنة ، والاعتماد على الله ، ثم سواعدهم وسيوفهم .

صفَّ طارق جيشه أمام العدو ، واستعرضه ، فرأى أنه لا يكافىء الجيش الإسباني في العدَّة والعدد ، ووصول الميرة والمدد ، فإنَّ العدو في مركزه ومملكته ، والجيش الإسلامي غريبٌ منقطع عن مركزه وبلاده ، ولا يطمع في ميرةٍ ولا مدد ، إلا ما ينتزعه من أيدي عدوه انتزاعاً ، ويتغلَّب عليه ، ويعرف أنَّه لو حدث به حدثٌ ، ودارت عليه دائرة ؛ لأصبح خبراً من الأخبار ، وكان طعمة السباع والنسور .

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها السابع ، المجلد الثالث ، عام ١٩٥١م .

(٢) قطعة من خطبة طارق بن زياد .

كلُّ ذلك أثار في طارق التفكير والاهتمام ، وفكَّر ، فلم ير حيلةً إلا أن يضمَّ إلى هذا الجيش قوةً لا تهزم ، وإرادةً لا تغلب ، إنَّها القوة الإلهية ، وإنَّها الإرادة الربَّانية ، وقد وثق بها طارق ، ووثق أنها معه ، أليس هذا جند الله ؟ أما جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد قال الله : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات : ١٧٣] .

هنالك وقف القائد المؤمن يناجي ربَّه ، ويطلب نصره ، وكان في ذلك مقلِّداً للرسول الأعظم ﷺ ـ قائد الكتيبة المؤمنة الأولى ـ إذ عبأ جيشه يوم بدر ، وصفَّه أمام العدو ، ثم اعتزل في العريش ، ونصب جبهته يبكي ، ويقول : « اللهم إن تهلك هذه العصابة لن تعبد » ، فتأسَّى طارق برسوله وسيِّده ، ودعا بهذا الدعاء العجيب الذي لا يدعو به قادة الجيوش ، ولا يخطر منهم على بال ، وقد سبكه محمد إقبال في قالب شعره ، فزاد في تأثيره وسحره .

قال طارق : اللهم ! إنَّ هؤلاء الفتيان الذين خرجوا جهاداً في سبيلك ، وابتغاء مرضاتك ، رجالٌ غامضون مجهولون ، لا يعرف سرهم وحقيقتهم غيرك ، لقد منحتهم طموحاً ، وعلوَّ همَّةٍ ، لا يرضون معه إلا أن يكونوا سادة العالم ، يحكمون الدنيا كلَّها بحكمك ، وينفذون فيها أمرك ، لا يعلوهم غيرك ، أبطال مغاوير ، تنفلق بهيبتهم البحار ، وتنضوي لصولتهم الجبال ، لقد ذاقوا لذَّة الإيمانِ والحبِّ ، حتى استغنوا بها عن العالم والمادة ، وهانت عليهم الدُّنيا ، وزخارفها ، وشهواتها ، وذلك شأن الحبِّ إذا خالطت بشاشته القلوب ، ما جاء بهم من بلادهم النائية إلا الحنين إلى الشهادة ، التي هي وطر المؤمن العزيز ، وهمُّه الوحيد ، لا يفكرون في الغنائم ، ولا في فتح البلاد ، ولا في بسط السيطرة والنفوذ على العباد .

إنَّ العالم قد وقف على شفا حفرةٍ من نار ، لا يمنعه من التردِّي في الهاوية إلا أن يبذل العرب دماءهم ، ونفوسهم بسخاءٍ وشجاعةٍ . إنَّ العالم بحاجةٍ إلى دمٍ عربيٍّ زكيٍّ ، فلا يروي غليله ، ولا يشفي عليله إلا الدم العربي الطاهر ،

ها إنَّ الأزهار والورود في الغابة في انتظار أن تسقى بهذا الدم القاني ، فترفل في حلَّته ، وقد قدمنا لننزع نفوسنا ، ونريق دماءنا في هذه الأرض النائية ، لتخصب الإنسانية بعد جدبٍ طويل ، ويحلَّ الربيع بعد انتظارٍ شاقٍّ طال أمده .

لقد أكرمت يا رب ! رعاة الإبل وسكان الوبر ـ العرب ـ بنعمٍ فريدةٍ لم يشركهم فيها أحد ، لقد أفردتهم بعلمٍ جديدٍ ، وإيمانٍ جديدٍ ، وشعارٍ جديدٍ ، هو : أذان الصبح ، فقد أفلست الأمم من العلم الصحيح ، والإيمان القوي ، والذوق الرفيع ، والدَّعوة الصارخة السافرة إلى التوحيد ، على حين غفلةٍ من الناس ، أما العرب ؛ فقد فاجؤوا العالم بصحَّة علمهم ، وجدَّة إيمانهم ، وسلامة ذوقهم ، ودوي أذانهم في السكون المخيِّم على العالم ، والظلام الحالك ، لقد كانت الحياة فقدت لوعتها وحرارتها من قرونٍ طويلةٍ ، وقد وجدتها من جديد في قلوبهم الفائضة بالإيمان والحنان ، إنَّهم لا ينظرون إلى الموت كنهايةٍ لهذه الحياة ، وكتلف للنفس الإنسانية ، إنَّهم يرون فيه فتحاً جديداً ، وعيشاً جديداً ، أعد يا رب ! إلى هذه الأمة المؤمنة الحمية الإيمانية ، والغضبة المؤمنة ؛ التي تجلَّت في دعاء نوح ، فقال : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] ، حتى تصبح صاعقةً على عالم الكفر والفساد ، واخلق فيها المطامح البعيدة والعزائم القوية الشديدة ، واقذف في قلوب الناس رعبها وهيبتها ، حتى تعمل نظراتها عمل السيوف[١] .

وقد استجاب الله دعاء طارق ـ القائد المؤمن المخلص ـ وانتصر الجيش الإسلاميُّ على عدوِّه ، الذي كان يفوقه مراراً في العَدد والعُدد ، وأصبحت إسبانيا النصرانيةُ الأوروبيةُ الأندلسَ الإسلاميَّ العربيَّ ، وقامت دولة المسلمين في ربوعها ، وازدهرت قروناً ، ولم تضعف ، ولم تزل إلا بفقدهم الروح التي تضلَّع بها طارق وأصحابه ، وبنسيانهم الرسالة التي جاءت بهم من جزيرة العرب ، وبفقرهم في الإيمان الذي امتاز به طارق بين قادة الجيوش ، وفاتحي البلاد ، بانغماسهم في الشهوات والحروب الداخلية ، ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٦٢] .

---

(١) من « بال جبريل » ديوانه .

في جامع قرطبة[١]:

وقف محمد إقبال ـ في عام ١٩٣٢م ، الذي زار فيه إسبانيا ـ ذلك الفردوس المفقود ـ في جامع قرطبة العظيم وقفة مؤمنٍ شاعرٍ ، وقفة خاشعٍ أمام الإيمان ، الذي جاء بهذه الحفنة المؤمنة العربية التي كان يقودها صقر قريش عبد الرحمن الداخل ، وأخضع هذه البلاد النائية الجميلة لعقيدته وعزمه ، وقفة خاشعٍ أمام العاطفة القويَّة ، والحبِّ الطاهر ، الذي حمله على بناء هذا المسجد العظيم الذي أُسس على التقوى ، خاشع أمام العبقرية المعمارية التي أنتجت هذا الأثر البنائي الخالد ، وأمام الفنِّ الإسلاميِّ العربيِّ الذي ظهر في تصميمه الحكيم ، وبساطته الرائعة ، وجماله الفريد ، وأثار كلُّ ذلك إيمانه ، وشاعريته ، ورأى أنَّ هذا المسجد العظيم صورةٌ للمسلم في هذه الأرض الحنون ، تجلَّت فيه أخلاق المسلم وصفاته ، علوٌّ في الهمَّة ، واتساعٌ في القلب ، وبساطةٌ في المظهر ، وبراءةٌ في النية ، وثباتٌ على الحقِّ ، وإعلانٌ للعقيدة والمبدأ ، وجمعٌ بين الجمال والجلال ، والأنفة والتواضع .

وتذكَّر بهذا المسجد أهله الذين رفعوه ، وشادوه ، وتذكَّر بهم العقيدة التي كانوا يدينون بها ، ورسالتهم التي كانوا يعيشون لها ، تذكَّر ـ والشيء بالشيء يذكر ـ بهذا المسجد ذلك الأذان الذي كان يدوِّي في الجوِّ ، وكان أول ما يسمعه الناس وآخر ما يسمعونه ، ذلك الأذان الذي انفردت به هذه الأمَّة ، فليس له نظير في الأصوات ، والهتافات ، والإعلانات ، والرسالات ، ذلك الأذان الذي كان يخشع له الكون ، ويضطرب له العالم ، وتزلزل به أوكار الفساد ، ذلك الأذان الذي تنفس له الصبح الصَّادق في العالم ، في القرن السادس المسيحي ، وانطلقت موجةٌ من نور ، عاشت بها الدنيا ، وما بين العالم اليوم وبين الصبح الصادق إلا هذا الأذان الصَّادق الذي ينادي به المؤمن الصَّادق .

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثامن ، المجلد الرابع ، عام ١٩٥٩م .

وتذكَّر بهذا الأذان الرسالة السامية السماوية ، التي يحملها ويبلغها هذا الأذان في الآفاق ، والمعاني السامية البليغة التي يتضمنها ، وامتلأ إيماناً ويقيناً بأنَّ الأمة التي تدين بهذه العقيدة ، وتعيش بهذه الرسالة ـ التي كتب لها الخلود ـ لا تموت ولا تفنى .

حرك هذا المنظر الرائع ، وهذا الأثر التاريخيُّ ، وهذا المسجد الغريب الفريد الذي لم يعرف منبره الخطبة ، ولا بلاطه السجود ، ولم تعرف منائره الرفيعة الأذان منذ قرون ، حرَّك كلُّ ذلك في إقبال الإيمان ، والحنان ، والأحزان ، والأشجان ، وجادت قريحته الوقادة بهذه القصيدة الخالدة ؛ التي أسماها « في جامع قرطبة » وقد كتبها في إسبانيا ، وأكثرها في قرطبة .

ذكر محمد إقبال : أنَّ هذا العالم خاضعٌ للفناء ، وأنَّ الآثار التي تخلِّفها الأجيال ، وأنَّ البدائع الفنية التي تنتجها العبقرية الإنسانية بين حينٍ وآخر كتب لها الاضمحلال والاندثار ، ولا يعيش بين تلك الآثار والمنتجات إلا ذلك الأثر الذي أكمله عبدٌ مخلصٌ لله ، وأضفى عليه حيويته وخلوده ؛ لأنَّ عمله يستمدُّ الحياة والنور من عاطفته المؤمنة ، ومن حبِّه القويِّ الخالص[(١)] ـ والحبُّ هو أصل الحياة الذي حرَّم الله عليه الموت ـ إنَّ الدَّهر سريعٌ ، ورفيقٌ في سيره ، وهو تيارٌ عنيفٌ ، لا يقف في طريقه شيءٌ ، والحبُّ هو القوَّة الوحيدة التي توقفه ؛ لأنه سيل ، والسيل لا يمسكه إلا السيل ، إنَّ الحبَّ غير خاضع للنظام الرياضيِّ المرسوم ، فله عصورٌ ليس لها اسم في لغتنا ، الحبُّ هو الذي تجلَّى في الرسالات السماوية ، وفي الأخلاق النبوية ، وهو الذي أفاض على الكون النور ، والسرور ، ونشوة الخمور ؛ التي سكر بها العارفون ، وتغنَّى بها المحبُّون ، الحبُّ قد يقف إماماً في المحراب ، وحكيماً يمسك بيده الكتاب ، وقد يقود الجنود ، ويهزم الأحزاب ، فله أطوارٌ ، وأدوار ، وهو رحالة لا يزال في سيرٍ وانتقال ، وحلٍّ ، وترحال ، له منازل ومقاماتٌ يمرُّ بها ، ويخلفها وراءه ، هو الذي أطلق قيثارة الحياة ، فانطلقت

---

(١) الحب أو « العشق » كما يسميه إقبال هي العاطفة التي تسمو على المادة والمعدة ، وهي حقيقةٌ جامعةٌ بين الإيمان والحنان ، ولا صلة له بالغرام والعاطفة الجنسية .

منها نغماتٌ وأناشيد ، وهو الذي استمدَّت منه الحياة نورها ، ونارها .

ثم يلتفت الشاعر العظيم إلى مسجد قرطبة ، ويقول له : « تدين أيها المسجد العظيم ! في وجودك لهذا الحبِّ البريء ، ولهذه العاطفة القويَّة ، التي كتب لها الخلود ، فهي لا تعرف الزوال والانقراض ، إنَّ البدائع الفنية إذا لم ترافقها العاطفة ، ولم يسقها دم القلب ـ الحب ـ أصبحت مصنوعاتٍ سطحيةً من لونٍ ، أو قرميدٍ ، أو حجرٍ ، أو لفظةٍ ، أو كتابةٍ ، أو صوتٍ ، لا حياة فيها ، ولا روح . إنَّ المعجزات الفنية لا تعيش إلا بالحبِّ ، ولا تقوم إلا على العاطفة والإخلاص ، الحبُّ هو الذي يفرِّق بين قطعةٍ من حجر ، وقلبٍ خفَّاقٍ حنونٍ للبشر ، فإذا فاضت منه قطرةٌ على الحجارة الصمَّاء ، خفقت ، وعاشت ، وإذا تجرَّدت منه القلوب الإنسانية جمدت ، وماتت » .

ويقول في عقيدة مؤمنٍ ، ودلال شاعرٍ محبٍّ : « إنَّ بيني وبينك أيها المسجد العظيم ! نسباً في الإيمان والحنان ، وتحريك العاطفة وإثارة الأحزان ، إنَّ الإنسان في تكوينه ، وخلقه قبضةٌ من طينٍ لا تخرج من هذا العالم ، ولكن له صدرٌ لا يقلُّ عن العرش كرامةً وسمواً ، فقد أشرق بنور ربِّه ، وحمل أمانة الله . إنَّ الملائكة تمتاز بالسجود الدَّائم ، ولكن من أين لهم تلك اللوعة ، واللَّذة التي امتاز بها سجود الإنسان ؟! » .

وهنا يتذكَّر محمَّد إقبال جنسيته ، ووطنيته ، ويتذكَّر أنَّه هنديُّ النجار[١] ، وأنه من إحدى بيوتات « البراهمة »[٢] ، ويتذكَّر أنَّه أمام أثرٍ إسلاميٍّ عربيٍّ صميمٍ قديم ، فيقول : « انظر أيها المسجد ! إلى هذا الهنديِّ ـ الذي نشأ بعيداً عن مركز الإسلام ، ومهد العروبة ، نشأ بين الكفار ، وعبَّاد الأصنام ـ كيف غمر قلبَه الحبُّ والحنان ، وكيف فاض قلبُه ولسانه بالصَّلاة على نبيِّ الرَّحمة ، الذي يرجع إليه الفضل في وجودك ، كيف ملكه الشوق ، وكيف سرى في جسمه ومشاعره التوحيد والإيمان » .

---

(١) النِّجار : الأصل والحسب .

(٢) أصله من سلالة برهمية كشميرية تسمى « سبرو » أسلم جده الأعلى قبل مئتي سنة .

ويذكِّره هذا المسجد العظيم بالمسلم العظيم الذي رفعه وشاده ، وبالأمة الإسلاميَّة العظيمة التي تعبد الله في أمثال هذا البيت ، فيرى أنَّه صورةٌ صادقةٌ للمسلم ، فكلاهما يجمع بين الجلال والجمال ، وكلاهما محكم البنيان ، كثير الفروع والأغصان ، ويلتفت إلى المسجد فيراه قائماً على أعمدةٍ كثيرةٍ ، تشبه في كثرتها وعلوها نخلاً في بادية العرب ، ويرى شرفاته مشرقةً بنور ربِّها ، ومنارته العالية الذاهبة في السماء منزلًا للملائكة ، ومهبطاً للرحمة الإلهية ، وهنا يقول في إيمانٍ وثقةٍ : « إن المسلم حيٌّ خالدٌ ، لا يزول ، ولا ينقرض ؛ لأنه يبلغ في أذانه تلك الحقائق والرسالات التي جاء بها إبراهيم وموسى ، وجاء بها النبيون وقد قضى الله بخلودها وبقائها ، فكيف تنقرض الأمَّة التي حملت هذه الأمانة ، وتكفَّلت بتبليغ هذه الرسالة ؟! » .

وينطلق الشاعر العظيم في وصف هذه الأمَّة التي يمثلها هذا المسجد ، الذي لا يعرف الفوارق الوطنية ، والحدود الجغرافية الضيقة ، فيقول : « إنَّ المسلم لا تعرف أرضه الحدود ، ولا يعرف أفقه الثغور ، وقد وَسِعَتْ عاطفته ورسالته ومملكته الشرق والغرب ، فليست دجلة في العراق ، ودانوب في أوربة ، والنيل في مصر ، إلا موجةً صغيرةً في بحره الواسع ، ومحيطه الأعظم ، إنَّ له عصوراً في التاريخ ، لا يقضى منها العجب ، وله حكاياتٌ ومواقف في البطولة ، لا تزال موضع الدهشة والاستغراب ، هو الذي أمر العصر العتيق ـ العصر الجاهلي ـ بالرَّحيل ، وافتتح العصر الجديد . إنَّه إمام رجال الحبِّ والعاطفة ، وفارس ميدان الإيمان والحنان ، لسانه لبنٌ وعسلٌ ، وسيفه علقمٌ وحنظل ، يعيش في ميدان الحرب وتحت ظلال السيوف متذرعاً بالتوحيد ، كلَّما اشتدَّ به الخطب ، وعضَّته الحرب التجأ إلى إيمانه ، واعتماده على الله » .

ويقبل على المسجد يتحدَّث إليه ، ويناجيه ، ويقول : « لقد كشفت أيها المسجد العظيم ! عن سرِّ المؤمن ، ومثلته في العالم ، وصوَّرت ذلك الاضطراب الذي يقضي فيه نهاره ، والرقة التي يمضي فيها ليله ، وصورت للعالم مقامه الرفيع ، وتفكيره السامي ، ومسراته وأشواقه ، وتواضعه ودلاله » .

ويقبل على المؤمن بهذه المناسبة ، فيصف سموَّه ، وأخلاقه ، وسيرته في العالم ، فيقول : « إنَّ يد المؤمن هي جارحة القدرة الإلهية ، فهي غلاَّبةٌ ، فتَّاحةٌ ، قاهرةٌ ، ناصرةٌ ، أصله من تراب ، وفطرته من نور ، عبدٌ تخلَّق بأخلاق الله ، واستغنى عن العالمين ، آماله ومطامعه قليلةٌ ، وأهدافه ومطامحه رفيعةٌ جليلة ، ألقي عليه الحبُّ وكسي المهابة والجمال ، رقيقٌ ، رفيقٌ في الحديث ، قويٌّ نشيط في الكفاح ، نزيهٌ بريء في السِّلم والحرب . إنَّ إيمانه هو النقطة الدائرة التي يدور حولها العالم ، وكلُّ ما عداه وهمٌ ، وطلسمٌ ، ومجازٌ . إنَّه الغاية التي يصل إليها العقل ، ولبُّ لباب الإيمان والحبِّ ، وبه نالت هذه الحياة بهجتها ، وقوتها » .

ويقبل مرَّةً ثانيةً على المسجد ، فيخاطبه في إجلالٍ وإكبارٍ ، ويقول : « يا مثابة هواة الفن ! ويا مقصد روَّاد الجمال ! ويا مجد الدِّين الإسلامي ! لقد سمت بك أرض الأندلس ، وتقدَّسْتَ في أعين المسلمين ، إنَّك فريد في الفنِّ والجمال ، لا يوجد لك نظير تحت السماء إلا في قلب المؤمن ، أين لنا أولئك الرِّجال ، هؤلاء الفرسان العرب ، أصحاب الخلق العظيم ، وأصحاب الصدق واليقين ، الذين برهنت حكومتهم على أنَّ حكومة أهل القلوب خدمةٌ وزهادة ، وليست حكماً ولا ملكاً ، هؤلاء العرب المسلمون الذين كانوا مربي الشرق والغرب ، وكانوا أصحاب عقولٍ حصيفةٍ ، وبصيرةٍ نافذة ، يوم كانت أوربة تتسكع في الجهل المطبق ، والظلام الحالك ، والذين لا تزال في الشعب الإسباني بفضل دمهم العربي خفةُ روح ، وحفاوةٌ ، وبساطةٌ ، وجمالٌ شرقيٌّ ، فتكثر فيهم عيون المها ، ولا تزال عيونهم ترشق بالنبال ، ولا تزال الريح في الوادي تحمل نفحات اليمن ، ورنات الحجاز » .

ثم يخاطب إسبانيا ـ الأندلس الإسلاميَّ المغصوب ـ فيتغنى بأرضها التي تطاولت السماء سمواً ورفعةً ، ويتوجَّع على أن أجواءها لم تسمع الأذان من قرون ، ثم يذكر ما مرَّ على العالم المتمدن من تقلباتٍ وثوراتٍ ، ويتشوَّق إلى ثورةٍ جديدةٍ ، مركزها الشرق الإسلامي ، فيقول : « لقد شهدت ألمانيا ثورة الإصلاح الدِّيني التي عفت الآثار القديمة والتقاليد العتيقة في أوربة ، فجحدت

أوربة المسيحية عصمة القسوس والباباوات ، وتحرَّر الفكر الأوربي ، وتحرَّكت سفينته في يسرٍ وسهولةٍ ، وشهدت فرنسا الثورة الكبيرة التي اضطربت لها أوربة اضطراباً ، وأصبح الشعب الطلياني ـ الرومي ـ شاباً فتياً بلذة التجديد[١] ، هكذا الروح الإسلامية مضطربةٌ قلقةٌ ، تطلب انتفاضةً جديدةً ، ولكن متى ذلك ؟ إنَّه سرٌّ من أسرار الله ، لا يفصح به اللسان ، والعالم يتمخَّض بحوادث جسام ، فلا يستطيع أحدٌ أن يتكهَّن بالمستقبل » . ويخاطب نهر قرطبة « الوادي الكبير » ويقول : « إنَّ على شاطئك أيها النهر العزيز ! رجلاً يرى حلماً لذيذاً ، يرى في مرآة المستقبل عصراً لا يزال في طيات الغيب ، يرى عصراً قد بدت تباشيره ، وظهرت طلائعه لعينه ، ولكنَّها لا تزال محجوبة عن أعين الناس ، لو كشفتُ الغطاء عن وجه هذا العالم الجديد ، وبحتُ ما في صدري من أفكارٍ وأسرار ؛ لشقَّ ذلك على أوروبة ، وفقدت رشدها ، وجنَّ جنونها » .

ثم يعود مرَّة ثانيةً ، يشيد بفضل التجديد في حياة الأمم والشعوب ، والحاجة إلى الثورة على الأوضاع الفاسدة ، ويقول : « كلُّ حياةٍ لا تجديد فيها ، ولا ثورة أشبه بالموت ، إنَّ الصراع هو حياة روح الأمم ، إنَّ أمَّةً تحاسب عملها في كلِّ زمان سيفٌ بتار في يد القدر ، لا يقاومه شيء ، ولا يقف في وجهه شيء »[٢] .

ويختم محمد إقبال قصيدته البديعة ، بكلمةٍ حكيمةٍ مأثورة ، مبنيةٍ على تجارب واسعةٍ ، ودراسات عميقةٍ ، واستعراضٍ واسعٍ للأدب والشعر ، والفنِّ ، والأفكار ، يقول :

« إن كلَّ مأثرةٍ ، وكلَّ إنتاجٍ لم تذب فيه حشاشة النفس ناقص ، وجديرٌ بالفناء والزوال السريع ، وكلَّ رنةٍ أو نشيدٍ لم يَدْمَ له القلب ، ولم تتألم به

---

(١) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية ، وقد نفخ موسوليني في الشعب الطلياني روح النخوة والطموح ، والاعتداد بالنفس ، والقومية الرومية .

(٢) قال الشاعر هذه القصيدة قبل الحرب الثانية .

النفس قبل أن يصدر ضربٌ من العبث ، والتسلية ، ولا مستقبل له في المجتمع ، وعالم الأفكار » .

وهذا هو سرُّ الخلود ، والبقاء للآداب ، والأفكار ، والإنتاج ، وهذا سرُّ تفاهة الأدب الجديد ، الذي يولد سريعاً ، ويموت سريعاً ، وهذا هو سرُّ التأثير والخلود في شعر إقبال وإنتاجه .

فهل يسمع أدباؤنا وشعراؤنا ؟ .

في أرض فلسطين(١):

[اقترح الأستاذ علي الطنطاوي على العلامة الندوي أن ينقل بعض روائع إقبال الشاعر الإسلامي المشهور إلى اللغة العربية ، فلبى العلامة هذه الدعوة ، وقد أرسل القسط الأول من هذه الترجمة ، وهو تحت عنوان : « في مسجد قرطبة » إلى مجلة « المسلمون » الغراء ، وفيما يلي القسط الثاني من هذه الترجمة تنفرد به مجلة « البعث الإسلامي » وهو هدية إلى الأستاذ علي الطنطاوي خاصّةً وأدباء العرب وشعرائهم عامة] .

تحرَّكت السيارات التي كانت تقلُّ ضيوف المؤتمر الإسلامي المنعقد في القدس عام ١٣٥٠هـ (١٩٣١م) ، ودخلت في الفضاء الواسع ، وطلعت الشَّمس ، وأرسلت خيوطها الذهبية ، كأنَّها جداول نورٍ نبعت من عيون الشمس ، ولم يزل الشروق مصدر سرورٍ وإلهامٍ للشعراء ، يجدون فيه الحياة للقلب ، والنشاط للفكر ، والتقى جمال المكان بجمال الزَّمان ، فأثار ذلك الشاعرية في الشاعر العظيم والفيلسوف الكبير محمد إقبال ، الذي جاء من أوربا يمثل الهند الإسلامية في المؤتمر الإسلامي ، وبدأ يتمتَّع بهذا المنظر الخلاَّب ، ويسخو بنظراته ـ التي يحتفظ بها الشعراء ـ في سبيل القلب ، فكلُّ نظرةٍ تضيع في جمال الطبيعة ترجع إلى القلب بالرِّبح العظيم ، لأنها تشحن « بطاريته » بالنور الجديد ، والقوة الجديدة .

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها السادس والسابع ، المجلد الثالث ، عام ١٩٥٨م .

هذا وقد تهيَّأ الجو ، وتوفرت الأسباب لإمتاع الشاعر العظيم ، وإثارة قريحته ، فقد غطَّت الجو سحائب ذات الألوان ، واكتست جبال فلسطين بطيلسانٍ جميلٍ زاهي اللون ، وهبَّ النسيم عليلاً بليلاً ، وهفت أوراق النخيل مصقولةً مغسولةً بأمطار الليل ، وأصبحت الرمال في نعومتها ، وصفائها حريراً .

ورأى الشاعر العظيم آثار نيرانٍ انطفأت قريباً ، وأثافيَّ[١] منثورةً هنا وهناك ، وبقايا من خيامٍ وأخبية ، ضربت في هذه الصحراء بالأمس القريب ، تخبر بالقوافل التي أقامت ثم ظعنت .

وطاب المكان ، والزمان للشاعر ، وسمع كأنَّ منادياً من السماء يحثُّه على أن يلقي عصا التسيار ، ويؤثره بإقامته[٢] .

حرَّك هذا المنظر البديع ـ في هذا المكان الرفيع ، الذي أكرمه الله بجمال الطبيعة ، والرسالات السماوية ـ عواطف الشاعر ، وهاجت قريحته ، وتحرَّك الحبُّ الدَّفين ، ومن شأن هذه المناظر أن تثير الدفائن ، وتظهر الكوامن ، فيتذكر الإنسان أحبَّ شيءٍ إليه ، فيحنُّ إليه ، ويتمثَّله ، ويتغنَّى به ، وقد حلَّ « الإسلام » ، وحلَّت الأمَّة الإسلامية في قلبه محلَّ الحبيب الأثير ، وسيطر حبُّه على مشاعره ، فما كان من الشاعر المؤمن إلا أنه تذكر حبيبه ، وتغنى بجماله ومحاسنه ، وركَّز آماله ، وأحلامه عليه ، وقال بلسان الشاعر العربي البليغ :

ولما نزلنا منزلًا طلَّه النَّدى أنيقاً ، وبستاناً من النور حاليا
أجدَّ لنا طيب المكان وحسنه منىً ، فتمنينا ، فكنت الأمانيا

وثارت فيه العواطف والخواطر ، ورأى أنَّ ركب الحياة بطيءٌ لا يسايره في أفكاره الجديدة ، وخواطره الوليدة ، ورأى أنَّ العالم عتيقٌ شائب ، وفكره « الإسلامي » جديدٌ فتيٌّ ، ورأى أنَّ العالم قد تجددت فيه أصنامٌ وأوثان ،

---

(١) الأثافي : الحجارة التي توضع عليها القدور .
(٢) الوصف للمكان والمنظر لإقبال ، نقلناه إلى العربية في لفظنا .

وبنيت هياكل جديدةٌ يعبد فيها صنم القومية ، والوطنية ، واللون ، والجنس ، والنفس ، والشهوات .

وقد تسرَّبت هذه الوثنية إلى العالم الإسلاميِّ والعربيِّ ، أفليس العالم في حاجة إلى ثورةٍ إبراهيميَّةٍ جديدةٍ ، إلى كاسر أصنامٍ يدخل في هذا الهيكل ، فيجعل هذه الأصنام جُذاذاً ؟ .

وسرَّح طرفه في العالم الإسلامي ، فوجد إفلاساً محزناً في العقل والعاطفة ، رأى العربيَّ قد ضعف في إيمانه وعقيدته ، وفي لوعته وعاطفته ، ورأى العالم العجميَّ قد فقد العمق والسعة في التفكير ، ورأى أنَّ النظام الماديَّ ، والحكم الجائر المستبد ينتظر ثائراً جباراً جديداً ، يغضب للحق ، ويثور كالليث ، ويمثل الحسين بن عليٍّ في حميَّته ، وفروسيَّته .

ورجا العالم الإسلاميُّ أن يطلع هذا الثائر من ناحية بلدٍ عربيٍّ ، ويفاجىء العالم بصراحته وشجاعته ، وتطلَّع العالم إلى الحجاز ـ معقل الإسلام وعرين الأسود ـ فما كان منه إسعافٌ وإنجازٌ ، ولم تتجدَّد معركة كربلاء على ضفاف دجلة والفرات ، مع شدَّة حاجة الإنسانية إلى ذلك ، ورغم شدَّة حنين العالم الإسلامي إلى بطله الجديد .

وهناك شعر محمد إقبال أنَّ السبب في هذا التحوُّل العظيم ، هو ضعف العالم الإسلامي في العاطفة والحبِّ ، الذي هو مصدر الثورات والبطولات ، فانطلق يشيد بفضل الحبِّ وتأثيره ، ويقول :

« لا بدَّ أن يعيش العقل في حضانة الحبِّ ، وإشرافه وتوجيهه ، ولا بدَّ أن تسند الدين وتغذيه عاطفةٌ قويةٌ ، وحبٌّ منبعه القلب المؤمن الحنون ، فإذا تجرَّد الدِّين عن العاطفة والحبِّ ؛ أصبح مجموعةً من طقوسٍ ، وأوضاعٍ ، وأحكامٍ لا حياة فيها ، ولا روح ، ولا حماسة فيها ولا قوَّة ، هذا الحبُّ الذي صنع المعجزات ، هو الذي ظهر في صدق الخليل ، وصبر الحسين ، وهو الذي تجلَّى في معركة بدرٍ وحنين » .

وهنا يقبل الشاعر الكبير على « المسلم » الذي دائماً يستهين بقيمته ، ويجهل مكانته ، وشخصيته ، فيقول : « إنَّك غاية وجود هذا الكون ،

ولأجلك خلق الله هذا العالم ، وأبرزه إلى الوجود ، وأنت البغية المنشودة ، التي هام في سبيلها الهائمون ، وحار في الوصول إليها الباحثون » .

ثم يستعرض العالم الإسلاميَّ ـ وقد عرف شرقه وغربه وعربيه وعجميه ـ فيحزنه قصر النظر ، وقلّة الذوق في رجال العلم والثقافة ، وسقوط الهمَّة وقلّة البضاعة[١] في رجال الدين ، ويرى أنَّ المراكز العلمية والدِّينية ـ بمعناها الواسع ـ محرومةٌ من عمق الفكر ، وسلامة الذَّوق ، والنشاط العقلي ، والطموح الذي كان سمة هذه المراكز التي تتزعم العالم الإسلاميَّ ، وتقود الأجيال البشرية ، ويقول : « إنِّي هائمٌ في شعري وراء الشعلة التي ملأت العالم أمس نوراً وحرارةً ، وقد قضيت حياتي في البحث عن تلك الأمجاد التي مضت وأولئك الأبطال الذين رحلوا ، وغابوا في غياهب الماضي ، إنَّ شعري يوقظ العقول ، ويهزُّ النفوس ، ويربي الآمال في الصَّدر ، ولا عجب إذا كان شعري يملأ القلوب حماسةً وإيماناً ، وكان وقعه في النفس كبيراً وعميقاً ، فقد سالت في شعري دموعي ودمائي ، وفاضت فيه مهجتي ودعائي ، ألا يخفف الله من هذا الجوى ، بل أسأل الله المزيد والجديد » .

ثم يقبل في شعره إلى الله ، ويذكر كيف أحاطت تجلياته بالوجود ، كيف صغر هذا الكون الواسع ، وكأنَّه ذرَّةٌ حقيرةٌ ، أو قطرةٌ صغيرةٌ في جنب هذه السَّعة التي لا نهاية لها ، وكيف أشرق نوره على ذرَّةٍ فكانت شمساً بازغة ، وكيف تجلَّى بالجلال ، فكان في الأرض ملوكٌ كبارٌ ساقوا الأمم ، وحكموا العالم ، وكيف تجلَّى بالجمال ، فكان زهادٌ وعبَّادٌ ، زهدوا في متاع الدنيا ، ورفقوا بخلق الله ، ويقول : « إنَّ الحنين إليك هو حادي الروح ورائد القلب ، وهو الذي يضفي على صلاتي ، وعبادتي حياةً روحانيةً ، فإذا تجرَّدت صلاتي من هذا الحنين ؛ لم أر أنها تقرِّبني إليك ، لقد وجد عندك العقل والعاطفة ما يعوزهما ، وما يحتاجان إليه ، فأصبح العقل ـ بعد توفيقك ـ يغيب أحياناً ، ويهيم في البحث بعد ما كان قد ركد ، واقتصر على الدراسة والتفكير ، ووثق بنفسه ، وعرفت العاطفة الحضور والاضطراب » . ويناجي ربه ، ويقول :

---

(١) المراد منها البضاعة العلمية والدينية وما هم بصدده .

« إنَّ الشمس لم تستطع أن تنير هذا العالم المظلم ، وقد آن أن تشرق الأرض بنور ربها ، ويعيش العالم من جديد » .

ويعترف أمام الله بأنَّه لم يكن سعيداً في دراساته العلمية الطويلة الواسعة ، وأنَّه قد اتضح له أخيراً أنَّ المعلومات لا تعطي الثمرات ، وليس كلُّ من درس علم النخيل تمتَّع بالرطب ، ويذكر الصراع بين العقل والعاطفة ، والمصلحة والإيمان ، ذلك الصِّراع الذي لم يزل ، ولا يزال قائماً حامياً ، ويذكر معركةً قامت في فجر التاريخ الإسلامي بين المادَّة والإيمان ، حمل لواء المادة فيها أبو لهب وأضرابه ، ورفع راية الإيمان فيها محمد ﷺ وأصحابه ، ولكلٍّ حلفاء ، ولكلٍّ معسكر »[١] .

فلينظر العالم العربي إلى أيِّ معسكر ينضمُّ ؟ إلى معسكر المادَّة والمعدة ، أم إلى معسكر الإيمان والإخلاص ، وإلى أيِّ رايةٍ ينضوي ؟ إلى الراية الجاهلية التي قاتل تحتها أبو جهل وأبو لهب ، أم إلى الراية المحمَّدية التي التف حولها أبو بكر وعمر .

في غزنين[٢]:

سافر محمد إقبال على دعوةٍ من ملك الأفغان الشهيد نادر شاه عام ١٩٣٣م إلى أفغانستان ، ومرَّ في طريقه على غزنين عاصمة إسكندر الإسلام السلطان محمود الغزنوي ، وزار قبر الشاعر الحكيم السنائي الغزنوي[٣] الذي يعتبره محمد إقبال أستاذاً له في الشعر والحكمة ، وسلفاً بعد مولانا جلال الدين الرُّومي ، وطاب به الوقت ، وفاضت قريحته بشعر إسلاميٍّ حكيم ، بثَّ فيه

(١) من « بال جبريل » ديوان شعر إقبال ، قصيدة « ذوق وشوق » .

(٢) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الرابع ، المجلد الرابع ، عام ١٩٥٩م .

(٣) هو من كبار شعراء العهد الغزنوي ، نشأ كشاعر غزل ومديح ، ولقب بملك الشعراء في البلاط ، ثم جذبه التوفيق الإلهي ، فعزف عن الدنيا ومدائح الملوك ، عكف على الشعر الوجداني ، ونظم الحقائق والمعارف الإلهية ، توفي حوالي سنة ٥٢٥هـ .

أشواقه ، وآماله ، وآلامه ، ونظر فيه إلى العالم المعاصر بعين حكيمٍ شاعر ، ومؤمنٍ ثائر ، وسجَّله تذكاراً لهذه الزيارة الممتعة التاريخية ، يشكو الشاعر العظيم ، في مستهلِّ هذه القصيدة ، ضيق هذا الكون ، ويذكر أنَّه مع سعته التي يوصف بها لا يسع لوعته وطموحه ، ويلوم من يرى أنَّ هذه الدنيا ـ برحابها الواسعة ، وصحاريها المترامية ، ومتعتها الفاتنة ـ لا تسع فرداً واحداً رزقه الله علوَّ الهمَّة ، وكبر النفس ، وحرارة الحبِّ ، ويتَّهمه بسوء التقدير ، وضيق التفكير ، ويقول في صراحةٍ وثقةٍ : « إن من عرف نفسه وقيمته تحرَّر من هذا العالم المادِّيِّ ، وتمرَّد عليه ، وذلك سرُّ التوحيد الذي لا يزال الناس في غفلةٍ عنه ، وإنَّ من تفتحت بصيرته ، تجلَّى له الجمال الإلهي ، فرآه في هذا الكون » .

ويذكر هنا محمد إقبال أنَّه لا صراع بين العلم ، والمعرفة ، والحبِّ ، وإنَّما هو من تصوير المنتسبين إلى العلم ، ومن ضعف تفكيرهم ، فقد رأوا فيمن ملكه الحبُّ ، المنافس للعلم والدِّين ، وقسوا ، أو أسرعوا في الحكم عليه ، ويقول : « إن الاستغناء عن المادَّة وأصحابها ، والحكومة ورجالها ، هو الحصن الحصين الذي يعتصم به أصحاب النفوس الكبيرة الزكية ، فلا سبيل إليهم ، ولا سلطان عليهم للملوك والأغنياء » ، ثم يقول في دلالٍ واعتدادٍ : « لا تحاول أيها الملك الرفيع أن تقلِّدني في لوعتي وسكري ، فتلك نعمةٌ خصَّ الله بها بني آدم وحسبك الذكر ، والتسبيح ، والطواف ، الذي جبل الله عليه الملائكة الكرام » .

وهنا يقبل الشاعر إلى العالم الذي يعيش فيه ، فينتقد الشرق والغرب ، ويقول : « لقد عرفتهما ، وعشت فيهما زماناً ، ولا ينبئك مثل خبير » ثم يقصُّ ما يعانيان من أزمةٍ ، وما يقاسيان من علةٍ ، فيصورهما تصويراً صادقاً دقيقاً لا يستطيعه إلا من اختبر الشرق والغرب ، ويقول : « أمَّا الشرق فقد توفر فيه الاستعداد ، ولكن يعوزه الموجِّه ، والقيادة الرَّشيدة ، وأما الغرب فقد أتخم بالقوة والوسائل ، ولكن حرم لذَّة الإيمان ، وبرد اليقين » ، ويتذكَّر العالم الإسلامي ، فيقول : « لقد انقرض منه أولئك العماليق الذين كانوا يتحدَّون الملوك ، والأباطرة بأنفتهم ، وكان في فقرهم وزهادتهم حتفٌ للاستبداد » .

ويتذكر العالم العربي فتحزنه الأوضاع الفاسدة هناك[١] ، يحزنه عبث الملوك العرب وأمرائهم ، وزعمائهم ببلادهم العزيزة ، والمقدسات الإسلاميَّة ، ووقوعهم في شباك الأجانب مرَّةً بعد مرَّةٍ ، وانهماكهم في لذاتهم وشهواتهم ، فتصدر منه كلمةٌ قاسيةٌ لاذعةٌ ، لم يصدرها إلا الإيمان العميق ، والحمية الإسلامية فيقول : « إنَّ هؤلاء الشيوخ والأمراء لا يستغرب منهم أن يبيعوا جبَّة أبي ذر ، وكساء أويس القرني ، ورداء فاطمة الزهراء[٢] ، وأعزَّ المقدسات في كأسٍ يحتسونها ، ولذةٍ ينتهبونها » ، ويقول : « إنَّ نفوذ الأجانب في جزيرة العرب والأقطار العربية ، وسيطرتهم السياسية على كثيرٍ من أجزائها ، حقيقةٌ مؤلمةٌ ، يفزع لها كل مسلم ، ويعتبرها كزلزلة السَّاعة ، ورجفة القيامة » . وتمثل بشطر بيت للحكيم السنائي ـ الذي وقف إقبال على قبره ، ونظم هذه القصيدة ـ قاله عندما ملك التتار العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وهدَّدوا الحرمين الشريفين : « لقد ملك التتار مركز الإسلام ، والعرب ـ الذين كانت لهم الوصاية على العالم الإسلامي ، وهم مسؤولون عنه ـ في نومٍ عميقٍ لذيذ » .

وينتقد الشاعر الحضارة العصرية ، التي كان مصدرها أوربة الثائرة الحائرة ، فيقول في تحليل عالمٍ فيلسوفٍ : إنَّ الحياة الإنسانية لا تستقيم ، ولا تتَّزن إلا إذا جمعت بين النفي والإثبات ، بين الجحود بالزائف الباطل ، وبين الإيمان بالحقِّ الثابت ، وتلك هي الكلمة الجامعة التي أصبحت شعار الإسلام ، وعقيدته : لا إله إلا الله » .

فالشطر الأول ـ الذي هو النفي ـ إنكار لجميع الآلهة الباطلة من أصنامٍ ، ومادَّةٍ ، وسلطانٍ ، والشطر الثاني الذي هو الإثبات ـ إقرارٌ للحقِّ الذي لا حقَّ غيره ، وقد قطعت أوربة الشوط الأول بشجاعةٍ وقوَّةٍ ، وأنكرت الوسائط بين الله وبين العبد ، وثارت على الاحتكار الدِّيني الذي مثلته الكنيسة اللاتينية في القرون الوسطى ، وألحت عليه رجال الدين والكهنوت ، وثارت كذلك على

---

(١) لا ينسى القارىء أن هذه القصيدة قيلت في عام ١٩٣٣م .
(٢) كنايات عن المقدسات والأشياء الحبيبة إلى نفوس المسلمين .

الحكومات الجائرة المستبدة ، فأحسنت ، ولكن خذلها التوفيق في قطع الشوط الثاني الأخير ، شوط الإثبات ، والتقرير ، والإيمان الجازم ، والإنسان لا يعيش على النفي فقط ، ولا يتكوَّن المجتمع ، ولا تقوم الحضارة على النفي وحده ، فلذلك بقيت أوربة ـ التي أخضعت العالم لعلمها ، وتنظيمها ، وسخَّرت الطبيعة لمقاصدها ومصالحها ـ حائرةً ، مضطربةً ، تائهةً ، لا تملك العاطفة ، ولا تملك الغايات الصَّالحة ، وأصبحت مهددةً في الزمن الأخير بالانهيار ، أو الانتحار » ، وهكذا لخَّص محمد إقبال تاريخ أوربة المدني والفكري الطويل في عبارةٍ وجيزةٍ ، ومقطوعةٍ شعريَّةٍ ، هي عصارة دراسةٍ طويلةٍ ، وتفكيرٍ عميقٍ .

والشاعر غير متشائمٍ في نظرته وحكمه ، وهو غير يائسٍ من مستقبل الشرق ، فيقول : « إنَّ الشرق زاخرٌ بالقوَّة والإنتاج ، وتبدو من هذا المحيط الهادي ، موجةٌ قويةٌ تهزُّ العالم ، وتزلزل أوكار الفساد والاستبداد » ، ويرجع الشاعر فينعى على الاستعمار الذي يرزح تحته الشرق الإسلاميُّ ، والذي أثر في تفكيره ومشاعره ، ففقد الشعور بالجمال ، وأصبح لا يوثق بآرائه واتجاهاته ، ويقول : « إنَّ المحكوم الرقيق لا يوثق بأحكامه ، ولا يعتمد على استحسانه واستهجانه ، وإنما الميزان هو الرجل الحرُّ ، والشعب الحرُّ ، الذي يعيش حرّاً كريماً ، مستقلاً بتفكيره وميوله ، فإنَّ الأحرار هم وحدهم أصحاب الفراسة الصَّادقة ، والبصيرة النافذة ، وإنَّ رجل الساعة هو الذي شقَّ بهمَّته الطريق إلى المستقبل ، ولم يقتنع بالحاضر » .

ويرجع إلى تأثير الثقافة الأوربية في عقول الشباب الإسلاميِّ ـ ومن أدرى بها ، فقد نشأ في أحضانها ـ فيقول : « لقد نجح المربي الغربيُّ ، الذي برع وفاق في صناعة الزجاج في مهمَّته ، حتى استطاع أن يضعف الأمم التي عرفت بالنخوة ، والشكيمة ، والأنفة ، فأصبحت شعوباً رخوةً ناعمةً ، وأثَّر في الصخور والحجارة حتى أصبحت تسيل رقَّة ، وفقدت صلابتها واستقامتها[١] ،

---

(١) يكني به إقبال عن تأثير الحضارة الأوربية في أخلاق الشرقيين وما يتصوفون به بعد الثقافة الأوربية ، من الرقة والنعومة والفسولة .

وبالعكس قد ملكت الأكسير الذي يحوِّل الزجاج إلى حجارةٍ صمَّاء ، لا تؤثر فيها السيول الجارفة ، والمعاول الهدَّامة ، لقد استطعت أن أقاوم الفراعنة ؛ الذي ما زالوا منِّي بالمرصاد ، بفضل اليد البيضاء[١] ، التي أخفيها في أكمامي ، ولا عجب ، فإنَّ الشرارة التي خلقت لتحرق غابةً بأسرها ، لا يتغلب عليها الحشيش والهشيم » .

« إنَّ الحب يبعث في الرجل الاعتداد بالنفس ، والاحتفاظ بالكرامة ، ويمنع من الوقوف على أبواب الملوك ، والخضوع للمادة والسُّلطان » .

وهنا تأخذه الهزَّة ، ويملكه حبُّ النبيِّ ﷺ ، والإعجاب بشخصيته المعجزة ، ورسالته الخالدة ـ وهو الموضوع الذي لا يملك إقبال أمامه نفسه ـ فيقول : « لا عجب إذا انقادت لي النجوم ، وخضعت لي الأفلاك ، والكواكب ، فقد ربطت نفسي بركاب سيِّدٍ عظيم لا يأفل نجمه ، ولا يعثر جدُّه ، ذلك هو البصير بالسبل ، خاتم الرسل وإمام الكلِّ ، محمد ﷺ ، الذي وطأت قدمه الحصباء ، فأصبحت إثمداً يكتحل به السُّعداء » .

وهنا يقف الشاعر ويقول : « يمنعني الحياء من الشاعر الحكيم ـ السنائي الغزنوي ـ والأدب معه ، أن أسترسل في الكلام ، وأطيل الموضوع ، وإلا أمامي مجالٌ واسعٌ من المعاني ، والبحر زاخرٌ بالدرر واللآلىء » .

ساعة مع السيد جمال الدين الأفغاني[٢]:

خرج الدكتور محمد إقبال مع شيخه ومربيه الرُّوحي والفكري ـ الشيخ جلال الدين الرُّومي ـ في سياحةٍ روحية فكرية ، ومرَّ في جولته ـ الخيالية ـ بمنازل كثيرةٍ ، التقى فيها بشخصياتٍ ماضيةٍ ، من أصحاب الديانات والفلسفات ، وقادة الفكر والرِّجالات ، وتحدَّث معهم في مسائل كثيرةٍ[٣] .

---

(١) كناية عن الإيمان والاستغناء عن المادة .

(٢) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الخامس ، المجلد الرابع ، عام ١٩٥٩م .

(٣) وفي ديوانه « جاويد نامه » قصة هذه الرحلة .

ومرَّ في رحلته بمنزل بِكْر ، لم يطأه آدميٌّ بقدمه ، وظهرت فيه الطبيعة بجمالها ، وتمثَّلت فيه الدُّنيا بسهولها ، وجبالها ، وميادينها ، وأزهارها ، وعاش منذ آلاف السنين في عـزلةٍ من المدنية ، والصـناعة الإنسـانية ، وأعجب الشاعر جمال الطبيعة ، ورقَّة الهواء ، وخرير الماء في هدوء الصحراء .

وأقبل إلى شيخه الرُّومي ، فقال وقد قرع أذنه صوتٌ عذبٌ رقيق : ما لي أسمع الأذان ، ولا أرى أثر إنسان ؟ فهل أنا واهمٌ ، أم حالم ؟

قال الرومي : إنه منزل الصلحاء والأولياء ، وبيننا وبينه نسبٌ قريبٌ ، فقد قضى فيه أبونا آدم يوماً أو يومين ، لما هبط من الجنَّة ، قد شهد هذا المكان زفراته ، وأناته في السَّحر ، وبلت دموعه التراب ، يزوره أصحاب المقامات الرفيعة ، كفضيل ، وأبي سعيد ، والعارفون الكبار ، كجنيد ، وأبي يزيد ، فلنقم ولنسرع لندرك الصَّلاة في هذه البقعة المباركة ، وننال لذَّة الروح ، ونعمة الخشوع التي حرمناها في العالم المادِّيِّ .

ونهضا من مكانهما مسرعين ، فوجدا رجلَيْن يصليان ، أحدهما أفغانيٌّ ، والآخر من الأتراك ، ونظر فيهما فإذا إمام الصلاة جمال الدين الأفغاني ، يصلِّي خلفه الأمير سعيد حليم باشا ، فقال الرومي : إنَّ الشرق لم ينجب في العصر الأخير أفضل منهما ، وقد حلا كثيراً من عقدي وألغازي ، أما الإمام السيد جمال الدِّين ؛ فقد نفخ في الشرق الناعس روح النشاط ، ودبَّت بدعوته الثائرة الحياة في الأموات والجمادات ، وأما الزَّعيم سعيد حليم ؛ فقد جمع بين القلب الجريح الدَّامي ، والفكر المحلِّق السَّامي ، والروح القلقة ، والعقل الكبير المستنير ، إنَّ ركعتين مع مثل هذين الرجلين من أفضل العبادات ، وأعظم القربات .

وقرأ السيد جمال الدين سورة « والنجم » فأنشأ هدوء المكان والزمان ، وشخصية الإمام ، وجمال القرآن ، جوّاً خاشعاً رهيباً ، رقَّ فيه القلب ، وفاضت فيه العين ، وكانت قراءة لو سمعها إبراهيم الخليل لأعجب بها ، ولو سمعها جبرئيل لأثنى عليها ، وكانت قراءة تقلق النفوس ، وتذيب القلوب ،

وتعلو بها صيحة التكبير والتهليل في القبور ، وكانت قراءةً ترفع الحجاب ، وتتضح بها معاني أمِّ الكتاب .

وندع محمد إقبال يحكي قصته ، قال : « وقمت بعد الصَّلاة ، وقبَّلت يده في أدبٍ ومحبَّةٍ ، وقد قدَّمني أستاذنا الرومي إلى السيد ، وقال : إنَّه جوَّالٌ جوَّابٌ في الآفاق ، لا يستقرُّ في مكان ، ويحمل في قلبه عالماً من الآمال والآلام ، لم يعرف غير نفسه ، ولم يخضع لأحدٍ ، فيعيش حراً طليقاً » .

وأقبل عليَّ السيد جمال الدين ، فقال : حدثني يا عزيزي ! عن العالم الذي عشت فيه زمناً ، وعن المسلمين الذين أصلهم تراب ، وينظرون بنور الله .

قلت : يا سيدي ! لقد رأيت في ضمير الأمَّة التي خلقت لتسخير العالم معركةً حاميةً ، وصراعاً دامياً بين الدِّين والوطن ، لقد ضعف الإيمان في قلب هذه الأمة ، ففقدت روحها ، وقطعت الأمل من سيطرة الدين وسيادته ، فلجأت إلى الوطنية والقومية ، أصبح الأتراك والإيرانيون سكارى بصهباء أوربة ونشوتها ، وأصبحوا فريسة كيدها ودهائها ، أصبح الشرق خراباً بحكم الغرب وسيادته ، وذهبت الشيوعية ببهجة الدِّين وبهاء الملة .

سمع الأفغاني كلَّ ذلك في صبرٍ ، وأناةٍ ، وفي تألُّمٍ وحزنٍ ، ثم انفجر قائلاً : إنَّ الباقعة[1] الأوربي هو الذي علَّم أهل الدين الوطنية والقومية ، أما هو فلا يزال يبحث عن مركزٍ لجميع الشعوب والأوطان ، ولكنه بذر في الشرق بذور الخلاف والانشقاق ، وشغل شعوبه بمصر ، والشام ، والعراق ، فتحرَّرْ أيها المسلم الشرقي ! من قيود الوطنية والقومية ، وكن « عالمياً آفاقياً » يعتبر كلَّ بلدٍ وطنه ، وكلَّ أرضٍ أرضه ، إن كنت تميز بين « الجميل » و « القبيح » فلا تربط نفسك وقلبك بالتراب ، والحجارة ، والقرميد . إنَّ الدِّين هو أن ينهض الإنسان من الحضيض ، ويعرف قيمة نفسه . إنَّ الذي عرف « الله » وآمن به ، لم يسعه هذا العالم ، ولم ينحصر في الجهات . إنَّ الحشيش ينبت

---

(١) يقال : رجلٌ باقعة أي : ذكيٌّ حذرٌ ، ذو حيلة ، لا يفوته شيء .

على التراب ، ويفنى في التراب ، ولكن النفس الإنسانية أسمى من أن يكون مصيرها هذا التراب . إنَّ آدم ولو خلق من ماءٍ وطين ، فقد يأبى أن يدور حول هذا الماء والطين . إنَّ جسمه يميل به إلى الأرض ، وروحه تطير به في الأجواء الفسيحة . إنَّ الروح لا تنحصر في الجهات ، وإنَّ « الحرَّ » لا يعرف القيود والحدود ، فإذا جسَّ في « التراب »[1] اضطرب وثار ، لأنَّ الصقور لا تستريح ، ولا تهدأ في الأوكار .

إنَّ هذه الحفنة من التراب ، التي نسميها « الوطن » ونطلق عليها أسماء « مصر » و « إيران » و « اليمن » ، بينها وبين أهلها نسب ، لأنَّ هذه الشعوب قد نهضت من أرضها ، ولمعت من أفقها ، ولكن لا ينبغي أن تنطوي على نفسها ، وتنحصر في حدود أرضها ، أما ترى إلى الشمس تطلع بسنائها ونورها من الشرق ، ولكنها لا تلبث أن تحرَّر من حدود الشرق والغرب ، وتسيطر على العالم وتحتضنه ، إنَّ فطرتها بريئةٌ من الشرق والغرب ، وإن كان مولدها وظهورها في الشرق .

أما الشيوعية ياعزيزي ! فإنَّ مصدرها ذلك الإسرائيلي ، الذي خلط الحقَّ بالباطل ، وآمن قلبه ، وكفر عقله ، إنَّ الغربيين فقدوا القيم الروحية ، والحقائق الغيبية ، وذهبوا يبحثون عن الروح في « المعدة » . إنَّ الروح ليست قوتها وحياتها من الجسم ، ولكنَّ الشيوعية لا شأن لها إلا « بالمعدة والبطن » ، وديانة « ماركس » مؤسَّسة على مساواة البطون ، إنَّ الإخوة الإنسانية لا تقوم على وحدة الأجسام والبطون ، إنَّما تقوم على محبة القلوب ، وألفة النفوس .

إنَّ الملوكية سِمَنٌ يطرأ على الجسم ، صدرها مظلمٌ خاوٍ ، ليس فيها قلبٌ خفَّاق ، إنها كالنحلة تجلس على كلِّ زهرة ، وتتشرب منها الرضاب ، وتغادرها إلى زهرةٍ أخرى ، وتبقى هذه الزهرات بلونها وشكلها ورائحتها ، ولكنَّها أوراق بالية وحشائش ذاوية ، كذلك الملوكية تستحوذ على الشعوب

---

(١) يعني به « الوطن » .

والأفـراد ، وتمتصُّ منها دماءهـا ، وتتركها أجساداً هامدة .

إنَّ « الملوكية » و « الشيوعية » تلتقيان على الشَّره والنَّهامة ، والقلق والسـآمـة ، والجهـل بـالله والخـداع لـلإنسـانيـة ، الحيـاة عنـد الشيـوعيـة « خروج »[1] ، وعند الملوكية « خراج » ، والإنسان البائس بين هذين الحجرين قارورةُ الزجاج ، إنَّ الشيوعية تقضي على العلم ، والدين ، والفن ، والملوكية تنزع الروح من أجسام الأحياء ، وتسلب القوت من أيدي العاملين والفقراء ، لقد رأيت كلتيهما غارقتين في المادَّة ، وجسمهما قويٌّ ناضر ، وقلبهما مظلمٌ فاجر .

ألا ! من يبلغ « روسيا » أنَّ القرآن وتعاليمه في وادٍ والمسلمين في وادٍ ، لقد انطفأت شرارة الحياة في صدور المسلمين ، وانقطعت صلتهم عن النَّبيِّ محمد ﷺ . إنَّ المسلم اليوم لا يؤسس حياته ، ولا ينظم مجتمعه على مبادىء القرآن ، وقد أفلس لذلك في الدين والدنيا ، لقد ثل عرش قيصر وكسرى ، ونعى على ملوكيتهم ، ونصب لنفسه عرشاً ملوكياً ، وتربع عليه ، واقتبس من العجم الملوكية وأساليبها ، وبذلك تغير نظره إلى الحياة ، وتغيَّر منهج تفكيره .

لقـد حطمـت « القيصـريـة والكسـرويـة » مثـل المسلميـن فـي العصـر القديم ، فاعتبري أيتها الأمة الروسية ! من تاريخنا ، عليك بالثبات والاستقامة في معركة الحياة ، فإذا كنت قد كسرت هذه الأصنام « الملوكية والـوطنية » فـلا تعودي إليهـا ، ولا تطوفي حـولها مرَّة ثانيةً ، إنَّ العالم اليوم يطلب أمـةً تجمع بين التبشير والإنذار ، وبين الرحمة والشدَّة ، فاقتبسي من الشرق ديانته ، وروحانيته ، لقد أصبحت ديانات الإفرنج ودساتيرهم عتيقةً باليةً ، فلا تعودي إليها مرَّةً ثانيةً ، لقد أحسنت إذ ألغيت الآلهة القديمة ، وقطعت مرحلة النفي « لا إله » فعليك أن تبدئي مرحلة الإثبات « إلا الله » ، وهكذا تكملين مهمتك ، وتتمِّين رحلتك العظيمة ،

(١) يعني : تجرد من العقائد ، والعواطف ، والآداب ، والحضارات .

إنك تبحثين عن نظامٍ للعالم ، فعليك أن تبحثي له عن أساسٍ محكم ، وليس هو إلا الدين والعقيدة .

لقد محوت يا روسيا ! أساطير الأولين أسطورةً أسطورة ، فعليك أن تدرسي الآن القرآن سورةً سورة ، وما أدراك ما القرآن ؟ إنَّه نعي للملوكية والسُّخرة ، وحتفٌ للاكتناز والأثرة ، وحياةٌ للصُّعلوك ، وبشرى للملوك ، إنَّه يذم الذين يكنزون الذهب والفضة ، ولا ينفقونها في سبيل الله ، ويحثُّ على إنفاق كلِ ما فضلٍ عن حاجة الإنسان ، ويقول في صراحة : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] ، إنه يحرم الرِّبا ، ويحلُّ البيع ، ويحثُّ على القرض الحسن ، وهل يتولد من الربا إلا الشرور والفتن ، والقساوة والضراوة ؟ إنَّ اكتساب الرزق من الأرض جائز ، فكل ما في الدنيا ملكٌ لله تعالى ، ومتاع للعبد ، والإنسان أمين في مال الله ، ووصيٌّ على أرضه وخلقه ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ [الحديد : ٧] ، لقد انتكست راية الحق بطغيان الملوك ، وخربت القرى والمدن بظلمهم وعبثهم ، إنَّ المبدأ الذي يقرره القرآن : أنَّ قوت بني آدم من مائدةٍ واحدةٍ ، وأنَّ الأسرة الإنسانية كلَّها كنفس واحدة[1] .

إنَّه لما قامت دولة القرآن ، اختفى الرهبان والكهان ، أقول لك ما اؤمن به وأدين ؛ إنَّه ليس بكتابٍ فحسب ، إنَّه أكثر من ذلك ، إذا دخل في القلب ؛ تغيَّر الإنسان ، وإذا تغيَّر الإنسان ؛ تغيَّر العالم . إنَّه ظاهرٌ ومستتر ، كتابٌ حيٌّ خالدٌ ناطق ، إنه يحتوي على جدود الشعوب والأمم ، ومصير الإنسانية .

لقد ابتكرتِ تشريعاً جديداً ، ودستوراً جديداً ، فجدير بك أن تنظري إلى العالم بنورِ القرآن نظراً جديداً »[2] .

---

(١) ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [سورة لقمان الآية : ٢٨] .

(٢) « جاويد نامه » فلك عطارد باختصار واقتباس .

حديث ومناجاة[١]!

جاشت نفس إقبال الكبيرة الدافقة بالحنان ، والإيمان في الثالث من أبريل سنة ١٩٣٦م وهو عليلٌ رهين الفراش في بهوبال (الهند) وقد آلمه ما كان يراه من وضع العالم الإسلامي المخزي والفراغ الفكري والرُّوحي الهائل الواقع فيه ، وضعف الشخصية الإسلامية الشائن ، واندفاع الجيل الجديد إلى الفكرة الغربية ، ومثلها ، وقيمها ، وتخلِّيه عن رسالته ومركزه ، ففاضت قريحته بشعرٍ من أبلغ الشعر الوجداني ، تحدَّث فيه إلى النبيِّ ﷺ وشكا إليه في عالم الخيال ضعف العالم الإسلاميِّ ، وفقره الروحيَّ ، وانحرافه عن الجادة ، وما كان يجده في نفسه من فتورٍ بعد النشاط ، ومن ضعفٍ في العمل[٢] يقول :

أشكو إليك ـ يا رسول الله ﷺ ـ هذه الأمة التي تسلَّط عليها خوف الموت ، إنَّك حطمت الأصنام القديمة ، كاللات ومناة ، وجددت العالم القديم الذي سرى فيه الهرم ، ودبَّ فيه الموت ، فأصبح العالم يستقبل اليوم الجديد بالإيمان ، والحنان ، والتسبيح ، والأذان ، ويستمدُّ من الشهادة التي لقنته إياها الانتباه والحضور ، والنور والسرور .

إننا ـ وإن ولدنا في بلادٍ عريقة في الوثنية ـ رفضنا أن نعبد الثور ، والبقر ، وأبينا أن نطأطىء رؤوسنا أمام الكهان والسَّدنة ، فلم نخرَّ بين يدي الآلهة القديمة ، ولم نطف حول بلاط الملوك ، وقصور الأمراء ، والفضل في كلِّ ذلك يرجع إلى دينك الذي جئت به ، وإلى جهادك الذي قمت به ، فقد تربينا على السفرة التي بسطتها للعالم ، وقد ظلَّ حديثك مصدر الشوق والسرور للأمة طيلة هذه القرون ، وقد استطاعت بذلك أن تكون أبيةً في الفقر ، عفيفةً

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها العاشر ، المجلد التاسع ، عام ١٩٦٥ .

(٢) هذا نوع من الأسلوب الشعري عند شعراء العجم يعبرون به عما يجيش في صدورهم من عواطف الحب والحنان ، لا يشوبه شيء من الاستغاثة والتعبد مطلقاً ، وإنما هو تعبير ، وأسلوب فحسب .

في الحاجة ، ولكنَّ العالم الإسلامي اليوم قد فقد الشيء الكثير من قوَّته وقيمته .

لقد تجوَّلتُ في ربوع العالم الإسلامي ، وزرتُ بلاد العرب ، وديار العجم ، فرأيت من يقتدي بك ، ويجدِّد ذكراك مفقوداً لا يقع عليه العيان ، ورأيت من يمثل أبا لهب ، ويحكيه كثيراً يوجد في كلِّ زمان ، إنَّ الشباب الإسلاميَّ قد استنارت عقولهم ، وأظلمت قلوبهم وضمائرهم ، إنَّهم في شبابهم ناعمون برقاق كالحرير ، لا يحتملون الأمل الجديد ، والنظر البعيد ، إنَّهم نشؤوا على العبودية ، ودرج على ذلك جيلٌ بعد جيل ، حتى أصبحوا لا يحلمون بالحرية ، ولا يطيقونها .

إنَّ نظام التعليم الجديد ومؤسساته انتزعت منهم النزعة الدِّينية حتى أصبحوا خبر كان ، إنَّهم هاموا بالغرب ، وجهلوا قيمتهم ، يريدون أن يتصدَّق عليهم الغرب بكسرة خبزٍ ، أو حفنة شعيرٍ ، إنَّهم باعوا نفوسهم الكريمة من أجل لقمةٍ حقيرةٍ ، فأصبحت الصقور التي تحلِّق في السماء عصافير صغيرةً لا شأن لها بالأجواء الفسيحة ، والمرامي البعيدة .

إنَّ أساتذة هذا الجيل الذين بضاعتهم في العلم مزجاةٌ لم يخبروه بمركزه ، ومنصبه ، إنَّ نار الغرب قد أذابت هذا الجيل كالشمعة ، وصاغته صوغاً جديداً ، فأصبح في هذه الجحيم ممسوخاً منكوساً ، وأصبح المسلم لا يعرف سرَّ الموت ، ولذَّته ، ولا يؤمن ـ كما كان يؤمن في القديم ـ بأنه (لا غالب إلا الله) لقد مات قلبه بين جوانحه ، فأصبح لا يفكر إلا في المنام والطعام ، إنَّه حكم الغرب في نفسه ليتلقى منه رغيفاً ، وقبل منَّة مئة إنسان من أجل بطنٍ واحد .

إنَّ محطم الأصنام ، وسليل إبراهيم قد أصبح آزر ينحت الأصنام ، إنَّه يشتري من الأفرنج أصنامهم الجديدة ، إنَّ هذا الجيل قد أصبح في حاجةٍ إلى بعثٍ جديدٍ ، وإلى أن تقول له مرَّةً ثانيةً : قم بإذن الله ، لقد سحرتنا الحضارة الغربية ، وقد استطاع الغربيُّون أن يقتلونا من غير حربٍ وضربٍ ، لقد استطاعت أمَّتك وأصحابك أن يثلُّوا عروش كسرى وقيصر ، والعالم ينتظر من

جديد ثائراً جديداً يؤمن بالله ، ويكفر بغيره ، ويكسر طلاسم هذه الحضارة ، ويبطل سحرها .

نفسي فداؤك أيها الفارس الكريم ! بالله اقبض العنان ، وقف لي لحظةً أبث إليك بالأشجان والأحزان ، وقد تلجلج لساني ، وخانني البيان ، إنني في صراعٍ بين سلطان الشوق والأدب ، إنَّ الشوق يقول لي : تشجَّع ، وتكلَّم ، فأنت من الحبيب بقاب قوسين ، والأدب يقول : إياك والفضول ، فافتح العينين ، وأطبق الشفتين ، ولكن الشوق عصا ثائرٍ لا يخضع للأدب ، إنَّني أطلب منك نظرة التفات ، فأنا ذلك الغزال التائه اللاغب الذي زهد فيه الطالبون ، وانصرف عنه الصيادون ، فلجأت إلى حرمك ولأمرٍ ما تراميت في أحضانك ، إنَّ صوتي قد اختنق في حلقومي ، وإنَّ اللهيب عاد لا يتجاوز صدري ، وإنَّ أنفاسي قد تجرَّدت من لوعة القلب ، ولهيب الصدر ، وإنني فقدت اللذة التي كنت أجدها في قرآن الفجر .

إنَّ الزفير الذي لا يسعه الضمير كيف يستقر في الصدر ، كالعاني الأسير ، إنَّه يحتاج إلى أجواء لا نهاية لها ، وإلى سعة السموات التي لا حدود لها ، يا لها من عللٍ يعانيها جسدي وروحي ، ولا دواء لها إلا أن تنظر إليَّ من طرفٍ خفي .

إنَّ هذه الأدوية التي يصفها الأطباء لا تناسب روحي العليلة ، فإنَّ شامتي اللطيفة لا تُحتمل مرارتُها ورائحتُها ، فأنا مريض ، لا يحمل إلى طبيب ، فأبكي بكاء الأطفال ؛ إذا جرعوا الدواء المرَّ ، وأنا أخادع نفسي وأمزجه بالحلاوة حتى تسهل إساغته ، إنني كالبوصيري أطلب الفتح والفرج ، وأن يعود إليَّ ذلك اليوم الذي فقدته ، إنَّ العصاة من أمتك أسعدُ بشفاعتك ، وأكثرُ حظّاً من عطفك من غيرهم ، كالأمِّ الحنون الرؤوم في عطفها وصفحها عن إساءة أبنائها .

إنني مع عبَّاد الليل والظلام في صراعٍ شديد ، فمد سراجي بمددٍ من الزيت من جديد ، إنَّ وجودك كان للعالم ربيعاً ، وللإنسانية خصباً ، وربيعاً ، فلا تضنَّ علي بشعاعٍ من أشعة شمسك المنيرة للعالم ، إنَّ قيمة الجسم

بالروح ، وإن قيمة الروح هو إشراقٌ من المحبوب ، إنني أريد أن ينقطع رجائي عن غير الله ، فاجعلني سيفاً ، أو اجعلني مفتاحاً .

لقد أسرع بي ذهني الوقَّاد في مجال الفقه وحكمة الدين ، ولكن أبطأ بي عملي في مجال الكفاح ، إنَّ مهمتي أصعب وأرقُّ من مهمة فرهاد[١] الذي كلف تفجير نهر من لبن من جبل أصم[٢] فأنا في حاجة إلى آلاتٍ أَحَدَّ ، وقوًى أَشَدَّ ؛ حتى أكمل مهمتي وأحقق رغبتي ؛ إنني مؤمن ، لا أكفر بشخصيتي ومواهبي ، فاضربني على المسنِّ ؛ فإنني حديدٌ من معدن كريم ؛ إنني وإن كنت قد ضيعت شبابي ، وأتلفت حياتي ، ولكنِّي أملك شيئاً اسمه « القلب » إنني أغار عليه ، وأستره من العيون ؛ لأنَّه يحمل أثراً من حافر جوادك الأصيل ، إنَّ العبد الذي قد زهد في زخارف الدنيا إنما يتسلَّى برضا سيده وعطفه ، ويعتبر حياة الهجر والفراق موتاً ، يا من منح الكردي[٣] لوعة العرب ، اسمح للهندي أن يمثل بين يديك ، ويتحدث بأشواقه وأحزانه إليك ، إنه يحمل قلباً حزيناً ، وكبداً مقروحةً ، لا يعلم أصدقاؤه وزملاؤه ما يعانيه من حزنٍ وألمٍ ، إنَّه لا تنقطع ألحانه الشجية كالعود الذي لا راحة له ، ولا انقطاع ، إنني كحطب في الصحراء مرَّ به ركب فأشعل فيه النار ؛ وأعجل الركب السير ، فمضى وخلفه ؛ وبقي الحطب يشتعل ، وينتظر ركباً جديداً ليستهلكه ، ويأتي على بقيته ؛ فمتى يمرُّ به ركبٌ جديدٌ في هذه الصحراء الموحشة المظلمة[٤] ؟!

---

(١) هو بطل أسطورة شائعة في الأدب الفارسي ، خلاصتها : أنه عشق امرأة اسمها « شرين » كان يحبها ملك اسمه « خسرو » فلما عرف ذلك الملك كلفه أن يفجر نهراً من لبن من الجبل ، فحمله الهيام بعشيقته على ذلك العمل العقيم ، وأكبَّ على ذلك وانصرف إليه حتى مات ، ويضرب به المثل في الوفاء والتفاني .

(٢) يشير إلى أنه كلف نفسه إخضاع الفلسفة الغربية المادية للغايات الدينية ، والخلقية ، والخروج منها بفلسفة جديدة وفكرة جديدة تخدم مقاصد الدين الإسلامي .

(٣) يشير إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي الكردي .

(٤) مأخوذة من ديوانه ، ماذا يحب أن تعلمه شعوب الشرق (الفارسي) .

نياحة أبي جهل[١]:

زارت روح عمرو بن هشام ـ زعيم الجاهلية والنخوة العربية ـ مكَّة ، وقد أصبحت بلد الإسلام والتوحيد ، وطهر بيت الله للطائفين والقائمين والركع السجود ، وحرم عبادة الأصنام والأوثان الجاهلية ، فلا اللات ، ولا مناة ، ولا هبل ، ولا العزَّى ، ولا أساف ، ولا نائلة[٢] ، وقام المؤذن على شرفات الحرم ينادي بأعلى صوته خمس مرات : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله » .

وذهبت نخوة الجاهلية ، وتعظُّمها بالآباء ، وأصبح الناس يعتقدون أنَّهم من آدم ، وآدم من تراب ، فلا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ ، إلا بالتقوى ، وسمع الناس يتلون : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وأصغى إلى الناس في غدوِّهم ورواحهم ، فلم يسمعهم يفتخرون ببلدٍ أو نسبٍ ، ووطنٍ أو شعبٍ ، وطاف في الناس ، فلم ير أحداً يعيِّر أحداً بأمِّه ، أو سواده ، أو حرفته ، أو حبشيته ، أو عجميته ، ويتطاول بعربيته ، أو قرشيته ، وغشي مجالس الناس ، فلم يسمع مفاضلةً بين عدنان وقحطان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين بني عبد مناف وبني عبد الدار ، وبين بني هاشم وبني عبد شمس ، ولا مساجلة في مآثر الجاهلية ، وأيام العرب ، ورأى الناس بالعكس يرجعون إلى عبدٍ أسود ، قد فاق الناس في علمه وفقهه ، ويلتفون حوله ، ويصدرون عن رأيه .

ودقَّق في حديث الناس ، وآدابهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وسلوكهم ، وعقيدتهم ، فلم ير عرفاً جاهلياً ، أو نزعةً عربيةً ، أو نعرةً قوميَّةً ، يتعلَّق بها

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثاني والثالث ، المجلد الرابع ، عام ١٩٥٩م .

(٢) كان أكثرها أصنام قريش ، والتي كانت لغيرها كانت قريش تعظِّمها ، راجع ابن هشام ، وابن الكلبي .

سيد بني مخزوم ، ويقرُّ عيناً ، ورأى أن الحياة القديمة قد نُسخت وأُبطلت ، وولد مجتمعٌ جديدٌ قام على أساسٍ من العقيدة ، والخلق ، والفضيلة ، والتَّقوى ، وتغيَّرت الموازين والقيم ، وتغيَّرت عقول الناس ونفوسهم ، وسُمِع ينشد في حزنٍ واستعجاب :

فما الناس بالناس الذي عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت أعرف

لقد أشكلت الأمور على سيد بني مخزوم ، وأبهمت مكة عليه ، وهو ابن البلد ، وسيِّدٌ من ساداتها ، فلولا البيت ، ولولا الحطيم ، ولولا الحِجْر ، ولولا زمزم ، ولولا المكان ، الذي كان يجلس فيه مع سادة قريش ، ويمتحن فيه ضعفاء المسلمين ؛ لأنكر مكة ، وأنكر الوادي ، ورأى أنَّه قد ضلَّ الطريق .

لقد كان يرى في الدِّين « الجديد » الذي جاء به محمَّدٌ ﷺ الخطر ، والضرر على الدِّين الذي قام على تقديس القومية الضيقة ، والعصبية القرشية ، والنظام الجاهليِّ ؛ الذي يقوم على النسب ، والوطن ، وتفضيل الدم والعرق ، ويرى العالم كلَّه في حدود « المملكة القرشية » التي قامت في مكَّة ، ولا يعني بخارج هذه الحدود .

ويرى الفضل كلَّه في العرب ، فغيرهم عجمٌ وعلوجٌ ، لا يستحقُّون مدحاً ، ولا يستحقُّون رحمةً ، ولا يستحقُّون عدلًا ، لقد كان يرى كلَّ ذلك ويتوقَّعه ، وكان من أشدِّ الناس حماسةً في الدِّفاع عن الجاهلية ، وأصدق الناس فراسةً في معرفة غايات الإسلام ، ولكنَّه على بعد نظره وذكائه لم يكن يعرف أنَّ الأمر يبلغ بالناس هذا المبلغ ، وأنَّ الإسلام يؤثر في الناس هذا التأثير ، وأنَّ الجاهلية تطرد من عاصمتها ومهدها هذا الطرد الشنيع .

هاجت النخوة الجاهلية في أبي جهل ، وثارت روحه ، ورئي متعلقاً بأستار الكعبة ، يستغيث على محمَّدٍ ﷺ ، وينوح ، ويقول :

« إنَّ قلوبنا ـ معشر الجاهليين ـ قروحٌ وجروحٌ ، تسيل دماً ممَّا صنع محمد ، فقد أطفأ نور الكعبة ، وحطَّ من مكانتها ، وقدرها ، لقد نعى قيصر وكسرى ، وتنبأ بزوال الملوك والسَّلاطين ، ونادى بأعلى صوته : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ

﴿ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام : ٥٧] و ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] واغتصب شبابنا ، فثاروا علينا ، وفتنوا به وبدينه الجديد ، ساحرٌ يسحر بكلامه قلوب الناس وعقولهم ، وهل كفرٌ أعظم من قوله : « لا إله إلا الله » ، وإنكار جميع الآلهة التي آمن بها الناس ، وعبدوها في جميع الأعصار والأمصار ، إنه طوى بساط دين الآباء ، وفعل بآلهتها الأفاعيل ، لقد جعل اللاَّت ومناة جذاذاً بضرباته الموجعة ، فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذ ثأر الآلهة ، يا عجباً ! لقد جرَّد القلوب عن معبودٍ مشهودٍ يرى ويلمس(١) ، وربطها بمعبودٍ غير مشهودٍ ، ولا يرى ، ولا يلمس ، حتى كان هذا الإيمان بالغيب أقوى وأعمق من الإيمان بالمشهود الموجود ، هل لهذا الإيمان أساس ؟ وهل لما لا يرى وجود ؟ أليس من الجهل والضلالة ، والعمى والبلاهة ، سجودٌ لغائب ؟ هل يجد الإنسان لذَّةً وحلاوةً في ركوعٍ وسجودٍ أمام غائب ؟! .

إنَّ دينه حتفٌ للوطنية ، والقومية ، إنَّه من قريش ، ولكنَّه لا يفضل حرّاً على عبد ، وغنياً على فقير ، وعربياً على عجميٍّ ، يجلس مع مولاه على مائدةٍ واحدةٍ ، ويأكل معه ، أسفاً إنَّه لم يعرف قدر العرب الأحرار ، وأكرم العلوج والعبيد السود ، لقد اختلط الأحرار البيض بالعبيد السود ، واختلط الكريم باللئيم ، والجميل بالدَّميم ، وذلَّ العرب ، وذلَّ بنو قصي .

إنَّنا لا نشكُّ في أنَّ هذه المؤاخاة ، التي يحثُّ عليها محمد كثيراً ، مبدأٌ عجميٌّ ، وقد تحقَّق لدينا أنَّ سلمان مزدكيٌّ ، وأنَّ ابن عبد الله خُدِع به ، وجرَّ البلاء والشقاء على الأمَّة العربية ، لقد جهل هذا الفتى الهاشميُّ قيمته ، وشرفه ، لقد أعمته هذه الصَّلاة التي يصلِّيها ، هل لعجميٍّ أصلٌ عدنانيٌّ ، وهل لأعجميٍّ نطقٌ عربيٌّ ، ولهجةٌ مضريَّةٌ ؟ عجباً لعقلاء العرب ! هبوا من نومكم ، اغلبوا هذا الكلام الذي يسمِّيه محمد وحياً بكلامكم البليغ الساحر .

ولماذا لا تنطق أيها الحجر الأسود ! ولا تشهد بصدق ما نقول . ولماذا

---

(١) يعني به : الأصنام من الحجارة وغيرها .

لا تقوم يا هبل ! يا إلهنا الأكبر ! ولا تنتزع بيتك من هؤلاء الصبأة ، أغِزْ عليهم ، وعكِّزْ عليهم الحياة ، أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، تجعلهم أعجاز نخلٍ خاوية ، يا مناة ! ويا أيُّها اللات ! فبالله ! لا ترحلا من ديارنا ، وإنْ رأيتُما الرَّحيل فبالله ! لا ترحلا من قلوبنا ، وإن كان لا بدَّ من الرَّحيل ، فلا تعجلا ، وأمهلانا أياماً نتمتَّع بكما »[١] .

عودة الجاهلية[٢]:

مرَّ شاعر الإسلام ـ في بعض زياراته الرُّوحية ، وسياحاته الفكرية ـ بوادٍ اجتمعت فيه الآلهة القديمة التي عبدتها أمم الجاهلية ، ونحتت أصنامها ، وتماثيلها ، وبنت عليها هياكل ومعابد ، وعكف عليها السَّدنة والكُهَّان ، وتغنَّى بها الشعراء والأدباء ، وكان مجمع الآلهة القديمة من شعوبٍ مختلفةٍ ، وبلادٍ مختلفةٍ ، وعصورٍ مختلفةٍ ، فهذا إله المصريين القدماء ، وهذا ربُّ التبابعة ، والأذواء من اليمن ، وهؤلاء آلهة عرب الجاهلية ، وأولئك آلهة وادي الفرات ، وهذا إله الوصل ، وذلك ربُّ الفراق ، هذا من سلالة الشمس ، وذلك ختن القمر ، وهذا زوج المشتري .

ثم إنَّهم أشكالٌ وألوانٌ ، فهذا قد سلَّ السيف بيده ، وهذا تقلَّد حيَّةً ولواها حول عنقه ، وكلُّهم وجلون مشفقون من الوحي المحمَّديِّ ، الذي أحدث الثورة الكبرى عليهم ، وأفسد عليهم العيش ، ولد العالم الجديد القائم على نبذ الأصنام ، والمؤسس على عقيدة التوحيد ، وكلُّهم ساخطون حانقون على ضربة إبراهيم .

لقد كانت هذه زيارةً مفاجئةً سُرَّ بها الآلهة ، وتفاءلوا بها ، وكان « مردوخ » أول من انتبه لهذه الزيارة ، ورحَّب بالإنسان القادم ، وأخبر زملاءه به : أبشروا يا إخوتي ! فإن إنساناً فرَّ من الله ، وثار على الأديان السَّماوية

---

(١) « جاويد نامه » لشاعر الإسلام محمد إقبال .

(٢) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها السادس ، المجلد الرابع ، عام ١٩٥٩م .

ومراكزها ، وأقبل إلى العهد الماضي ، ليتوسَّع في العلم والنظر ، وجاء يتمتَّع بالآثار العتيقة ، ويتحدَّث عن مجدنا ، إنَّها بارقة أمل لاحت بعد مدَّةٍ ، ونفحةٌ هبَّت من أرضٍ حكمناها طويلاً ، ونعمنا فيها كثيراً .

وكان بعل ـ إله الفينيقيين والكنعانيين القديم ـ أول من اهتزَّ لهذه الزيارة ، فأنشأ يغني في طربٍ ومرحٍ ، ويقول : « إنَّ الإنسان اخترق السموات العلى ، يبحث عن الله ، فلم يجده ، فليست هذه العقائد التي يدين بها الإنسان إلا خواطر تسنح له ، ثمَّ تغيب ، كالأمواج ترتفع ، ثم تتوارى ، إنَّه لا يرتاح إلا إلى المحسوس المشهود .

حيا الله الإفرنج الذين عرفوا طبيعة الشرقيين ، الذين أعادوا إلينا الحياة ، وبعثونا من مراقدنا ، فانتهزوا يا زملائي الكرام ! هذه الفرصة الذهبية ، التي أتاحها لنا الدهاة الغربيون ، ألا ترون كيف نسي آل إبراهيم عقيدة التوحيد ، ونسوا العهد والميثاق الذي أخذ عليهم ، ونسوا لذَّته .

إنهم صحبوا الغربيين مدَّةً من الزمان ، وعاشوا معهم ففقدوا ثروتهم ، وضيعوا ذلك الدِّين الذي نزل به الروح الأمين ، والذي بعث فيه الإيمان واليقين .

إنَّ الرجل المؤمن الحرَّ ؛ الذي لم يكن يعرف الحدود والجهات ، ولا يعبد غير الإله الواحد الذي خلق السموات والأرض ، أصبح يؤمن بالوطن ، ويقدِّسه ، ويعبده ، ويقاتل في سبيله ، ويكفر بالله ، ويهجره ، ويتناساه .

لقد خضع المسلمون لنفوذ الغربيين ومجدهم ، وأصبح شيوخهم الكبار وعلماؤهم العظام يتقلَّدون شعارهم ، ويقتفون آثارهم ، فلنستبشر ولننتهز هذه الفرصة .

لقد عاد إلينا الشباب ، وحقَّ لنا أن نطرب ، فقد انهزم الدِّين ، وانتصرت الوطنية والجنسية ، إنَّ المصباح الذي أناره محمَّد ، تألب عليه مئة « أبي لهب » يطفئونه ، إنَّنا لا نزال نسمع صوت لا إله إلا الله ، ولكنه صوت يصدر عن الشفتين ، ولا يصدر عن القلب ، وكلُّ ما غاب عن القلب سيغيب عن الفم .

لقد أعاد سحر الغرب دولة إله الشرِّ والظلمة ، وشبابه ، وأصبح الدين الإلهي مهدَّداً ، فطوبى لنا ، ولإخوتنا الذين قطعوا الرجاء من الحياة ، واعتكفوا في الخلوات والمغارات .

لقد كان عبَّادنا أحراراً ، لهم التصرُّف المطلق ، والحرية الكاملة في حياتهم ، لم نثقلهم بعبادةٍ وطاعةٍ ، وإنَّما طلبنا منهم ركعةً لا سجود فيها ، وقد أثرنا فيهم العاطفة الدِّينية ، بالأناشيد والأغاني ، فلم تكن صلاتهم إلا مكاءً وتصديةً ، ونغمةً وأغنيةً ، وأيُّ لذةٍ في صلاة لا غناء فيها ، ولا موسيقا ؟!

إن الناس لا بدَّ يفضِّلون عبادة طاغوتٍ مشهود ، على عبادة إلهٍ غائبٍ ، وربٍّ لا يُرى بالأبصار »[١] .

حديث الربيع[٢]:

خيم سلطان الرَّبيع ، وانتشرت جنوده في رحاب الصحراء ، وأودية الجبال ، وقامت دولة الزهور والرَّياحين ، ودبَّت الحياة إلى الصَّخرات والحجارة حتى كادت تنطق وتنطلق ، وغشيت العالم سحابةٌ من المرح والسرور ، حتى أبت الطيور أن تستقرَّ في أوكارها مرحاً ، وانطلقت عيون الجبال تميس ، وتنساب كالحيَّات في الصعيد ، وتدبُّ أحياناً ، وتجري برفقٍ وهدوء ، وتتدفَّق أخرى ، وتجري بقوَّةٍ وسرعةٍ ، وإذا حبسها حابسٌ ؛ فلقت الصخور والهضبات ، وشقَّت طريقها إلى الأمام ، إنَّها بخريرها الدائم تغني نشيد الحياة ، وتردِّد حقائقها[٣] .

يصغي محمد إقبال ـ الشاعر الحكيم ـ إلى هذا النشيد ، ويرى كيف تتلوَّن هذه العين التي تدفقت من بعض الجبال ، وكيف تنعطف وتتعرَّج ، وتتداول

---

(١) من ديوان « جاويد نامه » .
(٢) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الأول ، المجلد الرابع ، عام ١٩٥٩م .
(٣) مأخوذة من نفس قصيدة إقبال .

الرفق والقوَّة ، وهي مع ذلك كلِّه لا تفقد حقيقتها ، وحياتها متسلسلةٌ في الفيضان ، مستمرةٌ في الجريان ، ويرى فيها صورة للحياة التي تجري باستمرار ، وتظهر في أدوارٍ وأطوار ، وتلتزم الحركة والتطوُّر ، فما لها من قرار ، ويستلهم الشاعر الحكيم من مناظر الربيع التي فتقت قريحته ، وأهاجت شاعريته ، ومن الدروس التي يلقيها نهر الحياة الفيَّاض معاني حكيمةً ، يهديها إلى الجيل الإسلاميِّ الجديد ؛ الذي هو مناط آماله ، ويهيئه لاستقبال العصر الجديد ؛ الذي ظهرت تباشيره .

ويقول : « لقد تغيَّر العصر وأوضاعه ، وتكشَّفت أسرار أوربة ، وما كانت تضمره وتُبيِّته للشرق ، حتى أصبح فلاسفتها ، ودهاتها ، وزعماؤها في حيرةٍ من أمرهم ، لقد أفلست السياسة الأوربية ، وأخفقت أساليبها القديمة ، وأصبح العالم يبغض الإمارة والملوكية ، وثار المجتمع على الأفراد والسلاطين ، ولقد انتهى دور الرأسمالية والثراء الفاحش ، وانتهت هذه المسرحية التي مثَّلها الملوك ، وأبطال ألف ليلة ، لقد تخطَّت اليقظة العالمية إلى شعوبٍ معروفةٍ بالكسل والسبات العميق ، وتدفَّقت عيون جبال همالايا ، وتهيأت جبال سينا ، وفاران ، لإشراقٍ جديد » .

ويقبل كعادته إلى أمَّته الإسلامية الحبيبة ، ويستعرض العالم الإسلاميَّ ، فيقول : « إنَّ المسلم وإن كان لا يزال متحمِّساً في التوحيد ، فقلبه لم يتجرَّد بعد من نفوذ الوثنية وشعائرها . إنَّ الحضارة ، والتصوُّف ، والدِّيانة ، وعلم التوحيد لا يزال كلُّ ذلك خاضعاً للنفوذ العجمي ، لقد طغت الخرافات على الحقيقة ، وتاهت الأمَّة في الأخبار . إنَّ الخطيب[1] يسحر المجتمع بكلامه وخطاباته ، ولكنَّه جافٍ قليلُ الحظِّ من الحنان ، ولذة الشوق ، إنَّ كلامه مؤسسٌ على المنطق والقواعد ، ومشحونٌ بالمفردات الغريبة ، والتراكيب البديعة ، ولكنَّه لا يأسر القلوب ، ولا ينفذ إلى أعماقها ، أما « الصُّوفي » الذي تجرَّد لخدمة الحقِّ ، والحبِّ لخلق الله ، وكان يلتهب غيرةً وحميَّةً

(١) يعني به الوعاظ والخطباء الذين يخطبون ويؤلفون في المقاصد الدينية ، ويعظون الناس .

للدين ، فقد ابتلعته الفلسفة العجمية ، و « الشكليات الصُّوفية »[١] ، لقد انطفأت شعلة الحبِّ والحنان في المسلم ، فأصبح ركاماً من رمادٍ ، لا شعلة فيه ، ولا حياة » .

وهناك يدعو محمد إقبال ربَّه مخلصاً أن يعيد إلى هذه الأمَّة الحياة ، ويعيد إليها عهدها الإسلاميَّ الزاهر الأول ، ويدعو أن يلهب في نفسه العاطفة ، ويشعل شعلة الحبِّ ، فيستمدَّ منها قوةً ، وخفة روح ، وسموّاً لا يحظى به إلا « المحبون المؤمنون » فيطير بجناح الحبِّ ، ويصل إلى ما لا يصل إليه الثقلاء المادِّيون ، ويدعو أن يخلق الله في هذه الأمَّة الهامدة الخامدة قلب عليٍّ ، ولوعة أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ وأن يبعث في صدورها الآمال التي ماتت .

وهنالك تأخذ الشاعر أريحية الشعر والإيمان ، فيقول : « حيا الله نجوم سمواتك ؛ التي تلمع ليلاً ، وعباد أرضك ؛ الذين يحيون الليالي عبادةً وتلاوةً ، أَحْي قلوب الشباب الإسلامي ، واجعلها خفاقةً حساسة متوجعةً ، وارزقهم يا رب ! حبي ، وعاطفتي ، وفراستي ، وحكمتي .

لقد وقعت سفينتي في لجَّةٍ ، وأحيط بها من كلِّ جانب ، فأخرجها من هذه اللجَّة ، وقد وقفت ، فاجعلها سائرةً جاريةً تصارع الأمواج ، واشرح لي كيف تموت الحياة ، وتفقد حيويتها ، فإنَّه لا يخفى عليك شيءٌ من هذا الكون .

ليس عندي يا رب ! إلا هذه الآلام التي أقاسيها ، والتي حرَّمت عليَّ النَّوم ، وسلطت عليَّ الأرق ، هذه المطامع البعيدة ، والآمال الواسعة التي أربيها ، هذه الأنَّات التي أرسلها في ظلام الليل ، وهذه السَّاعات الحلوة التي أخلو فيها وأناجيك ، وهذه المجالس التي أبثُّ فيها أشواقي ، وأستنزف فيها آماقي ، إنَّ فطرتي التي فطرتني عليها مرآةٌ ينعكس فيها اتجاهات العصر ، ومرتعٌ يرتع فيه غزلان الأفكار والخواطر[٢] . وإنَّ قلبي ساحةٌ يتجدَّد فيها معارك وحروبٌ بين جيوش الظنِّ والتخمين ، وبين ثبات العقيدة واليقين[٣] ،

---

(١) إشارة إلى تطور التصوُّف الإسلامي ، وانحطاطه في العصر الأخير .
(٢) يشير إلى ما يسنح له من أفكار جديدة ونظريات .
(٣) يشير إلى الصراع النفسي بين الفلسفة والدين والعاطفة الذي لم يزل الشاعر الحكيم =

هذه هي ثروتي التي أعتزُّ بها في فقري ، وأدعوك يا رب ! أن تقسمها في الشباب الإسلامي ، وتملكهم إيَّاها ، فتصادف محلَّها ، وتصل إلى مَنْ هو أحقُّ بها ، وأهلها » .

وبعد أن يشرح فلسفة الحياة ، ووحدتها في الكثير ، وتطوُّرها ، وظهورها في مظاهر شتَّى ، وحرصها على الحركة والتغير ، وفرارها من الهدوء والجمود ، وقوَّتها ، وسرعتها ، كلُّ ذلك في عمقٍ ، ودقَّةٍ ، وهو قطعةٌ فلسفيةٌ أدبيَّةٌ ، تستحقُّ الدراسة والعناية من تلاميذ الفلسفة ، وعلمائها ، وروَّاد الأدب يهيب بالشباب الإسلامي ، ويقول له ، وهو يعرف اندفاعه إلى المادة والشهوات ، وغرامه الشديد بالوظائف والمرتبات :

« إنَّ الرزق الذي يفقد الأبيَّ الكريم كرامته ، ويرزأه في حرِّيته وشرفه سمٌّ زعافٌ ، إنَّ القوت المقبول هو الذي يظلُّ معه الرجل موفور الكرامة ، مرفوع الهامة ، ازْهَدْ في أبَّهة السَّلاطين ، واعرف نفسك ، واحتفظ بقيمتها وكرامتها . إنَّ السجدة التي هي جديرة بالاهتمام هي السَّجدة التي تحرِّم عليك كل سجدةٍ لغير الله » .

ثم يحثُّه على مغامراتٍ جديدةٍ ، وفتوحٍ جديدةٍ ، وتقدُّمٍ دائم ، وطموحٍ قائم ، حتى تنكشف له عوالم جديدةٌ ، لم يحلم بها علماءُ الطبيعة ، ولم تحدِّث عنها العلوم الكونية .

إنَّ هذا الكون الذي يتركب من لونٍ وصوتٍ ، والذي هو خاضعٌ لناموس الموت ، والذي تسرح فيه العين ، وتتمتَّع فيه الأذن ، وليست الحياة فيه ـ عند أكثر الناس ـ إلا الأكل والشرب ، ليس هذا الكون الفسيح الجميل ، هو المرحلة الأولى لمن عرف قيمته . إنَّه ليس وكرك التي تستريح فيه ، والغاية التي تنتهي إليها ، ليست هذه الأرض التي مادَّتها التراب مصدر روحك المتوقدة الوثابة ، وعاطفتك الملتهبة ، أنت مادَّة الكون وليس الكون مادَّتك ، كن في تقدمٍ دائمٍ ، ورحلةٍ دائمةٍ ، وحطِّم هذا الجبل الأصمَّ الذي يعترض في

= يعالجه في حياته .

طريقك . وتمرَّد على هذا الزمان والمكان ، وتحرَّر من قيودهما ، وانطلق من حدودهما ، فإنَّ المؤمن إذا عرف قيمة نفسه ؛ اقتنص هذا العالم ، واقتنص هذه الأرض والسَّماء في بعض ما يقتنص » .

« إنَّ هنالك عوالمَ وأكواناً ، لم تقع عليها عينٌ بعدُ ، فإنَّ ضمير الوجود لم يُفرغ جعبته ، ولا يزال يأتي بجديدٍ ، وإنَّ هذه العوالم متشوقةٌ لهجومك ، وغارتك ، وزحفك ، متشوقةٌ لأبكار أفكارك ، وبدائع أعمالك . إنَّ هذا العالم يدور دورته لتنكشف عليك نفسُك وحقيقتُك ، أنت فاتحُ هذا العالم الذي يحتوي على خيرٍ وشرٍّ ، ويعجزُ البيان عن وصفك ، ويعجزُ الملائكة عن مرافقتك ، وعن غاياتك » .

* * *

العلاَّمة الشريف السيد عبد الحي الحسني
ومكانته في تاريخ الهند الإسلاميّ(١)

قبل أن أقوم بالتعريف بشخصية والدي العلاَّمة الشريف السيد عبد الحي الحسني ـ رحمه الله ـ (١٢٨٦هـ ـ ١٨٦٩م ، ١٣٤١هـ ـ ١٩٢٣م) بصفته مؤرخاً عظيماً ومؤلفاً كبيراً للتراجم ، وكمؤلفٍ عرض الهند لا في العالم الإسلاميّ فحسب ، بل في العالم العلمي أيضاً بصفتها بلاداً قامت بدورٍ اجتهاديٍّ ، وقياديٍّ في مجالات العلم ، والبحث ، والتحقيق ، والدَّعوة ، والإصلاح ، والتزكية ، والسلوك ، وفي العلوم الدينية ، والعقلية ، واللسانية ، قبل أن أذكر دوره وخدماته في هذا المجال أرى من المناسب ، بل أرى لزاماً عليَّ أن استرعي انتباهكم إلى ما يتَّسم به من ميزةٍ ، وتفردٍ ، وندرة ، ونجاح يفوق كل قياسٍ وتقدير ، مساهمات العلماء والمؤلفين العلمية والتأليفية ، وإنتاجات ، وإنجازات المحققين واللغويين الهنود ودورهم الفعال الاجتهادي ، والريادي المتميز في الميادين اللغوية واللسانية ، وفي مجال اللغة العربية فضلاً عن ميادين العلوم الشرعية ، والإسلامية ، وذلك بالرغم من بعد الهند عن مركز الإسلام والعروبة ، والعلوم العربية ، والدينية ، واختلاف اللغة ، وامتداد فترة حكم الأسر التركية ، والإيرانية الفارسية ، ورغماً من امتلاكها لغةً غنيةً عريقةً ، واحتضانها حضارةً مستقلةً عتيقةً ، فقبل كل شيء يجب الاعتراف بأنَّ البلدان القريبة التي سعدت باستقبال الفاتحين العرب ،

(١) هذا البحث القيم ألقاه العلامة النَّدويُّ في الندوة العلمية التي عقدتها أكاديمية أردو لولاية أترابرديش في ٦ ـ ٧ ذي القعدة ١٤١٧هـ حول حياة وأعمال العلامة عبد الحي الحسني ـ رحمه الله ـ كان البحث في اللغة الأردوية ، نقله إلى العربية الأستاذ أفتاب عالم النَّدوي .

والدُّعاة المسلمين الأولين صارت لغتها « اللغة العربية » ولم يعد الفرق بينها وبين جزيرة العرب في التعرف على الكتاب ، والسنة ، والعلوم الإسلامية ، والأدبية ، والاستيناس إليها وفي إظهار نبوغها وبراعتها ، وبذل جهودها في هذه الميادين ، فانتظمت بسبب قرب المكان ، ووحدة اللغة في سلكٍ واحد ، وتكونت عضواً من أعضاء أسرةٍ مشتركةٍ دينيةٍ ، وعلميةٍ ، ولغويةٍ ، وأدبيةٍ .

وفي هذه المناسبة أذكر لكم مصر ، والعراق ، والشام التي أنجبت آلافاً من العلماء ، والفضلاء ، والمحدِّثين ، والفقهاء ، والأدباء ، والشعراء ، والمصنفين ، والباحثين ، ويتصدَّر العراق هذه الديار ، والمراكز السياسية والعلمية ، وخاصةً في القرون الأولى للإسلام ، وأهم سبب لذلك هو قيام الخلافة العباسية ، وتبوُّء بغداد مكانة المرجعية للخاصَّة والعامة ، وكونه مورداً للعلماء والمجتهدين ، وبه ولد مؤسس بعض المذاهب الفقهية ، والأئمة المجتهدين ، وواضعي المناهج الدراسية لعديد من العلوم والفنون العربية ، ونشأ فيه مصنفو المراجع والمصادر ممن يطول ذكرهم .

وتلي العراق مصر والشام حيث نبغ عددٌ كبيرٌ من أهل الفضل والكمال ، وأصحاب التصنيف والتأليف ، وأسباب الشعر والأدب العربي ، ومؤلفو كتب التاريخ والسير ، وتراجم الأعلام في كلِّ فنٍّ مليئةٌ بأسمائهم ومآثرهم .

وإلى هذه الأقطار والبلدان المتَّحدة لغةً ، والمتقاربة مكاناً ، منطقة شمال إفريقية التي تمتد من السودان وليبيا إلى مراكش بما فيه طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، ومراكش ، والمنطقة كلُّها تعرف بـ « المغرب الأقصى » صارت لغتها العربية ، وولد بها العلماء ، والفضلاء ، والأخصائيون في العلوم والفنون ، ونشأ فيها الكتاب والبارعون في الأدب والشعر بكثرةٍ كاثرةٍ ، وما زالت هذه المنطقة تنجب العباقرة والمصنفين الأفذاذ ، وتضيف إلى المكتبة الإسلامية والعربية بصفةٍ منتظمةٍ مستمرَّةٍ .

ثم تأتي أقطار وديار الشرق وآسيا التي كانت تتكلم بغير العربية من الفارسية والتركية ، ومن هذه البلدان تركستان ، إيران ، أفغانستان ، والهند ، وبناءً على أن كان لها بُعدٌ مكانيٌّ ، واختلافٌ لغويٌّ ، لم يكن نبوغ العلماء

البارعين في العلوم الإسلامية والعربية والمحققين والراسخين في العلم والمصنفين باللغة العربية ، إلا فضلاً وتوفيقاً من عند الله تبارك وتعالى ، ونتيجةً للإيمان القويِّ المتدفِّق ، والجهود الذَّاتية ، والرسوخ العلميِّ .

وفي مقدمة هذه الممالك والبلدان إيران ؛ التي حاز بعض أبنائها على درجة الإمامة ، والاجتهاد في العلوم العربية والإسلامية ، ودبجت يراعتهم مؤلفاتٍ رئيسيةً ، احتلَّت درجةً منهجيةً في نفس العالم العربيِّ والإسلاميِّ ، ولكن أئمة الفن هؤلآء جميعاً وإن كانوا قد ينتمون إلى إيران عنصراً ونسلاً قد نشؤوا وترعرعوا في بغداد ، وهناك اشتعل ذكاؤهم ، وظهر نبوغهم ، وبلغ علمهم أوجه ، ومنها طار صيتهم في الآفاق ، وفي هذه المدينة أثمرت جهودهم العلمية ، وبمنهلها العذب شفى المتعطشون غليلهم العلمي في العالم العربيِّ والإسلاميِّ ، ومن بين هؤلآء العباقرة إمام النحو سيبويه الذي يعتبر كتابه « الكتاب » كتاباً رئيسياً ، ومنهجياً ، ومرجعاً هاماً في هذا الفنِّ الجليل ، هو من مواطني بلدة في مديرية شيراز من مقاطعة فارس الإيرانية ، وعبد القاهر الجرجاني الذي يعتبر كتابه : « دلائل الإعجاز » سنداً ومرجعاً موثوقاً به في فنِّ البلاغة ، هو أيضاً ينحدر من جرجان « كركان » من مقاطعة استرآباد الإيرانية حالياً ، وسوى هذين الإمامين الجليلين هناك إمامان عظيمان آخران طبق ذكرهما الخافقين ، ينتميان إلى إيران عنصراً ونسلاً ، وإلى بغداد درساً وتصنيفاً ، هما أبو القاسم جار الله محمود الزمخشري الخوارزمي (م ٥٣٨هـ) والإمام فخر الدين الرازي (م ٦٠٦هـ) ، وبرز غيرهما أدباء ممتازون ، وكُتَّابٌ قدراء في العربية ، اعترف بتفوقهم ، وامتيازهم ، وتفرُّد أسلوبهم الأدباء ، والناقدون العرب الأقحاح ، وأودعوهم في مقررات الأدب العربي ، ونخصُّ منهم بالذكر عبد الله بن المقفع صاحب « كليلة ودمنة » الذي هو أنموذجٌ فريدٌ للسهل الممتنع ، واللغة الحلوة السلسلة ، وأبا بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني اللذين تعدُّ رسائلهما نماذج أدبيةً قيمةً في الأدب العربي .

وتأتي في الدرجة الثانية بعد إيران بلاد تركستان التي تلقى أبناؤها البررة قبولاً واسعاً يحسد عليه ، لم تأت بنماذج لشغفها بالعلوم الدينية وبراعتها فيها

بصفةٍ عامَّة ، والحديث ، والفقه بصفةٍ خاصَّةٍ فحسب ، بل قدَّمت نماذج رائعةً للإمامة والسيادة أيضاً ، اعترف بها ، وانقاد لها العالم العربيُّ والإسلاميُّ ، وصارت جزءاً من المقررات الدراسية الدينية لا يتجزأ أبداً ، ولا يمكن الاستغناء عنها ، وعلى رأسها « الجامع الصحيح » للإمام محمد بن إسماعيل البخاري و« الهداية » للعلامة علي بن أبي بكر الفرغاني المرغيناني (م ٥٩٣هـ) الذي هو من أمهات كتب الفقه الحنفي الدراسية ، ومن مراجع الخاصَّة والعامة ، ولا نعرف كثيراً عن مصنفات علماء تركستان الاجتهادية والممتازة في الفنون الأخرى غير الحديث والفقه ، يمكن أن تكون أعمالهم وإنتاجاتهم في الفنون الأخرى أيضاً ذات قيمةٍ وأهمِّيةٍ ، فإنه يحتاج إلى دراسة أعمق ، ومطالعة أوسع .

والآن نتجه إلى الهند حيث صُنِّف عديدٌ من الكتب في العلوم الإسلامية ، لا يوجد لها نظير رغم البعد المكانيِّ ، والاختلاف اللغويِّ بالنسبة للبلدان العجمية التي سبق ذكرها ، ومن هذه السلسلة الذهبية كتاب « العباب الزاخر » لإمام اللغة والحديث والمصنف الشهير في القرن الثالث عشر الميلادي حسن محمد الصغاني ، وكتاب « كنز العمال » للمحدِّث الكبير في القرن السادس عشر الميلادي الشيخ علي بن حسام الدين المتقي البرهان الغوري الغجراتي ، وكتاب « مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار » وكتاب « تذكرة الموضوعات » للعلامة محمد طاهر الفتني (م ٩٨٦هـ) .

لا يخفى على ذوي العلم والبصيرة مدى أهمية المصطلحات العلمية ، والفنِّية في العلوم والفنون ، وفداحة الضَّرر العلمي ، والخسارة التشريحية التي يتسبَّب إليها قلة العلم بها ، وعدم الرسوخ فيها ، والجهل عن مواقع استعمالها ومدى صعوبة ودقة تفسير وتوضيح المصطلحات بالنسبة لمن لم يكن له رسوخٌ تامٌّ فيها ، واطِّلاعٌ واسعٌ على الفروق الدقيقة فيما بينها ، ربما تفوِّت زلَّةٌ تافهةٌ في هذا الميدان الشائك سائر المقاصد والأغراض ، وفي هذا الفنِّ الدقيق المعضل لا يعتبر سنداً ومرجعاً موثوقاً به إلا كتابان فقط ، وهما : « كشاف اصطلاحات الفنون » لمحمد أعلى التهانوي ، و« جامع العلوم » لعبد النبي الأحمد النجري ، ويعرف هو الآخر بـ« دستور العلماء » أيضاً ، إنَّ هذين

الكتابين الجليلين اللذين يدلَّان على رسوخ صاحبيهما علماً ونظراً ، واطلاعاً واسعاً ينتمي مؤلفاهما إلى الهند . وليس بخافٍ على الخبير أنَّ من الأعمال الجريئة التي تتطلب همَّة عاليةً ، وعزماً محكماً أن يتولى مسؤولية التحقيق ، والتدوين ، والتصنيف على لغةٍ أجنبيةٍ وفروعها المختلفة شخصٌ ولد ، ونشأ ، وترعرع ، وتعلَّم بعيداً عن وطنها وعن مراكزها ، يستحقُّ تاريخ الهند الإسلامي أن يفتخر بأنَّ صفحاته لا تخلو من أمثال هؤلاء الأبطال الشجعان ، والفوارس المغامرين ، وأخصُّ بالذكر منهم العلامة الشريف السيد مرتضى البلجرامي المعروف بـ « الزبيدي » (م ١٢٠٥ هـ) الذي ألَّف « تاج العروس في شرح القاموس » في عشر مجلدات كبار ، ويبلغ مجموع صفحاته حوالي خمسة آلاف صفحة بالحروف الحديدية المصرية الدقيقة ، وأخيراً قد طبع في الكويت بإضافات وتحقيق في عشرين مجلداً ، ويشكل هذا السفر العظيم مكتبةً مستقلة .

إنَّ تأليف رجل هندي في موضوع اللغة العربية تعتبر جراءة علميةً كبيرةً من غير شكٍّ ، أضف إلى ذلك شرح القاموس باسم « القاموس المحيط » الحائز على الثقة والمرجعية لإمام اللغة العلامة مجد الدين الفيروز آبادي ، وإكماله ، والزيادة فيه ، وتصحيحه ، وإنْ دلَّ ذلك على شيءٍ فإنَّه يدلُّ على تبحُّر علمه ، ورسوخه ، وبراعته النادرة في فن اللغة ، وجراءته القوية ، واعتماده على أصالة مطالعته ، ودراساته الواسعة العميقة ، وفي حياة المؤلف نفسه طار صيت هذا القاموس في مشارق الأرض ومغاربها ، حتى حصل سلطان تركية على نسخةٍ منه ، تَمَّ نقلها بأمره ، ولم يتخلف عنه السلطان دارفور وسلطان مراكش في الحصول عليه ، كما حصل قائد مصر العسكري الشهير المحب للعلم رئيس محمد بك أبو الذهب على نسخةٍ منه بألف ريال لمكتبة المسجد الذي بناه بقرب من جامع الأزهر .

وإنني إذا لم أذكر بعد هذه الكتب الأدبية والفنية الكتابين اللذين ألفهما مفخرة الهند بل مفخرة العصر في النصف الأخير من القرن الثاني عشر الهجري ، وهو حكيم الإسلام الإمام ولي الله الدَّهلوي (م ١١٧٦هـ) ، وهما : « حجة الله البالغة » على بيان أسرار وحكم الشريعة ، وعرضها

منسجمةً بعضها مع بعضٍ كامل الانسجام ، وعلى مقاصد وفرائض الإسلام ، و « إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء » على ضرورة وأهمية الخلافة ، وإثبات خلافة الخلفاء الراشدين ، ومكرماتهم ، ومننهم ، وعلى مكانة الخلافة في الإسلام ، وعلى حدِّ الخلافة الجامع المانع ، إذا لم أذكر هذين الكتابين فإنِّي سأكون مقصِّراً في البحث والتحقيق وجانياً على العلم والتاريخ .

ولكن مع كل ما تتميَّز به الهند من مزايا الزعامة في العلوم العربية والإسلامية ، وفي مجال التحقيق والتصنيف ، لم يذكر المؤرخون وأصحاب التراجم والسير العرب من أصحاب العلم والفضل وذوي البحث والتحقيق النُّبهاء ، وذوي الخطر ممن خدموا الدين والعلم في الهند ، إلا عدداً ضئيلاً ، وما ذلك إلا لبعد الديار ، وحيلولة البحار ، وانقطاع الأخبار ، واختلاف اللغة .

لذلك نرى المؤلفين كالحافظ ابن حجر في الدرر الكامنة ، والسَّخاوي في الضوء اللامع ، والشوكاني في البدر الطالع ، والحضرمي في النور السَّافر ، والمحبِّي في خلاصة الأثر ، والمرادي في سلك الدُّرر لم يترجموا إلا للقليل النادر ممن هاجروا إلى بلاد العرب ، وتوطَّنوا الحجاز ، أو طالت إقامتهم في الأقطار العربية ، استقصى السَّخاوي في كتابه « الضوء اللامع » وأوعب وقال : إنَّه ذكر كل من يستحقُّ التعريف : « مصرياً ، أو شامياً ، حجازياً أو يمنياً ، رومياً أو هندياً ، مشرقياً أو مغربياً »[1] .

وهذا هو القاضي محمد بن علي الشوكاني (م ١٢٥٠هـ) قد ترجم في كتابه : « البدر الطالع لمحاسن من بعد القرن السابع » خمسةً وتسعين وخمسمئة شخصاً ، ولم يترجم من أعيان الهند إلا سبعةً فقط ، وهذا المحبِّي مع سعة اطلاعه لم يترجم من أبناء الهند إلا أربعة عشر رجلاً ، ولم يسعد من أعيان الهند بالتعريف في كتاب : « سلك الدرر » للمرادي إلا سبعةٌ من أعيان القرن الثاني عشر .

---

(١) المقدمة للسَّخاوي .

ويدلُّ على ذلك دلالةً واضحةً أنَّ العلماء الذين ألَّفوا الكتب في الطبقات ، وتراجم الرجال في بلاد العرب على حسب القرون ، لم يذكروا أعيان الهند ، وعلماءها ، ونوابغ رجالها إلا تحلَّةً للقسم .

وقد كان موضوع الطبقات ، وتراجم الرجال موضوعاً أثيراً طرقه علماء المسلمين ، والمؤلفون في الهند في كلِّ عصرٍ وجيل ، وكان ذلك شيئاً طبيعياً ، وكانت الدواعي إليه كثيرةً ، وقد تخصَّص عددٌ من المؤلفين الكبار لهذا الموضوع . ولنظرةٌ عجلى في قسم الطبقات ، وسير الرجال في « الثقافة الإسلامية في الهند » للعلاَّمة الشريف السيد عبد الحي الحسني رحمه الله كفيلةٌ بالاطلاع على المكتبة الضخمة التي خلفها العلماء والمؤلفون في الهند ، ولكن جلُّها ، أو كلُّها في اللغة الفارسية ، ثم إنَّها موجزةٌ مقصورةٌ على عددٍ قليل من الشخصيات ، ثمَّ إنَّها لا تحيط بالهند إحاطةً مكانيةً ، أو إحاطةً زمانيةً ، وبعضها لا تحتوي على قرنين ، أو ثلاثة قرون ، ثمَّ إنَّ بعضها لا تشتمل إلا على تراجم طبقةٍ واحدةٍ أو مذهبٍ خاصٍّ ، أو فرقةٍ من فرق المسلمين ، أو تسيطر على مؤلفيها نزعةٌ خاصَّةٌ أو اتِّجاهٌ خاصٌّ .

وقد كانت الحاجة ماسةً إلى أن ينهض لسد هذه الثغرة في تاريخ الثقافة الإسلامية بصفةٍ عامَّةٍ ، وفي تاريخ الهند بصفةٍ خاصَّةٍ رجل رزق علو الهمَّة ، وسعة النظر ، ورحابة الصَّدر ، وتنوُّع الثقافة ، ودقَّة الملاحظة ، وسعة الأناة ، وتمكنه الظروف الخاصَّة من الاتصال بمختلف الطبقات ، والفرق ، والمذاهب ، والآراء ، والاطلاع على المراجع الكثيرة في اللغات المتنوعة ، والعصور المختلفة ، والإفادة منها ، ويتخيَّر لهذا العمل الجليل ولتعريف العالم الإسلامي بالهند اللغة العربية ؛ التي هي لغة التفاهم العالمية[1] .

ولم يكن عدم الاطِّلاع على شغف الهند ، وولوعها بالعلوم الإسلاميَّة ، وخدماتها ، ورجالاتها الفذَّة ، وإنجازاتها ، وأعمالها التأليفية ، وجهودها الدَّعويَّة الإصلاحية ، والتجديدية وتضحياتها للوطن بمثابة تقليلٍ من شأن

(١) من مقدمة نزهة الخواطر ، بقلم كاتب هذه السطور .

العهد الإسلاميِّ ، ونكرانٍ للجميل فحسب ، بل كان ذلك حائلاً دون معرفة صلاحية وقوة دين الإسلام والدَّعوة الإسلامية لإنجاب ، وصنع الرجال ، وتحويل التراب ذهباً ، وإنعاش الروح في الشعوب الميتة ، وميزة حبه للوطن .

فانطلاقاً من هذا الشعور والإحساس وحرصاً على خدمة من خدموا العلم والدِّين قام العلاَّمة الشريف السيد عبد الحي الحسني رحمه الله ، وتوفَّر على دراسة هذا الموضوع الواسع ، ووقف عليه حياته ، ووُفِّق لوضع كتابٍ كبيرٍ تنوء به عصبةٌ من العلماء ، أو مجمعٌ علميٌّ في ثمانية أجزاء ، لخَّص فيها ، واقتبس من ثلاثمئة كتاب في العربية ، والفارسية ، والأردية ما بين خطِّيٍّ ومطبوع ، قد ذكر أسماءها وأسماء مؤلفيها في فهرست مصادر الكتاب مفرداً ، واستقصى ، وتوسَّع في ذكر النابهين ، وذوي الشأن من أبناء الهند ، ولم يغادر صغيراً ولا كبيراً اطَّلع عليه إلا أحصاه في كتابه ، حتى أصبح الكتاب يحتوي على ترجمة أكثر من أربعة آلاف وخمسمئة ونيّف .

وقد توفرت في المؤلف صفاتٌ تؤهِّله للقيام بهذا العمل الجليل والتأليف في هذا الفنِّ الخطير ، كان نشأ على الاطلاع والجمع ، وقد كان ذلك ذوقاً توارثه من أبيه ، وكان له في هذا الموضوع هوًى من الصبا ، كما كان مشاركاً في جميع العلوم السائدة في عصر المترجمين والسَّلف من علماء الهند ، وكانت له بصيرةٌ نافذةٌ في العلوم العقلية والنقلية ، كان ذا مواهب في التاريخ ، قد رزقه الله صفاء الحسِّ وثقوب النظر وحسن الملاحظة ودقتها .

يمتاز هذا الكتاب من بين كتب التاريخ والسير والتراجم التي ألفت في داخل الهند وخارجها بتحقيقه ، وغزارة مادته ، واتِّزانه ، واعتداله في التنقيد والتقريظ ، وسعة نظره بسعة قلبه ، لا يتحيز إلى فئةٍ في التاريخ ، ولا يتعصَّب على جماعة ، بل يؤدي الأمانات إلى أهلها ، ويأتي بالشهادة على وجهها ، والاعتراف بما لبعضٍ على بعض من فضل ، والحقيقة أنَّ المؤلف قد صبَّ في هذا الكتاب مواهبه وسجاياه ، فجاء قطعةً من نفسه ، ونسخةً من روحه ، صفاء حسن ورقَّة شعور ، واندفاعاً إلى الجمال والكمال أينما وجدا ، واعترافاً

بالفضل أينما حلَّ واستقرَّ ، واقتصاداً في المدح والنقد ، وتنبيهاً لمواضع الضعف ، ومما لا يخلو منه بشر ، وعذوبة عبارة ، وخفة روح ، وتنوع مادَّة ، فأصبح الكتاب لا يملُّ ، ولا يستثقل ، وأصبح سميراً عزيزاً ، ونديماً فكهاً ، وموعظةً وذكرى ، ودرساً وعبرة .

وهو مبدوءٌ من تذكرة الصحابة والتابعين ، والغزاة والمجاهدين ؛ الذين أسعدوا الهند بقدومهم الميمون في القرن الإسلامي الأول ، ومختومٌ بترجمة أعيان نصف القرن الرابع عشر الهجري في الهند ، ولعلَّ الهند هي القطر الإسلاميُّ الوحيد البعيد ؛ التي سجلت تراجم أعيانه من القرن الأول الإسلاميِّ إلى القرن المعاصر في كتابٍ واحدٍ ، فهنالك أقطارٌ إسلاميَّةٌ قد مثلت دوراً خطيراً في تاريخ الفكر الإسلامي ، وفي تاريخ العلوم الإسلاميَّة ، ونبغ فيها من العلماء والعظماء الذين لا يحصون بحدٍّ وعدٍّ ، كبخارى ، وسمرقند ، وأفغانستان ، وإيران ، وغيرها ، لم يكتب تاريخ رجالها ، ولم تدوَّن تراجم أبنائها بهذا التسلسل والتحقيق .

وفي هذه المناسبة أرى من الواجب أن أقدم النتيجة مع الاعتذار التي حصلت باستعراض علمي بإنصافٍ وعدم انحياز لسلسلة التراجم والطبقات والسير في العالم العربي والإسلاميِّ الطويلة الممتدَّة في القرون والأجيال ، المحتوية للعصور والأزمان أنَّ كتب التراجم والسير التي ألفت في الأقطار الإسلامية الرئيسية الغنية برجالها وأعمالها ، إمَّا هي خاصَّةٌ بقرن كالدُّرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة لابن حجر ، والضوء اللامع في رجال القرن التاسع للسَّخاوي ، والنور السافر في رجال القرن العاشر للحضرمي ، وخلاصة الأثر في رجال القرن الحادي عشر للمحبِّي ، وسلك الدُّرر في رجال القرن الثاني عشر للمرادي ، والبدر الطَّالع لمحاسن من بعد القرن السابع للشَّوكاني ، أو مقصورةٌ على طبقةٍ من طبقات الفضلاء ، وأهل الكمال ، كطبقات الأطباء ، وطبقات النُّحاة ، أو الأدباء ، أو مقصورةٌ على مذهب من المذاهب الفقهية المقبولة ، كطبقات الشافعية الكبرى ، وطبقات الحنابلة ، وغيرها .

أمَّا أن يكون الكتاب يغطي المساحة الزمنية من القرن الإسلامي الأول إلى

قرن المؤلف ، والمساحة المكانية من شرق البلاد إلى غربها ، ومن شمالها إلى جنوبها ، ويشمل طبقات أهل الفضل ، وأعلام كلِّ فنٍّ ، فلا توجد لذلك أمثلة ونماذج في أكثر الأقطار الإسلامية العربية .

أما نزهة الخواطر فهو يغطِّي المساحة الزمانية من القرن الإسلامي الأول إلى سنة وفاة المؤلف ، والمساحة المكانية من ممرِّ خيبر إلى خليج بنغال ، ومن قلل كشمير في الشمال إلى أقصى جنوب الهند ، ويشمل طبقات أهل الفضل والنباهة على اختلاف مزاياهم ، ومجالات فضلهم ، ونبوغهم ، ومذاهبهم ، واتجاهاتهم ، كما يتحقَّق ذلك القارىء عند الاطلاع على هذا الكتاب ، وفحصه عن عَلَمٍ من الأعلام في أيِّ فنٍّ من الفنون ومجالات النبوغ والإنتاج .

إنَّ تأليف الجزء الثامن الأخير من الكتاب كان أكثر صعوبةً ودقَّةً ، فإنَّه يختصُّ بأعيان وأعلام الهند المعاصرين ، إنَّ التمسُّك بالاعتدال والتوازن في التنقيد ، والاعتراف بالفضل والخدمات في الشخصيات المعاصرة عملٌ صعبٌ ، ودقيقٌ جداً ، ولكن المؤلف رحمه الله قد قطع هذه العقبة بأمنٍ وسلامٍ .

من أجل هذه الميزات والخصائص يندر نظيره في مكتبة التراجم ، والطبقات ، والسير ، وهو تحفةٌ علميَّة تاريخيَّةٌ غاليةٌ للمحقِّقين ، والباحثين ، والمشتغلين بتاريخ الهند الإسلاميِّ ، وباقةٌ جميلةٌ للمعلومات ، ووصفٌ صادق لأهل الفضل والكمال .

ومأثرةٌ علميَّةٌ أخرى للعلاَّمة عبد الحي الحسني كتابه « معارف العوارف في أنواع العلوم والمعارف » الذي قام بطبعه ونشره باسم « الثقافة الإسلامية في الهند » سنة ١٩٥٨م المجمع العلمي العربي سابقاً ومجمع اللغة العربية حالياً بدمشق ، وصدرت له طبعتان حتى الآن ، في أوله مقدِّمةٌ جليلةٌ ، بحث فيها عن مناهج التعليم في هذه البلاد ، وما حدث فيها من تغييرٍ في كلِّ عصرٍ منذ فتح المسلمون الهند إلى عهد المؤلف ، ثم تكلَّم على الفنون ، كالصَّرف ، والنَّحو ، واللغة ، والبلاغة ، والعروض ، والشِّعر ، والإنشاء ، والتاريخ ،

والجغرافية ، والفقه ، والحديث ، وأصولهما ، والتفسير ، وأصوله ، والتصوُّف ، والأخلاق ، والكلام ، والمناظرة ، والمنطق ، والطبيعيات ، والرياضة ، والطبِّ ، فذكر تاريخ كلِّ فنٍّ مطلقاً ، ثم ذكر تاريخ الفنِّ في الهند ، ثم ذكر ما وضع فيها علماء الهند من الكتب ، ومن برع فيها منهم . وهو كتابٌ جليلٌ غزير المادة في هذا الموضوع ، وخلاصة دراساتٍ طويلةٍ واسعةٍ دقيقةٍ .

وللمؤلف كتابٌ ثالثٌ قيِّم في العربية باسم « جنةُ المشرق ، ومطلع النور المشرق » إنَّه في الحقيقة عصارةُ دراساته الطويلة الواسعة في حياته كلِّها ، وتتجلَّى فيه صورة العهد الإسلاميِّ في الهند بكلِّ جلالها ، وجمالها ، وبنظرةٍ واحدةٍ تتمثَّل لك جميع مآثر الملوك المسلمين ، وأهل الفنِّ ، والصناعة الحضارية ، والبنائية ، والإداريَّة ، كما يطلعك الكتاب على جغرافية الهند ، وموقعها من الأرض ، وجبالها ، وأنهارها ، وهوائها ، وحاصلاتها ، وأشجارها ، ونوادرها ، وحرف أهلها ، وحيواناتها ، ومعادنها ، وأجناسها ، وأديانها ، وصناعاتها ، ولغاتها ، حتَّى عقاقير البلاد ، والفواكه التي لا توجد في غير هذه البلاد ، يحتوي الكتاب على ثلاثة فنون : الفن الأول : وفيه مقدمةٌ وأربعة أبواب : الباب الأول في جغرافية الهند ، والباب الثاني في ذكر أقطاع الهند المشهورة ، والباب الثالث في أشهر مدن الهند وقراها ، والباب الرابع في تقسيم أرض الهند على الولايات ، والفن الثاني : في أخبار ملوك الهند ، وفيه أربعة أبواب ، الباب الأول في ظهور الإسلام في أرض الهند ، وذكر ولاتها من بدء الإسلام إلى آخر الدولة العباسية ، الباب الثاني في ذكر استيلاء الملوك الغزنوية والغارة على الهند ، والباب الثالث فيمن ملكوا الهند ، وكانوا يسكنون دلهي ، والباب الرابع في فصولٍ مهمَّةٍ تتعلَّق بتاريخ الهند .

الفن الثالث : وهو أهم الثلاثة في الخطط والآثار ، وفيه ثلاثة أبواب ، الباب الأول في خطط الملوك وعوائدهم في السلطنة ، وفيه فصول عديدة في ذكر خطَّة الملوك في الأحكام السياسية ، وفي ذكر العساكر ، وترتيبها ، ونظامها ، وفي ذكر المناصب ، وأهلها ، وفي نظام المملكة ، وعوائدهم في

تحصيل المالية ، وفي عوائد الملوك في العدل والقضاء ، وفي ذكر دور سلاطين الهند وجلوسهم للناس ، وفي ذكر خروج السلطان إلى بلاده ، وفي ذكر آداب التحية بين أيدي الملوك ، بحثَ عن هذه الأموز ، وذكر ما حدث فيها من التغيير في كلٍّ عهدٍ .

الباب الثاني في فصولٍ مهمَّةٍ لا بدَّ من استحضارها عند النظر في أخبار الهند ، وفيه عدَّة فصولٍ في ذكر السنين ، والشهور ، والسَّاعات ، والنقود ، والموازين ، وأصناف الأرض ، والعشر ، والخراج ، وغيرها في كلٍّ عصر .

الباب الثالث في الأمور النافعة لأهل الهند ، وذكر فيها مآثرهم من الشوارع العامَّة ، والبريد ، والحياض ، والأنهار ، والحدائق ، والبساتين ، والجوامع ، والمساجد ، والمدارس ، والمستشفيات ، والمقابر العظيمة ، والحسينيات ، وذكر نوادر ما وضعوه .

وهذا القسم من الكتاب لم يسبق إليه ، وبه يُعرف حظُّ المسلمين في منارة الهند وحضارتهم ، ومعاشرة ملوكهم ، وسياستهم ، وقد استقصى المؤلف التغييرات التي حدثت في كلٍّ عهد .

وهذا الكتاب في الواقع حلقةٌ هامَّةٌ من سلسلة الكتب التي ألفت في مختلف البلاد باسم « خطط » كـ « خطط مصر » للمقريزي ، و « خطط الشام » لكرد علي .

وطبع ونشر هذا الكتاب من دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد باسم الهند في العهد الإسلامي وترجمته بالأردية بقلم الأستاذ أبي العرفان خان الندوي رحمه الله ، قد طبعت ونشرت من مجمع العلامة شبلي النعماني بأعظم كره (الهند) سنة ١٩٦٩ م ، وصدرت لها طبعة ثانية من المجمع العلمي الإسلامي لكهنؤ (الهند) ونقل الكتاب إلى لغاتٍ أخرى أيضاً .

وأخيراً ـ لا آخراً ـ أذكر من مصنفاته الأردية كتابين هامَّين فحسب ، وهما : « كل رعنا » مصنفٌ جليلٌ في تاريخ شعر أردو وشعرائه ، في أول الكتاب مقدمةٌ جليلةٌ ، بحث فيها عن تاريخ أردو ، ثم تكلَّم على كلٍّ عصرٍ وشعرائه مع نبذةٍ من شعرهم ، وطرفٍ صالحٍ من حياتهم ، وكان المؤلف ناقداً

بصيراً ، قلَّما يوجد نظيره في هذا الباب ، وتلقَّى هذا الكتاب علماء هذا الشأن بالقبول ، وصدرت له طبعاتٌ كثيرة .

و « ياد أيام » من خيرة كتبه في أخبار ولاية غجرات (الهند) ، وهي أول ما وطئه المسلمون من أرض الهند ، ضمَّنه تاريخ هذه البلاد السياسيَّ ، والمدنيَّ ، والعلميَّ ، ذكر فيه العلماء ، والمشايخ ، والملوك ، والوزراء ، والقضاة ، وما ظهر على أيديهم من رقيِّ المدنية ، والصناعة ، والعلم ، وما إلى ذلك . . « ربما يقوم شخصٌ واحدٌ في الشرق وآسيا بما تقوم به الأكاديمية في الغرب وأوربة » .

ينطبق هذا المقول على العلامة السيد عبد الحيّ الحسني كامل الانطباق ؛ نظراً إلى مآثره العلمية ، والتاريخية ، والموسوعية ، فإنَّها تشكل مكتبة قيِّمةً عظيمةً كيفاً ، ولو كانت صغيرة كمّاً ، فهي نتيجة لدراساته ومطالعته وولوعه وهيامه العلمي وحده ، وحرصه الشديد على خدمة الدين والعلم والوطن ولم يكن له مساعد وزميل في عمله التصنيفي التأليفي ، ولم يتجاوز عمره ٥٤ عاماً ، ثم كانت له أشغال أخرى أيضاً من معالجةِ ، ومداواةِ المرضى ، فإنه كان طبيباً حاذقاً ، ومسؤوليات إدارة حركة تعليمية وإصلاحية كبيرة ، هي ندوة العلماء .

وبالنظر إلى هذه الحقائق والمعلومات وبالاستعراض لمصنفات العلامة عبد الحي الحسني القيمة التي لا تخرج مآثر عنصرٍ واحدٍ وفعالياته ونشاطاته العلمية والتأليفية والإبداعية إلى النور فحسب ، بل تقوم البلاد مرفوعة الرأس أيضاً في العالم العلمي أيضاً ، فإنَّه يدلُّ إلى حدٍّ على قوة إنجاب وصنع الرجال وعلى الحرية لكل عنصرٍ وطبقةٍ في التعبير عن آرائها واستخدام كفاءاتها ومؤهلاتها ، وعرض فنها ، وصناعتها ، ويدلُّ على وجود جوٍّ علميٍّ وتحقيقيٍّ وأدبيٍّ ، وتوافر أسباب التعليم ووسائل الإنتاج العلميِّ ، والأدبيِّ ، والفنيِّ ، وذلك يكفي فخراً واعتزازاً لأيِّ بلادٍ حرةٍ كريمةٍ ، بناءً على ذلك فإنَّ عقد مثل هذه الندوات والمجالس العلمية التي يساهم فيها المحققون والأدباء من مختلف المذاهب والفرق ليس في موضعه ومكانه فحسب ، بل هو علامة أيضاً

لسعة النظر ورحابة الصدر علمياً ، وأدبياً ، وتحقيقاً ، لأجل ذلك أرى واجباً عليَّ ، وإنِّي أنتمي إلى هذه الشخصية العظيمة الفذة نسباً وأسرةً ومطالعةً واستفادةً معاً ، أن أتقدَّم إلى دعاة هذه الندوة العلمية الموقرة ، والمنظمين لها ، وأهل العلم المساهمين فيها بالشكر والتقدير .

* * *

الداعية الكبير
الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي
منشىء جماعة التبليغ والدّعوة

رجل نحيل نحيف تشف عيناه عن ذكاء مفْرِط وهمَّة عالية ، على وجهه مخايل الهمِّ والتفكير ، والجهد الشديد ، ليس بمفوَّهٍ ولا خطيب ، بل يتلعثم في بعض الأحيان ، ويضيق صدره ، ولا ينطلق لسانه ، ولكنه كله روح ونشاط ، وحماس ويقين ، لا يسأم ولا يمل من العمل ، ولا يعتريه الفتور ولا الكسل ، رأيته في حالةٍ عجيبة من التألم والتوجع ، والقلق الدائم ، كأنه على حسك السعدان ، يتململ تململ السليم ، ويتنفس الصعداء ، لما يرى من حوله من الغفلة عن مقصد الحياة ، وعن غاية هذا السفَر العظيم ، رافقته في السفَر والحضَر ، فرأيتُ نواحي من الحياة لم تنكشف لي من قبل ، فمن أغرب ما رأيت : يقينُه الذي استطعت به أن أفهم يقينَ الصحابة ، فكان يؤمن بما جاءت به الرسل إيماناً يختلف عن إيماننا اختلافاً واضحاً كاختلاف الصورة والحقيقة ، إيماناً بحقائق الإسلام أشد وأرسخ من إيماننا بالماديات وبتجارب حياتنا ، فكان كل شيء صحَّ في الشرائع وثبت من الكتاب والسنة حقيقة لا يشك فيها ، وكأنه يرى الجنة والنار رأي عين .

ولد في الهند سنة (١٣٠٣ هـ) ، في أسرةٍ عريقة في الدين والعلم ، والدعوة إلى الله ، والتمسك بعقيدة التوحيد الخالصة .

وكان لسلف الشيخ محمد إلياس دورٌ في تاريخ الإصلاح الديني ، ومساهمة فَعَّالة في حركة الجهاد ، والدعوة إلى الدين الخالص ، التي قادها الإمامان : السيد أحمد الشهيد ، والشيخ محمد إسماعيل الشهيد[١] ، وتَتَلْمَذَ

---

(١) ليراجع للتفصيل كتاب « إذا هبت ريح الإيمان » للكاتب ، طبع دار ابن كثير .

رجال هذه الأسرة على مسند الهند وإمام الحديث فيها العلاَّمة الشيخ عبد العزيز ابن الإمام أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي ، صاحب « حجة الله البالغة » ، ومسند الهند العلامة الشيخ محمد إسحاق بن محمد أفضل العمري . حفظ القرآن في صباه ، وكان تحفيظ القرآن عرفاً مُتَّبعاً في الأسرة .

جُبِلَ على الحميَّة الدينية ، وقرأ على أخيه الشيخ محمد يحيى ، ثم درس في مدرسة « مظاهر العلوم سهارن فور » وارتحل في سنة ١٣٢٦هـ إلى ديوبند ، وحضر دروس الشيخ محمود حسن المعروف بشيخ الهند ، رئيس هيئة التدريس وشيخ الحديث بدار العلوم « ديوبند » ، في جامع الترمذي ، وصحيح البخاري ، وأتم دراسة الحديث ، وقرأ بقية الكتب الستة على أخيه الشيخ محمد يحيى .

وكان كثيرَ العبادة ، مشغولاً بخاصة نفسه ، وكان موضع احترام بين المشايخ والعلماء يعتبرون بتقواه وورعه ، والإنابة إلى الله ، واشتغل مدرساً مدة في مدرسة « مظاهر العلوم » بمدينة « سهارن فور » التي تمتاز بالاعتناء الزائد بعلم الحديث ، وتخريج الدعاة إلى الله ، والقائمين بالدعوة الدينية الشعبية ، والمشتغلين بتدريس الحديث الشريف والإفتاء ، وتأسيس المدارس والكتاتيب .

وكان أبوه محمد إسماعيل ، ثم أخوه الشيخ محمد ، قائمين بالدعوة إلى الله ، وتعليم أطفال المسلمين ، وتثقيف الطالبين الأميين ، في مسجد في جنوب « دِهْلي » وكان أكثر هؤلآء الأطفال وطلاَّب الدين من « ميوات » التي كانت تغلب عليها الأمية ، والبعد عن الحضارة ، والخضوع للعادات والتقاليد الهندكية ، فلم تحظ بعناية الدعاة المسلمين والمعلمين والمربين من قرون عديدة ، وكان هذا المسجد وهذه المنطقة التي أقام بها والده وأخوه مدخل هذه الولاية العظيمة التي كانت لا تزال على بداوتها وسذاجتها .

وبعد وفاة الشيخين ـ الوالد والأخ الكبير ـ انتقل الشيخ محمد إلياس إلى هذا المركز الديني والتعليمي ، الذي كان يعتمد على روح التطوع والاحتساب ، فكان نقطة تحول في حياته ، ومنطلقاً لدعوته ، التي شَرَّقت

وغَرَّبت بعد وفاته ، وعُرِفَت بحركة الدعوة وجماعة التبليغ .

وقد كان ذلك الزمن زمن نشاط حركة الردة ، والعودة إلى دين الآباء الوثني البرهمي ، وكان أكبر مراكز نشاط هذه الدعوة المناطق التي يسكنها المسلمون الذي يقال عنهم إنهم أسلموا أيام الحكومات الإسلامية ، وإنهم ينتمون إلى أسر وبيوتات هندكية قديمة ، وقد آن الأوان ـ في الحكومة الإنجليزية التي تمنح لكل فرد وجماعة حرية الاعتناق لأي ديانة تريدها ، والعودة إلى ماضيها السحيق ، وتشجيع كل حركة تضعف المسلمين الذين انتزعت منهم الحكم ، وورثتها البلاد ، ولا تأمنهم في المستقبل ـ أن يرجعوا إلى دينهم القديم ، ونشطت هذه الدعوة في المناطق التي يمعن سكانها المسلمون في الجهالة ، والتمسك بالحضارة الهندكية ، ومشاركة مواطنيهم في كثير من العقائد والعادات والأعراف ، وقد ارتد فعلاً كثيرٌ من القبائل المسلمة المنحدرة من الأصول الهندوكية عن الإسلام ، وعادوا إلى دين آبائهم على زعمهم .

أفزع ذلك الشيخ محمد إلياس الذي رزقه الله من الحميَّة الدينية والغيرة على الإسلام ، النصيب الأوفر ، وطيَّر نومه ، وكَدَّرَ صفوَ حياته ، وشغل باله ، وأفزعه كذلك بقاء هذه المنطقة العريضة الواسعة ، ذات المواهب والطاقات ، والبساطة والتقشف في الحياة ، على جهلها المطْبِق ، وأميتها الفاشية ، والخضوع للتأثيرات الهندكية ، وتناسي العلماء والدعاة والمصلحين ، لهذه الولاية المغمورة المجهولة تقريباً ، الوضع الذي يهدد بكل خطر ، ويغري كلَّ طامعٍ وطامح من دعاة الإفساد ، والردة العقائدية ، والوثنية الجاهلية ، بالهجوم عليهم ، وافتراسهم ، فأقبل أولًا على الجولات التي كان هدفها الدعوة والوعظ والإرشاد ، ثم على إنشاء الكتاتيب وبثِّها في القرى والأرياف ، وعيَّن فيها مدرسين وأساتذة ، كان ينفق عليهم من جيبه ، ومن إعانة أصدقائه المخلصين ، وقد نفع ذلك بعض النفع ، ولكنه توصَّل إلى نتيجة أن الخطْبَ أعظم من ذلك وأوسع ، وأن ما هم فيه من جهل وفقر ، واشتغال بالفلاحة والزرع ، يمنعهم من الانتفاع بهذه الكتاتيب والمدارس ، وتفريغ أولادهم الذين يعتمدون عليهم في رعي

الماشية وحراسة (الزرع) للدراسة فيها وأن شأن المدعو غير شأن الداعي .

وإضافةً إلى تجربته العملية ، ونتائجه التي توصَّل إليها في المجهود الذي بذله في « ميوات » لحماية هذه المنطقة من خطر الردة ، ووقوعها فريسة في براثن دعاة الإفساد والإلحاد والارتداد ، والمجهود الذي بذله في نشر الدين ، والحث على تعلمه ، والتمسك به ، راعَ الشيخ محمد إلياس ما أصاب المسلمين ـ في العالم الإسلامي بصفةٍ عامة ، وشبه القارة الهندية بصفة خاصة ـ من الضعف والتدهْور في الإيمان والروح ، وجفاف منابع الشعور الديني في هذه المدة ، وما أثرت فيهم الحكومة الإنجليزية والحضارة الغربية ، والتعليم المدني ، وغفلة الدعاة والاشتغال الزائد بالحياة ، حتى صارت مدارس العلوم الشرعية ، ومراكز الحياة الإسلامية الدينية كجزر في بحر محيط ، وأصبحت تتأثر هي نفسها بمحيطها الثائر على الدين ، فاقتنع أخيراً بأن التعليم وحده لا يكفي ، والاعتزال لا مسوِّغَ له ولا مجال ، والانزواء والانطواء يزيدان في قرب الخطر ، فلا بد من الاتصال بطبقات الشعب ـ على اختلافها ـ مباشرة ، ولا بد من التقدّم إليها من غير انتظار ، لأنها لا تشعر بمرضها وفقرها في الدين ، وما في ذلك من خسارة وخطر ، وشقاء وحرمان ، وتعرض للمصائب في الدنيا ، وأهوال في الآخرة .

واقتنع كذلك بأن الواجب أن يبتدىء بغرس الإيمان في القلوب ، وتصحيح العقيدة ، وفهم مبادىء الإسلام ، والعمل بها ، ثم العلم بأركان الإسلام العملية الأربعة ـ الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ـ مع الإقبال على العلم والتعلم ، لما يحتاج إليه المسلم من عقائد وعبادات ومسائل ، هذا مع الاشتغال بذكر الله الذي يربط القلب بالله تعالى ، ويدفع عنه الشيطان ويقويه على مداومة هذا العمل .

وقد لاحظ الشيخ محمد إلياس بفراسته الإيمانية ، وإخلاصه للدعوة وتجاربه العملية ، أنَّ الدعوة إلى الله ، والقيام بحركة إصلاحية ، ينتقل سريعاً إلى أمور سلبية ، ونقد لاذع ، ويتحوّل ذلك سريعاً إلى إثارة الخلافات ، وإيجاد المشكلات ، وإهانة كثير من المسلمين الذين لا يكونون على مستوى هذا الداعي ـ المتخيَّل عنده ـ فيثير ذلك فتناً كثيرة ، وقد تنتقل هذه الدعوة

الإيجابية البنَّاءة ، السليمة الهادئة ، المجرَّدة عن الأغراض الدنيوية ، ومطامع الملك والسلطان ، إلى معسكرات خلافية ، أو منظّمات سياسية ، أو مخططات إرهابية ، فأضاف إلى أسس هذه الدعوة ـ التي شرحناها في إيجاز ـ حمايتين حكيمتين دقيقتين لهذه الدعوة البريئة ، الخالصة المخلصة لله ، وهما : إكرام المسلم ـ على علاته ومواضع ضعفه ، ومواضع نقده ـ نظراً إلى الركيزة الإيمانية المودعة في قلبه ، وإيمانِه بالله ورسوله ، وعدم تمرده عليها .

والثاني : عدم الاشتغال بما ليس بسبيل الداعي ، وما هو في عداد الأمور الجانبية أو الهامشية في حياة المسلم ، وترك ما لا يعنيه .

وقد كانا حِصْناً حصيناً وسياجاً متيناً لهذه الدعوة التي قد تقوم عمليتها في بيئات موبوءة يستغلها المغرضون لتحقيق أغراضهم ، ويتخذونها قنطرةً للوصول إلى كرسي الحكم ، وقد كان لهاتين الدعامتين فضلٌ كبير في صيانة هذه الدعوة في جو مكهرب بالسياسة والانتخابات ، وبالخصومات السياسية والحزبية في شبه القارة الهندية ، وفي بعض البلاد الإسلامية .

وقد اهتدى أخيراً إلى أنَّ هذه الدعوة لا تقوم على قدميها ، ولا تنتشر في العالم ، ولا تحقق المطلوب ، إلا إذا كان رجال متطوعون محتسبون ، لا يريدون عليها جزاءً ولا شكوراً ، ولا يعتمدون فيها على الإعانات والاكتتابات ، ومساعدة الحكومات ، والصندوق والميزانية ، وتجنيد الناس ، وتسجيل أسمائهم في دفاتر وسجلات ، وبثِّ الفروع المنظمة التابعة للمركز على غرار الجمعيات والمنظمات ، وأن تعيش بعيداً عن المجال السياسي ، والشعارات الاستفزازية ، واللافتات الجذّابة ، وتعتمد على الإخلاص ، وابتغاء رضوان الله ، والامتثال لأوامر الله ، والتقرب بكل ذلك إلى الله ، كما كان الشأن في العصر الإسلامي الأول .

وفي ضوء ما شرح الله له صدره ، وما اهتدى إليه عن طريق دراسته العميقة للكتاب والسنة والسيرة النبوية ، وأخبار الصحابة رضي الله عنهم ، وعن طريق تجربته العلمية وممارسته للدعوة ـ غير معتمد في ذلك على الخطابة والكتابة ، والذكاء المحض ـ فتح الله له الطريق إلى دعوة الناس إلى الخروج

في سبيل هذه الدعوة ، والاكتئاب بالمال ، وبدأ دعوته بمنطقة هي أحط المناطق الهندية خلقاً وثقافةً وحظاً ، وأبعدها عن الدين ، وأعظمها جهالةً وضلالةً ، وهي منطقة « ميوات » في جنوب دلهي ، عاصمة الهند ، والذين كان القتل عندهم أهون شيء ، وقد يقتلون الإنسان لأمرٍ تافه ودرهم زائف ، فدعا الناسَ فيها ـ كتجربة أولية ـ إلى انقطاع موقت عن أشغالهم ـ لا إلى انصراف عن الحياة والرهبنة ـ والخروج عن أوطانهم لمدةٍ محدودةٍ تقصر وتطول بحسب أوضاع المتطوع ، وحاجته وهمته ، لأنه عرف معرفة لا يرتقي إليها شك ، أن هؤلاء القرويين الفلاحين أو التجار المدنيين ، أو الموظفين المشغولين ، لا يتعلمون الدين ولو إلى درجة الضرورة ، وما لا بد منه للمسلم ، ولا يتغيّرون في الأخلاق والسلوك ، ولا يتركون عاداتهم الجاهلية إلا إذا خرجوا من هذا المحيط الفاسد ، الذي يعيشون فيه ، ومع أنه قد توفّرت فيه المدارس وكثرت فيه المناسبات الدينية ، إلا أنهم لم ينتفعوا بها في قليل أو كثير ، لتأثير المحيط الفاسد الذي أمسك بتلابيبهم ، ووقف حاجزاً بينهم وبين الانتفاع بالفرص المتاحة لهم .

وقد أثّرت هذه الدعوة التي أذاب فيها مهجته ، ووضع فيها مواهبه ، رغم ما كان فيها من مصاعب ، فقد قبل دعوته مئات وألوف من هذه المنطقة ، وخرجوا شهوراً وقطعوا مسافاتٍ بعيدة مما بين شرق الهند وغربها ، وشمالها وجنوبها ، ركباناً ومشاة ، فتغيَّرت أخلاقهم ، وتحسَّنت أحوالهم ، واشتعلت فيهم العواطف الدينية ، وانتشرت الدعوة في الهند وباكستان من غير نفقات باهظة ، ولا مساعداتٍ مالية ، أو نظم إدارية ، بل بطريقة بسيطة تشبه طريقة الدعوة في صدر الإسلام ، وتذكر بالدعاةِ المخلصين المجاهدين المؤمنين الذين كانوا يحملون في سبيل الدعوة والجهاد متاعَهم وزادَهم ، وينفقون على أنفسهم ، ويتحملون المشقة محتسبين متطوعين .

هذا مع استغناء تام عن مساعدات أو تيسيرات تقدَّم عادةً من الجهات الرسمية لجماعات نشيطة ، ذات نفوذ شعبي ، أو دعوات وحركات تتمتع بثقة الجماهير واحترامها . وقد توفي إلى رحمة الله تعالى في رجب عام ١٣٦٣هـ .

* * *

صلتي بمولانا حسين أحمد المدني

صفحةٌ من صفحات حياتي(١)

اخترت أن يكون موضوع هذا الحديث « صلتي بالشيخ ، وتعرفي به » ورجعت إلى ذاكرتي ، وتفقدت أول معرفتي بالشيخ ، وصلتي به ، فإذا بها ترجع إلى إحدى عشرة سنة في طيات الماضي ، مدة قطع الزمان فيها مراحل وطوى مني ما طوى من صحائف لا تنشر ، رجعت بي إلى زمان الشباب فيه غضٌّ طري ، وثوب العمر أبيض نقي ، أنا في العقد الثاني من عمري ، وعمر الزمان لم يستكمل الثلاثين بعد القرن التاسع عشر من الحساب المسيحي .

أتمَّ طلبة صفٌّ من صفوف دار العلوم لندوة العلماء مقدار الدرس المقرَّر في السَّنة للقرآن ، وأشار عليهم معلمهم يومئذٍ الأستاذ عبد الحليم الصدِّيقي أن يعقدوا حفلةَ سرورٍ ، وشكرٍ بمناسبة هذه النهاية المباركة ، ويدعو لتشريفها ، وإلقاء كلمة نصحٍ وإرشاد عليهم شيخ الحديث الأستاذ المدني . انعقدت الحفلة في قاعة المحاضرات في دار العلوم ، وشرَّفها الأستاذ ملبياً دعوتهم .

دخلت في القاعة ، وأتذكر أنِّي جلست بجنب الأستاذ مسعود عالم ، وكان يومئذٍ من كبار طلبة دار العلوم ، ولم نتعارف بعد تعارفاً تفصيلياً ، وإنَّ كلاًّ منا يشعر بميلٍ من نفسه إلى صاحبه ، ذلك الميل الذي أورق ، وأثمر بعدُ ، دعاني الأستاذ مسعود للجلوس معه ، وقد دخلت متأخراً فاستمعت لخطبة الشيخ ، وابتدرته أبصاري ، فإذا هو رجلٌ بهي الطلعة ، ناصع الجبين ، عليه سيما الصَّالحين ، رجل ملأ العين ، وملأ السمع ، ولا أحفظ من خطبته اليوم إلا انتقاده لزيادة قسط المنطق في منهاج الدرس القديم ، وتوغّل العلماء

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الأول ، المجلد الثالث ، عام ١٩٥٧م .

في هذا الفن ، وبخسهم لنصيب القرآن العظيم ، والحديث الشريف ، وكيف أدال الله بعد ذلك للقرآن والحديث من هذا الفنِّ الطارىء الشاغل من الدراسة والفكر مكاناً لا يستحقه ، ونالت هذه الكلمة من أستاذٍ كبيرٍ في معهدٍ كبيرٍ كدار العلوم ديوبند منا طلبة دار العلوم النَّدوية كلَّ إعجابٍ وتقديرٍ ، وحفظناها له .

كذلك تنبيه للطلبة إلى احترام القرآن ، واحترام الذين خدموه ، وأوصلوه إلينا ، ومعرفة حقِّهم ، وعرفان الجميل لهم ، وقوله : أتعلمون أنَّ الشيعة لماذا لا يتأتَّى لهم حفظ القرآن المجيد ؟ هل سمعتم بأحدٍ منهم جمع القرآن ، ويقرؤه عن ظهر الغيب ؟ كان الجواب المنتظر النفي ! قال الشيخ : لماذا ؟ لأنَّ الرافضة يسبُّون الذين جمعوا القرآن ، ونسخوه في المصاحف ، ونشروه في الآفاق : أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، فحرموا من بركات القرآن ، ولم يفتح لهم فيه ، أو كما قال .

هذه هي المرَّة الأولى تشرفت فيها بزيارة الشيخ ، وما كنت رأيته ـ كما أتذكر ـ من قبل هذا إلا خلسةً أو لفتةً ، ثم قدَّر الله أن يتخذ بيتنا منزلًا له في لكهنؤ في أسفاره ، وهي كثيرةٌ تكاد تكون مستمرةً ، وأمكن أن أجلس إليه طويلاً ، وأن أستمع له ، وأن أتحدَّث معه كثيراً ، وأن أبيت معه ليالي ذوات العدد ، وأن نجتمع على المائدة ، كان كلُّ ذلك ، ونحن أهل البيت مغتبطون مسرورون !

هذا الذي ذكرت من السعادة بفضل شرف بيتنا ، ومجد أسرتنا حضرة الدكتور السيد عبد العلي مدير ندوة العلماء ، فإنَّ له خصائص اكتسب بها ودَّ الشيخ ، والتفاته ، منها : أنَّ أخي من تلاميذ فقيد الإسلام شيخ الهند رحمه الله والمتخرجين من دار العلوم ديوبند ، مع ندويته وشهادته العالية في العلوم الإنكليزية .

ومنها : أنَّ لبيتنا « البيت الحسني » بفضل السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد أواصر وأرحاماً دينية تربطه مع أفراد الحزب الديني في كلِّ ناحيةٍ من نواحي الهند ، خصوصاً المنتسبين منهم إلى مدرسة شيخ الإسلام ولي الله

الدَّهلوي الدينية ، والعلمية ، ومنهم علماء ديوبند ، ومنها : أنَّ أبي رحمه الله مولانا السيد عبد الحي مدير ندوة العلماء سابقاً كان من أصدقاء شيخ الهند ، هذه الخصائص التاريخية كسبت لنا الشيخ ، وربحنا فيه ما ربحنا ، زد على ذلك أنَّ أخي ممَّن بايع الشيخ ، وليس من بايعه بالنَّادر ، ولكن زاد على ذلك إخلاص أخي ، وبساطة معيشته ، وعدم احتشامه ، والشيخ يحبُّ البساطة من المضيف ، ولا يحبُّها مع الضيف .

إذا عرفت أنَّ الشيخ ينزل عندنا ، ويقيم في بيتنا أياماً وليالي ، بل وأسابيع أيضاً (كأيام مسألة مدح الصحابة) وأنت تعلم كثرة أسفاره ، فلا تسأل عن حديثٍ يدور ، ومجالس تنعقد ، واجتماعٍ يحصل ، ولا تسأل عن سرورٍ ، وأنسٍ ، ولا تسأل عن بركةٍ ، وخيرٍ ، وعن البحر حدِّث ، ولا حرج !

تكلَّم أخي مرَّةً مع الشيخ بشأن ذهابي إلى ديوبند ، وإقامتي عنده ، فقبله الشيخ بأريحيته المعروفة ، وحفاوته النادرة .

سافرت إلى ديوبند وأنا ندوي ملء الإهاب ، شابٌّ في التاسعة عشر أو العشرين من عمره بعارضه نباتٌ قليل ، وفي جلده جسمٌ نحيل ، شابٌّ نشيطٌ خفيف الروح مع انحراف في الصحَّة ، له هوًى في العربية ، وشغفٌ بها ، استفاده من تعليم أستاذه الشيخ خليل بن محمد اليماني ، وصقلته صحبة الأستاذ الشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي ، وألقى عليه محيط الندوة العربي طلاوةً ، يكتب في « الضياء » في مجلة الندوة العربية الوحيدة في الهند ، وله إلمام قليلٌ بفنٍّ الحديث اكتسبه من دروس الأستاذ حيدر حسن خان شيخ الحديث بدار العلوم ندوة العلماء ، إلا أنَّ هذا الشاب غير متصلِّبٍ في المذهب الحنفي رغم جهود أستاذه ، ورغم هواه ، له ولوع بكتب شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية وتلميذه الأكبر العلاَّمة ابن القيم .

تلك كانت صفة هذا الشاب الذي رحل إلى ديوبند ، وتلك كانت صورته وثقافته .

وصل الطالب إلى ديوبند ، ودخل منزل الشيخ المعمور ، فاستقبله الشيخ بذلك الوجه الذي يلقى به الوافدين ، وببشاشته المعروفة .

أقام الطالب الشابُّ في منزل الشيخ ، فوجده مضيفاً عامراً بالضيوف من كلِّ أصناف الناس ، وطبقاتهم ، ومن علماء ، وسياسيين ، ومتصوِّفين ، ومتطوعين يذهبون إلى السجون[١] . وجد بيته زاويةً دينيةً ، ومدرسة سياسيَّةً ، ونادياً علميَّاً ، تأتيه الصحف من جميع أنحاء الهند ، ويتهافت عليها الطلبة الذين قد تأثروا بالشيخ وفكرته السياسية تهافت الظمآن على الماء ؛ لأنهم لا يجدون الصحف في غير هذا المكان ، ثم يتجاذبون بينهم أطراف الحديث ، وقد يستعيرون الكتب السياسية من بيت الشيخ ، وهكذا يتلقون ثقافةً سياسيةً ، ويخرجون رجالًا أحراراً ثائرين .

وجدت مائدةً واسعةً يجلس حولها غدواً وعشياً عشرة وخمسة عشر ، وعشرون رجلاً ووجدت قلباً أوسع من المائدة ، قلباً لا يملُّ كثرة الضيوف ، وكثرة الوفود .

هناك تعارفت بالسياسي النابغ مولانا محمد سجاد البهاري نائب رئيس الإمارة الشرعية بمقاطعة بهار ؛ الذي رزىء به المسلمون حديثاً رحمه الله رحمة المجاهد الذي مات بالميدان ، وكان الشيخ عظيم الإكرام والإجلال له ، كثير الاستشارة منه ، وكنا نسمِّيه « أمير صاحب »

وهنا تعارفت ببعض زعماء جمعية العلماء ، وتعارفت بأساتذة دار العلوم الذين يزورون شيخ الحديث في بيته ، وقد كانت تنعقد مجالس منبسطة بعد صلاة المغرب في حديقة الشيخ الصغيرة ، وبين أشجار الزُّهور أمام حجرته ، يشترك فيها مولانا عزير كل أسير مالطه ، ويسرُّ الحاضرين بنوادره ، والمنشىء شريف أحمد ، ومن رجال البيت الأستاذ القاري أصغر علي ، وقد يشترك فيها مولانا محمد إبراهيم معلم كتب المعقول في المدرسة ، ومولانا مبارك علي مساعد ناظر المدرسة .

وكان يحضر في بعض الأحيان عالمٌ وقورٌ عليه مهابة الشيوخ الكبار ، وروعة المعلمين السَّلف ، كثير السكوت ، قليل الكلام ، إلا أنَّه إذا تكلَّم ؛

---

(١) الزمن زمن الحكومة الإنجليزية ، والأيام أيام حركة التحرير ، والجلاء .

تكلَّم بكلامٍ متينٍ فصلٍ ، وكان ممتازاً في هذا المجلس ، كأنَّه من أشدِّ الناس حبَّاً لصاحب البيت ، وأكثرهم إجلالًا له ، وإنصاتاً لكلامه ، يملأ قلبه من حبه ، وأذنه بكلامه ، ولا يكاد يملأ عينه منه ، غاضَّ الطرف من غير مرضٍ ، مطرق الرأس من غير حياءٍ ، صامتاً من غير عيٍّ ، سألت بعض الإخوان عنه ، فأخبرني أنَّه مولانا إعزاز علي .

شفع لي الشيخ عند مولانا إعزاز علي أن يقرئني شيئاً ، فقبل ، وسمح لي بالاشتراك في درس شرح النقاية ، كان الشيخ مهتماً بهذا الدرس جدَّ اهتمام ، واختار عدداً من الطلبة النجباء ، يقرئهم على منهاجٍ خاصٍّ ، وأذن لي الأستاذ أن أقرأ عليه درساً في نور الأنوار بعد صلاة العصر .

وكنت أشترك في درسين آخرين مهمَّين ، درس الجزء الثاني من سنن الترمذي ، ودرس الجزء الثاني من صحيح البخاري ، وما أنسى من أشياء لا أنسى درس الحديث ، فكانت له روعةٌ في قلبي ، وكانت تغشى دار الحديث غاشيةٌ من الدين ، وسحابةٌ من الروحانية ، ولا يزال يرنُّ في أذني صوت الشيخ العذب الرنَّان ، ولحنه العربي الجميل .

وكانت هذه الشهور من شهور الدراسة الأخيرة ، ومقدار الدرس المقرَّر لم ينته بعد ، فكانت دروسٌ متواليةٌ ، ويكاد يكون النَّهار كلُّه درساً ، درسٌ بعد صلاة الصبح ، ودرسٌ ، ودرسٌ ، وكذلك درسٌ بعد صلاة العصر ، وفترةٌ بعد المغرب ، ودرس بعد صلاة العشاء يستمرُّ إلى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة في الليل ، وذلك في الشتاء في البرد الشديد ، ولكنَّ الطلبة قلَّما كانوا يملُّون لفكاهة الشيخ ونوادره ودعابته .

أقمت في منزل الشيخ عشرين يوماً ـ كما أتذكر ـ ، ثم استأذنته أن آكل في مطبخ دار العلوم وأقيم في حجرة من حجرات رواق الطلبة ، فعزَّ ذلك على الشيخ ، كما ظهر على وجهه ، ولكنه تنازل إلى رغبتي وأذن لي فتحولت إلى حجرةٍ ، وكانت هذه الحجرة قريبة من داره .

درست مدة إقامتي في دار العلوم كتاباً جليلاً وطالعت صحيفة ذات فصول وأبواب : منها الدين ، ومنها الأخلاق ، ومنها السياسة ، صحيفة حية ناطقة

صحيفة عنوانها الحسن والحمد ، وليس لي إلّا أن أكرر ما كتب كاتب الشرق الأكبر الأمير شكيب أرسلان عن سيدي أحمد الشريف السنوسي في حواشيه على حاضر العالم الإسلامي :

« وقد رأيت في السيد السند بالعيان ما كنت أتخيله وحق لي والله أن أنشد :

كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر
حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسنَ مما قد رأى بصري

واتّفق لي بعد ذلك أن صحبته في السفر فانكشفت لي ناحية مهمة من نواحي الحياة الإنسانية ، وقرأت صفحةً جديدة من صفحات حياته ـ أطالها الله ـ ، والإنسان في السفر غيره في الحضر ، ولكني رأيته عين ما رأيته في بيته ، بل وأجمل ، نزاهةَ أخلاق وعِفَّة بطن ، وعلوَّ همةٍ ، وشهامةَ نفس ، وصبراً لا يعرف السآمة والملل ، وهمة لا تعرف الفتور والكسل ، سهر في طاعة ، ويقظة في شغل ونومة في اعتدال ، وأكلة في اقتصاد ، وحياة كلها جد واجتهاد وتضحية وجهاد !

واعتزل الشيخ السياسة العملية بعد استقلال البلاد والتقسيم ، وعكف على الدرس والإفادة ، والدعوة إلى الله ، وتربية النفوس ، لا يتصل بالحكومة ورجالها ، حتى أنعم عليه رئيس الجمهورية في جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وثلاثمئة وألف برتبة فخرية ، فرفض ذلك قائلاً : إنه لا ينسجم مع طريقة أسلافه ، وبقي في (ديوبند) يدرس الحديث الشريف ، ويتجول في الهند ، يدعو المسلمين إلى التمسك بالدين ، واتباع الشريعة الغراء ، واقتفاء السنن النبوية ، وإصلاح الحال ، والإكثار من ذكر الله ، وقد عَطَّف الله عليه القلوب والنفوس ، وغرس حبه في أهل الخير ، فأقبلوا عليه زرافاتٍ ووحداناً ، وتقاطر عليه الناس ، من كل صوب ، وانهالت عليه الدعوات وهو يتقبلها بقلب طيب ، ويتحمل في سبيلها المشاق ، حتى اعتراه مرض القلب وضغط الدم ، فانقطع عن الأسفار مدة قليلة ولزم بيته ، وهو ملتزم لأوراده ، جاد في التربية والإرشاد ، وإكرام الضيوف ولقاء الزوّار ، قد تغلب عليه

الخشوع والرقة والابتهال إلى الله تعالى ، والتهيؤ للقائه ، حتى وافاه الأجل في الثالث عشر من جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وثلاثمئة وألف ، وصلى عليه الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي في جمع حاشد لا يُحصى ، ودفن بجوار أستاذه الشيخ محمود حسن الديوبندي ، والإمام محمد قاسم النانوتوي .

كان الشيخ من نوادر العصر وأفراد الرجال صدقاً وإخلاصاً ، وعلوّ همة وقوة إرادة ، وشهامة نفس ، وصبراً على المكاره ومسامحة للأعداء ، يشفع لهم ويسعى في قضاء حوائجهم ، وثباتاً على المبدأ ورحابة ذرع وسعة صدر وجمعاً لأشتات من الفضائل والمتناقضات من الأعمال ، له نزاهة لا ترتقي إليه الشبهة .

كان مربوعَ القامة ، كبير الهامة ، عريضَ الجبهة ، واسع العينين ، أسمر اللون ، جسيماً ، مفتول الذراعين ، قويَّ البنْية ، وقوراً مهيباً في غير عبوس أو فظاظة ، طَلق الوجه دائم البِشْر ، كان يلتزم الملابس الثخينة من النسيج الوطني ، وكان شديد البغض للإنجليز ، كشيخه محمود حسن ، شديد الحب والبغض في الله ، وكان قد راضَ نفسه على النوم والانتباه ، ينام إذا شاء وينتبه متى أراد ، وكان شديدَ العبادة والاجتهاد في رمضان ، وكان يؤمُّه مئات من الناس ويصومون معه ويقومون ، ويتحول المكان الذي يقضي فيه رمضان إلى زاوية عامرة بالذكر والتلاوة ، والسهر والعبادة .

***

مولانا أبو الكلام آزاد[١]

كان العهد الذي بلغت فيه رشدي ، وبدأت فيه المطالعة والكتابة عهداً طبق فيه صيت مولانا أبي الكلام آزاد الآفاق ، كان يسمع دويّه في سائر أنحاء الهند ، لم يكن يتمتع بهذه المكنة في القلوب ، والتأثير على النفوس أديب ولا شاعر ولا مؤلف آخر ، ولا أعرف في دنيا العلم والأدب ممن وهبهم الله الذوق الأدبي والمعرفة العلمية شخصاً لم يتذوق بأدب مولانا أبي الكلام آزاد ، ولم يتأثر بخطابته المجلجلة ، ورشاقة قلمه الفياض ، وقوة تعبيره ، ولم يسحره ما دبجه قلمه من مقالات مثيرة في صحيفة الهلال ، التي عرفت بسحرها الحلال .

نشأت في بيئة كانت على صلة بأبي الكلام آزاد ، وعلى انسجام فكري معه وكانت تشتمل على عدد من رجال تعرفوا على مولانا آزاد ورأوه عن كثب ، في عهد شبابه الذي كان فيه مساعد مدير مجلة « الندوة » وكان يقيم في الدار القديمة لندوة العلماء الواقعة في « خاتون منزل » وكان يقيم بذلك المكان الأستاذ عبد الماجد الدريا بادي أيضاً وكان يستفيد بمجالس العلامة الشبلي النعماني .

لم يكن هؤلاء الأقارب الذين صحبوا مولانا آزاد في ذلك العصر من مؤيدي مولانا آزاد ومريديه ، فيستجيدوا كل ما يصدر منه من عمل أو قول ، لكنهم كانوا في الواقع مسحورين بذكائه المفرط وحضور البديهة ، وحسن المحاضرة ، وقدرته الكتابية من جانب ، وبغيرته ، وأناقته ، وخفة روحه ، وصفاء ذهنه من جانب آخر ، فكانوا يسردون قصصه بلذة وإعجاب ، كنت أحسب في ذلك الوقت كأني أسمع قصص حكماء اليونان ، وفلاسفتها ، والصور الخيالية لألف ليلة وليلة ، ولم يكن هؤلاء المعجبون بشخصية مولانا

---

(١) مأخوذ من مجلة « ثقافة الهند » العدد الخاص بأبي الكلام آزاد .

أبي الكلام آزاد يعتبرونه شخصية مثالية منزهة عن كل عيب ، أو في نجوة من مواضع النقد ، بل كانوا يلوحون إلى بعض المآخذ في تصرفه إلا أنهم كانوا مجمعين على ذكائه وقوة ذاكرته الموهوبة من الله وغيرته ، وثقته بالنفس وتلك خصال لم يكن يتنازع فيها اثنان ، ثم سمعت من العلامة السيد سليمان الندوي في عدة مجالس عن ذكائه المفرط وصلاحيته للفهم ، وإدراكه للدقائق ، ونفاذ ذهنه ، وقدرته على العرض والتعبير ، والاستفادة من معارفه ما لا يتوفر عادة .

وحدث مراراً ، أن العلامة شبلي النعماني طلب من تلامذته النبغاء الكتابة في موضوع ، فحشد هؤلاء التلامذة المواد العلمية عن ذلك الموضوع بعد مطالعة عميقة، وعرض بعض هؤلاء التلامذة البارزون مقالاتهم ، لكنه لم يقتنع بها وأعاد بعض التلامذة مجهودهم للكتابة في الموضوع ، لكنهم أخفقوا في كل مرة ، وكان مولانا أبي الكلام آزاد في زاوية يسمع ما يجري بين الأستاذ والتلاميذ ، فتقدم واستفسر عما يريده العلامة شبلي النعماني ، فعرض العلامة شبلي النعماني الخطوط العريضة في كلمة وجيزة ، وجلس مولانا أبي الكلام آزاد يكتب حسب هذه الخطوط العريضة، وعرض بعد فترة قصيرة مقاله، فقال العلامة النعماني : هذا ما كنت أريده.

كانت هذه الموضوعات في بعض الأحيان دقيقة كلامية أو فلسفية ، وكان يحسب كل من يشاهد هذا الشباب الذي كان يبرز على أقرانه عادة ، ويدهش بمقالاته ، أنه سيخفق هذه المرة ويزول رعبه وهيبته على النفوس ، وتظهر قلة بضاعته ، لكنه كان ينتصر دائماً ، وينجح في كل امتحان .

ولا يغرب أن يكون مولانا آزاد قد زار والدي في بيته عدة مرات لأمر من الأمور التي تتصل بندوة العلماء خلال صلته بها فقد وجدت في أوراقه بطاقة تحمل توقيع الحكيم أجمل خان ، وأبي الكلام آزاد معاً ، كما توجد عدة رسائل لأبي الكلام آزاد خلال دراسته وعهد شبابه الذي كان يستفيد فيه من شمس العلماء الشيخ محمد يوسف رانجور العظيم آبادي في كلكتا . وكان الشيخ سليل أسرة صادقفور التي كانت من أتباع الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد ، والأوفياء له وكانت لها مساهمة كبيرة في حركة الجهاد والدعوة التي قام بها أتباع الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد في العهد البريطاني الغاشم .

صدرت تذكرة المجاهدين لصادقفور المعروفة «بتذكرة صادقة» بتأليف الشيخ عبد الرحيم الصادقفوري أسيراندمان ، فقدم لها هذا الأديب الشاب ، والكاتب المغمور ، محيي الدين أبو الكلام أحمد ، ويحمل تقديمه أسلوباً قديماً لا يعرف منه أن كاتبه سيظهر في المستقبل على سماء الهند العلمية والأدبية ، كهلال العيد ويبهر العيون ، رغم هذه الصلة العميقة لا أذكر قدومه إلى بيتي ، لأني كنت في التاسعة من عمري حينما توفي والدي رحمه الله فإذا قدم قبل ذلك ، في بداية حركة الخلافة ، أو لدى تأسيس ندوة العلماء فذاك قبل أن أبلغ رشدي .

كانت زيارتي الأولى له كما أذكر اليوم في قاعة كنكا برشاد بلكناؤ في حفل أقيم لبث دعوة الوحدة بين المسلمين والهنادك ، وكان من بين الحضور مولانا محمد علي جوهر ، فحان وقت صلاة المغرب ، وكان الحفل يستمر ، والكلمات تلقى فنهض مولانا أبو الكلام آزاد رحمه الله وتوجه إلى الضاحية الشمالية من القاعة ، حيث نظم المكان لأداء الصلاة ، فصلينا جميعاً خلفه ، فرأيته ذلك الحين عن كثب لأول مرة فإذا هو فارع القامة ، أسيل الوجه ، أحمر اللون ، بعينين نخلائين متوقدين وكأن عينيه تنطقان وتتكلمان تعلوه ابتسامة ، ويلمع على جبينه الاستبشار ، وتلمس فيه ملامح الذكاء والثقة بالنفس والحظ السعيد ، في ثياب بسيطة تشبه ثياب الأشراف والأعيان من دلهي ولكناؤ ، تتميز في الأناقة وحسن الاختيار والذوق ، وقلنسوته مرتفعة ، تمتاز بها شخصيته المتميزة فهذا هو مولانا أبو الكلام آزاد رحمه الله ، الذي لقيته لأول مرة ، وأعجبت به ، ولا تزال في ذاكرتي بعض كلماته التي ألقاها في ذلك الحفل ، استشهد برواية سنن أبي داود وهو يبين وجهة نظر الإسلام عن الأخوة الإنسانية ، والمساواة الإنسانية ، فقال : «سمع رسول الله ﷺ في آخر الليل عندما كان يناجي ربه ، ويدعوه ، ويتضرع إليه ، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة» .

كان مجلد صحيفة الهلال الديني الذي أصبح اليوم هدية سنية نادرة ، يوجد في بيتي بمدينة لكناؤ ، وفي بيتي الواقع في قرية صغيرة من قرى مديرية رائي بريلي وكان يحصل عليه الصغار للمطالعة بغاية من الحيطة والحذر

لأهميته وقيمته العلمية ، وفي هذا العهد أمسكت القلم ، وبدأت فيه بالكتابة ، وتمكنت من تعبير ما يدور بخلدي ، فكانت مقالات الهلال تدور في ذلك الوقت حول حروب أدرنا نوبل وسمرنا أو بلقان ، وطرابلس الدامية ، وحول بطولة أنور باشا ، ومآثره الحربية وحادثة مسجد كانفور المؤلمة ، فقرأتها واهتززت بها ، وكنت أعتبرها على ذروة من الخطابة وأعلى نموذج للبلاغة ، والقدرة البيانية ، ولا أنس وصف مولانا أبو الكلام آزاد بقلمه السيال لمنظر قدوم أنور باشا في طرابلس المثخنة بالجروح ، وتفقده لجثث الشهداء وأشلائهم الممزعة ، وما كان لهذه المناظر من تأثير على قلبه وذهنه .

هذا المشهد المقدس للعنادل ، وقدوم رجل مجاهد جليل عالي الهمة ، رابط الجأش ، خافق القلب ، مثل أنور باشا ، وقلم مولانا آزاد النازل كالشلال ، كل ذلك جعله مؤثراً كالصاعقة من حيث أنه لم يستطع أحد أن يتمالك عواطفه ، ففاضت العيون ، وكان من حقها أن تفيض ، والتهبت النار في الجسم ، واضطرمت في القلب ، وهاجت النفوس .

وبعد مدة قصيرة طالعت كتابه الشهير المسمى بالتذكرة ، الذي كان يعدّ من أروع كتبه على أسلوبه في ذلك الوقت ، الذي يمتزج فيه جريان النهر وضجيج الشلال الذي كان قد طعم بتعبيرات فارسية ، وعربية كاملة ، لو استخدمها كاتب آخر في كتاباته لاعتبر عيباً ، ولعد نقصاً ، لكن قوته الخطابية ، وقدرته الكتابية ، وصلاحيته لتدبيج اللفظ تزيدها حسناً وجمالاً وبهاءً ، ولا تعطى بداهته النادرة المفرطة قارئه فرصة ليفكر في مصدرها وتركيبها ، وهذا هو أسلوبه الخاص الذي يصعب اتباعه ومحاكاته ، وهو طريق مليء بالأخطار للمقلدين .

ترك مولانا آزاد هذا الأسلوب بعد مدة ، وحدث اعتدال في تدفق الألفاظ ووفرتها ودخلت فيها السهولة والبساطة ، والسلاسة والعذوبة وخير نموذج من كلامه الساذج خطبته الرئاسية التي كان ألقاها في المؤتمر السنوي للمؤتمر الوطني (INDIAN NATIONAL CONGRESS) المنعقدة في رام كره (RAMGARH) سنة ١٩٤٠م لكن في بعض الأحيان كان يتدفق السيل في ذلك

البحر الهادىء ويعود عهد شبابه ، وعهد صحيفة الهلال الساحر .

طبع ونشر المجلد الأول ثم الثاني من تفسيره ترجمان القرآن وكنت أشتغل آنذاك بالتدريس في دار العلوم ندوة العلماء ، وكان التفسير موضوعي الخاص ، فقرأت هذين المجلدين ، وانتفعت بهما كثيراً ، إنه ذكر في تفسير سورة التوبة قصة الأصحاب الثلاثة الذين تخلفوا في غزوة تبوك ، وذكر هذه القصة على لسان كعب بن مالك الذي كان من بينهم ، وتخلف أيضاً عن الحضور في الغزوة ، ونفخ فيها الروح بقلمه الساحر مع رعاية أصول الترجمة ، وصوّر صراعهم الذهني ، والاختبار الذي ابتلوا به ووفاءهم الصادق للإسلام . وحب الرسول ﷺ ، ونقل دقات قلوبهم إلى القارىء بألفاظه ، ورصّعه بالأشعار العربية والفارسية ذات رونق وبهاء كاللآلىء الثمينة اللامعة ، فبذلك يستحق هذا البيان أن ينال مكاناً عالياً في الأدب الكلاسيكي العالمي فضلاً عن الأدب الأردي .

وبلغ قلمه الساحر ذروة الكمال في تمثيل استقامة سيدنا يوسف وسيدنا يعقوب عليهما السلام ، وتصوير آلامهما وأحزانهما ، وعرض سلوكهما وحياتهما رغم أن هذا الموضوع موضوع التفسير ، ويتطلب غاية من الحيطة والحذر ، لكن الأديب والأديب الموهوب ، والذكي النادر لا ينتهي عن فتح مغالق جديدة وبيان نكت غريبة ، وإشارات لطيفة ، إلى مواضع البحث والنظر ، وعن إبداء براعته الكتابية .

ذكر مولانا آزاد في هذه القصة أيضاً ، وفي تعليقاته التفسيرية نكت علم النفس ونكت علم الاجتماع والأخلاق التي تجدر بأن يدرسها طلاب الأدب والأخلاق فضلاً عن طلاب علم التفسير ، ويستفيدوا منها .

وأقول بصراحة أني قرأت الكثير في هذا الموضوع ولكن هذه المطالعة الواسعة زادتني علماً ، ولم أجد أحسن وصفاً ، وأوسع بحثاً عما قرأته في تفسير مولانا آزاد وقد قرأته مراراً واستفدت به كثيراً .

كان مولانا آزاد مراقباً على تأليف الوزارات لحزب المؤتمر الوطني فقدم إلى لكناؤ وأقام في منزل كوبند بلب بنت (GOVIND VALLABH PANT) كبير

وزراء ولاية أترا براديش فذهبت إليه مع بعض أصدقائي ، واجتمعنا به ، وعرفته على نفسي ، فذكر بعض الكتب التي ألفت حول ترجمة الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد نظراً إلى صلتي به ، وكنت أيضاً مشغولاً بتأليف سيرة السيد ، أحمد الشهيد في تلك الأيام ، وهو أول كتاب ألفته ، وكان معي بعض صفحات من أصول الكتاب ، وكنت أهدف بهذا اللقاء أن أطلب منه أن يقدم لكتابي فقبل عرضي ، ووعد بأن يقدم له .

وأعربت خلال حديثي معه عن أمنية لي ، وهي أنني أريد أن أنقل بعض أجزاء تفسيرة إلى اللغة العربية ، فسمح لي به ، وبينما كان يدور الحديث ، دخل بعض الوزراء في حكومة ولاية أترا براديش فلم يبد من ملامح وجهه أنه يرغب في أن ننصرف ، فيتحدث معهم ، رغم مكانتهم العالية في الحكومة ، وهذه هي ميزته الخاصة التي عرفناها بعد لقاء أو لقاءين ، وجربناها مراراً ، وليس ذلك فحسب ، بل إنه صرح في بعض المناسبات أن سروره يزداد بقدوم العلماء والطلاب ، والاجتماع بهم ، والتحدث معهم علمياً وفكرياً وثقافياً فكان لا يؤثر الزعماء والقادة السياسيين على طلاب العلم ، بل شعرت في بعض الأحيان بأنه يعتبر طائفة العلماء أسرته الخاصة ويأنس إليها أكثر .

ثم أتيحت لي فرصة اللقاء الثالث عندما زار لكناؤ مرة ثانية في عهد وزارة المؤتمر الوطني ، وأقام في منزل السيد محمد إبراهيم ، وزير المواصلات في ولاية أترا براديش ولعله كان في عام ١٩٣٩م وكنت أرسلت إليه رسالة وذكرته فيها بما وعد به من تقديم كتابي ، ولكني لم أتلق رداً على رسالتي ، ثم عرضت بعدما انتظرت طويلاً على العلامة السيد سليمان الندوي أن يقدم لكتابي ، فقبل ذلك وصدر الكتاب بتقديمه الذي يحتل مكانة خاصة في كتابات العلامة السيد سليمان الندوي في عام ١٩٣٩م .

ووصلت إلى مقر مولانا آزاد ، ووددت أن ألاقيه لكن أَمِينَهُ السيد أجمل خان قال لي : إنه مشغول جداً في ذلك الوقت ولا يمكن لقاءه ، فانتظرت ، وقعدت على الكرسي برهة لأروح نفسي لأنني وصلت إليه بالدراجة ، فتعبت كثيراً فأردت أن أستريح قليلاً وبدأت أتحدث مع أمينه السيد أجمل خان ، ودار

الحديث ، فجاء ذكر السيد أحمد الشهيد ، فأخذ ينوه به ، ويبدي إعجابه به بلذة ، لأن جده الكريم كان من أتباع السيد أحمد بن عرفان الشهيد ومحبيه ، فلما علم انتمائي إليه وصلتي الخاصة به وكتابي الذي ألفت حوله سرّ كثيراً ، وأعرب عن إعجابه ودخل على الفور ، وأخبر مولانا آزاد بقدومي ، فما لبث أن طلبني كأنه كان مني على ميعاد ، ولما ذكرت له رسالتي التي أرسلتها إليه ، قال : إنها لم تصل إليّ ، وقال إنه مستعد ليكتب تقديمه الآن ، لكن لم ألح عليه ومنعته كثرة اشتغاله ، ومسؤولياته التي لم تزل تتصاعد وتزداد من أن يكتب ويرسله إليّ .

تحدث مولانا آزاد في هذا اللقاء عن ندوة العلماء ، وعن العلامة شبلي النعماني وحركة ندوة العلماء ، وأهدافها وأهميتها ، ونفعها طويلاً ، ذكر أيضاً أن هذه الحركة لم تنجح كما كان يتوقع لأنه لم يتفرغ لها وينقطع إليها بعد العلامة شبلي النعماني أحد .

وكان اللقاء الرابع به في عام ١٩٤٦م في فندق كارلتن لما قدم مولانا آزاد إلى لكناؤ في صدد تأليف الوزارة ، وقررت أنا وأحبائي وزملائي الشيخ عمران خان الندوي والشيخ محمد أويس الندوي ، ولعل الأستاذين ، عبد السلام القدوائي الندوي ومحمد ناظم الندوي ، كانا من بيننا في هذا اللقاء ، أن نصلي صلاة الفجر في ساحة الفندق ، ونلتقي بمولانا آزاد صباحاً ، ففعلنا ذلك ووصلنا إلى غرفته ، فواجهنا أولًا أمينه البروفسور أجمل خان كالعادة ، فلم يمكث أن أخبر مولانا آزاد بمجيئنا ، فدخلنا الغرفة ، فإذا هو قد فرغ من شرب الشاي ، ولعله كان الشاي (WHITE JASMINE) الذي نال الشهرة بانتسابه وظروف الشاي كانت أمامه ، ولعل مولانا عاكفاً ملازم كتابه (كاروان خيال) فجري الحديث بيننا ، ودار حول الكتب التي تدرس في ندوة العلماء وأعرب مولانا آزاد عن نظرياته عن الإنشاء والكتابة باللغة العربية وسألني عن الموضوعات التي كنت أدرسها ، وبعد حديث علمي انتهى المجلس ، وافترقنا .

وتكررت زيارات مولانا آزاد للكناؤ في تلك الأيام ، فاجتمع به مرة طلبة

ندوة العلماء، وتحدثوا معه من حيث أنه لم يستطع أن يشعر رغم ذكائه المفرط بأن الأمير مولانا حبيب الرحمن الشيرواني الذي كان من أحب أصدقائه يوجد في لكناؤ فحسب بأنه في ندوة العلماء في ذلك الوقت، فأتى إلى الدار العلوم التابعة لندوة العلماء شوقاً إلى لقائه، وكنت ألقي دروسي في ذلك الوقت في أحد الصفوف، فلما علمت بقدومه، أتيت إليه، فوجدته في محراب المسجد يلقي كلمته والعلامة السيد سليمان الندوي بجانبه، والطلبة بين يديه ، فذكر مولانا آزاد مؤامرة الطلاب التي أصبح فريستها بلطف ليس فيه مرارة الامتعاض والاستنكار، وإنما هو شكوى الكبار المليء بالحب والإشفاق ، وكذلك شرف مولانا آزاد نادي الطلبة (جمعية الإصلاح) بقدومه المبارك مرة على دعوة من الطلاب لوقت قصير في الليل، وكان معه الشيخ عبد القادر القصوري.

ووصل مولانا إلى لكناؤ في شهر فبراير سنة ١٩٤٧م وكان سمفورنا نند . وزير التربية في الولاية ، واقترحت الحكومة إعادة ترتيب المناهج المتبعة في المدارس العربية ، وألقى بهذه المناسبة كلمة علمية قيمة حول تطوير المنهج الدراسي ، وعناصره الرئيسية أمام جمع من العلماء والمسؤولين والمشرفين على المدارس العربية في قاعة المجلس التشريعي للولاية ، وكان يبدو منها أنه لم يتخلف عن ركب العلماء الذي كان يسلك فيه من بداية عمره ، رغم أشغاله السياسية الدقيقة وكان ممن حضر هذا الحفل شيخ الإسلام مولانا حسين أحمد المدني ، والعلامة السيد سليمان الندوي وفضيلة الشيخ محمد طيب وغيرهم من علماء فرنجي محل ومسؤولي المدارس الإسلامية ووجدت جميعهم يعترفون بفضل مولانا آزاد وعلمه الغزير ويكرمونه .

وتشرفت بلقائه مراراً ، مرة لما رحل إلى كشمير لترويح نفسه بعدما أطلق سراحه من معتقل أحمد نجر ، ومن المصادفات إني كنت وقتذاك في كشمير من قبل ، وكان مقيماً في (HOUSE BOAT) في نسيم باغ في سري نجر ، وكان معه السيد آصف علي ، والشهر شهر رمضان فحضرت إليه وقابلته وكان لم ينسَ الكتب التي أدرسها في ندوة العلماء رغم مرور وقت طويل فأعجبني ذكاؤه ، وحفظه لهذه الأمور الجانبية وقدمت إليه كتابي الجديد الذي ألفته عن مولانا محمد إلياس ودعوته الدينية .

وفي عام ١٩٥١م التقيت بمولانا آزاد في مطار القاهرة عندما كان مولانا آزاد في رحلة إلى أوربا لأول مرة بعد توليه منصب وزير التربية في حكومة الهند المركزية وكانت طائرة مولانا آزاد تمر بالقاهرة بالليل ، وتقف لبعض الوقت وطلب مني بعض أصدقائي الهندوس أن أكون معهم في استقبال مولانا آزاد ، لأنه يزور القاهرة لأول مرة كوزير للهند المستقلة ، وما كان هؤلاء الهنود يعرفون صلتي الخاصة بمولانا آزاد ، ولم يوجهوا إليّ الدعوة للاشتراك في الاستقبال إلا كفرد من الجالية الهندية في القاهرة ، فقبلت هذه الدعوة بسرور بالغ ، وفي تلك الأيام حدث أن زرت السفارة الهندية لبعض أمور طارئة فلم أجد من المسؤولين فيها تجاوباً ولم يتلقوني تلقياً لائقاً بي وبهم وشعرت بوحشة في سفارة بلدي .

وصلت أنا وصديقي مولانا عبيد الله البلياوي مطار الماظة ، وهبطت الطائرة في آخر الليل ، وأتينا بمولانا آزاد في صورة موكب إلى مكان لشرب الشاي ، وكان إرهاق السفر بادياً في وجهه ، وجعل الصحفيون الأذكياء يطرحون عليه الأسئلة بالعربية حيناً ، وبالإنجليزية حيناً آخر ، ويرد مولانا آزاد عليها بطمأنينة دون أن يخوض في تفاصيلها ، ويقدم نموذجاً رائعاً لسرعة خاطره وحضور بديهته .

ثم أتينا إلى طاولة الفطور لتناول الشاي ولم يعرفني مولانا آزاد ، لأنه كان لم يتوقع أن أكون هنا ، فاسترعى أبو النصر الذي كان نقل بعض أجزاء تفسيره (ترجمان القرآن) إلى اللغة العربية ، وكان مقيماً في مصر من مدة طويلة وقد تعرف عليَّ أيضاً ، استرعى الأستاذ انتباه مولانا آزاد إليّ بقوله : هذا ابن العلامة السيد عبد الحي الحسني فحانت من مولانا آزاد التفاتة إليّ على الفور ، ولم يزل منصرفاً إليّ ويتحدث معي إلى أن انصرفت .

وكان الحديث يدور حول الاستفادة من النظريات الجديدة ، والاكتشافات الحديثة في تفسير القرآن الكريم ، وربط القرآن بها ، فقال إن التطبيق بينهما يتطلب غاية من الحذر والحيطة ، وذلك لأن العلم لا يزال يرتقي ويتوسع ، يتغير ويتطور ، والإنسان في اختبار واكتشاف ، فلا يقدر أحد أن يقول أن

النظريات الجديدة ، والأفكار الحديثة تبقى على حالها ، ولا تنقضها نظريات أحدث منها ، وأدان أيضاً في هذا الصدد تفسير طنطاوي جوهري الذي اعتبر أكبر نموذج للتفسير بهذا الطراز ، وأدخلت فيه الاكتشافات الجديدة بسخاء تام .

وخاطبني مولانا آزاد قليلاً ، كنت علمت أنك هنا ، فما هي البلدان التي زرتها هل قمت بزيارة اليمن ، ثم قال : إن والدك رحمه الله كان يقول : إن في (تونك) تتوفر معلومات قيمة نافعة عن الإمام السيد أحمد بن عرفان الشهيد ، فهل راجعت تلك الكتب .

وخلال ذلك لم يزل يلفت المسؤولون في السفارة انتباه مولانا آزاد إليهم ، وكانوا يريدون أن يتحدث مولانا آزاد مع كل من حضر من المستقبلين ، واسترعوا انتباهه أيضاً إلى ضيق الوقت ، لكنه لم يزل منصرفاً إلينا ، فلعلهم شعروا بخطئهم أن الرجل الهندي الذي لم يقيموا له وزناً ولم يحتفلوا به وعاملوه معاملة جافة يستحق الالتفات التام عند مولانا أبو الكلام آزاد ، ثم استعد مولانا آزاد للذهاب فودعناه ورجعنا .

تشرفت بلقائه ثلاث مرات بعد ذلك في عهد وزارته مرة لما ذهبت إلى دلهي على دعوة من شيخ الإسلام حسين أحمد المدني رحمه الله وذلك لأنه كان يريد حضوري عندما يلفت نظر مولانا آزاد إلى طبع كتاب (نزهة الخواطر) الذي كانت دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد نشرت خمس مجلدات منه، ثم توقف طبع بقية أجزائه بعد العملية العسكرية ضد حيدر آباد.

كان هذا اللقاء في اجتماع اللجنة العاملة لجمعية العلماء ، فلما دخل مولانا آزاد عرفه بي مولانا حسين أحمد المدني ، وذكر له كتاب (نزهة الخواطر) فأبدى مولانا إعجابه به ، وأبدى اطلاعه عليه ، وعنايته به ، وقال لا بد من طبعه ونشره قلت هل يحتاج الأمر إلى التذكير والإعادة ، قال لا ، وجدت ذلك فعلاً فلم تنقض إلا أيام قلائل إلا وطلبت دائرة المعارف العثمانية الأجزاء التي كانت بقيت ولم تطبع بعد صدور الكتاب بكامله . كان اللقاء الثاني في مكتبه في البرلمان ، وكان معي صديقي الحبيب الدكتور سعيد

رمضان ، فتحدث مولانا آزاد معه باللغة العربية وسأله عن منظمة (ماشومي) في إندونيسيا ، بالإيجاز .

أما اللقاء الثالث فكان في منزله في دلهي الجديدة ، وكان الشيخ عمران خان الندوي معي وكنا حضرنا منزله لقضية من قضايا ندوة العلماء فعني بها عناية كبيرة ، ووجه إلينا نصائح نافعة قيمة ، وتحقق الأمر بسرعة غريبة .

يعتبر ذلك سوء حظ المسلمين ، أو مقتضى طبيعة مولانا آزاد المضطربة المتحركة الفذة ، وشخصيته العبقرية ، أن مولانا آزاد قد أوقف عمل إيقاظ الوعي الفكري والسياسي الذي كان بدأه في بداية إصدار صحيفة الهلال ، والذي كان يهدف إلى إقامة الإمارة الشرعية ، ونفخ الروح في القيادة الدينية ، وتربية حزب الله ، تربية خلقية ، سياسية فكرية بعد أن كانت معطلة من مدة طويلة فجعلت الحياة تعود إليها بندائه ودعوته ، وجعلت طبقة من المثقفين من أصحاب الغيرة والحمية الدينية تلقبه بإمام الهند بعد أن أقروا إمارته ، وبايعوا على يديه ، ولعل مولانا آزاد انفعل انفعالاً شديداً لخيبة حركة الخلافة ، وحركة الوحدة الإسلامية الهندوكية ، وتصعد الحركات الطائفية ، ورد فعل المسلمين العنيف ضدها ، وتغلب العاطفة عليهم ، فأدى تذمره بهذه الأمور إلى تفويض جميع طاقاته ونشاطاته وصلاحيته إلى حزب المؤتمر الوطني المستقل ، الفعال المنظم الذي لا يحدث فيها المد والجزر حيناً بعد حين ، والذي يعترف زعماؤه وقادته بكمال فضله واستقامة طبيعته ، وصلاحياته الموهوبة ، وسرعة خاطره المفرطة وبصيرته السياسية النادرة إلى حد كبير ، وبهذا الانقطاع عن قضايا المسلمين وقع انفصال فيه عن عامة المسلمين ، وانعزل مولانا آزاد عنهم وكان ذلك مطابقاً لطبيعته الانعزالية .

كان مولانا آزاد ، ذا طبيعة قلقة مضطربة ، وعلى ذروة عالية من الكمال العلمي والفكري ، فلم يكن ليقتنع بالدراسة الهادئة والعزلة في الزاوية التي ورثها من والده ، فآثر المنبر الموقر للحزب الوطني واختير رئيساً له مرتين ، وأثبت كفاءته ومعدنه وأظهر براعته الفكرية واختار طريقاً وسطاً ثم تولى الوزارة ، فزاد انعزاله وانقطعت الآمال المعقودة به في العهد الأول لحياته ،

ولم يكن أحد يجرؤ على أن يلفت نظره إلى ما دبجه يراعه في ترجمة الشيخ إسماعيل الشهيد على صفحات التذكرة ، وقد اوضح فيها مولانا آزاد بقلمه القوى البليغ ، وقدرته الكتابية الفائقة ، ماهي الصفات التي يجب أن تتوفر في الإمام والمجدد ، وكيف يستغني الإمام والمجدد عن البيئة والوسائل وكيف تتهيأ له هذه الوسائل ، وتخضع له كثمرة لجهوده المخلصة ، ويسير معه الزمن ويولد الربيع من الخريف .

يشكو كثير من كبار الشخصيات أن الوقت لا يسايرهم وأن الوسائل لا تتوفر لديهم ، ولكن ينهض صاحب العزيمة ، وفاتح العصر ، ويقول ، إن الوقت إذا لم يسر معي ، فإني سأسيره معي ، والوسائل إذا لم تتوفر ، فإني سأهيء الوسائل وأضعها بيدي ، وأن الأرض إذا لم توافقني ولم تلائمني الظروف ، فلتتنزل السماء وتساعدني . وإذا لم يهيأ لي الرجال ، ويناصروني ، فستنصرني الملائكة ، وإذا أصبحت ألسنة الرجال خرساء ، فستصرخ الأحجار وتهتف فلا حرج إذا لم يكن معي أحد ، فإن الأشجار تسير معي ، وإذا كان الأعداء أشداء وعددهم ضخماً فإن الشهب ، وبرق السحب والنجوم والكواكب لا تعد ولا تحصى ، وسيسخرها الله لي ، ومهما تكن العقبات والمشاكل فإن العصامي ، صاحب العزيمة والعظائم ، ليس ابن الوقت ، ولا عبد العصر ، ولا صنيع الإنسان ، فيخدم الزمان ، ويخضع له ويسلم رقابه له ، إن الرجل الذي خلق له الزمان ، وسخر له الكون ، يرعى الزمان ، ويربي العصر ، إنه لا ينتظر لأوامر الزمان بل ينتظر الزمان لأوامره ، إنه لا يلقي نظرته على الزمان ليختار منه ما يريد ، ويقتني منه ثمراته وإنما هو يلقي نظرته على الزمان ليعطيه ما ينقصه ويجبر كسره .

قد كتب عن مولانا أبو الكلام آزاد كثيراً ، ولا يزال يكتب ، ويعرض كل ناحية من نواحي حياته وكماله، وقيل عن نظرياته السياسية كثيراً جداً، ولا يزال يقال عنها ، إنه كان عموداً للسياسة الهندية ، وثقافتنا القديمة ، وحضارتنا العتيقة ، ذات الإله بريئة عن كل عيب ونقص ، وعصمة الأنبياء لا يرتاب فيها أحد وليس فيها مجال للشك ، لكن لا يمكن أن يمنع معاصرو مولانا آزاد والمنتقدون له ، من أن يكتبوا ويذكروا ضعفه البشري وزلاته البشرية .

وما ذكر كتاب ترجمته من رحلاته وجولاته ، وما حدث خلالها من الوقائع فيه مجال للخلاف والجدال ، والبحث والتحقيق في تعيين زمنها وثبتها التاريخي .

لكن قوة ذاكرته المحيرة للعقول ، وذكائه المفرط النادر، وسرعة خاطره، وأدبه ، وأسلوبه الخاص ، الذي كان لا يتركه في لحظة من اللحظات ، وفي مكان من الأمكنة ، وصلاحيته الغريبة للاستفادة من المطالعة والعلوم والمعارف ، أكثر فأكثر ، وبصيرته السياسية ، وبعد نظره ، وسداد فكره ، ورسوخه في نظرياته ، وثباته في عقيدته ، وعدم مبالاته بالمدح والنقد والإدانة وإباءه وغيرته وحميته تفوق كل شك وريبة وتبعد عن كل خلاف ونزاع .

بينما كنت في زيارة لاهور أنبأت إذاعة باكستان في ٢٢/ من شهر فبراير عام ١٩٥٨م نبأً كالصاعقة ، أن مولانا أبو الكلام آزاد انتقل إلى جوار رحمة الله ، ولحق بالنبغاء الذين تتواصل رحلاتهم من هذا العالم الفاني من بداية خلق العالم[١] .

* * *

(١) نقله إلى العربية الأستاذ جعفر مسعود الحسني الندوي .

الشيخ عبد القادر الرائيبوري

في أواخر ذي القعدة ١٣٥٨هـ (ديسمبر ١٩٣٩ م) سافرنا ـ ونحن ثلاثة أصدقاء زملاء ـ في رحلةٍ استطلاعية رائدة إلى المراكز الدينية والتربوية في الهند ، لنستفيد من تجاربها ومناهج عملها ، ووصلنا إلى سَهَارنفور ، وتوجهنا منها إلى رائيبور ، مشينا خمسة أميال على الأقدام حتى وصلنا إلى زاوية الشيخ عبد القادر الرائيبوري ، فلما وصلنا إليه رَحَّب بنا ترحيباً حاراً واحتفى بنا ، بدون سابق معرفة ، حفاوةً بالغة ، كأنه كان منَّا على ميعاد .

والشيخ عبد القادر الرائيبوري من كبار المربين والعلماء الربانيين ، المطّلعين البصيرين ، من أصحاب الفراسة والذكاء والانفتاح الذهني ، الذين يجمعون بين العلم والعمل ، والتربية والتزكية ، وهم من أولئك القائدين والعلماء الصالحين الذين يحتاج إليهم المسلمون ، بل قادتهم في كل زمان للقيادة والتوجيه ، والاستفادة من تجاربهم وطيب أنفاسهم ، وقد رأينا في اطّلاع الشيخ وبصره بأوضاع العصر وظروفه وبصيرته السياسية وفراسته الإيمانية وجمعه بين العبادة والإنابة ، والجانب العملي المشرق نموذجاً طيباً للزوايا السنوسية ، وذكّرتنا أخلاقه الفاضلة ، وعطفه الأبوي ، وتواضعه ، وحفاوته وضيافته ، بأخلاق السلف الصالحين الذين كانوا يقتدون بأسوة صاحب الخُلُق العظيم ﷺ .

وقد استرعى انتباهنا ما كان يخيم على هذه القرية النائية من الهدوء ، كأنَّ غاشية من السكينة تغشىٰ أهلها ، فينسى الناس الزائرون همومَهم وأحزانهم ، أما في آخر الليل فلا تسمع إلّا صوتَ الذكر وتلاوة القرآن ، ولا ترى إلّا راكعاً أو ساجداً .

وقد استفدنا من كلمات الشيخ المنيرة ، وتوجيهاته وإرشاداته ، وتجاربه وتعليقاته السديدة العادلة على السياسة الإسلامية في شبه القارة الهندية في

ظرف ربع قرن من الزمان ، والحركات والمنظمات الإسلامية استفادةً علميةً كبيرة ، جدّدت قصص علماء السلف والمجاهدين من جماعة الإمام السيد أحمد الشهيد وأصحابه ورفقته التي تثير الإيمان والحنان .

اقتضت حكمة الله أن يقضيَ شيخنا عبد القادر الرائيبوري (المتوفى ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م) أكبرَ شطر من حياته ـ بعد أن بلغ أشدَّه ـ في بيئاتٍ متنوعة وطبقات مختلفة من المسلمين ، وبين أحزاب دينية تختلف طرائقُها ومناهجُ تفكيرها . إنه كان تهب فيه نفحة من نفحات الفكر المتحرر من الخارج أحياناً ، فتحدث اضطراباً وقلقاً في طبعه الذكي الحسّاس الهادىء الساكن ، إنه عاش في المراكز العلمية والدينية المختلفة في الهند ، وشاهد تنافس العلماء في المناصب والجاه ، وفتاوىٰ التكفير والتفسيق ، وإعجابَ أهل العلم بعلمهم ، وكثرة الشقاق والجدال ، والقيل والقال ، وتوغل المدرسين في المعقول ، ورغبة المصلحين عن إصلاح الباطن ، واستئصال الرذائل والأمراض النفسية .

نشأت خلال ذلك حركات مختلفة تصبو إلى إصلاح المسلمين وإنهاضهم ، ولكنها هبت وزمجرت كالعاصفة ، وهدأت وتلاشت كالعاصفة ، ورأى في زعماء هذه الحركات وقادتِها من ضعف العاطفة ، وانحطاط الأخلاق ، وكثرةِ الشقاق والرغبة عن إصلاح ذواتهم ، ما كانت له مفاسد ومضار لا يستهان بها ، وشاهد زوال تلك الحركات ومصايرها المؤلمة ، كما شاهد نشأتها الرائعة المرجوة .

إنه رأى ـ خلال إقامته في رائيبور ـ حركة الخلافة في أوج شوكتها وريعان شبابها ، وكانت أقوى وأوسع وأشمل حركة شبه دينية وشبه سياسية ، عرفتها الهند المعاصرة ، ولم يرها عن قريب فحسب ، بل فطن إلى أسرارها ، ودخائل ذاتها ، واطّلع على مشروعاتها ومخططاتها السرية ، ولكنه شاهد إثر وفاة شيخ الهند محمود حسن ـ رحمه الله ـ أنها بعد قليل سائرة إلى الزوال ، وشعر بالتفرقة والانشقاق في صفوفها ، والفوضى الفكرية في قادتها وأعضائها ، وعدم الإخلاص والتربية في القادة ـ باستثناء بعض الخاصة ـ ،

وقلة الطاعة والنظام في الأعضاء العاملين والمتطوعين ، وعدم الانقياد والثقة في عامة المسلمين ، وندرة الأمانة في المسؤولين ، وسمع شكاوى الناس حول هذه الأمور ، وأحسَّ تذمُّرهم من هذه الأوضاع ، حتى رجع من كل ذلك ، نتيجة حفظها في مستودع فكره ، أنَّ الفوضى في الخارج هي نتيجة الفوضى في الداخل والفراغ فيه ، وإلى ذلك أشار محمد إقبال في شعره ، حيث قال :

« الصفوف معوجة منشقة ، والقلوبُ خاويةُ حائرة ، والسجدةُ خامدة جامدة ، لا حرارةَ فيها ولا شوق ، ولا عجب ! فقد انطفأت شعلة القلب وخمدت جمرة الفؤاد » .

إنه عَرَف أنَّ ضعف القيادة هو السرُّ الوحيد وراء كل هذا الاضطراب والفوضى بين الناس ، وأن السرَّ في ضعف الحياة وتضعضعها ، هو عدم وجود التربية لدى القادة والزعماء ، وجمود القلب والعاطفة .

إنَّ القادة قلب الجماهير ، ولكنَّ قلوب هؤلاء القادة بنفسها عدلت عن مكانها المقرر المرسوم ، وامتلأت بحب الدنيا وحب الجاه ، بدلًا من الإيمان واليقين ، والحب والعاطفة .

ورأى بعينيه ، أنَّ أهل الطرق والمشايخ في بلدة بنجاب ، أقاموا أسواقاً ومتاجرَ تباع فيها الطريقة وتشترى ، ويساوَم عليها كما يساوم على السلعة في عالم المادة ، أما غذاء القلب والروح ، وزاد المعرفة والإيمان ، فلم يبق منه إلّا اسمه أو رسمه ، وأنَّ النفوس لا تجد الآن في هذه الزوايا إلّا ما يغذّي النفس ويشجعها ، ويمنح العقل الشاطر المحتال سنداً وسلماً يرتقي به إلى دنياه .

إنه سمع بلاغة الخطباء الساحرة ، وخطبهم الرنانة ، واطّلع على أدب الكُتّاب ، ووفرة المعلومات في المؤلفات ، وبراعة أصحاب العلم والبيان ، وعاد منه بانطباع واحد ، وهو أنَّ كل ذلك أصيب بفقر الإخلاص ، والضعف في العمل ، وزوال الحب والعاطفة .

إنّ هذه الفترة ـ أي : منتصف القرن الرابع عشر ـ في الهند كانت فترةَ

خطابة دينية ساحرة ، وصلت إلى نقطة كمالها ، ولكنها لم تستطع أن توقظَ ركب الحياة الوسنان السكران من غفوته أو تعيده إلى سواء السبيل .

أنشد الشاعر الكبير (جكر مراد آبادي) مرةً ، إحدى قصائده الرائعة الرائقة أمام الشيخ ، فلما وصل إلى هذا البيت استحسنه الشيخ كثيراً ، لأنه يمثّل طبقة الوعاظ والخطباء في الهند أجمل تصوير :

« ما أروعَ كلماتِ الخطيب ، وما أجملَ تعبيره ، ولكنني لا أجد في عينيه بريقَ الحب ، ولا أقرأ في وجهه نورَ الإيمان ، وسيماء الحب والحنان » .

إنَّ دراسته الواسعة العميقة لهذه الأوضاع ، وتجاربَه الطويلة في الحياة ، انتهت به إلى نتيجةٍ أصبحت فيما بعد يقيناً وعقيدة ، وهي أنَّ مرد كل هذا الفساد في مختلف نواحي الحياة ، ورأس البلاء وأصل الشقاء ، هو عدم الإخلاص ، وسوء الأخلاق ، وأنَّ أكبر واجب ومهمةٍ في هذا العصر ، هو إحياءُ الإخلاص والأخلاق وتجديدهما ، وأكبر وسيلة للحصول عليهما هو الحب ، والطريق إلى الحب : الذكر والصحبة ، وعشرة عباد الله الصالحين والعارفين .

إنَّ هذا الإخلاص والحب يحيي مَواتَ الأعمال ، وينفخ الروح في الجهود الإصلاحية والكفاح الإسلامي ، ويملؤه قوةً وأملاً ونشاطاً وعزاً ، فترجع الروح إلى العبادات ، ويرجع النور إلى العلم ، وترجع القوة والبركة إلى التعليم والتدريس ، ويرجع التأثير إلى الخطابة والوعظ ، ويرجع القبول والقوة إلى الدعوة والإصلاح ، ويرجع الأثر المسلوب والجمال المحجوب إلى الكتابة والتأليف ، ويعود التوفيق والنجاح وحسن العاقبة إلى الجهود السياسية والتنظيمية ، ويعود الوئام والانسجام إلى الأواصر والعلاقات ، وتعود الوحدة الضائعة والائتلاف المفقود إلى الأحزاب والجماعات ، ويعود الحب والإيثار إلى الأفراد والمجتمعات ، وبالجملة : فقد تجري المياه مجاريها ، وتعطي القوسَ باريها ، ويزول كل لون من الضعف ، وكل نوع من الفوضى ، وذلك هو معنى الحديث الشريف : « ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صَلَحت صلح الجسد كله ، وإذا فَسَدت فسد الجسد كلُّه ، ألا وهي القلب » ، وهكذا

الأخلاق فلا تُتصوَّر الحياة متّزنة ناجحةٌ بغيرها ، ولا تفلح محاولةٌ اجتماعية بدونها ، فإن يرى أنَّ من أهم أغراض هذه الأذكار والأشغال التي توارثها القوم من صحبة الشيوخ ، والرياضات والمجاهدات ، تقويمَ الأخلاق وإزالةَ الرذائل ، وبعبارةٍ أصح : تزكية النفس ، فلا تكفي الأذكار والأشغال مطلقاً ، وإنما إصلاح الأخلاق واجب يلزم على كل سالك .

إنه كان ينظر قبل كل شيء إلى حياة الصحابة ، رضي الله عنهم ، وجهودهم العظيمة الخالدة ، التي انتشر بها الإسلام في نصف المعمورة في نصف قرن تقريباً ، وهبت ريح الإيمان في كل مكان ، فقد درس حياتهم وسيرتهم دراسةَ تعمّقٍ ووعي ، وكانت مجالسه دائماً تفوحُ بذكرهم وعاطِر أحاديثهم .

وكان له اطلاع واسع على حركة المجاهد الكبير السيد أحمد الشهيد (م ١٢٤٦هـ) وتاريخ رجاله ، وكان له بها شَغَفٌ عجيب ، وكان يقول :

إنه يبدو لدارس أحوالهم أنهم كانوا نموذجاً للصحابة ، عليهم رضوان الله ، في هذا العصر المتأخر ، نفس الحب والتفاني ، ونفس الحنين إلى الشهادة ، والرغبة عن الدنيا ، والإقبال على الآخرة ، والتضحية والإيثار والفداء والوفاء .

كان الشيخ عبد القادر واقعياً في طبيعته يحب العمل والاجتهاد ، ويراعي التطورات وتغيرات العصر ، وكان بعيداً عن الإفراط والتفريط ، وبعدَ الخيال الناتج عن الذكاء المفرط ، والمجاهدة المضنية ، والرجائية (المغالاة في الرجاء والتفاؤل) ، فكان ذهنه متوازناً للغاية ، وعملياً ، يبني أفكاره على دراسة الحقائق ومتابعة الأحداث ـ مهما تكن مُرَّةً ومشوِّشةً للذهن ـ ، وكان لا يغفل عن جوانب الضعف والمواضع المظلمة ، وكان له نظر ثاقب يراقب به التطورات والمتطلبات العصرية ، ويرعاها حق رعايتها ، ويوليها أهميتها وينبه إليها ، ويصرف الاهتمام إليها . ورغم أنه نشأ في بيئةٍ خاصة ، وعاشَ مدةً من الزمن في جو خاص ، مرتبطاً بطبقةٍ دينية خاصة ، كان متفتحَ الذهن ، وواسعَ الفكر ، دقيقَ النظر ، ناقداً بصيراً بالأمور ، لا يوجد له مثيل في رجال الطبقة

الدينية المتحفظة التي كان ينتمي إليها ، فكان من النظام المرسوم المتبع في رائيبور قراءة كتاب من الكتب المفيدة ، والاطلاع على الصحف اليومية والمقالات المهمة ، وأخبار الهند والعالم الإسلامي ، لا يرى في ذلك إخلالاً بما قامت له هذه القرية الهادئة والزاوية المنعزلة من الاشتغال بالله والانصراف عن الدنيا وشواغلها .

كان الشيخ الرائيبوري يؤكد ضرورةَ تقدم البلدان الإسلامية وتطورها اقتصادياً ، واستقرارها سياسياً ، واعتمادها ذاتياً ، ويصرف اهتمام المثقفين والمسؤولين وأصحاب النفوذ والسلطة الذين كانوا يشتركون في مجالسه أو يلتقون به (وخاصة خلال زيارته لباكستان) لذلك ، وكان ذلك موضوعه المحبب كلما ضمَّ مجلسهُ رجالًا من هذه الطبقة ، وقد أشار مرةً إلى إهمال في هذا الصدد في أحد مجالسه ، فقال :

« إنَّ المسلمين انغمسوا في أشغالهم وأصابهم النعاس فلا يفيقون ، فقد كان المسلمون نائمين نوماً عميقاً لما كانت أوروبة متيقظة ، فأعدَّت كلَّ نوع من المعدّات الحربية ، وأهملها المسلمون ، وكيف يمكن شنّ حربٍ بدون سلاح ، فلو تحوّلت جميع الدول المسلمة إلى دول إسلامية حقيقية ، فإنها لا تستطيع أن تتحمل نفقات حربِ يومٍ واحد » .

وكان الاهتمام بالقضايا الإسلامية ، وهمّ الإسلام ، والتفكير في مسائل المسلمين والقلق لهم ، طبيعته الثانية ، ومحور تفكيره ، ومحرك نظام حياته ، ولم يكن له وقت مخصص ولا عهد أو مرحلة حياة خاصة ، وإنما سَرَىٰ هذا الهم وامتزج بروحه وفكره ، فكان لا يفارقه ، ولا ينفصل عنه ، وكأنّه اندمج بدقات قلبه ، أو سرى في دمه .

إنه كان ينتمي إلى تلك الجماعة الربانية التي لا تصرفها أشغالها والعكوف على الذكر والتسبيح والانقطاع إلى الله ، عن تَتَبُّع حال المسلمين والتفكير في مسائلهم ، ولا تجعلها في غفلة عن قضايا المسلمين لحظة ، بل تزيدها اهتماماً بها ، وتحدث في قلوبها حرقةً واضطراباً زائداً لها ، ويتحول هذا الهم أحياناً إلى دموع ، ترسلها عيون رجالها فتتضرع إلى الله ، وتبتهل لنصرة المسلمين

ولعزتهم وسعادتهم، وأحياناً تغلبهم الشكوى على حال المسلمين ، والاعتراف بتقصيرهم وتهاونهم في الإسلام، فيتوجّهون إلى تذكيرهم وتنبيههم وإنذارهم، فيرسلون الدموع في خلواتهم ومناجاتهم مع الله ، وفي محافلهم ومجالسهم يحرك هذا الهمُّ ألسنَتهم للتنبيه والإنذار والتوصية ، فلا يفارقهم هذا الهم .

وقد بلغ هذا الهم ذروته في عام (١٩٤٧م) عندما هبت عاصفة هوجاء في شبه القارة الهندية ، وبدأ المسلمون يبحثون عن ملجأ لهم نازحين عن هذا الوطن الذي رواه أسلافهم بدمائهم ، فكان كالسليم الذي لا يهدأ له بال ، أو كأنه يتقلب على أحرّ من جمر .

شاهد الشيخ الرائيبوري مراحل نشوء القاديانية عن كثب ، فقد كانت له صلات معرفة قريبة بمنشىء هذا المذهب ، المرزا غلام أحمد ، والحكيم نور الدين خليفته ، وقادة هذا المذهب الآخرين ، فكان الشيخ خبيراً بأهداف هذه الحركة ومنطلقها ، والظروف التي نشأت فيها واتجاهاتها ، وعلى أساس هذه المعرفة الشخصية بزعمائها ، وأهدافها وبواعثها ، كان الشيخ الرائيبوري واثقاً بأنَّ هذه الحركة وسيلة للتخريب وهدم الإسلام ، وقد زاد كراهيتَه ونفورَه من هذه الحركة ، حبُّ الرسول ﷺ الذي كان يغمر قلبه ، وما كان يحمل من عواطف الهيام بذات الرسول ﷺ ، والإيمان العميق بأنه خاتم النبيين وإمام الأنبياء والمرسلين ، فكان يعتبر كل من يدّعي النبوة ، نداً للنبوة المحمدية ومعانداً لها ، فكان يغار على النبوة المحمدية وذات الرسول ﷺ ، ويحنُّ إليه كما يحن ويغار مُتَيَّمٌ إلى حبيبه ، وخادم وفيٌّ إلى سيده .

كانت هذه العاطفة والإيمان والصلة بذات الرسول ﷺ ، هي التي دفعت الشيخ محمد علي المونجيري مؤسس ندوة العلماء ، والسيد أنور شاه الكشميري إلى مكافحة هذه الحركة ، والجهاد ضدها ، فكانا يعتبران كل عمل لمقاومتها عبادةً وجهاداً ، كذلك كان الشيخ الرائيبوري مندفعاً قلبياً ووجدانياً إلى محاربة هذه الحركة ، ومؤمناً بضلالها ، وهو الذي نَفَخ الروحَ في القادة الذين قاموا بحركة مقاومة القاديانية[1] ، كحركة « أحرار إسلام » و « منظمة

---

(١) في مقدمتهم وعلى رأسهم الخطيب المصقع السيد عطاء الله شاه البخاري .

تحفظ ختم نبوت » والعلماء الآخرين ، وكان ذلك حديث مجالسه ، وخدمة دينية جليلة في ذلك العصر ، وكان الإسهام في حركة المقاومة للقاديانية أو الحديث عنه ، وسيلة للتقرب إليه والتحبّب لديه ، وهو الذي أمر كاتب هذه السطور بتأليف كتاب بالعربية في التعريف بالقاديانية والرد عليها ، فكان تأليف كتابي « القادياني والقاديانية » ونُقل إلى عِدّة لغات .

هذه جوانب من فهم الإسلام الفهم الصحيح الشامل ، والاهتمام بها يؤثر في حياة المسلمين الاجتماعية والسياسية ، والمرونة الخلقية والفكرية ، الجوانب التي لا تُتوقع غالباً من مُرَبٍ روحانيٍّ يعيش في عزلة عن الخِضَم السياسي والمجتمع الهائج المتطور ، عاكفاً على العبادة والدعاء للمسلمين ، وتربية القاصدين لإصلاح أخلاقهم وتزكية نفوسهم .

أما مكارم الأخلاق ، ودقائق السلوك الإسلامي الإنساني ، والزهد في الدنيا ، والاستهانة بالزخارف والمظاهر ، وعدم الاكتراث بثناء الناس ونقدهم ، والاستغناء عن الناس ـ بما فيهم من ولاة الأمور وحكام البلاد وكبار الأثرياء والوجهاء ـ ، والنظر إلى أكبر مقدار من المال كالحصاةِ والرمل ، والتوكل على الله ، وتكفّل الله بجميع حاجاته بطرق تحيِّر العقول ، والإنابة إلى الله في جميع الأحوال والاطّراح على عَتَبَةِ عبوديته ، فهو حديث يطول ، وقصص مشاهدات تذكّر بحكايات السلف التي دونها كتاب « حِلية الأولياء » لأبي نعيم ، و « صفة الصفوة » لابن الجوزي ، و « مدارج السالكين » لابن قيم الجوزية ، وقد جاءت أمثلتها ونماذجها في كتابنا « تذكرة الشيخ عبد القادر الرائيبوري » في شيء من التفصيل[١] .

لم أكن أدرك المدارجَ الروحية الباطنية في ذلك الوقت ولا أدركها الآن ، إلّا أنَّ مزايا الشيخ الثلاث أثرت فيَّ :

إحداها : تواضعه وما يسميه علماء النفس والكتّاب العصريون « بإنكار

---

(١) صدرت للكتاب عدة طبعات في الهند وباكستان ، والكتاب في أردو ويقع في ٣٥٢ صفحة .

الذات » الذي لم أرَ له نظيراً ولا أعلم له مثيلاً ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٧٦] .

والثانية : سعة أفقه ورحابة صدره وواقعيته التي لم أشاهدها في كبار العاملين في مجالات الحياة ، والعلماء المحنكين والقادة السياسيين الذين جربوا الحياة حلوها ومرها . وقد ساعدتني طبيعتي الخاصة ، ودراستي المتنوعة وبيئتي التي نشأت فيها ـ فقد تربيت تربيةً عقلية فكريةً عاطفية ـ على تقدير هذه المزايا التي خصَّ الله الشيخ بها ، ولم يكن لمثلي أن يتجاوب مع هذه السعة في التفكير والرحابة في الصدر ، والاتصال بالعصر الذي يعيش فيه علماً وتفكيراً وشعوراً وتألماً ، وهو الذي حثّني على إتمام سلسلة « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » ، وكان يحرّضني دائماً على ذلك ، وعلى تأليف الكتب المفيدة ، والاشتغال بالقضايا الإسلامية ، ونشر الثقافة والقيام بالدعوة .

والميزة الثالثة : العطف علي ، العطف الذي لا أستطيع أن أشبهه إلّا بعطف الأمّ وحنانها .

* * *

شيخ الحديث
مولانا محمد زكريا الكاندهلوي

وُلِدَ في بيتٍ عريق في العلم والدين ، امتاز رجاله وأسلافه بعلو الهمّة ، وشدَّةِ المجاهدة ، والتمسُّك بالدين والصلابة فيه ، والحرص على حفظ القرآن وقراءته وطلب العلوم الدينية ، أشهرهم في الأوّلين الشيخ العلامة المفتي إلٰهي بخش الكاندهلوي (١١٦٢هـ ـ ١٢٤٥هـ) ، تلميذ الشيخ عبد العزيز ولي الله الدهلوي ، وخليفة المجاهد الشهير السيد أحمد الشهيد البريلوي ، وأشهرهم في الآخرين الداعي إلى الله المشهور في الآفاق عمه الشيخ محمد إلياس بن محمد إسماعيل الكاندهلوي صاحب دعوة « التبليغ » المشهورة (١٣٦٣هـ) ، ودرس وجاهد في سبيل الله غير واحد من أفراد هذه الأسرة ، وجده الشيخ محمد إسماعيل الكاندهلوي (١٣١٥هـ) من الذين اتفقت الألسنة على إخلاصه وصلاحه وزهده .

وُلد لإِحدى عشرة ليلة خلت من رمضان في (كاندهلة) من أعمال مظفر نكر ، سنة (١٣١٥هـ) ، ورضع بلبان العلم والدين ، ونشأ في تصوّنٍ تام وتربية دقيقة حكيمة ، ونقل إلى كنكوه ، وهو قريبُ العهد بالفطام ، فدبَّ ودرج بين الصالحين والعلماء الراسخين ، وأدرك الشيخ الكبير العلامة (رشيد أحمد الكنكوهي) وسعد بحنانه وعطفه الأبوي ، لما بينه وبين والده من اختصاص ، وعقلَ أولَ ما عقل أيامه وشفقته ، وقد بلغ الثامنة من عمره حين انتقل الشيخ إلى رحمة الله تعالى ، وبقي في كنكوه إلى أنْ بلغ الثامنة عشرة من عمره ، فنشأ في بيئةٍ هي أفضل البيئات في ذلك الزمان وأكثرها محافظةً على الآداب والسنن ، وأبعدها عن الفساد الذي بدأ في البلاد ، ووالده يعتني بتربيته أشد الاعتناء ، ويحاسبه على النقير والقطمير ، ويأخذه بعلو الهمة في كل شيء ، والإِقبال على العلم وصحبة الصالحين إقبالاً كلياً ، والابتعاد عن

الاختلاط بالناس ، وكان والده أشد اعتناءً بالتربية منه بالتعليم ، فقرأ مبادىء اللغة الأردية والفارسية على عمه الشيخ محمد إلياس وحفظ القرآن .

ثم انتقل مع والده سنة (١٣٢٨هـ) إلى « سهارنبور » ، المركز العلمي الكبير ، وأقبلَ على العلم إقبالاً بالقلب والقالب ، واشتغل به بهمّةٍ عالية وقلبٍ متفرّغ ، وبدأ درس الحديث على والده وقد تهيأ تهيؤاً كبيراً ، ودعا في آخر الدرس دعاءً طويلاً ، ومن ذلك اليوم أصبح الحديث أكبرَ همه ، وغايةَ رغبته ، وشعاراً يعرف به وغلب على اسمه ، فاشتهر في آخر الأمر بشيخ الحديث ، وقرأ الكتب الستة على والده (غير سنن ابن ماجه) سنة (١٣٣٣هـ) ، ثم قرأ صحيح البخاري وسنن الترمذي على العالِم الجليل والمربي الكبير الشيخ (خيل أحمد السهارنبوري)[١] ـ والذي قدر الله أن يكون أكبر خلفائه وناشر علومه ومفيض بركته ـ سنة (١٣٣٤هـ) ، وكان ذلك بطلب واقتراح من الشيخ لما توسَّم فيه من النجابة وصدق الطلب وعلوّ الهمة ، ولما بينه وبين والده من الحب العميق والرباط الوثيق ، وقضى هذه المدة في عكوفٍ كامل على الدراسة ، وفي إجهاد النفس وإرهاقها في المطالعة ، والاطلاع على المصادر والاستعداد للدرس .

وكان مما أكرمه الله به أنَّ شيخه أبدى رغبته وحرصه الشديد على وضع شرح لسنن أبي داود ، وطلب منه أن يساعده في ذلك وأن يكون له عضده الأيمن وقلمه الكاتب ، وكان ذلك مبدأ سعادته وإقباله ، ووسيلةَ وصوله إلى الكمال واختصاصٍ لا مزيد عليه بالشيخ ، فكان الشيخ خليل أحمد يرشده إلى المظان والمصادر العلمية التي يلتقط منها المواد ، فيجمعها الشيخ محمد زكريا ، ويعرضها على شيخه فيأخذ منها ما يشاء ، ويترك ما يشاء ، ثم يملي عليه الشرح ، فيكتبه ، وهكذا تكوّن كتاب « بذل المجهود في شرح سنن أبي داود » في خمسة أجزاء كبار ، وفتح ذلك قريحته في التأليف والشرح ، ووسَّع نظره في فن الحديث ، ثم اهتم بطبعه في المطابع الهندية ، والعناية

(١) اقرأ ترجمته في الجزء الثامن من « نزهة الخواطر » ، للعلامة السيد عبد الحي الحسني طبع دائرة المعارف العثمانية حيدرآباد الهند .

بتصحيحه وإخراجه ، بإخلاص كامل ومجاهدة شديدة ، فنال بذلك رضا شيخه ، وحاز ثقته ، حتى انتهى ذلك إلى ما انتهى إليه من خلافة ونيابة ، وإقبال القلوب والنفوس إليه ، وما وُفّق له من بعد من جلائل الأعمال وفضائل الأخلاق .

وعُيِّن مدرساً في (مظاهر العلوم) ، التي كان يدرس فيها شيخه ـ ووالده من قبل ـ ، والتي تعلَّم فيها ، وكان ذلك غرة محرم سنة (١٣٣٥هـ) وهو أصغر الأساتذة سناً وأشبُّهم عمراً ، وكان راتبه زهيداً لا يُتَصور في هذا الزمان ، وأسند إليه تدريس كتب لا تسند عادة إلى أمثاله في العمر ، وفي أول التدريس ، ولم يزل يتدرج فيها حتى أسند إليه تدريس بعض أجزاء من صحيح البخاري في سنة (١٣٤١هـ) ، وأثبت المدرس الشاب جدارته وقدرته على التدريس حتى أصبح رئيسَ أساتذة هذه المدرسة ، وانتهت إليه رئاسة تدريس الحديث أخيراً ، وكان أكثر اشتغاله بتدريس سنن أبي داود ، ويدرس النصف الثاني من صحيح البخاري في آخر السنة ، وبعد وفاة الشيخ عبد اللطيف مدير المدرسة ، آلَ إليه تدريس الجامع الصحيح بكامله ، فواظب عليه مدة طويلة مع ضعف بصره وأمراضه الكثيرة ، ولم يعتذر عنه إلّا في أول السنة الدراسية في سنة (١٣٨٨هـ) .

ولم يأخذ الشيخ محمد زكريا ما عُيِّن له من المرتب ، ولمّا اضطر بأمر شيخه إلى أن يأخذها مجموعة لينفقها في الحجة الثانية سنة (١٣٤٤هـ) التي رافق فيها أستاذه ليكمل تأليف « بذل المجهود » ، أخذها الشيخ محمد زكريا امتثالًا لأمر شيخه وتطييباً لخاطره ، ثم ردها إلى المدرسة بجملتها ، وهكذا كان اشتغاله بالتدريس طول هذه المدة تطوعاً وتبرعاً ، لا يأخذ في ذلك أجراً ولا يبغي جزاءً ، وعُرِضت عليه مرتين وظيفتان للتدريس براتب كبير يزيد على راتبه « الرمزي » في مظاهر العلوم أضعافاً مضاعفة ، وكان امتحاناً شديداً لإخلاصه وعلوّ همته ، فقد كانت هذه الوظائف مما يتنافس فيها المتنافسون ويتهالك عليها الطالبون ، فاعتذر عنها في صرامة وعزم ، وفي ثقة وإيمان ، فكافأه الله على ذلك مكافأة لم يكن يتصورها ، وعوّضه من ذلك بما هو خير وأبقى .

وكانت سفرة (١٣٤٤هـ) للحج التي رافق فيها شيخه هي سفرة شيخه الأخيرة ومبدأ سفره للآخرة ، فأكمل تأليف « بذل المجهود » ، وهنالك حصلت له الإجازة العامة والخلافة المطلقة عن الشيخ خليل أحمد ، وفي هذه الرحلة وأثناء إقامته في مدينة الرسول ، عليه أفضل الصلاة والتسليم ، بدأ في تأليف كتاب « أوجز المسالك » في شرح الموطأ لإمام دار الهجرة الإمام مالك ، وهو في التاسعة والعشرين من عمره ، بدأ في تأليفه في مسجد الرسول ﷺ ، وبارك الله في الكتابة والتأليف ، فأكمل في بضعة شهور ما لم يكمله في سنين عديدة في الهند ، ووصل في الشرح إلى أبواب الصلاة ، وظل مشتغلاً به بعد عودته إلى الهند ، تتخلله فترات طويلة حتى أكمله في ستة أجزاء كبار .

وعاد إلى الهند مكرّماً محبباً مثقلاً بالأعباء ، قد شخصت إليه الأبصار ، وارتفعت إليه الأصابع واتّجهت إليه القلوب ، فأقبل على التدريس والتأليف بجميع همته .

وتوفي شيخه في الحجاز سنة (١٤٣٦هـ) ، فآلت إليه المشيخة ورئاسة تدريس الحديث ، والإشراف على تربية أصحابه ، والاتصال بمراكز العلم المنتشرة حوله ، وبالجماعات الدينية التي تلوذ به وتلتقي عليه وتصدر عن رأيه .

وكان بيته ملتقى العلماء والطلبة والواردين والصادرين ، الذين قد يحملون آراء متناقضة ، وأذواقاً مختلفة ، وينتمون إلى مدارس متباينة ، ورأيه الحصيف ، وما رزقه الله من السداد والاقتصاد يؤلّف بين القلوب المتنافرة والآراء المتباينة ، ومائدته الواسعة تجمع كل صنف من الناس ، وكل طبقةٍ من الرجال ، وكل فرد من الجماعات المتنافسة ، وهو محافظ على أوقاته وأشغاله ، دؤوب في المطالعة والتأليف ، بَشُوش منبسط مع الوافدين ، يؤتي كلَّ ذي حق حقه ، ويعرف لكل صاحب فضلٍ فضلَه ، ويُنزل الناس منازلَهم ، ولا يشغله تلقّي الضيوف وحسن وفادتهم عن المطالعة ، ولا تشغله المطالعة وما فطر عليه من حب العلم والانزواء والخلوة ، عن البشاشة ، وبذل الود ، وطيب النفس ، ولا يشغله كل ذلك عن الاشتغال بربه ، والانفراد بعبادته

ومناجاته ، وعن تربية المريدين ، وعن حضور حفلات التبليغ ، وعن وضع كتب ورسائل في الإصلاح والدعوة إلى الله ، في أسلوب سهل يتنزل فيه إلى مستوى العامة ، وقد تُلقيت هذه الرسائل بقَبول عام ، وانتفع بها خلق لا يحصون ، وظهرت لها طبعات لم تتيسر إلّا لكتبٍ دينية معدودة في عصرنا ، هذا مع جذبةٍ قاهرةٍ إلى رفض جميع الأشغال والمسؤوليات ، والفرارِ من الناس والتبتّل الكلي ، والتفرغ للعبادة والمناجاة والاشتغال مع الله ، ولا يقدر على قهر هذا الدافع وجمحه بكل ما يشتّت القلب ويكدِّر صفاء النفس ، إلّا كبار الأقوياء الذين أراد الله أن ينفع بنفوسهم وأنفاسهم ، وعلومهم ومؤلفاتهم .

وأوقاته مشغولةٌ بأمور نافعة موزعة بينها ، يحافظ عليها بكل دقة وشدة ، فإذا صلّى الفجر جلس قليلاً ، مشغولاً بحزبه ووِرده ، ثم يخرج إلى بيته ويجلس مع الناس ، ويتناول الشاي من غير فطور وأكل ، ويكثر عدد الناس في هذا الوقت ، ثم يطلع إلى غرفة مطالعته فيشتغل بالمطالعةِ والتأليف ، ولا يزوره في هذا الوقت إلّا من يطلبه أو من يكون مستعجلاً من الضيوف ، وغرفته هذه تذكّر بالسلف المنقطعين إلى العلم والتأليف ، فهي آيةٌ في البساطة والتقشف ، ومجرّدةٌ عن كل زينة وتكلف ، ويثقل عليه أن يزعجه أحدٌ بزيارته ويصرفه عن شغله ، فإذا كان وقت الغداء نزل وجلس مع الضيوف الذين يكثر عددهم عادةً ، وهم من طبقات شتى ، فيؤنسهم ويلاطفهم ويبالغ في إكرامهم ، والتفقد لما يسرهم ويلذّ لهم ، فيكثر من ذلك ، ثم يقيل ، فإذا صلّى الظهر اشتغل بإملاء الرسائل والرد عليها[1] قليلاً ، ثم خرج إلى الدرس ، وكان يشتغل به ساعتين كاملتين قبل العصر ، فإذا صلّى العصر جلس للناس ، وقدم لهم الشاي وهم في عدد كبير ، يتوهم الزائر أنه في حفلة صغيرة ، وأنه شيء جديد ، وهو له عادة فإذا صلّى المغرب اشتغل طويلاً بالتطوع والأوراد ، ولا يتناول طعامَ العشاء عادةً إلّا إكراماً لضيف كبير .

(١) علمت في بعض زياراتي أن عدد الرسائل التي تأتيه من أنحاء مختلفة يتراوح عددها بين ٤٠ و٥٠ يومياً .

وهو مربوعُ القامة ، جسيمٌ وسيم ، أبيضُ اللون ، مُشْرَبٌ بالحمرة ، كأنما فُقِئ في وجنتيه حبُّ الرمان ، كثير النشاط ، لا يعرف الكسل ، خفيف الروح ، بشوش ودود ، كثير الدعابة مع الذين يأنسهم أو يحب أن يؤنسهم ، سريعُ الدمعة ، جريح المقلة ، كلما ذُكِر شيء من أخبار الرسول ﷺ أو الصحابة والأولياء ، وأُنشد بيت رقيق مرقِّق فاضت عيناه ، وتملكه البكاء ، وهو يغالبه ويخفيه فتنم عليه الدموع ، وليس الحديث له صناعةً وعلماً فحسب ، بل هو ذوق وحال يعيش به ويعيش فيه .

وتوفي عمه الكبير الذي كان صِنْوَ أبيه وأستاذه وصهره ، ومن أحبّ الناس إليه ، وأعظمهم حنواً عليه ، الشيخ محمد إلياس سنة (١٣٦٣هـ) ، فكان المصاب عظيماً ، والواقع كبيراً ، فتحمله في صبر العظماء ، ثم توفي ابن عمه الذي كان عضده الأيمن وأحبَّ إليه من أولاده ، والذي كانت حياته كلها غناءً للمسلمين ، وذخراً للدين ، وكان فضله كبيراً على المسلمين ، الشيخ محمد يوسف بن إلياس سنة (١٣٨٤هـ) ، فطمَّ الأمر وعظُمَ الخطب ، وكانت الخسارة فادحة ، وتتابعت المحن والحوادث ، ومن قبل توفي الشيخ حسين أحمد المدني سنة (١٣٧٧هـ) ، والشيخ عبد القادر الرائيبوري سنة (١٣٨٢هـ) ، وكان شديدَ الحب لهما ، فتحمل كل هذا في إيمان وصبر ، في إكمال المبتدئين وتربية المريدين ، وتوجيه القاصدين ، والإشراف على مراكز العلم والدين ، هذا مع إجهاد شديد للنفس في النوافل والعبادات ، وفي الجمع بين الأشتات والمتناقضات ، خصوصاً في رمضان فإنه كان ملازماً لختمة القرآن في كل يوم ، وطول السهر في الليل والاجتزاء بالأكل اليسير ، ويصوم عنده بضع مئات من الناس ، ويعتكفون أكثر الشهر ، وكلهم ضيوفه : فأثّر كل ذلك في صحته ، وفي بصره ، وهو صابرٌ محتسب ، دائب مستمر ، لا يتوانى ولا يكلّ ، ولا يسأمُ ولا يمل ، وسافر للحج للمرة الثالثة بطلب من ابن عمه الحبيب الشيخ محمد يوسف وإلحاح منه ، سنة (١٣٨٣هـ) ، وللمرة الرابعة مع الشيخ إنعام الحسن أمير جماعة التبليغ وختنه العزيز سنة (١٣٨٦هـ) ، وكان إقبال الناس عليه عظيماً في كلتا الرحلتين ، خصوصاً في باكستان ، فكان الناس يفدون لزيارته من أنحاء

بعيدة وينتهزون فرصة مروره بهذه البلاد فينتفعون بصحبته ودعائه .

وسافر على جناح الشوق والحنين للمرة الخامسة إلى الحجاز في صفر (١٣٨٩هـ) ، وكأنه مدفوع إلى ذلك لا يملك صبراً ولا قراراً ، وقد نذر صومَ شهرين متتابعين شكراً على هذه النعمة ، وملازمة الوضوء إلّا للاضطرار .

وقد أسعد الله كاتب هذه السطور بمرافقته في هذه الرحلة ، فرأى من علوّ همته وقوة إرادته ، وشدة أدبه مع الرسول ﷺ ، وشدة حبه له ، وشوقه إليه ، ومن علو استعداده ومداركه ، وما أكرمه الله به في هذه المدة من القرب والاختصاص ، ما جدَّد ذكرى الأقدمين ، وصدَّق ما جاء في كتب أخبار السلف الصالحين ، فكان يجلس تجاه أقدام أفضل الرسل ساعات متواليات ، مشغولًا مراقباً ، رغم ضعفه وكبر سنه وعلله الكثيرة ، لا يفتر ولا يشبع من ذلك ، وكان يتمنى البقاء في هذه البقعة المباركة ، وفي هذا الجوار الكريم حتى يفارق الدنيا ويلحق بربه ، ويعز عليه حديث العودة ، إلّا أنَّ دعوات المسلمين ، وما يعانونه في الهند من مشاكل ومسائل تتطلَّب بقاءه بجوارهم ، وما تعانيه المدارس الدينية من أزمات ومعضلات ، وما تحتاج إليه في الهند جماعة التبليغ من إرشاد وتوجيه ، وإشراف ومراقبة ، اضطرته إلى العودة ، فعاد بسلامة الله في شهر ذي القعدة سنة (١٣٨٩هـ) ، ومرَّ في طريقه من باكستان فتهافت عليه الناس تهافت الفراش على النور ، والتفوا حوله في كل مكان كان ينزل فيه ، وظهر من إقبال الناس عليه وحبهم له ما لم يسمع من زمن بعيد .

ثم عاد إلى المدينة المنورة وجاور في جوار المسجد النبوي ، عاكفاً على العبادة والذكر والإملاء والإرشاد ، والتربية الروحية ، وتزكية النفوس ، والحث والتشجيع على الدعوة إلى الدين ونشره ، والقيام بأعباء التعليم الديني ، وفتح المدارس والتعاون على البر والتقوى ، لا شأن له بأمور الدنيا إلّا ما ينفعه في الآخرة ، متمنياً داعياً من الله أن يلقى الحِمام في جوار الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، ويجد مكاناً في البقيع بجوار الصحابة وأهل البيت الكرام .

وقد حقق الله أمنيته وأتاه الأجل المحتوم في آخر شهر رجب عام (١٤٠٢هـ) ، وشُيِّعت جنازته في جمعٍ عظيم قلّما رآه الناس لعالِم أو كبير في هذا البلد الكريم ، ودُفن بجوار شيخه المحدث الكبير (خليل أحمد السهارنبوري) في حظيرة أهل البيت الكرام ، غفر الله له ورفع درجاته .

* * *

الأمير الفاضل
الشيخ حبيب الرحمن الشرواني

في سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٥م) شهدتُ حفلة لندوة العلماء بـ (لكهنؤ) ، كنت يومئذ ابن عشر سنوات ، دخلت في قاعة دار العلوم وهي مكتظة على سعتها بالحاضرين ، واسترعىٰ بصري رجلٌ على منصة القاعة لم أرَ مثله جمالاً وبهاءً ، ووقاراً وحسن شارة ، ونظافة ملبس وأناقته ، يجمع بين مهابة العلماء ، وسراوة الأمراء ، وظرافة الأدباء ، كأنه من بقايا الملوك الفضلاء في إحدى الدول الإسلامية ، وما لبثت أن علمت أنه رئيس الحفلة ـ النواب صدر يار جنك مولانا حبيب الرحمن خان الشرواني ـ من أمراء مديرية (عليكره) ، ووزير الأمور الدينية في حكومة حيدر آباد ، رأيت رجلاً تزدان به الرئاسة وتتجمّل ، أكثر مما يتجمل بها .

كانت هذه زيارتي الخاطفة وازددت معرفةً بالرجل ، وكان يزور دار العلوم مرةً أو مرتين أو أكثر في العام ، فقد كان عضوها العامل وأحد مؤسسيها ، وكان الطلبة يعقدون له حفلةَ تكريم في كل زيارة ، وكان يخطب فيها ، وكان خطيباً بارعاً يستحق أن يُتَّخذ مثالاً في الخطابة ، فقد استوفىٰ أكثر شروط الخطابة وجمع أكثر ما وصَف به علماءُ البلاغة الخطباء ، فارعَ القامة ، رائعَ الشخصية ، واضح اللهجة ، معروف النسب ، رابط الجأش ، له شعور بالشخصية في غير عُجب وكبرياء ، وثقة بالنفس في غير مبالغة وغرور ، فكان إذا خطب ملك على الناس إعجابهم ، ونفذ في عقولهم وقلوبهم .

وتقدمت بي السنّ والدراسة ، فقرأتُ كتابَه : « علماء السلف » ، فأثَّر في عقليتي تأثيراً كبيراً ، وهو من الكتب التي أدين لها بالفضل ، فقد بعث في نفسي الحرص على العلم والاجتهاد في طلبه ، ويشاركني في هذا الشعور والاعتراف عدد كبير من الطلبة وتلاميذ المدارس العربية ، وإليه يرجع الفضل

في علوّ همتهم في طلب العلم وتحمُّل المشاق ، والتعب في سبيله ، وسهر الليالي ، والتوسع في العلوم ، والتفنن في فضائلها .

وقرأت له كذلك « سيرة الصديق » ، وهو من الكتب التي أملاها عليه وجدانه ، وفاض بها قلبه ، قبل أن يفيضَ بها قلمه ، وتلك صفة الكتاب الذي يكتب له التوفيق ويحكم له بالتأثير ، وكان دائماً إذا ذكر سيدنا أبا بكر الصدّيق ، رضي الله عنه ، في خطبه أو مجالسه لم يملك نفسه ، واندفع يحكي حكايات زهده وتقشفه في خلافته ، وأمانته في بيتِ مال المسلمين ، وكيف ردّ الدراهم التي وفّرتها زوجته للحلوىٰ إلى بيت المال ، وأمر باقتطاع هذا المقدار من راتبه ، لأنه يَفْضُل عن حاجته ، وذلك كله بأسلوب مؤثر ، وصوت شجي يغالب البكاء ، فتارةً يغلبه ويخفيه ، وطوراً يملك على نفسه فيفشيه .

وعرفت بعد ذلك أنه أديبٌ من الطراز الأول ، وصاحب أسلوب في إنشاء (أردو) يُعْرف به ، يمتاز بقلة الألفاظ ، وكثرة المعاني وإصابة الغرض ، وله أسلوبٌ أدبي في سياق التاريخ ، وجمل مرسلة تفاجىء القارىء على غفلة منه فيطرب لها ، وتراكيب فارسية جميلة قد تكون مبتكرة ، ولولا أنه من العلماء والأمراء لعُدَّ من كبار الأدباء ، فإنَّ الناس لم يألفوا إلّا محترفاً أو عالماً توفّر على دراسة الأدب وإخراج الكتب الأدبية ، أما الذي يمزج الأدب بالعلم والدين ، أو يُعرف بالغنىٰ أو الصلاح ، فلا يصدقون أنه أديب مبتكر ، أو صاحب أسلوب .

ومقدماته على الكتب الأدبية والتاريخية ، وخطبه في ندوة العلماء ، و مؤتمرات (أردو) وفي (لاهور) وحفلات المؤتمر التعليمي الإسلامي . . مثالٌ للأدب العالي والإنشاء البليغ .

وقد جَنَتْ إمارته على علمه جنايةً كبيرة ، فلو لم يكن من أصحاب الإمارات والثراء لعُدَّ من كبار العلماء ، فقد دَرَس العلوم الدينية والعقلية والأدبية على أساتذتها الكبار بإتقان وتفصيل ، وتخرَّج على الأستاذ الكبير الشيخ (لطف الله العليكري) الذي انتهت إليه رئاسة التدريس في عصره ، وخطبُه في حفلات ندوة العلماء ، ومقالاته في نقد منهاج الدرس الجاري ،

وتطبيقه في المدارس القديمة ، وانتقاده لتاريخ بغداد للخطيب ، تشهد لغزير علمه وعميق نظره .

وكان مؤرخاً كبيراً ، واسعَ الاطلاع على المصادر العلمية ، متصلاً بالحركة العلمية وتيارها ، لا ينقطع عن ركب الثقافة السيّار ، ولا يختلف عنه رغم كبر سنّه وكثرة أشغاله ، يتصل دائماً بالحديث الأحدث من المنشورات والمقالات ، فيزين به مكتبته العامرة ويطالعه ويبدي فيه رأيه .

وكان غالباً يكتب في أرقىٰ مجلات الهند العلمية « معارف » الشهرية ، التي كان يصدرها العلاّمة الدكتور السيد سليمان الندوي من أعظم كره .

وكان مشتركاً في شبابه مع الأستاذ الكبير والمؤرخ الشهير مولانا شبلي النعماني في إنشاء مجلة « الندوة » ، وكانت مجلة علمية لها مكانة عالية في الأوساط العلمية ، وكان معالي مولانا أبو الكلام آزاد وهو في مقتبل شبابه نائب رئيس التحرير لهذه المجلة .

وكان أحب موضوع إليه الحديث عن الثقافة الهندية الإسلامية ورجالها ، وأخلاق العلماء ، وأخبار قناعتهم ، وكبر نفسهم وشغفهم بالعلم وعكوفهم على الدرس والمطالعة ، وإذا ذكر شيخه مولانا لطف الله وذكر مجالس درسه التي اشترك فيها ، وشخصيته الفائقة فصوَّرها لأهل مجلسه ذهل عن كل شيء .

وكتابُه « أستاذ العلماء » الذي ترجم فيه لأستاذه المحبوب ووصفه لقارىء الكتاب ، مثال جميل لكتب التاريخ والتراجم ، وينبىءُ عن وفائه لأستاذه وشدة إعجابه به .

وكان من آخر أدباء الفارسية في الهند ، لأنَّ دور الأدب الفارسي في الهند كاد ينتهي ؛ له شعر رصين في الفارسية ، واستحضار غريب لغُرر أشعار أئمة الشعر الفارسي ونجومه ، وله ذوقٌ عالٍ وبصرٌ نافذ في اختيار المعجب المطرب من قصائدهم ومنظوماتهم ، لا يشاركه في التذوق بالأدب الفارسي والتضلّع منه إلّا صديقه معالي مولانا أبو الكلام آزاد وزير المعارف للهند بعد الاستقلال ، تشهد بذلك مراسلاتهما ومطارحاتهما التي نُشِرت في كتاب « كاروان خيال » و « غبار خاطر » .

وكان من الشغوفين بجمع الكتب واقتناءِ النوادر من الآثار العلمية والمؤلفات القديمة ، وكان أعزَّ شيء عليه مكتبته الفاخرة الثمينة التي تُعد من أغنىٰ مكتبات الهند كتباً خطية وآثاراً عتيقة ، يزورها العلماء من الأقطار البعيدة ويفيدون منها ، ويعترفون بفضلها في مقدمات كتبهم ومقالاتهم ، وكانت له عناية عظيمة بها ، لا يزال يزيد في ثروتها وقيمتها ، وقد وضع لها بقلمه فهرساً مفصّلاً في مجلدٍ ضخم أشار فيه إلى خصائص الكتب ونبّه على مؤلفيها كل ما تهم معرفته ، وهذا الفهرس ينمُّ عن واسع اطلاعه وعكوفه على الدراسة . ولم يقتنع بهذه الفضائل العلمية ، ولم تقتصر عليها همته ، وأراد أن يجمع إلى ثقافته وعلمه عمارة الباطن بالإيمان والإحسان ، وعمارة أوقاته بذكر الله ، وأن يجمع بين حسنتي الدنيا والآخرة ، فاتصل في شبابه بالمربي الكبير مولانا (فضل الرحمن الكنج مراد آبادي) ، وأفاد من صحبته وعلومه ، وحافظ على ذلك طول عمره ، فكان محافظاً على الجماعة والتطوعات ، وكانت له رواتب وأوراد يداوم عليها في السفر والحضر ، وكان في آخر أيامه قد فقدَ الحسَّ ، وخانته ذاكرته فلم يعد يعرف أحداً ، ولم يزل مع ذلك مشتغلاً بالصلاة على النبي ﷺ حتى فارق الدنيا .

لقد رأيت في جولاتي الواسعة واتصالي بطبقات الناس ، رجالًا نوابغ في كل فن ، لقد رأيت رجالَ العلم ، ورجالَ الدين ، ورجالَ الأدب والشعر ، ولكني ما رأيتُ أجمعَ منه للفضائل المتشتتة ، ولا أوسع منه ثقافة ، فقد كان أميراً في الأمراء ، وأديباً في الأدباء ، وشاعراً في الشعراء ، ومؤلفاً في المؤلفين ، وناقداً في النقاد ورجلاً تعليمياً في رجال التعليم ، حتى إذا ضمهم مجلس وجمعتهم دار ، كان واسطة عِقْدهم وملتقىٰ أذواقهم وثقافتهم ، يلتفّون حوله ويصدُرونَ عن رأيه ، ويقلدونه الرئاسة والزعامة لشأنهم .

لذلك تراه وزيراً في حيدر آباد ، وأمين المؤتمر التعليمي الإسلامي بعد وفاة (السر سيد أحمد خان) مدةَ حياته ، ورئيس دار المصنفين الدائم ، ورئيس حفلات (ندوة العلماء) مرة بعد مرة ، ورئيس مؤتمر (أردو) حيناً بعد حين ، وتمنحه جامعة (عليكره) دكتوراه شرف ، وتقلّده رئاسة القسم الديني الفخرية . تسمعه يخطب في مدرسة قديمة (كديوبند) فإذا به خطيباً في

كلية عصرية ، أو جامعة كالجامعة العثمانية في حيدر آباد ، أو الجامعة الإسلامية في (عليكره) . ثم تراه يرأس نادياً أدبياً ، أو مؤتمراً شرقياً ، ويجمع بين اللغات والثقافات ، ولقد تعلم اللغة الإنجليزية في كلية (آكره) الكبرى ، والعلوم العربية في مدرسة مولانا لطف الله .

لقد عرفته من صغري ، فقد كان صديقاً لأبي مولانا عبد الحي ، رحمه الله ، مدير ندوة العلماء الأسبق وزميله في تأسيس هذه المؤسسة الكبيرة دار العلوم التابعة لها ، ثم كان شريكاً له في العلاقة بمولانا (فضل الرحمن) ، فكان إذا رآني ضمني إلى صدره وعانقني كأني أحد أولاده ، وكانت بيني وبينه مراسلات أحتفظ بها ، ولما توليت إنشاء مجلة « الندوة » الشهرية مع زميلي الأستاذ (عبد السلام القدوائي الندوي) ، طلبت من كبار رجال العلم وقادة الفكر الهندي أن يتحدثوا عن الكتب التي لها فضل خاص في تكوين عقليتهم وتركيب ثقافتهم وفي سيرتهم وخلقهم ، وسألت مولانا (الشرواني) أن يفتتح هذه السلسلة بمقالته ، فتنازل ولبّىٰ رغبتي ، وتفضَّل بمقالة قيمة تشهد بدراسته الواسعة المتنوعة وطول سياحته بين الكتب والمؤلفات ، وسلامة فكره وصفاء حسه ، وقد نشرت هذه المقالات في كتاب مفرد .

ولقد كانَ مولانا الشرواني واحداً من ركب الحضارة والثقافة الراحل ، وأراد الله أن يتخلَّف عن رفقته وأترابه لمدة ، حتى يتمتع به رجال هذا العصر ، ويعرفون به رجال التاريخ القديم ، كالصاحب ابن عباد ، والأمير أبي الفضل الميكالي ، والمسند العالي عبد العزيز آصف خان وزير كجرات ، وخواجه عماد الدين محمود الكيلاني ، ويصدقوا ما قيل عنهم ، حتى إذا بعدت الشقة بينه وبين هذا العصر وثقافته وأخلاقه ، وشقَّ عليه طول المكث في دار غربة ، أَذِنَ الله له في السفر يوم الجمعة في ٢٦ من شوّال ١٣٦٩هـ (الحادي عشر من أغسطس سنة ١٩٥٠م) ، فالتحق بأصدقائه ورفاقه وترك في الحياة العلمية والدينية فراغاً لا يُرجى سداده في مدة قريبة ، فإنَّ المدرسة الشرقيةَ الإسلاميةَ التي كانت تخرِّج هذا الضَّرب من الرجال قد أقفلت ، أو هي في إجازةٍ طويلة لا تعرف نهايتها ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

* * *

الشيخ خليل بن محمد اليماني[١]

كل من ينحدر من أصل عربي يدعى في الهند بـ (عرب صاحب) حباً وإجلالًا له ، مهما كانت منزلته العلمية والدينية ، وحينما لم يكن السفر من بلد إلى بلد عرضة القيود والإجراءات الرسمية ، كانت المدن الكبيرة للهند تشهد الزائرين الوافدين من الحجاز الذين كانوا يتزيون بالزي العربي ، وكان المسلمون يستقبلونهم بحفاوةٍ وحبٍّ وإكرام ، ويكرمون مثواهم ، مدفوعين بالعاطفة الدينية الخالصة ، والعلاقة الروحية التي كانت تربطهم بإخوانهم العرب .

ولكن ابتداءً من (١٩٢٤م ـ ١٩٢٥) إلى (١٩٣٢م ـ ١٩٣٣) ، كانت كلمة (عرب صاحب) في مدينتنا لكهنؤ خاصة بشخص واحد فقط ، وهو الشيخ خليل بن محمد ، الذي كان قد عُيِّن أستاذاً لتدريس اللغة العربية[٢]

---

(١) نقل هذا المقال الأستاذ حشمة الله الندوي تعريباً من كتاب العلامة الندوي « المصابيح القديمة » ، المشتمل على تراجم عدد من الشيوخ والأساتذة ، والمعاصرين الكبار ، والزملاء الراحلين في أردو في مجلدين .

(٢) درّس الشيخ خليل بن محمد بن الشيخ حسين بن محسن اليماني العلامةَ الندوي سورة « الزمر » بتذوق واشتياق لترسيخ عقيدة التوحيد في القلب عندما بدأت دراسة اللغة العربية عليه ، وقد أودع الله عزّ وجلّ فيه ذوقاً فطرياً للأدب العربي وخاصة للشعر العربي قلّما يوجد له نظير ، وكان ينتسب إلى أسرة يمنية لهج لسان النبوة بالشهادة والخير لها « الإيمان يمان » ، وقد ورث جمال الطبيعة العجمية من أخواله ، وحرقة القلب العربية من أعمامه ، فكان كلما يتلو القرآن يبكي فيُبكي المستمعين ، وحينما كان ينشد القصائد كان يصور سوق عكاظ تصويراً حياً ، وكان يتميز بتذوقه في التوحيد ، ودرس هذا الموضوع فأحسن وأجاد وفتح القلب للتوحيد ، ولم أزل أحتفظ بتلك النعمة منذ ذلك الحين وأشكر الله على هذه النعمة ، وقد نقشت آية : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ في القلب ، وإنَّ الحيل والدعاوى التي =

والأدب العربي منذ وقت قريب في جامعة لكهنؤ ، وكان مُحبَّباً مكرَّماً لدىٰ الطلاب وكبار الأساتذة في الجامعة ، بفضل ما كان يتَّصف به من خلق عربي نبيل ، وحلاوة الحديث ، وخفة الروح ، والذكاء والفطنة ، وحضور البديهة ، والبساطة في العيش وعدم التكلف ، وما إلى ذلك من أخلاق وصفات كريمة .

وكان حضوره في المحافل والمجالس يزيدها رونقاً وبهاءً في كثير من المناسبات ، ولذلك كان ينال من محبيه وإخوانه حباً وإكراماً وتقديراً لأخلاقه ، سواء في قصور الطبقة الارستقراطية التي كان يتردَّدُ إليها لتدريس اللغة العربية ونشر العقائد الإسلامية الصحيحة ، أو في مسجد الحي ، وكان يصلي بالناس فيه ، ويعظهم ويوجههم توجيهاً دينياً في أغلب الأحيان ، وفي المجالس العلمية بدار العلوم ندوة العلماء التي كان يحضر في أهم مناسباتها بصفته أحد أفراد أسرتها ، لأنه درس في دار العلوم وتخرَّج فيها .

ويراه الناس ماشياً على الأقدام إلى جامعة لكهنؤ ، في أغلب الأحيان ، وكان يمشي بخطى سريعة ، ولكن بسكينة ووقار ، وكان مُحَيَّاه يشبه العرب اليمنيين ، كان أسمرَ اللون ، حادَّ البصر ، واسع العينين ، عريضَ الجبهة ، تنمُّ عن حدة الذكاء وعلوّ الهمة ، وكان ربعاً من الرجال ، ضارباً إلى القصر ، يضع منديلاً على طريقة العرب على رأسه يلفُّه كأهل اليمن ، وكان لباسه يجمع بين الطراز العربي والهندي ، ينتهي من الحصص الدراسية في الجامعة في الساعة الثانية ظهراً على وجه التقريب ، وكان يدرس طلبة البكالوريس والماجستير بصفة عامة ، وكان رئيسُ قسم اللغة العربية والفارسية في الجامعة إما من تلاميذه أو من الذين كانوا يستفيدون منه بوجه عام ، وكان أساتذة الأقسام المختلفة ورؤساؤها من قسم اللغة الإنجليزية إلى قسم العلوم الطبيعية وما إلى ذلك ، يحترمونه ويعترفون بفضله كأستاذ ماهر ، وأديب ممتاز ، وإنسان كامل ، ومسلم صادق .

وكان عضواً من أعضاء هيئة التدريس في الجامعة التي كانت تضم لفيفاً من

= تقدمها فلسفة نظام الشرك من قديم مستمسكة بقول : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ لا تزيد عن نسج العنكبوت .

الأساتذة الإنجليز ، والذين كانوا من بنغال ومَدْراس ، بفضل ما كان يمتاز به من بساطة في العيش ، وتفوق في اللغة والأدب ، وكبر النفس والإباء ، ودماثة الخلق .

وكان ـ قبل موعده في الجامعة وبعد انصرافه منها ـ يدرس في بيته من كان يأتي إليه للاستفادة من طلاب الجامعة ، والمدرسة النظامية في فرنكي محل ، ودار العلوم ندوة العلماء ، وكان منهم من كان يدرس في هذه المدرسة غير النظامية ، التي كان قد أنشأها في منزله ، وقد أثمرت مهارته في التدريس ومؤهلاته العلمية وجهوده التي بذلها في هذه المدرسة ثماراً يانعة .

وبفضل هذه المدرسة التي لم تُعرف باسم ولا لافتة ، ولم يكن فيها دفتر للتسجيل ، ونظام للامتحان ، والتي كانت لا تمنح الشهادات والألقاب للمتخرجين ، انتشرت اللغة العربية في الهند ، كلغةٍ حيةٍ للكتابة والنطق بها ، ونشأ الذوق الأدبي السليم ، وكانت بداية للعهد الجديد لتعليم اللغة العربية كأداة للكتابة والإنشاء ، والذي امتد حتى بلغ أوجَهُ من الرقي والازدهار ، وكانت منجبةً منتجةً في مجال الكتابة الإسلامية ، وتعليم اللغة العربية ونشرها وتسهيلها وتحبيبها إلى النفوس .

ويبدو أن وظيفة الشيخ خليل في الجامعة كانت وسيلة قد هيأها الله ـ سبحانه وتعالى ـ للخير الكثير ، فقد كان يشتغل بالتدريس في (داكا) (بنغله ديش) منذ مدة طويلة ، وساقه القدر إلى لكهنؤ ، ليقوم بإنشاء طليعة في الهند تضطلع بمهمة تدريس اللغة العربية ، لغة القرآن الكريم بطريقة أفضل وأنفع ، وتخريج شباب يرفعون علم الدعوة الإسلامية في الأقطار العربية الإسلامية .

ولكن الشيخ خليل لم يكن غريباً في الهند ، وإن كان من مواليد أسرة عربية صميمة ولكنه ولد ببوفال ، وكان جده العلاّمة الشيخ حسين بن محسن الأنصاري ، وهو الذي قدم أولًا من حديدة اليمن إلى بوفال ، وذلك في أيام (سكندر بيكم) سنة (١٨٦٢م) ، وأقام ببوفال سنتين ، ثم رجع إلى وطنه ، وقدم مرةً ثانيةً في أيام شاه جهان بيكم ، ورجع إلى وطنه بعد أربع سنوات ، وكان ذلك في عهد العالم الهندي الجليل والمؤلف الكبير الأمير السيد صديق

حسن خان ، الذي كان عالماً ضليعاً بصيراً بخصائص الرجال مقدّراً لهم ، وكان قد لقي الشيخ حسين بن محسن أثناء إقامته بالحجاز ، وتأثّر به كثيراً ، بما رأى فيه من الذكاء النادر ، والذاكرة القوية ، والقدرة الفائقة على تدريس الحديث الشريف ، والاطلاع الواسع على علوم الحديث ، ثم لأن إسناده في الحديث الشريف إسناد قليل الوسائط ، وهو يعتبر ميزة يفتخر بها علماء الحديث ، وأعجب به إعجاباً كبيراً ، وأخذ منه إجازة في الحديث ، واستدعاه إلى بوفال .

قدم الشيخ حسين محسن بوفال سنة (١٨٧٩م) ، وتديّرها ، وكان إماماً في فن الحديث ، ومثالاً رائعاً للمحدثين القدامى ، الذين تتحدث كتب السير والتراجم عن حفظهم وسعة اطلاعهم ممّا يبعث على العجب ، وانتهت إليه رئاسة تدريس الحديث في الهند .

قال أستاذي الشيخ حيدر حسن خان ، أستاذ الحديث بدار العلوم ندوة العلماء : (إنه كان يكاد يحفظ ١٣ مجلداً لفتح الباري « شرح البخاري » ، وكان تلميذاً للعلامة أحمد نجل المؤلف الشهير صاحب « نيل الأوطار » العلاّمة القاضي محمد بن علي الشوكاني المتوفي سنة (١٢٥٠هـ) ، وغيره من علماء اليمن المشهورين ، وكان يفتخر كبار الأساتذة وجهابذة فن الحديث ، أصحاب المؤلفات القيمة الذين تلاميذهم يعدون بالمئات ، بالانتساب إلى زمرة تلاميذه ، ويجدر منهم بالذكر الأمير السيد صديق حسن خان ، والشيخ محمد بشير السهسواني ، والشيخ شمس الحق الديانوي صاحب « غاية المقصود » و « عون المعبود » ، والحافظ عبد الله الغازي بوري ، والشيخ عبد العزيز الرحيم آبادي البهاري ، والنواب وقار نواز جنك ، والشيخ وحيد الزمان الحيدر آبادي ، والشيخ محمد طيب المكي الرامبوري ، والشيخ محمود حسن خان التونكي ، صاحب « معجم المصنفين » ، والشيخ حيدر حسن خان التونكي ، والنواب صدر يار جنك حبيب الرحمن الشيرواني ، ووالدي العلاّمة السيد عبد الحيّ الحسني مدير ندوة العلماء الأسبق .

وكانت إقامة الشيخ حسين بن محسن في (بوفال) قد جعلتها مدرسة للحديث تضاهي شيراز واليمن ، وظل (موتى مسجد) ببوفال مثل الأزهر الشريف ، يدوي بصوت « قال : قال رسول الله ﷺ » أكثر من ثلاثين سنة ، وانتشر عبيره في أنحاء الهند المختلفة ، ولبىٰ هذا الإمام الكبير نداءَ ربه ـ عزّ وجلّ ـ في عام (١٣٢٧هـ) .

وكانت قد سكنت ـ آنذاك ـ أسرته ، وأسرة أخيه القاضي زين العابدين في مدينة (بوفال) ، وكان نجله الأكبر الشيخ محمد بن حسين الذي رافق أباه وهو شاب من اليمن إلى بوفال ، عالماً كبيراً ومدرساً صاحب مؤلفات عديدة وله ميل شديد إلى الأدب والشعر ، وكان بصيراً بفن العروض والقوافي ، كاتباً أديباً ، وشاعراً قديراً ، وظل مشتغلاً بتدريس الأدب العربي مدةً طويلة في دار العلوم ندوة العلماء ، كما شغل منصب شيخ الحديث فيها مدةً من الزمن ، وقد سعد كاتب هذه السطور بلقائه .

كان عربياً بأخلاقه وأوصافه ، إذا نطق باللغة الأردية ، يغلب عليها طابع العربية ، وكان صبيحَ الوجه ، بهيجَ الطلعة ، قصير القامة ، كثيرَ العيال ، وله عدة زوجات ، من أبنائه الشيخ خليل بن محمد ، والشيخ عبد الرحمن ، والشيخ حبيب الرحمن ، والشيخ عبيد بن محمد أستاذ الكلية الحميدية ببوفال ، والذي نال شهادة فخرية لخدمة اللغة العربية من رئيس جمهورية الهند ، والذي توفي قبل عدة سنوات ، وأخي وزميلي الشيخ حسين بن محمد ، وأخواه الأصغران : محسن وحسن .

ولد الشيخ خليل بن محمد في هذه الأسرة العربية ومدرسة الحديث سنة (١٣٠٤هـ) ، وكانت أمه (رقية) كريمة عم والده ، القاضي زين العابدين ، الذي توطَّن في (بوفال) ، حيث شغل منصب القضاء زمناً طويلاً ، وتلقى الشيخ خليل التعليم الابتدائي من علماء بوفال وأبيه ، وكانت بوفال آنذاك مركزاً للعلماء المتبحّرين ، وأساتذة الفنون المختلفة ، ثم قدم لكهنؤ مع أبيه الشيخ محمد الذي عُيِّن أستاذاً في دار العلوم ندوة العلماء ، وأقام في لكهنؤ ، ودَرَس هنا على أساتذة دار العلوم الأفاضل ونال شهادةً منها .

وكان الشيخ السيد أمير علي المليح آبادي صاحب تفسير « مواهب الرحمن » وغيره من مؤلفات أخرى كثيرة ، عميد دار العلوم وأستاذ الحديث الكبير فيها ، فانتظم الشيخ خليل في حلقة تلاميذه ، وظل يدرس ويستفيد منه حتى برع في العلوم ، وكان مثالًا للطلبة البارعين الذين كانوا يتخرجون على الأساتذة المتبحرين في الزمن القديم .

وكان السيد أمير علي محدثاً كبيراً ، وعالماً خبيراً واسع الاطلاع على أسماء الرجال ، وكاتباً مثابراً ذا همة عالية[١] ، وكانت له صلة وثيقة بالشيخ خليل ، فزوّج السيد أمير علي بنته منه ، وأظن أن الشيخ خليل قام بالتدريس في دار العلوم ندوة العلماء مدةً من الزمن ، وكان يحمل شهادة دار العلوم فقط .

ولكن ما امتاز به الشيخ خليل عن غيره من الأساتذة ، واكتسب به شهرةً ومكانةً عـاليةً أينما حلَّ وسار ، هو ذوقه الفطري للغة والأدب ، وملكته الفطرية للتدريس ، وجهده المتواصل ، والبحث والعناء الذي كان يتحمله والذي تُحدثنا عنه صفحات التاريخ ، وقلَّما نرى أمثاله في المؤسسات التعليمية ومراكز التربية والتعليم اليوم ، زد إلى ذلك عطفه وحبه لتلاميذه كعطف الآباء على الأبناء ، وحب الأمهات للأولاد ، وصلاحيته المنقطعة النظير لنقل ما لديه من علوم ومعارف وذوق وبصيرة إلى الطلاب ، وقدرته الفائقة التي قلَّما تحصل لأحـد على تنمية الذوق السليم فيهم ، وتحبيب الكتاب الذي كان يدرسه إليهم ، حتى ينشأ فيهم حب للموضوع وتقدير للمؤلف .

وهذه الكفاءة لا تكتسب بالجهد والعناء ، وإنما هي موهبةٌ من الله سبحانه وتعالى ، يُكرم بها من يقدر له أن يقوم بخدمة جليلة ، وهؤلاء هم الذين يغيّرون مجرى التاريخ ، وينفخون في المناهج الدراسية العقيمة روحاً جديدة

---

(١) ترجم عدداً من المجلدات الكبيرة لكتب الفقه والحديث ، منها ترجمة « فتح الباري » التي لم تطبع بعد ، وقد طبعت له مؤلفات وترجمات عديدة ، ونالت شعبية وقبولًا في الأوساط العلمية .

ونشاطاً جديداً ، وهم الذين يرزقون هذه الملكة في التدريس ، وصلاحية الإنتاج والعطاء وإنشاء الذوق في الطلاب .

وأنا سعيدٌ ـ والحمد لله ـ بأن وُفِّقت للاستفادة من الأساتذة البارعين ، ولا أزال مَديناً لفضلهم ومعترفاً بجميلهم .

ولكن هذا الذوق السليم للغة العربية ، والأدب العربي ، وهذه القدرة الفائقة على نقله إلى لغة أخرى ، مما كان يمتاز به الشيخ خليل ، لا نجد لهما أثراً في الأوساط العلمية والأدبية الكبيرة في البلاد العربية ، فضلاً عن الهند التي حُرِمت هذا الذوق الرفيع ونظام التعليم القويم منذ أمد بعيد .

ولما حان أوان دراستي للغة العربية سلَّمني أخي الكبير ومربيّ الجليل الدكتور السيد عبد العلي الحسني ـ رحمه الله تعالى ـ إلى الشيخ خليل الذي كان صديقاً له وجاراً ، وكانت أسرة الشيخ خليل قد دَرَّست جيلين من أبناء أسرتي ، وكنت أنا من الجيل الثالث ، وكان أبي قد تخرّج في الحديث على الشيخ حسين بن محسن ، وكان من أخصِّ وأحبِّ تلاميذه إليه ، قد ألّف الشيخ حسين بعض الرسائل التي أحتفظ بها حتى الآن خاصةً لأبي ، ودَرَس الأدب العربي على نجله الشيخ محمد بن حسين .

وقد آن أواني ، وكان لي حق على الشيخ خليل ، وكان له عليَّ حق ، ذلك الحق الذي توارثته أسرتي وأسرته منذ ثلاثة أجيال ، وكان يعرف ذلك كالعلماء الأقدمين الكرام .

وأعتقد أنه كان عام (١٩٢٦م) إذ بدأت أتعلم اللغة العربية منه في منزله الذي كان يسكن فيه ، كتبَ الدرس الابتدائي في الصرف على دفتر وكلفني حفظه ، وكنت أنا طالباً وحيداً في هذا الصف ، وبعد أيام قليلة بدأ يدرسني « المطالعة العربية » وكان اسمها الحقيقي « المطالعة المصرية » ، وكانت تدرس في المدارس الابتدائية في (بنغال) ، وكان الشيخ خليل معجباً أشد الإعجاب بهذا الكتاب ، لِمَا كان يمتاز به من سهولة اللغة وسلاسة الأسلوب ، والحوار الممتع والترتيب الفني الأنيق ، وظهرت له طبعات عديدة ، ونال قبولاً واسعاً في المدارس الإسلامية ، وذلك بفضل

ما بذله الشيخ خليل من جهد وعناية في نشر هذا الكتاب .

وما هي إلّا أيام قلائل حتى وجدت زميلاً عزيزاً التحق بصفي وهو حسين بن محمد أخو الشيخ خليل الأصغر ، الذي بدأ يدرس اللغة العربية قبلي بمدة قصيرة ، وكنا نحن الاثنين في الصف ، وقد ركّز الأستاذ جُلَّ عنايته علينا ، فإذا كان حسين أخاه يتصل به بصلة العرق والدم ، فكنت أنا ابنه الروحي بسبب ما كان له من صلةٍ متينة بأسرتي منذ زمن بعيد ، والعلاقة العلمية الروحية التي كانت تربطني به منذ مدة طويلة .

مضت أيام كثيرة ، وأتذكّر أني لم تأخذني سآمة ولا ضجر من درسه قط ، لأنَّ حديثه الممتع ، وفكاهته الحلوة المشجعة ، ودعابته وخفة روحه قد أزالت عني غربة اللغة الأجنبية وصعوبة الكتب الدراسية .

لم يسافر الشيخ إلى خارج الهند ، وإن سافر فإنه لم يتجاوز ـ فيما أظن ـ اليمن ، وبعض المناطق المختلفة في الخليج العربي ، ولذلك كان قليل الاطلاع على ما حَدَث في مصر والشام من تطورات وتجارب جديدة في مجال تدريس اللغة العربية وأصولها ومبادئها .

وكانت الجرائد والمجلات العربية والكتب العربية الجديدة لا تصل إلى الهند ، ولكنه كان على الرغم من ذلك كله ، سليمَ الفكر ، محباً للتجديد والاختراع ، واقعياً ، وإن كانت دراسته حسب النظام القديم ، ولكنه كان لا يحب تدريس كتاب مقرر في مناهج التعليم القديمة أُلِّف في عصر الانحطاط بالنسبة للغة العربية ، سوى بعض كتب اللغة العربية القديمة الأصلية ، وقد حفظت قسطاً كبيراً من نماذج النثر التي كان يشتمل عليها مجموعات من النثر العربي ، وبقيت آثارُها عالقةً بذهني ، واعتملت في تكوين ذوقي وامتزجت بكياني ، واصطبغت بها كتابتي .

وكانت ميزة الشيخ خليل أنه كان يتلذَّذ بالألفاظ والتعابير الرائعة ، ويبدي لنا ما يشعر به من لذة وحلاوة ، حتى كانت تلك الكلمات والتعابير ترتسم في ذهننا ، وتترسخ في ذاكرتنا ، وكنا نظن أنَّ الالتذاذَ بها والشعور بأهميتها مما لا بد منه .

وميزته الثانية أنه كان يخلق فينا الشعور بأن هذه الثروة اللغوية ليست ملكاً لأحد ولا هي كنز لا تصل إليه يد تلميذ متأخر زمانه ، وإنما هي ملك مُشَاع يمتلكه كل من يقدر على استخدامه على وجه صحيح مناسب ، وربما كان يبدي سرورَه وإعجابه بتعبير جميل أو مثل سائر ، أو جملة نكتبها صحيحة على دفتر الإنشاء ، كأننا قمنا بعمل جليل يستحق التقدير والإعجاب ، وكان يمنحنا جائزة في بعض الأحيان .

وعلى هذا المنوال كنا نأخذ الدروس باستمرار في اللغة العربية ، وكنا لم نشعر بأهمية وقيمة المنهج الذي كان يتبعه الشيخ خليل في التدريس ، ولكني أحسستُ فيما بعد أنه منهج مفضل مبنيٌّ على التجارب العلمية الطويلة ، ويسفر عن نجاح كبير لا يحصل بطريقة أخرى ، فإنه كان لا يخلط بين لغتين ، بل ومادتين مختلفتين في التعليم في وقت واحد ، فمنذ بداية دراستنا للغة العربية والأدب العربي حتى سنتين ، عكفنا على دراسة اللغة بما فيها قواعد النحو والصرف ، وعلىٰ الأدب مع ممارسة الكتابة والإنشاء ، وكان ذلك نهاية أملنا ورأس مالنا .

وكان اكتساب المهارة والبراعة والتفوق في هذه الدراسة أكبر نجاح وأسمى شرف لنا ، فكانت النتيجة أن تركزت جل عنايتنا ومحاولاتنا على إحراز النجاح والتقدم في هذا الموضوع ، وكنا نتكلم عنده بالعربية ونفكّر فيها ونكتب بها ، وكانت هذه هي الدنيا التي نعيش فيها .

وحينما سافرت إلى مصر سنة (١٩٥١م) ، سألني العلاّمة الشيخ محمود شلتوت الذي كان يشغل منصباً كبيراً في الأزهر ، والذي تولىٰ فيما بعد منصب شيخ الأزهر ونال شهرة عالمية ، عن تاريخ دراستي ، وكان يريد أن يعرف كيف درست في بلد أعجمي بعيد عن مركز العروبة حتى وصلت إلى درجة أني تمكنت من تحقيق أهدافي العلمية والدينية ، فلما أخبرته عن أسلوب الشيخ خليل الذي كان يتخذه لتعليمنا ، وذكرت له أني كنت آخذ مادة واحدة وموضوعاً واحداً للدراسة في وقت واحد ، وبذا كنت في مأمن من كثرة المواد واختلاط الدروس المختلفة ، الأمر الذي يشاهد في جميع المدارس والمعاهد

التعليمية ، سواء أكانت قديمة أو جديدة ، هتف قائلاً بعاطفة وحماس : هذا هو المنهج المفضَّل للتعليم .

وبعد انتهاء كتب الأدب المتوسطة تغلب على الشيخ خليل ذوقه الديني ، فجعل يدرسنا بعض الأجزاء من القرآن الكريم التي تتناول بصفة خاصة موضوع التوحيد ، والتي تركّز بكل قوة ووضوح على هذا الموضوع ، فقرأنا سورة الزمر وما بعدها من سور عديدة ، مع دراسة كتاب « المغازي » من صحيح مسلم ، وكان له شغف زائد بهذا الموضوع الذي كان يلائم ذوقه ، وما عدا هذين الدرسين كنا نقرأ كتب اللغة العربية والأدب العربي في النثر ، لأنه وسيلة طبيعية للتعبير ، أكثر ملاءمة للمواضيع العلمية والفكرية ، وأما النظم ، فنطاقه محدود بالنسبة للنثر ، وقرأنا عليه في النظم « حماسة أبي تمام » ، و « لامية العرب » للشنفرى ، وقصيدة « بانت سعاد » ، و « سقط الزند » لأبي العلاء المعري ، وبجانب هذه الدواوين الشعرية درسنا خلاصة لتاريخ آداب اللغة العربية .

وكان للشيخ خليل ولعٌ كبير بكتاب « نهج البلاغة » وخاصة رسائله ، لأنَّ الخطب التي تُنسب إلى سيدنا علي ، رضي الله عنه ، يغلب عليها التكلف ، وأضيف إليها شيء كثير مما ليس من كلام سيدنا علي ، رضي الله عنه ، وأما الرسائل فهي نموذج عالٍ لأساليب البيان ، وأفانين القول في النثر الفني ، ولم تكن « مقامات الحريري » من الكتب المفضلة لديه ، فكان لا يعجبه أسلوبها المنمق الملتزم بالسجع والقافية ، ولكنه درَّسنا عشرين مقامة منها نظراً لما تحمله من ثروة لغوية ، وكان يوصينا بمطالعة شرحها القيم للشريشي ، وكان مأخوذاً بجمال أسلوب إمام العربية عبد القاهر الجرجاني ، وذوقه العربي الخالص ، ودقة نظره ، ونفاذ بصيرته ، وكان يكيل له المدح ، ويجزل عليه الثناء ، وكان كتابه « دلائل الإعجاز » من أحب الكتب لديه ، وأهمها ، فكان يدرِّسه بشغف كبير ، يطرب لبيت من الشعر ، أبدئ المؤلف إعجابه به ، تترنح أعطافه كلما قرأه ويعيده مراراً ، ويتذوقه ويلتذُّ به حسياً كأنه أكل طعاماً لذيذاً ، معترفاً للبحتري بما يتصف به شعره من بين الشعراء الآخرين من النغم الموسيقي ، وجزالة اللفظ ، وحلاوة الجرس والطابع العربي الخالص ،

ومعجباً بما يمتاز به المتنبي من دقة الخيال وابتكار المعاني الجديدة .

وكان يحفظ مئات الأبيات ، ويقرض شعراً رائعاً بليغاً ، يحاكي فيه بعض فحول الشعراء ، وعندما كان يقرأ شعر « الحماسة » أو بعض قصائد البحتري ، كانت تتمثل أمامنا سوق عكاظ ، فكنَّا نحسُّ كيف كان يؤثّر الشعر كالسحر في نفوس العرب ، ويقرر مصير القبائل ، ويغير مقاييس الكرم والشرف والذلة والمهانة ، فيرفع البعض ويضع البعض ، وكان العربي يطرب لسماعه ويتواجد ، ويبدو الشيخ خليل صورة حية لمعاني الشعر وأثره ، كأنَّ الشعر قد امتزج بلحمه ودمه فينبثق نغمة وموسيقاه من كل شعرة من جسده .

وكان له شغف زائد بتعليمنا ، فكان التدريس هو غاية أمله ، وعملاً يلائم طبيعته وذوقه ، وكانت تبدو عليه ملامح السرور حينما كان يدرسنا ، وكان لا يعفينا من الدرس ما عدا يوم الجمعة ، ولا أدري كيف رَضِيَ بعطلة يوم الجمعة ، ولا أتذكر إلّا عطلة يوم غير الجمعة .

كان الشيخ خليل يعود من الجامعة مجهوداً مكدوداً يتصبَّب عرقاً ، وما كاد يصل إلى البيت ـ وكان أحد شبابيك بيته يطل على واجهة منزلنا القديم ـ حتى يناديني بأعلى صوته وهو قائم على الشباك ، وما لنا إلّا أن نلبي نداءه ، وكثيراً ما حدث أنه ذهب إلى عليكره وغيرها من المدن لحضور مؤتمر أو لجنة اختبار أو اختيار ، وعاد من سفره قبيل وقت الدرس ، وكنّا متأكدين بأننا لا ندرس اليوم ، إذا بصوته يرتفع وهو ينادينا لقراءة الدرس لأنَّ الدرس كان غذاءً يقوي روحه ، ولا يقرُّ له قرار بدونه .

كان الشيخ خليل يمنياً أصلاً ونسباً ، وأغلب ظني أنَّ أسرته سكنت اليمن منذ هاجر الجيل الثاني أو الثالث من أسرة سيدنا سعد بن عبادة ، رضي الله عنه ، من المدينة المنوّرة إلى اليمن ، وقد نطق لسان النبوة ـ على صاحبها ألف ألف تحية ـ يشهد لفضل أهل اليمن ، فيقول : (أتاكم أهل اليمن أرقُّ أفئدةً ، وألينُ قلوباً ، الإيمان يمان ، والفقه يمان ، والحكمة يمانية) .

وحدثني هو نفسه أنَّ بعض كبار المحامين والمثقفين ثقافةً عالية ، وكان معظمهم من الهنادك ، أنشؤوا جمعية في لكهنؤ ، مهمتها تقديم نماذج للتعاليم

الخلقية التي تتبناها الأديان المختلفة ، وقد دعوا بإحدى المناسبات الشيخ خليل لتقديم نموذج تعاليم الإسلام الخلقية ، فتناول الآيات الأخيرة من سورة الفرقان ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، وقرأها بلهجته العربية الخالصة ، فسالت الدموع من أعين العديد من المستمعين بمجرد سماع هذه الآيات ، وهو لم يترجمها بعد ، وكانت له لهجةٌ خاصة تعتمل فيها عواطفه الداخلية أكثر من قواعد التجويد ، وكان من الصعب أن يسمع أحدٌ آيات الذكر الحكيم يتلوها ، ثم يتمالك نفسه ، لا يتأثر بها ولا يرقّ لها قلبه .

كان الشيخ خليل شغوفاً بنشر الدعوة الإسلامية في غير المسلمين ، فدامت هذه المهمة تشغل باله مدىٰ الحياة ، وأيام إقامته في لكهنؤ كان يتحيّن الفرصة لعرض السيرة النبوية ـ على صاحبها ألفُ ألفِ تحية وسلام ـ وتعاليم الإسلام على أصدقائه والمتصلين به من أساتذة الجامعة وطلابها ، وبخاصة كان يحنُّ إلى عرض تعاليم الإسلام السامية من الأخوة والمساواة والعدل وما إلى ذلك ، على الشعوب المتخلّفة والمنبوذين ، فكان لا يتحاشى من مخالطتهم ومؤاكلتهم فحسب ، بل وكان يدعو الآخرين إلى أن يحذوا حذوه ، ويسيروا سيرته ، في ذلك .

كان عام (١٩٣٥م) فيما ـ أظن ـ إذ أعلن الدكتور أمبيدكر[١] أنه يبحث عن دين حق يعتنقه هو وشعبه ، وسيتّخذ خطوة إيجابية بصدد قبول دين يرتضيه ، فاضطرب لذلك الشيخ خليل كثيراً ، وكلّفني هو وأخي الذي كان يشاركه في هذا الذوق فظل مهتماً بالقيام بمهمة الدعوة في غير المسلمين ، أن أحمل بعض الكتب الإنجليزية الدعوية ، وترجمة إنجليزية لمعاني القرآن الكريم إلى الدكتور أمبيدكر ، فامتثلت أمرهما ، وذهبت إلى بومبائي لألقاه ، وأعرض عليه الكتب .

وقد أوصاني الشيخ خليل بسرية إذ همس في أذني : أنه إذا حال دون قبوله

---

(١) كان حقوقياً مرموقاً ، وهو الذي وضع دستور الجمهورية الهندية الحرة ، ولا يزال مطبقاً حتى الآن .

للإسلام أمرُ سماح المسلمين بعقد رابطة المصاهرة بينهم وبين من يسلم جديداً من شعبه ، فاقبل منه هذا الأمر نيابةً عني ، وقال ذلك بلهجة ملؤها الرقة والانفعال .

وبعد استقالته من وظيفة جامعة لكهنؤ انتقل إلى وطنه (بوفال) ، وظل هناك عضواً عاملاً في مجلس العلماء مدة طويلة ، ومربياً لابن وليِّ العهد في إمارة (بوفال) .

وانتقل إلى كراتشي بعد تقسيم البلاد ، حيث ظل مشغوفاً بنشر اللغة العربية ، والعقائد الإسلامية الصافية ، وخاصة التوحيد والسنّة ، وازداد اشتغاله بالحديث أخيراً ، وتلقيت برقية من كراتشي ، بأنه انتقل إلى جوار رحمة ربه ـ عزّ وجلّ ـ وذلك في يوم الجمعة (٢٦ أغسطس ١٩٦٦م) ، وصلى عليه جمع محتشد من الناس بعد صلاة الجمعة ، ودفن هذا الرجل العظيم في ناحية من نواحي كراتشي ، غفر الله له وأعلى درجاته .

وأختم هذا المقال بما جاء في « نزهة الخواطر » في ترجمة حياته :

(وله اشتغال بالعلوم ، ومهارة في التدريس ، ونجابة كاملة ، وذهن وقاد ، وفكر نقّاد ، إلى إدراك الحقائق منقاد ، وكان رقيقَ الذوق ، أبيَّ النفس ، كريمَ الأخلاق ، له قدم راسخةٌ في علوم البلاغة ، وآداب اللغة العربية ، وطبع أصيل في الشعر والأدب ، يعرف جيده من رديه وصحيحه من سقيمه ، كان إذا أنشد شعراً حسناً من أشعار الأوائل ، جاشت نفسه وترنحت عواطفه ، وعلا صوته ، فكأنكَ (بعكاظ) أو (ذي المِجَنَّة) .

كان مربوعاً من الرجال ، مائلاً إلى القِصَر ، شديدَ السمرة ، عريضَ الجبهة ، واسعَ العينين ، سريعَ الخطا ، جَهْوري الصوت ، واضح النبرات) .

* * *

الإمام الشهيد
الشيخ حسن البنّا كما عرفتُه[١]

الحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى .

يسعد كاتب هذه السطور ، ويشرِّفه أن يكتب تصديراً أو مقدِّمة لكتاب « مذكرات الدَّعوة والدَّاعية » للإمام الشهيد حسن البنَّا رحمه الله ، ويعتبر ذلك من الأعمال التي يتقرَّب بها إلى الله ، ويحسن بها إلى نفسه قبل أن يحسن بها إلى غيره ، فهو كتابٌ ليس ككلِّ كتابٍ ، ومؤلفه ليس كالمؤلفين ، وموضوعه ليس كالموضوعات التي يعالجها الكتَّاب ، ويتناولها المؤلفون ، والمحترفون في كلِّ حينٍ ، وفي كلِّ مكانٍ ، ويتهيَّب رجلٌ مثلي في قلَّة بضاعته في العلم والعمل ، وفي تخلُّفه في ميدان الإصلاح والكفاح ، وفي مجال التربية والإخراج ، وفي حلبة التَّضحية ، والمحنة ، أن يتقدم للكتابة والتعليق على هذا الكتاب ومؤلفه العظيم ، ولذلك تأخرت كتابة هذه السطور مدَّةً استطالت حتى بلغ حرج النفس كلَّ مبلغٍ ، وحتى غدوتُ أخشى وزر احتمال مزيدٍ من التأخير ، ومن حرمان الشباب المسلم ، وجنود الدَّعوة ، وروَّاد الإصلاح من خيرٍ وافرٍ غزيرٍ .

كفى برهاناً على خلود الإسلام ، وعلى أنَّه دين الله المختار الذي صُنع ليعيش إلى آخر الزمن ، وعلى خلود هذه الأمَّة ، وعلى أنَّها هي الأمة الأخيرة ، وعلى أنَّها منجبةٌ منتجةٌ ، مورقةٌ مزهرةٌ ، وعلى أنَّها كنانة الله التي لا تنفذ سهامها ، ولا تخطىء مرامها ، كفى برهاناً على كلِّ ذلك وجود هؤلاء

---

(١) هذا المقال في الواقع مقدمة العلامة الندوي تفضَّل بها لكتاب الإمام حسن البنا الشهيد « مذكرات الدَّعوة والداعية ، ثم نشرت هذه المقدمة كمقالٍ في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الخامس ، المجلد الواحد والعشرون ، عام ١٩٧٧م .

المصلحين ، والمجاهدين ، والعباقرة ، والنوابغ ، والموهوبين ، والمؤيَّدين ، والمربِّين ، وقادة الإصلاح الموفَّقين ؛ الذين ظهروا ، ونبغوا في أحوالٍ غير مساعدةٍ ، وفي أجواءٍ غير موافقةٍ ، بل في أزمنةٍ مظلمةٍ حالكةٍ ، وفي بيئاتٍ قاتلةٍ ، وفي شعبٍ أصيب بشلل الفكر ، وخواء الرُّوح ، وخمود العاطفة ، وضعف الإرادة ، وخور العزيمة ، وسقوط الهمَّة ، ورخاوة الجسم ، ورقَّة العيش ، وفساد الأخلاق ، والإخلاد إلى الرَّاحة ، والخضوع للقوَّة ، واليأس من الإصلاح ، وأصبح الجيل المعاصر كلُّه كأنَّه طبعةٌ واحدةٌ من كتاب واحدٍ خرجت من مطبعةٍ متقنةٍ لا تختلف نسخها ، وصحائفها ، فحسبك أن تقرأ كتاباً ، وتقيس عليه الباقي ، فلا تنوُّع ، ولا اختلاف ، ولا طموح ، ولا استشراف ، ولا قلق ، ولا اضطراب ، ولا تفرد ، ولا شذوذ ، ولا جدَّة ، ولا طرافة ، ولا شيء غير المعتاد ، ولا شيء فوق المستوى ، وأصبحت الحياة قطاراً موحداً تجره قاطرةٌ واحدةٌ ، هي قاطرة المادَّة والمعدة ، أو قاطرة الغرض والمصلحة ، أو قاطرة اللَّذة والمنفعة ، أو قاطرة القوَّة والغلبة ، ويدلُّ كلُّ شيءٍ أنَّ هذه الحياة قصةٌ واحدةٌ ، أو مسرحيةٌ قد أُحكِم وضعها ، وإخراجها ، ويعاد تمثيلها على مسرح الإنسانية ، أو على مسرح التاريخ الإسلاميِّ ، ويلعب كلُّ بطلٍ من أبطال هذه الرواية دوره الخاصَّ الذي أسند إليه بكلِّ مهارةٍ ولباقةٍ ، ثم تنتهي هذه القصَّة في تصفيق المعجبين ، ودموع المتألمين .

وبينما يواصل هذا الركب سيره ، وهذا القطار سفره في غاياتٍ محدودةٍ ، ومنازل معروفةٍ ، وأصواتٍ مألوفةٍ ، ونغماتٍ مكرَّرةٍ ؛ إذا بشخصية تقفز من وراء الأستار ، أو من ركام الأنقاض والآثار ، وتفاجىء هذا الركب الهادىء الوادع الذي لا يعرف غير الوصول إلى غايته المرسومة المحدودة ، ولا يهتمُّ إلا بقوت اليوم ، وزاد الطريق ، وأمن السبيل ، وراحة الأبدان تفاجئه بالدَّعوة إلى الإصلاح ، والحاجة إلى استئناف النَّظر ، والتفكير في الأوضاع العامَّة ، ومصير الإنسانية ، ومسؤولية الأمَّة التي أخرجت للناس ، والثورة على الأوضاع الفاسدة ، والأخلاق الرذيلةِ ، والعقائد الضَّالة ، والعادات الجاهليَّة ، وعبادة البطون والشهوات ، وعبودية القوَّة والسُّلطات ، ويدعو إلى

حياةٍ كريمةٍ فاضلةٍ ، وإلى مدنيّةٍ سليمةٍ صالحةٍ ، وإلى مجتمع رشيدٍ عادلٍ ، وإلى إيمانٍ عميقٍ جديدٍ ، وإلى إسلامٍ قويٍّ حاكمٍ ، ويرفع بكلِّ ذلك صوتاً مدوِّياً عالياً ، يضطرب به الرَّكب ، وتهتزُّ به مشاعره ، وعواطفه ، وقيمه ، ومفاهيمه ، ولا يستطيع أن يتغافل عنه ، أو يتجاهله ، أو يستخفُّ به ، ويستمرُّ في سيره غير مقبلٍ عليه ، أو ملتفتٍ إليه ، بل يخظع له عددٌ كبير من أعضائه ، فينشقُّون عنه ، ويلتحقون بهذا الدَّاعية ، فيجعل منهم ركباً جَديداً ، يثق بنصر الله ، ويسير على بركة الله .

إنَّ لهؤلاء الثائرين والدُّعاة المصلحين قائمةٌ مشرقةٌ مشرِّفةٌ ، يتجمَّل بها تاريخ الإصلاح والدَّعوة ، ولا يخلو منهم زمانٌ ومكانٌ ، وقد كان صاحب هذا الكتاب الذي أتشرف بتقديمه من هذه الشخصيات التي هيأتها القدرة الإلهية ، وصنعتها التربية الربَّانية ، وأبرزتها في أوانها ومكانها ، وأنَّ كلَّ من يقرأ هذا الكتاب سليم الصدر ، مجرَّد الفكرة ، بعيداً عن العصبية والمكابرة ، يقتنع بأنه رجلٌ موهوبٌ مهيَّأٌ ، وليس من سوانح الرِّجال ، ولا صنيعة بيئةٍ و مدرسةٍ ، ولا صنيعة تاريخٍ ، أو تقليدٍ ، ولا صنيعة اجتهادٍ ، ومحاولةٍ ، وتكلُّفٍ ، ولا صنيعة تجربةٍ وممارسةٍ ، إنما هو من صنائع التوفيق والحكمة الإلهية ، والعناية بهذا الدِّين ، وبهذه الأمَّة ، والغرس الكريم الذي يهيَّأ لأمرٍ عظيمٍ ، ولعملٍ عظيمٍ في زمنٍ تشتدُّ إليه حاجته ، وفي بيئةٍ تعظم فيها قيمته .

إنَّ الذي عرف الشرق العربي الإسلاميَّ في فجر القرن العشرين ، وعرف مصر بصفةٍ خاصَّةٍ ، وعرف ما أصيب به هذا الجزء الحساس الرئيسي من جسم العالم الإسلاميِّ من ضعف في العقيدة والعاطفة ، والأخلاق والاجتماع ، والإرادة والعزم ، والقلب والجسم ، وعرف الرواسب التي تركها حكم المماليك ، وحكم الأتراك ، وحكم الأسرة الخديوية ، وما زاد إليها الحكم الأجنبي الإنكليزي ، وما جلبته المدنيَّة الإفرنجية المادِّية ، والتعليم العصري اللَّاديني ، والسياسة الحزبية النفعية ، وما زاد هذا الطين بِلَّةً من ضعف العلماء ، وخضوعهم للمادَّة والسُّلطة ، وتنازل أكثرهم عن منصب الإمامة ، والتوجيه ، وانسحابهم عن ميدان الدَّعوة ، والإرشاد ، والكفاح والجهاد ، واستسلامهم « للأمر الواقع » ، وخفوت صوت الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر ، زد إلى ذلك كلِّه نشاط دعاة الفساد والهدم ، والخلاعة والمجون ، والإلحاد والزندقة ، وتزعُّم الصحف والمجلات الواسعة الانتشار ، القوية التأثير للدَّعوات المفسدة ، والحركات الهدَّامة والاستخفاف بالدِّين وقيمه ، والأخلاق وأسسها ، وما آل إليه الأمر ، ووصلت الأقطار العربية بصفة عامَّة ، والقطر المصري بصفةٍ خاصَّةٍ من التبذُّل ، والإسفاف ، والضعف والانحطاط ، والثورة والفوضى ، والانهيار الخلقي والروحي في الثلث الأول من هذا القرن الميلادي ، ورأى كلَّ ذلك مجسماً مصوّراً في أعداد « الأهرام » و « المقطم » و « الهلال » و « المصوَّر » وفي كتبٍ كان يصدرها أدباء مصر ، وكتَّابها المفضلون المحببون عند الشباب ، ورأى ذلك مجسماً مصوَّراً في أعياد مصر ومهرجاناتها ، وحفلاتها وسهراتها ، واستمع إلى الشباب الجامعيِّ في نواديهم ومجالسهم ، وزار الإسكندرية وشواطئها ، ومصائفها ، ورافق فرق الكشَّافة والرياضة والمباراة ، ودخل دور السينما ، ورأى الأفلام الأجنبية والمحلية ، واطلع على الروايات التي تصدرها المكتبة العربية في مصر بين حين وآخر ، ويتهافت عليها الشباب بنهامةٍ وجشعٍ ، وعاش متَّصلاً بالحياة والشعب ، وتتبَّع الحوادث ، ولم يعش في برجٍ عاجيٍّ ، وفي عالم الأحلام والأوهام ، وعرف رزية الإسلام والمسلمين ، ونكبة الدَّعوة الإسلامية في الجزء الذي كان يجب أن يكون زعيماً للعالم العربي كلِّه ، وزعيماً للعالم الإسلامي عن طريقه ، وقد بقي قرناً كنانة الإسلام ، ومصدر العلم والعرفان ، وأسعف العالم العربيَّ ، وأنجده ، بل أنقذه في فتراتٍ دقيقةٍ عصيبةٍ في التاريخ الإسلامي ، ولا يزال يحتضن الأزهر الشريف أكبر مركزٍ ثقافي إسلاميٍّ وأقدمه .

إنَّ كلَّ من عرف ذلك عن كثبٍ لا عن كُتُبٍ ، وعاش متَّصلاً به ؛ عرف فضل هذه الشخصية التي قفزت إلى الوجود ، وفاجأت مصر ، ثم العالم العربيَّ الإسلاميَّ كلَّه بدعوتها ، وتربيتها ، وجهادها ، وقوَّتها الفذَّة التي جمع الله فيها مواهب وطاقاتٍ قد تبدو متناقضةً في عين كثيرٍ من علماء النفس والأخلاق ، ومن المؤرخين والناقدين : هي العقل الهائل النيِّر ، والفهم المشرق الواسع ، والعاطفة القويَّة الجيَّاشة ، والقلب المبارك الفيَّاض ،

والروح المشبوبة النَّضرة ، واللسان الذرب البليغ ، والزهد والقناعة ـ دون عنتٍ ـ في الحياة الفردية ، والحرص وبُعْد الهمَّة ـ دونما كللٍ ـ في سبيل نشر الدَّعوة والمبدأ ، والنفس الولوعة الطَّموح ، والهمَّة السامقة الوثابة ، والنظر النافذ البعيد ، والإباء والغيرة على الدَّعوة ، والتواضع في كلِّ ما يخصُّ النفس . . . تواضعاً يكاد يجمع على الشهادة عارفوه ، حتى لكأنّه ـ كما حدَّثنا كثير منهم ـ مثل رفيف الضياء : لا ثقل ، ولا ظلَّ ولا غشاوة .

وقد تعاونت هذه الصفات والمواهب في تكوين قيادةٍ دينيةٍ اجتماعية ، لم يعرف العالم العربي وما وراءه قيادةً دينيةً سياسيةً أقوى ، وأعمق تأثيراً وأكثر إنتاجاً منها منذ قرون ، وفي تكوين حركةٍ إسلامية يندر أن تجد ـ في دنيا العرب خاصَّةً ـ حركةً أوسع نطاقاً ، وأعظم نشاطاً ، وأكبر نفوذاً ، وأعظم تغلغلاً في أحشاء المجتمع ، وأكثر استحواذاً على النفوس منها .

وقد تجلَّت عبقرية الدَّاعي مع كثرة جوانب هذه العبقرية ومجالاتها في ناحيتين خاصَّتين ، لا يشاركه فيهما إلا القليل(١) النادر من الدُّعاة والمربِّين ، والزعماء والمصلحين ، أولاهما شغفه بدعوته ، وإيمانه ، واقتناعه بها ، وتفانيه فيها وانقطاعه إليها بجميع مواهبه ، وطاقاته ، ووسائله ، وذلك هو الشرط الأساسيُّ ، والسِّمة الرئيسية للدُّعاة ، والقادة الذين يُجري الله على يديهم الخير الكثير . والناحية الثانية تأثيره العميق في نفوس أصحابه ، وتلاميذه ، ونجاحه المدهش في التربية والانتاج ، فقد كان منشىء جيلٍ ، ومربي شعبٍ ، وصاحب مدرسةٍ علميَّة فكريَّةٍ خلقيَّةٍ ، وقد أثَّر في ميول من اتصل به من المتعلِّمين والعاملين ، وفي أذواقهم ، وفي مناهج تفكيرهم ، وأساليب بيانهم ، ولغتهم ، وخطابتهم ؛ تأثيراً بقي على مرِّ السنين والأحداث ، ولا يزال شعاراً وسمةً يعرفون بها على اختلاف المكان والزمان .

لقد فاتني أن أسعد بلقائه في مصر ، وفي غير مصر ، فقد كان العام الأول

---

(١) وكان من هذا القليل النادر الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي منشىء دعوة التبليغ وحركتها في الهند ، ونجله وخليفته الشيخ محمد يوسف المتوفى ١٩٦٥م ، رضي الله عنهما وأرضاهما ، فقد كانا مثالين فذّين في هاتين الناحيتين كلتيهما .

الذي كتب الله لي فيه الحجَّ والزيارة ، وخرجت من الهند لأوَّل مرةٍ وهو عام ١٩٤٧م هو العام الذي تغيب فيه الشهيد عن الحجاز ، ولم يغادر مصر ، وقد كان يحضر الموسم في غالب الأعوام ، ويحرص على نشر دعوته ، والحديث إلى وفود بيت الله الحرام ، وعلى السعي المجهد الحثيث في توثيق الصِّلات ، والعهود مع الوافدين من أنحاء عالم الإسلام كلِّه .

بيد أني قابلت بعض تلاميذه ودعاته فلمست فيهم آثار القائد العظيم ، والمربي الجليل ، فلمَّا قدِّر لي أن أزور مصر سنة ١٩٥١م كانت رحمة الله قد استأثرت به ، ولما يجاوز عمره بعد الثانية والأربعين إثر حادث استشهاده الذي أدمى نفوس ملايين المسلمين ، وحرم العالم الإسلامي هذه الشخصية التاريخية الفريدة ، ولا أزال أتحسَّر على هذه الخسارة التي كتبت لي ، ولكنِّي اتصلتُ بتلاميذه اتصالاً وثيقاً ، وعشت فيهم كعضوٍ من أعضاء أسرةٍ واحدةٍ ، وزرت والده العظيم رحمه الله ، واستقيت منه معلوماتٍ وأخباراً سجَّلتها في مذكراتي ، وقابلت زملاءه وأبناءه ، واجتمع لنفسي من كلِّ هذه الآثار والأخبار ملامح الصورة العظيمة لصاحب هذه الدَّعوة ، ومؤسس هذه المدرسة ، أنا واثقٌ بأنَّها صورةٌ صادقةٌ مطابقةٌ .

وفي تلك الرحلة وقع إليَّ هذا الكتاب « مذكرات الدعوة والداعية » فألفيته كتاباً أساسيَّاً ، ومفتاحاً رئيسياً ، لفهم دعوته ، وشخصيته ، وفيه يجد القارىء منابع قوَّته ومصادر عظمته ، وأسباب نجاحه ، استحواذه على النفوس : وهي سلامة الفطرة ، وصفاء النفس ، وإشراق الروح ، والغيرة على الدين ، والتحرُّق للإسلام ، والتوجُّع من استشراء الفساد ، والاتصال الوثيق بالله تعالى ، والحرص على العبادة وشحن « بطارية القلب » بالذِّكر ، والدُّعاء ، والاستغفار ، والخلوة في الأسحار ، والاتصال المباشر بالشعب ، وعامَّة الناس في مواضع اجتماعهم ، ومراكز شغلهم ، وهواياتهم ، والتدرُّج ، ومراعاة الحكمة في الدَّعوة والتربية ، والنشاط الدَّائم ، والعمل الدائب ، وهذه الخلال كلُّها هي أركان دعوةٍ إسلاميةٍ ربَّانية ، وحركةٍ دينيَّةٍ تهدف إلى أن تحدث في المجتمع ثورةً إصلاحيةً بناءةً ، وتغير مجرى الحوادث والتاريخ ، لذلك كان أصحاب دعوة الإسلام ، وحملة أمانتها ، بل والعاملون في مختلف

حقول الإصلاح بحاجةٍ دائمة إلى دراسة هذا الكتاب ، وإعادة التأمُّل العميق فيه الفينة بعد الفينة ، فلا عجب أن ينعقد العزم على تجديد طبعه ، ونشره في الناس ، بل العجب أن تخلو منه مكتبةٌ من مكتبات المسلمين .

أما بعد ! فقد كانت محاولة القضاء على آثار هذه الدَّعوة التي أعادت إلى الجيل الجديد في العالم العربي الثقة بصلاحية الإسلام ، وخلود رسالته ، وأنشأت في نفوسه وقلوبه إيماناً جديداً ، وقاومت « مركب النقص » في نفوسهم ، والهزيمة الداخلية التي لا هزيمة أشنع منها ، وأكبر خطراً ، والميوعة وضعف النفوس والانسياق تحت ربقة الشهوات والطغيان ، وخلقت ـ كما يقول شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال : « في جسم الحمام الرَّخو الرقيق قلب الصقور والأسود » حتى استطاع هذا الجيل أن يصنع عجائب في الشجاعة ، والبسالة ، والاستقامة ، والثبات .

لقد كانت محاولة القضاء على آثار هذه الحركة ، وطمس معالمها ، وتعذيب جنودها ، وتشريد رجالها ، جريمةً لا يغتفرها التاريخ الإسلاميُّ ، ومأساةً لا ينساها العالم الإسلاميُّ ، وإساءةً إلى العالم العربيِّ لا تعدلها إساءةٌ ، ولا تكفِّر عنها أيُّ خدمةٍ للبلاد ، وأيُّ اعتبارٍ من الاعتبارات السياسية ، إنَّها جريمةٌ لا يوجد لها نظير إلا في تاريخ التتار الوحوش ، وفي تاريخ الاضطهاد الدينيِّ ومحاكم التفتيش في العالم المسيحيِّ القديم ، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله .

* * *

سماحة المفتي السيد أمين الحسيني

إن حادثةَ وفاة سماحةِ المفتي الأكبر الحاج السيد أمين الحسيني[١] ، حادثةٌ عَمَّت العالم الإسلامي كله وهزَّته ، وحُقَّ للمسلمين جميعاً أن يتبادلوا التعازي كأفراد أسرة فُجِعَت في أحد آبائها أو مربيها ، وقد فقدَ العالمُ الإسلاميُّ في شخصه أقدم زعيم وأكبر مجاهد ، وأعظم بطل من أبطال المسجد الأقصى ، والقدس الشريف .

وأوثر هذا التعبير قصداً وإرادةً ، عادلًا به عن عنوان « قضية فلسطين » ، لأنَّ الدافع الحقيقي في جهاد سماحة المفتي والفكرة التي كانت تسيطر عليه ، هو دفاعه عن المسجد الأقصى ، بصفته القِبلة الأولى وثالث المساجد التي يُشَدُّ إليها الرحال ، ومسرى الرسول الأعظم ﷺ ، وهذا الذي قد أصبح شعاراً له وسمة بارزة عن أبطال القضية الآخرين .

وقد كانت صلته بهذه القضية صلةً أعمق وأقوى من صلة زملائه والذين تبنوا هذه القضية واحتضنوها ، فإن كان الزعماء العرب الآخرون ـ ولكل فضل ـ مهتمين بهذه القضية معنيين بها ، وهم لها كالأبناء والإخوة الأشقاء ، فقد كان سماحة المفتي رحمه الله أبا القضية ، وهي له بمنزلة الأولاد وأفلاذ الأكباد ، والفرق واضح ما يحتاج إلى شرح ، وهذا الذي ميَّزه عن جميع أقرانه والمناضلين عن القضية .

لقد خُتم بوفاته كتابٌ في الجهاد والإخلاص للعقيدة والفكرة ، والوفاء للمبدأ والغاية ، يحتوي على قصة طويلة ، وروائع من الكفاح والبطولة والمغامرة والإيمان الصادق ، والنزاهة التي لا ترتقي إليها شبهة ، والحياة التي لا مغمز فيها ، تدور حول بطل واحد وهو الحاج السيد أمين الحسيني ،

---

(١) انتقل إلى رحمة الله تعالى في ١٤ من جمادى الآخرة ١٣٩٤هـ .

وانتهى به عهد يمتد أكثر من ستين سنة ، لم يهدأ له فيه بال ، ولم يقر له قرار ، ولم يضع فيه السلاح ، ولم ينسحب فيه عن ميدان الكفاح ، ولا أعرف أحداً من بين زعماء المسلمين والعرب ارتبط بقضايا الوطن الإسلامي الكبير ، ووهب لها من نفسه وعقله مثل ما ارتبط به الراحل العظيم ، ووهب لها مما أكرمه الله به من مواهب وطاقات ، وكان كدوامة لا تستقر ولا تنقطع عن الحركة من بين الرباط إلى جاكرتا ، ومن ضفاف دجلة إلى نهر كابل ونهر السند .

وقد شعرت حين بلغني نعيه ، كأني فقدت أحد أفراد أسرتي الكبار وركناً من أركانها الذين تعتز بهم هذه الأسرة ، وشعرت بأنها حادثةٌ عائلية شخصية ، فكان دائماً يعطف عليَّ عطف الآباء على الأبناء ، أو عطف الإخوة الكبار على الإخوة الصغار ، وقد كان في صف أساتذتنا وشيوخنا وزملائهم وأترابهم ، وقد سمعت به وأنا في ريعان الشباب وأيام الطلب ، كأنّي أسمع عن شخصيات الجيل الماضي ، أو كأني أنظر إلى نجم متألق في الأفق البعيد ، حتى جمعني الله به على غير ميعاد في مدينة لكهنؤ في ندوة العلماء ، حين زار الهند مع زميله الكبير الأستاذ محمد علي علوبه باشا سنة (١٩٣٣م) ، في جولة دعائية للجامعة الإسلامية التي كان قد أراد إنشاءها في القدس ، وكانت زيارته للكهنؤ ضمن هذه الجولة ، فكأنه حلم تحقَّق ، ودعوناه إلى دار العلوم لندوة العلماء ، وكان يعرفها عن طريق الكتب والصحف ، وعن طريق صديقه أستاذنا العلامة « السيد سليمان الندوي » ، ولبَّى هذه الدعوة ورحَّب بها ، كأنه ينتظرها ويتوقعها .

ولا أنسىٰ ذلك الحفل الزاهر المشرق الذي تحدَّث فيه سماحة المفتي ، وقد طلع عليه بطلعته البهية الوقور ، التي يلتقي فيها الجمال الصُّوري بالجمال المعنوي ، والوسامة الظاهرة بالوقار والرزانة والتواضع ، وأخلاق العلماء بالأناقة وحسن الهندام ، فكأنه ملك نزل من السماء ، أو ملك من الملوك المسلمين القدامى عاش من جديد ، وأكبر الظن أنه كان في العقد الرابع من عمره ، ولا أزال أذكر إنشاده للبيت العربي المعروف ، وهو يذكر زيارته لهذه الدار ، وأنه قد سمع عنها كثيراً ، وقرأ عنها كثيراً .

حتى التقينا فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وأول البيتين :

كانت محادثة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر

ثم طالت الفترة في اللقاء حتى لقيته بعد ثماني عشرة سنة في القاهرة ، وكان ما يزال يذكر هذه الزيارة بتفاصيلها ، وتتابعت اللقاءات في حفلات عامة ومجالس خاصة ، ثم حدثت فترة أخرى ، هي أقصر من الأولى ، فالتقينا به على صعيد رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة ، والمجلس الاستشاري الأعلى للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ، وتشرَّفت بالزمالة على تفاوت في السن ، وفرقٍ كبير في التجارب والحصافة ، وحسن البلاء والعمل الإسلامي ، ولكنه كان دائماً يملأ هذه الفجوة الواسعة بين زميلين كأنَّهما من جيلَيْن مختلفَيْن ، بأخلاقه العالية ، وكان يغمرني بعطفه الأبوي وحنانه الأخوي ، وقلبه الكبير ، وعقله المنير ، وكان يجعلني لا أشعر بحداثة السن ، وضآلة الشخصية ، وقلة البضاعة في ميدان الكفاح والعمل الإسلامي ، وكان له دائماً الفضل والسبق في التحية واللقاء ، والترحيب والاحتفاء ، وكان في ذلك على قدم السلف الصالحين ، والسادة الهاشميين ، والشيء من معدنه لا يستغرب .

رحمة الله عليك : يا أبا صلاح الدين ! ويا مجاهد فلسطين ، رحمةَ الأبرار الصالحين ، الأوفياء الصادقين ، والمجاهدين المستميتين .

وصدق الله العظيم : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] .

فقد فارقت هذه الحياة ، وفي نفس يعقوب حاجة ما قضاها ، وأمنية لم تقر عينه بتحققها ، بل انتقلت إلى جوار ربك مفجوعاً بما رأيت في آخر أيام حياتك ، من تواني العرب في قضيتهم التي هي قضية الحياة والشرف ، والعقيدة والكرامة ، وذهبت إلى ربك جريحَ الفؤاد ، حزين القلب ، محطَّم الأعصاب ، غيرَ راضي النفس ، ولا قريرَ العين ، بما اتَّفق عليه قومك من وضع السلاح ، والاكتفاء من الغنيمة بالإياب ، وترك المسجد الأقصى

والقدس الشريف على ما كانا عليه ، وأنت الآن في كنف رحمة الله تثاب على عملك وجهادك ، ولا تُسأَل عن عمل غيرك .

ونختم هذا المقال القصير الذي لا يفي بحق الراحل العظيم بمقتطف من كتابنا « مذكرات سائح في الشرق العربي » يحكي لقاءً تاريخياً ، ويسجل حديثاً دسماً لسماحة المفتي ، فيه معلومات قيمة ، وآراء حصيفة ، « ولا ينبئك مثل خبير » .

يوم الأحد ٧/ ٨/ ١٣٨٠هـ ـ ١٣/ ٥/ ١٩٥١م

حديث مع المفتي

ذهبنا لمقابلة سماحة المفتي أمين الحسيني في مكتبه في شارع رمسيس بمصر الجديدة ، وكانت هذه المقابلة من أمتع المقابلات التي جرت بمصر ، وإن كان قد جرحت الفؤاد ، وأثارت الأحزان ، وبعثت الأسى على حالة المسلمين ، تحدَّث عن تاريخ جهاد فلسطين ومطامع اليهود السافرة حتى أطماعهم في احتلال المدينة المنورة وخيبر ومستعمرات اليهود القديمة ، ومطالبتهم بذلك بكل صراحة والتهيؤ والاستعداد له ، ونفاق الإنجليز وكيدهم للمسلمين ، والروح الصليبية الكامنة في نفوسهم ، بل البادية في أحاديثهم وأعمالهم : ﴿ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران : ١١٨] وسذاجة الشعوب الإسلامية وسرعة انخداعها ، وأخطاء الدول العربية وغفلتها عن مصيرها ، والأخطار الصهيونية التي تهدِّد كيانها ، واشتغال ملوك العرب بنفوسهم ، وترفهم ، وجناية الجامعة العربية على قضية فلسطين بتكفلها بهذه القضية ، ثم تقاعدها عنها ، وعزل الشعب الفلسطيني المجاهد عن السلاح ، وتسليم المناطق العربية إلى اليهود ، فلا تركت الشعبَ الفلسطينيَ الغيورَ الباسل يواصل جهادَهُ ، ولا أغْنَت عنهم شيئاً وحلَّت محلهم .

وذكر اضطهادَهُ وكيف طوَّقه المستعمرون الإنجليز بواسطة المسلمين ، وجعلوه في شبه جزيرة منعزلةٍ لا يستطيع أن يقوم بدوره في قضية فلسطين حُراً

مطلقاً ، وكيف كتَّفوا يديه وكيف حالوا بينه وبين إخوانه الفلسطينيين ، حتى أبوا عليهِ بطُرقٍ غير مباشرة أن يتَّصل بهم في مصر وفي غزة ، وكيف سافر خلسة مرة إلى غزة فاستعادوه إلى مصر ، وكيف أصبح اللاجئون في غزة فريسة الجوع القاتل والتبشير النصراني والدعايات الشيوعية ، وكيف رفضوا أن يتصل بهم ويقوم بنشاط دعوة إسلامية ، وكيف يمنعون بريده من أن يصل إليهم بواسطة وكلاء الصهيونية في دوائر البريد ، وكيف نسجوا حوله نسائج من شائعات وأراجيف ليشوِّهوا سمعته ويسقطوا مكانَـتَهُ ، ويفقد الفلسطينيون ثقتهم به .

قال : ولكنا مع ذلك مصمّمون على مواصلة الجهاد مهما كان ، ولا نيأس من روح الله إنه لا ييأسُ من رَوْح الله إلّا القوم الكافرون .

وكان حديث سماحة المفتي مشجياً ، وكان يتجلَّد ويكف الدموع ، فإنه معروفٌ بعصاميته وجلادته ، وقد لمحت في حديثه إليّ أي مدًى وصل انحطاط المسلمين ، وجهلهم بالحقائق ونكرانهم لرجالهم ، وإلى أيٍّ حدٍّ نجحت سياسة المستعمرين ، وكيف طمست البصائر ، واشترت الذمم والضمائر ، وعبثت بالأفكار والعقول ، فالله المستعان ، وقد رجعت من عند سماحة المفتي حزيناً منكسرَ الخاطر ، وعرفته أنه لم يخطئه حظه ، حظ زعماء المسلمين والمصلحين .

وقد أثنى المفتي على الشهيد حسن البنا رحمه الله ، وأثنى على الإخوان المسلمين المجاهدين في فلسطين ، وأثنى على رجولتهم وقوة إيمانهم وحماستهم ، وقال : كان الواحد منهم يقاتل عشرات اليهود[١] .

* * *

(١) « مذكرات سائح في الشرق العربي » : ص٢١٤ ـ ٢١٥ .

الأستاذ سيّد قطب

قد كانت معرفتي للأستاذ سيد قطب في مهد الإسلام ومهبط الوحي ، ولم تكن معرفة زيارة ولقاء ، إنما كانت معرفةً علمية فكرية ، كانت عن طريق كتابه القيم « العدالة الاجتماعية في الإسلام » وقد تأخرت هذه المعرفة إلى سنة (١٩٥٠م) وكان من المعقول المتوقع أن تبكر وتتقدم على هذه السنة بسنين ، فقد كنت متَّصلاً بركب الثقافة الإسلامية في الشرق العربي ، أحرص على أن أسايره ولا أتخلَّف عنه ، وكنت نهماً لكل ما تنشره المطابع ، وتصدره المكتبات في مصر من غثٍّ وسمين ، فقرأت للدكتور محمد حسين ، والأستاذ العقاد ، والدكتور أحمد أمين ، والدكتور محمد حسين هيكل ، والأستاذ أحمد حسن الزيات ، وقبلهم للمنفلوطي والرافعي ، وكنت ملتزماً بمطالعة « الرسالة » و « الثقافة » الأسبوعيتين ، وهما مدرستان أدبيتان تختلفان في الأسلوب والمنهج ، وتتوزعان أدباء مصر الكاتبين ، وحملة الأقلام الناشئين ، وتعرفت على كتّاب هاتين المجلتين الذين كانوا ينضمون إلى أحد هذين اللوائين الأدبيين ، وكانت تمرّ بي مقالات في الرسالة لكاتب اسمه سيد قطب ، يكتب كثيراً في النقد الأدبي وفي مناقشة الآراء الأدبية ، ونقد الآثار والأساليب العربية ، فكنت أعرف أنه تلميذٌ لامع من تلاميذ مدرسة العقاد وأحد المدافعين عنه والناقدين لخصومه .

وأراد الله أن تكون أول معرفتي به ، معرفةً عميقةً في رحاب البيت وظلال الكعبة ، فيكون نبتاً كريماً في منبتٍ كريم ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ﴾ [الأعراف : ٥٨] .

وكان من خبر هذه المعرفة أنَّ صديقي الأستاذ أديب الحجاز (أحمد عبد الغفور عطار) كان من كبار المعجبين بالأستاذ العقاد ، والأستاذ سيد قطب ، وكان معجباً بالأستاذ سيد قطب الأديب والإنسان ، وكان كثير الحديث

عنهما شأنَ المحب ، وجمعتنا رحلة إلى الطائف وذلك في أول شتاء عام (١٩٥٠م) ، وكنّا زملاء في هذه الرحلة الممتعة المسلية نتحدَّث ونتذكر ، وقضينا في هذا المصيف اللطيف ، عدة أيام .

وكان الأستاذ قد قدّم إليَّ كتابَ « العدالةِ الاجتماعية في الإسلام » ، وعكفتُ على مطالعته في هذا الجو الهادىء اللطيف ، فوجدت فيه أسلوباً جديداً من الكتابةِ والبحثِ والعرض لم أجده في كتابات الكُتَّاب الإسلاميين ، وخاصة في الكتَّاب العرب ، وذلك يحتاج إلى شيء من التفصيل .

إنَّ الذي يقرأ بحوث الكُتَّاب المسلمين ـ في لغات الشرق وفي بعض اللغات الغربية ـ الذين نبغوا واشتهروا بعد منتصف القرن التاسع عشر المسيحي ، سواءٌ أكانوا في مصر أم في الهند ، أم في تركية ، أم في إيران ، يشعر بأنهم واقفون في « قفص الاتهام » يدافعون عن قضيةٍ أو شخصيةٍ يكتنفها الشيء الكثير من الغموض والالتواء ، وتكثر حولها الريب والتهم ، وفي موقفها ضعف وفي حججها وهن وانثلام ، فغاية توفيقهم ونجاحهم أن يتغاضىٰ الخصوم عن بعض الهنات وعن بعض الحلقات المفقودة في البحث ، فيلاحظوا في حكمهم الذي سيصدرونه اختلاف الزمان والمكان ، والمشكلات التي كانت تعانيها هذه الدعوة أو الشخصية ، وأنه كان أقصى ما كان يمكن الوصول إليه في تلك الملابسات والأجواء ، هذا الأسلوب الذي يصح أن يسمى « الأسلوب الاعتذاري » (Apologetic) أو « الأسلوب الدفاعي » (Defensive) .

وقد كان من زعماء هذا الأسلوب في مصر الشيخ محمد عبده ـ سامحه الله ـ ورفاعة بك الطهطاوي ، وقاسم أمين ، على اختلاف درجاتهم ومستوياتهم ، ومن زعمائه في الهند سر سيد أحمد خان ، والسيد أمير علي ، وصلاح الدين خدابخش ، ومنشي جراغ علي ، وغيرهم ، وقد نهج نهجهم الأستاذ محمد علي اللَّاهوري ، وخواجه كمال الدين في قليل أو كثير .

وكان هؤلاء السادة ـ بحكم ثقافتهم ونشأتهم ، وبقوة نفوذ الحكومة الإنجليزية السياسي ، وكون الحضارة الغربية في نظرهم قضية بديهية لا تقبل

نظراً ولا جدلًا ، وكونها آخر ما وصل إليه العلم البشري والعقل البشري - لا يفكرون في نقد الحضارة الغربية وقيمها ومفاهيمها ومناقشتها ، فضلاً عن أن يفكروا في هجوم أو تحدٍّ ، أو تناول الأسس التي قامت عليها ببحث أو تمحيص . وهذا المنهج مخالفٌ للمنهج العلمي القوي « الهجومي » الذي آثره حجَّةُ الإسلام الغزالي في « تهافت الفلاسفة » في نقد الفلسفة اليونانية ، وشيخ الإسلام ابن تيمية في « الرد على المنطق » في نقد المنطق اليوناني وفلسفة أرسطو ، ثم هُجِرَ هذا الأسلوب قروناً طويلة حتى جاء دور نهضة الغرب ، وران سحره على العقول والنفوس .

كان من لطفِ الله بكاتبِ هذه السطور ومن حكمته ، أنه نشأ في بيئةٍ تمرَّدَت على الحضارة الغربية وإغراءاتها ، واستقامت على الفكرة الإسلامية النقيّة البعيدة عن الإفراط والتفريط ، وفي عصر بدأ فيه سحر الحضارة الغربية يضعف ويزول - بتأثير حركات تحريرية وثورات سياسية في البلاد - وفي حضانة مربٍّ[١] أخذ من الثقافتين القديمة والحديثة رحيقهما واحتفظ بأفضل ما عندهما ، ونبذَ القشورَ والفضولَ ، وكان من كبار الناقدينَ المنصفينَ لهذه الحضارة وزعمائها ، ثم سعد بالتلمذة على أساتذةٍ كلهم يتَّصفون بالحرية الفكرية ، والشجاعة الأدبية ، والنقد الجريء ، فكان بحكم هذه البيئة والتربية يعاف الأدبَ الضعيفَ الخجول ، والكتاباتِ المتراجعة المنسحبة ، المعتمدة على وقاية النفس ، المفضِّلة للسلامة على الغنيمة ، والنجاة على الغلبة والفتح ، فكان إذا قرأ شيئاً من هذا الأدب المنهزم شعر بامتعاض ، وكان ذوقُه لا يسيغه ، كان مدفوعاً إلى حب الطموح وحب الكرامة ، والاعتزاز بالعقيدة والدين ، قد امتزجت كراهة الشعوب التي حاربت الإسلام ، وساقت الإنسانية كلها إلى الشهوات والشبهات وعبادة المادة والقوة ، وتولت كبر الدجل والتلبيس ، بروحه وعقله ، فعاد لا يحتمل تمجيداً لها ، أو دفاعاً عنها ، أو ركوناً إليها ، مهما كان الكاتب عظيماً أو الكتاب جليلاً .

---

(١) هو أخ العلامة الندوي الأكبر ومربيه الدكتور السيد عبد العلي الحسني مدير ندوة العلماء سابقاً ، وقد مر التعريف به .

نياحة أبي جهل[1]:

زارت روح عمرو بن هشام ـ زعيم الجاهلية والنخوة العربية ـ مكَّة ، وقد أصبحت بلد الإسلام والتوحيد ، وطهر بيت الله للطائفين والقائمين والركع السجود ، وحرم عبادة الأصنام والأوثان الجاهلية ، فلا اللات ، ولا مناة ، ولا هبل ، ولا العزَّى ، ولا أساف ، ولا نائلة[2] ، وقام المؤذن على شرفات الحرم ينادي بأعلى صوته خمس مرات : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله » .

وذهبت نخوة الجاهلية ، وتعظُّمها بالآباء ، وأصبح الناس يعتقدون أنَّهم من آدم ، وآدم من تراب ، فلا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ ، ولا لعجميٍّ على عربيٍّ ، إلا بالتقوى ، وسمع الناس يتلون : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وأصغى إلى الناس في غدوِّهم ورواحهم ، فلم يسمعهم يفتخرون ببلدٍ أو نسبٍ ، ووطنٍ أو شعبٍ ، وطاف في الناس ، فلم ير أحداً يعيِّر أحداً بأمِّه ، أو سواده ، أو حرفته ، أو حبشيته ، أو عجميته ، ويتطاول بعربيته ، أو قرشيته ، وغشي مجالس الناس ، فلم يسمع مفاضلةً بين عدنان وقحطان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين بني عبد مناف وبني عبد الدار ، وبين بني هاشم وبني عبد شمس ، ولا مساجلة في مآثر الجاهلية ، وأيام العرب ، ورأى الناس بالعكس يرجعون إلى عبدٍ أسود ، قد فاق الناس في علمه وفقهه ، ويلتفون حوله ، ويصدرون عن رأيه .

ودقَّق في حديث الناس ، وآدابهم ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وسلوكهم ، وعقيدتهم ، فلم ير عرفاً جاهلياً ، أو نزعةً عربيةً ، أو نعرةً قوميَّةً ، يتعلَّق بها

---

(١) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الثاني والثالث ، المجلد الرابع ، عام ١٩٥٩م .

(٢) كان أكثرها أصنام قريش ، والتي كانت لغيرها كانت قريش تعظِّمها ، راجع ابن هشام ، وابن الكلبي .

سيد بني مخزوم ، ويقرُّ عيناً ، ورأى أن الحياة القديمة قد نُسخت وأُبطلت ، وولد مجتمعٌ جديدٌ قام على أساسٍ من العقيدة ، والخلق ، والفضيلة ، والتَّقوى ، وتغيَّرت الموازين والقيم ، وتغيَّرت عقول الناس ونفوسهم ، وسُمِع ينشد في حزنٍ واستعجاب :

فما الناس بالناس الذي عهدتهم ولا الدار بالدار التي كنت أعرف

لقد أشكلت الأمور على سيد بني مخزوم ، وأبهمت مكة عليه ، وهو ابن البلد ، وسيِّدٌ من ساداتها ، فلولا البيت ، ولولا الحطيم ، ولولا الحِجْر ، ولولا زمزم ، ولولا المكان ، الذي كان يجلس فيه مع سادة قريش ، ويمتحن فيه ضعفاء المسلمين ؛ لأنكر مكة ، وأنكر الوادي ، ورأى أنَّه قد ضلَّ الطريق .

لقد كان يرى في الدِّين « الجديد » الذي جاء به محمَّدٌ ﷺ الخطر ، والضرر على الدِّين الذي قام على تقديس القومية الضيقة ، والعصبية القرشية ، والنظام الجاهليِّ ؛ الذي يقوم على النسب ، والوطن ، وتفضيل الدم والعرق ، ويرى العالم كلَّه في حدود « المملكة القرشية » التي قامت في مكَّة ، ولا يعني بخارج هذه الحدود .

ويرى الفضل كلَّه في العرب ، فغيرهم عجمٌ وعلوجٌ ، لا يستحقُّون مدحاً ، ولا يستحقُّون رحمةً ، ولا يستحقُّون عدلًا ، لقد كان يرى كلَّ ذلك ويتوقَّعه ، وكان من أشدِّ الناس حماسةً في الدِّفاع عن الجاهلية ، وأصدق الناس فراسةً في معرفة غايات الإسلام ، ولكنَّه على بعد نظره وذكائه لم يكن يعرف أنَّ الأمر يبلغ بالناس هذا المبلغ ، وأنَّ الإسلام يؤثر في الناس هذا التأثير ، وأنَّ الجاهلية تطرد من عاصمتها ومهدها هذا الطرد الشنيع .

هاجت النخوة الجاهلية في أبي جهل ، وثارت روحه ، ورئي متعلقاً بأستار الكعبة ، يستغيث على محمَّدٍ ﷺ ، وينوح ، ويقول :

« إنَّ قلوبنا ـ معشر الجاهليين ـ قروحٌ وجروحٌ ، تسيل دماً ممَّا صنع محمد ، فقد أطفأ نور الكعبة ، وحطَّ من مكانتها ، وقدرها ، لقد نعى قيصر وكسرى ، وتنبأ بزوال الملوك والسَّلاطين ، ونادى بأعلى صوته : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ

﴿ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام : ٥٧] و ﴿ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] واغتصب شبابنا ، فثاروا علينا ، وفتنوا به وبدينه الجديد ، ساحرٌ يسحر بكلامه قلوب الناس وعقولهم ، وهل كفرٌ أعظم من قوله : « لا إله إلا الله » ، وإنكار جميع الآلهة التي آمن بها الناس ، وعبدوها في جميع الأعصار والأمصار ، إنه طوى بساط دين الآباء ، وفعل بآلهتها الأفاعيل ، لقد جعل اللاَّت ومناة جذاذاً بضرباته الموجعة ، فليت العالم ينتقم منه ، ويأخذ ثأر الآلهة ، يا عجباً ! لقد جرَّد القلوب عن معبودٍ مشهودٍ يرى ويلمس[1] ، وربطها بمعبودٍ غير مشهودٍ ، ولا يرى ، ولا يلمس ، حتى كان هذا الإيمان بالغيب أقوى وأعمق من الإيمان بالمشهود الموجود ، هل لهذا الإيمان أساس ؟ وهل لما لا يرى وجود ؟ أليس من الجهل والضلالة ، والعمى والبلاهة ، سجودٌ لغائب ؟ هل يجد الإنسان لذَّةً وحلاوةً في ركوعٍ وسجودٍ أمام غائب ؟! .

إنَّ دينه حتفٌ للوطنية ، والقومية ، إنَّه من قريش ، ولكنَّه لا يفضل حرّاً على عبد ، وغنياً على فقير ، وعربياً على عجميٍّ ، يجلس مع مولاه على مائدةٍ واحدةٍ ، ويأكل معه ، أسفاً إنَّه لم يعرف قدر العرب الأحرار ، وأكرم العلوج والعبيد السود ، لقد اختلط الأحرار البيض بالعبيد السود ، واختلط الكريم باللئيم ، والجميل بالدَّميم ، وذلَّ العرب ، وذلَّ بنو قصي .

إنَّنا لا نشكُّ في أنَّ هذه المؤاخاة ، التي يحثُّ عليها محمد كثيراً ، مبدأٌ عجميٌّ ، وقد تحقَّق لدينا أنَّ سلمان مزدكيٌّ ، وأنَّ ابن عبد الله خُدِع به ، وجرَّ البلاء والشقاء على الأمَّة العربية ، لقد جهل هذا الفتى الهاشميُّ قيمته ، وشرفه ، لقد أعمته هذه الصَّلاة التي يصلِّيها ، هل لعجميٍّ أصلٌ عدنانيٌّ ، وهل لأعجميٍّ نطقٌ عربيٌّ ، ولهجةٌ مضريَّةٌ ؟ عجباً لعقلاء العرب ! هبوا من نومكم ، اغلبوا هذا الكلام الذي يسمِّيه محمد وحياً بكلامكم البليغ الساحر .

ولماذا لا تنطق أيها الحجر الأسود ! ولا تشهد بصدق ما نقول . ولماذا

---

(١) يعني به : الأصنام من الحجارة وغيرها .

لا تقوم يا هبل ! يا إلهنا الأكبر ! ولا تنتزع بيتك من هؤلاء الصبأة ، أغِزْ عليهم ، وعكِّرْ عليهم الحياة ، أرسل عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، تجعلهم أعجاز نخلٍ خاوية ، يا مناة ! ويا أيُّها اللات ! فبالله ! لا ترحلا من ديارنا ، وإنْ رأيتُما الرَّحيل فبالله ! لا ترحلا من قلوبنا ، وإن كان لا بدَّ من الرَّحيل ، فلا تعجلا ، وأمهلانا أياماً نتمتَّع بكما »[١] .

عودة الجاهلية[٢]:

مرَّ شاعر الإسلام ـ في بعض زياراته الرُّوحية ، وسياحاته الفكرية ـ بوادٍ اجتمعت فيه الآلهة القديمة التي عبدتها أمم الجاهلية ، ونحتت أصنامها ، وتماثيلها ، وبنت عليها هياكل ومعابد ، وعكف عليها السَّدنة والكُهَّان ، وتغنَّى بها الشعراء والأدباء ، وكان مجمع الآلهة القديمة من شعوبٍ مختلفةٍ ، وبلادٍ مختلفةٍ ، وعصورٍ مختلفةٍ ، فهذا إله المصريين القدماء ، وهذا ربُّ التبابعة ، والأذواء من اليمن ، وهؤلاء آلهة عرب الجاهلية ، وأولئك آلهة وادي الفرات ، وهذا إله الوصل ، وذلك ربُّ الفراق ، هذا من سلالة الشمس ، وذلك ختن القمر ، وهذا زوج المشتري .

ثم إنَّهم أشكالٌ وألوانٌ ، فهذا قد سلَّ السيف بيده ، وهذا تقلَّد حيَّةً ولواها حول عنقه ، وكلُّهم وجلون مشفقون من الوحي المحمَّديِّ ، الذي أحدث الثورة الكبرى عليهم ، وأفسد عليهم العيش ، ولد العالم الجديد القائم على نبذ الأصنام ، والمؤسس على عقيدة التوحيد ، وكلُّهم ساخطون حانقون على ضربة إبراهيم .

لقد كانت هذه زيارةً مفاجئةً سُرَّ بها الآلهة ، وتفاءلوا بها ، وكان « مردوخ » أول من انتبه لهذه الزيارة ، ورحَّب بالإنسان القادم ، وأخبر زملاءه به : أبشروا يا إخوتي ! فإن إنساناً فرَّ من الله ، وثار على الأديان السَّماوية

(١) « جاويد نامه » لشاعر الإسلام محمد إقبال .
(٢) نُشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها السادس ، المجلد الرابع ، عام ١٩٥٩م .

أكمل من هذا كله ، وذلك بما احتوى من توجيهات رقيقة وإيضاحات كاشفة لمرامي القصة وحوادثها ومواقفها ، ومن تعليقات داخلة في ثنايا القصة ، ولكنها توحي بحقائق إيمانية ذات خطر ، حين تستقرُّ في قلوب الصغار أو الكبار) .

ولم يكن شيء في تلك الفترة يدل على أن الأستاذ سيد قطب يتخطى حدود الكاتب والمؤلف والباحث والمفكر ، ويدخل في ميدان الكفاح العملي ، والقيادة للكتيبة المؤمنة المجاهدة ، ويشاهد العالم منه تلك البطولةَ النادرةَ ، والصمود الرائعَ أمام الوحشية التي تقشعر منها الأبدان ، ويشمئز منها الوجدان ، بل كان كل شيء يدل على أنه يقضي حياته منحصراً في مجال التأليف والكتابة وعرضِ الفكرةِ الإسلامية فحسب ، مخلِّفاً تَبِعَتها على المغامرين من المؤمنين في الأجيال القادمة كما فعل كثير من السابقين والمعاصرين ، وقد فوجئت في أول لقائي معه بوجود الفجوة الواسعة بين حالته الصحية وجسمه الضعيف ، وبين أسلوبه القوي المتحدّي المسعور الذي يشعر الإنسان بلهيبه ووهجه ، وقلمه المتدفِّق الذي يتطاير منه الشَّرَر كأنه جذوة من نار ، وقد سجلت هذا الانطباع وهذا الشعور الذي هزني في « مذكراتي »[1] .

وقد كان هو نفسه لا يعرف هذه القوة الكامنة التي تحركها الحوادث والتحديات ، وتفاجىء صاحبها كما تفاجىء غيره ، ولا يعرف المستقبل الذي كان ما يزال في ضمير الغيب ، بل كان يستصغرُ نفسه ويراها بعيدةً عن النهوض بأعباء القيادة للدعوة الإسلامية .

فقد جاء في مذكراتي ما يستحق أن يلفت الأنظار ويقرأ من جديد ، ويدل على إيمان هذا الكاتب الإسلامي الكبير وتواضعه وشعوره المرهف بضخامة المسؤولية ، وقدسية القيادة ، وأنقله هنا حرفياً فقد أصبحت وثيقة تاريخية لها قيمتها وأهميتها : (ثم جرى الكلام عن الفرد الأول الذي يتعهد هذا العمل ،

(١) راجع « مذكرات سائح في الشرق العربي » : ص٨٩ ـ ٩٠ .

فأشار إليه بعض الحاضرين وأثنوا عليه ، وقالوا : إنَّ الكتب العظيمة التي ألفها لا تصدر إلا عن قلب مؤمن وعقيدة متينة ، وخلق مستقيم ، وهنالك تكلم الأستاذ وشهد على نفسه ، بكل صراحة وجسارة وقال : « أنا لا أعتقد أني أستحق هذا الثناء والأمل ، وليس صدور الكتاب دليلاً على أن المؤلف اجتازَ المراحل الأولى في التربية الإسلامية وإعداد النفس ، وأنا أعرف معركةً قائمةً بين بيئتي وما أنا فيه من راحة ورخاء وفرص ، وبين ما يطلبه الإيمان والجهاد من التضحية والإيثار ، والزهد والقوة الروحية ، وأعرف أن المرحلة النهائية لا تزال بعيدة ، وأن الميزان ما ذكره القرآن : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ . . . ﴾ الآية [التوبة : ٢٤] ، فما لم أرَ هذا المنزل الذي أسكنه والخُصّ ، والوظيفة والعطلة ، وأسباب الغنى والفقر سواء ، فإني لا أزالُ بعيداً عن حقيقة الإيمان والتربية الإسلامية ، فلا أريد أن أخدع نفسي ولا غيري »)[1] .

ولكن الذي ظهر من استقامته وشجاعته من حين اعتقل وسجن وحوكمَ وعُذِّب إلى أن أكرمه الله بالشهادة عام ١٣٨٩هـ (١٩٦٦م) ، قد بَهَرَ الجميع ، وأثبتَ أنه آمن بفكرته قبل أن يؤمن بها غيره ، ودفع ثمنَها من دمه وحشاشة نفسه وروحه الزكية ، وأنه قد باع نفسه وتمَّت الصفقة بينه وبين الله ، وكتب الصك وشهد قبل أن يطلع عليه آلاف المعجبين به وبأدبه ، والذين يعيشون في فكرته وكتاباته ، وأنه قد انتهت هذه المعركة التي كان يتهيبها ويستعظمها ـ كما مر آنفاً ـ في قرارة نفسه ، وقد انتصر فيه اليقين على الشك ، والسكينة على التردّد ، والعزم على ضعف الإرادة ، فما كان الاعتقال والتنكيل والشهادة ، إلا نتيجة حتمية ، وصورة صادقة لهذه المعركة التي خاضها في أعماق نفسه وقرارة بيته ، قبل أن يخوضها في الزنزانة وعلى المشانق .

وسيزداد اعتناء الناس بآثاره ، وشغفهم بكتبه ومؤلفاته ، وحرصهم على إحياءِ تراثه الفكري والعلمي ، وتخليد اسمه ومآثره ، ويبدو لي أن هذا كله من مقتضيات معاني الحياة التي يكرم بها الشهيد ، وأنَّ كلمة ﴿ أحياء ﴾ في قوله

(١) راجع « مذكرات سائح » : ص١٨٥ .

تعالى : ﴿ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] أوسع مما فهمها الناس وفسرها المفسِّرون ، فتشمل بقاء الآثار وانتشارها ، ولهجَ الناس باسم الشهيد وأخباره ، وغرامهم بحديثه وذكره ، واعتراف وإعجاب المعاصرين ولسان صدق الآخرين ، يأبون إلا الموتَ فيأبى الله إلا الحياة ، ويريد الأعداء طمسَ الآثار فيأبى الله لها إلا الانتشار والازدهار .

* * *

الدكتور مصطفى السباعي

(مات مصطفى السباعي) ، بهذه الكلمات فوجئنا أمس إثر إحدى جلسات مجلس إدارة المركز الإسلامي في جنيف[١] .

ما أسهلَ النطقَ بهذه الكلمات القصيرة البسيطة التي يمكن أن تُقال عن كل حي ، وعن كل عظيم ، وعن كل خالد ـ بأعماله ومآثره وآثاره ـ حتى عن الرسل والأنبياء الذين كتب الله عليهم الموت وقدَّر لهم الآجال ، فقال عن سيدهم وخاتمهم ﷺ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنبياء : ٣٤ ـ ٣٥] .

ولكن هل درىٰ الناعي وهل شعر الناس بما وراء هذا الحادث من معانٍ وتأثير في المجتمع الإسلامي ، وفي آفاق العلم ، والدعوة والجهاد ؟ .

وهل شعر الجميع بمقدار خسارة الأمة ورزيئة الدعوة ، ونكبة العلم ، وعظيم مصاب المسلمين في هذا الحادث (البسيط) الذي ذكرته الصحف وحملته الأنباء إلى الآفاق ، في مثل هذه الكلمات السهلة القصار .

هل عرفوا ماذا حرمه المسلمون وماذا فقدوه في شخص هذا الرجل الذي توارى في التراب ؟ .

إنه إخلاص ووفاء للعقيدة لا تعرفهما السياسة المتقلّبة ولا يعرفهما الزعماء (المحترفون) . . . ومع الأسف ، ولا كثيرٌ من أهل العلم في هذا الزمان .

إنه ثباتٌ واستقامة ، وجهادٌ طويل متواصل في مجالات مختلفة : من

---

(١) كانت وفاته رحمه الله في ٢٧ من جمادى الأولى سنة ١٣٨٤هـ .

معركة فلسطين إلى البرلمان السوري ، إلى مكتب المراقب العام ، إلى محيط التأليف والكتابة والصحافة ، إلى منصَّة الخطابة والدعوة ، إلى كرسي تدريس الفقه الإسلامي في جامعة دمشق ، إلى فكرة تأسيس كلية الشريعة في الجامعة السورية ، إلى معركة الانتخابات ، إلى مناقشة المستشرقين الملحدين ، إلى تربية الشباب وتوجيههم . . . جهادٌ لم ينقطع يوماً ، واستمرَّ إلى آخر يوم من أيام حياته .

إنه علمٌ جم وعقيدةٌ راسخةٌ ، فقلَّما يوجد في قادتنا من يستطيع أن يؤلِّف مثل كتاب « السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي » ومن يضع مثل كتاب « شرح قانون الأحوال الشخصية » و « المرأة بين الفقه والقانون » و « من روائع حضارتنا » .

إنه اطلاع واسعٌ وبصرٌ نافذ ، وقلمٌ مترسّل ، وأدبٌ رفيع ، وأسلوبٌ مطبوع . وهذه الافتتاحيات العامرة الكثيرة التي كان يحلِّي بها صدر مجلة « حضارة الإسلام » يجد فيها القارىء غذاء الفكرة والإيمان .

إنه نموذج العالم الديني والداعية الإسلامي في هذا العصر المتعقد القلق الذي أصبح لا يتحمّل ولا يطيق جفاف الفقه وخشونة الدعوة وجمود الثقافة وضيق الأفق والأسلوب القديم الخشيب ، ولا يخضع له .

إنه عالم ديني دَرَسَ على النمط القديم في الأزهر في مصر ، وفي حلقات العلماء والأساتذة الراسخين في الشام ، وأخذ خير ما عندهم من القديم الأصيل ، وعرف الجديد ، وزار أوروبة « العالم الجديد » ودرسَ مناهج التعليم والنظم الاجتماعية والسياسية فيها ، واتصل حبله بمربي الجيل الإسلامي الجديد في الشرق العربي ، وإمام الدعوة الإسلامية فيه ، الإمام الشهيد حسن البنا ، وقاد الإخوان المسلمين في بلد إسلامي كبير كسورية ، واكتوىٰ بنار السياسة ، وقاد الكتيبة المؤمنة المجاهدة إلى فلسطين ، وساهم في وضع الدستور السوري ومَثَّل حزباً وفكرةً في البرلمان ، ودَرَّس ، وكتبَ وألَّفَ ، وباشَرَ الإدارةَ والتنظيم ، وأسهمَ في نشاطاتٍ شتَّىٰ في العالم الإسلامي ، وكان خطيباً مصْقَعاً في الطليعة من خطباء العالم العربي .

وكان في كل ذلك مؤمناً صاحب دعوة ومبدأ وغاية ، مخلصاً محتسباً ، موضع ثقة وتقدير في بلده وفي غير بلده ، وقليل من معاصريه من يجمع بين هذه الفضائل والمواقف المتنوعة في خدمة الإسلام والمسلمين ، ثم لم يمنعه مرضه المضني المرهق من أن يواصل جهادَه ويستمرَّ في كفاحه ، من تدريسٍ وكتابةٍ ودعوةٍ ، فكان أكبر دليل على قوة إيمانه وإخلاصه ، وعلى أن الدعوة قد ملكته وتغلغلت في أحشائه .

فتح في مجلته « حضارة الإسلام » الغرَّاء باب (رجل فقدناه) ، يتناوله كاتب إسلامي كل شهر ، وينعي فيه عظيماً من عظماء المسلمين ، وقد قُدِّر لكاتب هذه السطور أن يسهم فيه ويكتب عن شخصيات إسلامية راحلة .

وقد آن للمسلمين جميعاً في كل بلد إسلامي أن يعرفوا فضل هذا الراحل الجديد ، ويذكروا مآثِرَه الكثيرة ، ويشعروا بخسارتهم الفادحة فيه ويدعوا له بأعماق القلب ، فهو رجل قد فقدناه جميعاً ، ففي ذمَّة الله أيها الراحل العزيز .

وإلى القرَّاء مقتطفات من ذكريات ولقاءات وانطباعات عن الراحل العزيز ، من كتابي « مذكرات سائح في الشرق العربي » :

الأحد ١١/ ١٠/ ١٣٧٠هـ - ١٥/ ٧/ ١٩٥١م

(سمعنا أن الأستاذ سعيد رمضان في فندق أمية ، فذهبنا نزوره ، ووجدناه محفوفاً بالشباب وأبناء الجامعة ، تقابلنا كإخوان يتلاقون بعد فراق ، وجاء الشيخ مصطفى السباعي المراقب العام للإخوان المسلمين ، فرأيته لأول مرة ، وقابلني بحرارة ومحبة ، وذكر اطلاعه على بعض المحاضرات للداعي في رحلته إلى باكستان ، أهداها إليه أحد إخواننا في باكستان ، ثم اطلاعه أخيراً على كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » وتشوقه لصاحبه ، وذكر كل منا اتصاله الروحي والفكري بصاحبه والتقاء الأفكار)[١] .

---

(١) راجع « مذكرات سائح في الشرق العربي » : ص٣٠٣ .

يوم الجمعة ٢٣/ ١٠/ ١٣٧٠هـ ـ ٢٧/ ٧/ ١٩٥١م

(أخـذنا الشيخُ السباعي اليوم إلى مصيف (الأشرفية) الذي يصطاف فيه ، ورافقنا الأستاذ محمد المبارك وبعض الإخوان ، وقد أقامَ الأستاذُ السباعي عريشاً على النهر ، وهو محلٌّ ظريف طابَ لنا الجلوس فيه ، والحـديث مـع الأستاذَيْن : السباعي والمبارك ، وذكر الأستاذ السباعي بعضَ تجارب الدعوة ، وكيف يقبل الناسُ على حركتها إقبالًا عظيماً ، ويتهافتون عليها كالفراش ، حتى يغترَّ الإنسان بهذا الإقبال الـرائع ، ثم ينفضون لأدنى سبب ، تنتشر هذه الجموع ، ويبقى المخلصون الذين قد هضموا الدعوة ، وحكى ما وقع للأستاذ المرشد في مصر ، فقد أقبلت عليه وعلى دعوته الدنيا ، وشايعته الأحـزاب ، وكانت حفلات الإخوان مشهورة رائعة ، بينما كان الوفديون يجلبون الناس إلى اجتماعاتهم بالأجـرة ، ولكن لما حاربت الحكومة دعوةَ الإخوان انفضَّ الناسُ من حولهم ، وندَّدت بهم الصحافة المصرية ، وخذَلَهم المتظاهرون بصداقتهم ، وكان فضيلةُ المرشد العام ـ رحمه الله ـ قد شعر بهذا التحوّل ، وقرّر في نفسه بعد الـرجوع من الحج الاعتماد على التربية وتهيئة النفوس ، وعدم التوسّع ، ولكن سبقته الحوادث في مصر ، وأُفلت الزمام ، واعتُقِلَ الإخوان ، وحُورِبَت الدعوةُ ، فَشُغِلَ بمواجهة هذه الحوادث وحلِّ هذه الأزمة ، واستأثرت به رحمة الله .

وكذلك حصل إقبال عظيم على العلماء ورجال الدين في دمشق ، حتى حضر شكري بك القوتلي في الجمعية الغَرَّاء، وأعلن بأسماء المرشَّحين، واغترَّ العلماء بهذا الإقبال ، وأدلوا به ، وصاروا يدخلون على الرئيس ، ويشيرون عليه ، ويتدخلون في الأمور ، ولم تقبل نفوس الحاكمين هذا التدخّل وهذه السلطة من العلماء، ووقع حادثٌ صغير فانتهز رجال الحكم الفرصة ، وحَرَّشوا عليهم الصحف ، وانصرف الناسُ عن العلماء ، وتجنَّبُوهم ، واجترأ عليهم الناس حتى كان الإنسان يخجل أن يخرج في السوق في زيِّ العلماء)[1] .

(١) راجع « مذكرات سائح في الشرق العربي » : ص٣٢٠ .

وقد كانت بلاد الشام مركزاً رئيسياً من مراكز العلوم الدينية والثقافية الإسلامية ، وبصفة خاصة في الفقه والحديث ، وقد اشتهر من رجال القرن الثالث عشر الهجري العلامة سيد أمين المعروف بابن عابدين (١١٩٨ ـ ١٢٥٢هـ) المشهور في الديار الهندية بالعلامة الشامي ، صاحب « رد المحتار » شرح « الدر المختار » ، وكان الاعتماد على هذا الكتاب في الفقه الحنفي والإفتاء كالاعتماد على المعاجم والموسوعات في الموضوعات العلمية ، ونبغ فيها علماء كبار انبثقت منهم وانتسبت إليهم مدارس فقهية وحديثية وأدبية ، كالعلامة المحدِّث السيد بدر الدين الحَسَني ، والعلامة عبد الرزاق البيطار ، والشيخ زين العابدين التونسي ، والسيد محمد جعفر الكتاني ، والعلامة جمال الدين القاسمي ، والعلامة عبد القادر المبارك الجزائري (والد صديقنا الحبيب الأستاذ محمد المبارك رحمه الله) ، والشيخ أبو الخير الميداني ، أفادوا وخرجوا ، وأنتجوا وأنجبوا ، وبقي لهم خلفاء وتلاميذ معدودون .

وقد فترت حركة التعليم والتخريج ، وحلَّت مكان المدارس الحرة الشعبية ، الكليات الرسمية والمدارس الحكومية ، وقد عرف أهل البصر ، فضلاً عن أهل البصيرة ، أنه قد حان دور الجامعات المدنية والكليات التابعة لها في تعليم الشباب ، ونقل التراث الإسلامي إلى الأجيال الصاعدة ، على علاتها وتأثيراتها الخاصة ورواسبها في عقلية الشباب ، ولكن لا بد من الاستفادة منها ومن إمكانياتها الواسعة .

وكان الأستاذ السباعي في مقدمة من تفرَّس لهذا التطور ، واحتضن فكرة إنشاء كلية الشريعة في الجامعة السورية بدمشق ، وتبنَّاها وتحمَّس لها ، وقد استطاع ـ بحول الله تعالى ـ أن يُقنع بذلك ولاة الأمر ورؤساء الجامعة ، ووافقت إدارة الجامعة على إنشاء هذه الكلية ، ووافق عليها رئيس الجمهورية السيد شكري القوتلي ، واختير الأستاذ السباعي عميداً لها .

وقد أخبرني بذلك الأستاذ السباعي في رسالته التي كتبها إلي في ٢٢ من شوال ١٣٧٤هـ (١٢ حزيران ١٩٥٥م) يقول فيها : (وبعد : فلعله قد بلغكم

إنشاء كلية الشريعة الإسلامية في الجامعة السورية بدمشق ، وهو عمل طَرِبَتْ له قلوب المسلمين وأنصار الحق والخير ، وقد بدأت الدراسة هذا العام بإنشاء صفٍّ واحد للسنة الأولى ، وسينشأ في مَطْلَع العام الدراسي المقبل صف السنة الثانية إن شاء الله .

وقد رغبت إليَّ لجنة الكلية في أن أكتب إلى سماحتكم رجاءها بالموافقة على طلبها في أن تتعاقد الكلية معكم للتدريس فيها ، لمدة سنتين أو سنة كما تحبُّون ، يستفيد طلاب الكلية من علمكم وفهمكم العميق للإسلام ورسالته فأرجو أن تتكرموا بالموافقة على هذا الطلب ، مع ما تحبون إبداءه من رغبات وشروط »[١] .

وقد اعتذرت ـ بلطف واحترام لوجاهة الاقتراح وصاحبه ـ عن الارتباط الرتيب بهذه الكلية العزيزة ، التي كنت ولا أزال أقدِّر قدرَها وأعرف قيمتَها ، واقترحت أن يكتفي بكوني أستاذاً زائراً لمدة شهور ، ألقي فيها محاضرات في موضوع مفيد مثير توجيهي تربوي ، وعيَّنت لذلك موضوع (جهود الإصلاح والتجديد وأصحابها الكبار في تاريخ الإسلام)[٢] ، وَقَبِلَ الاقتراح الأستاذ السباعي ، وجاءت الموافقة من رئيس الجمهورية ووزير التربية .

وسافرت في آخر شعبان ١٣٧٥هـ وأول أبريل ١٩٥٦م إلى دمشق . وكلي أمل بأنها ستكون فرصة الاجتماع بالأستاذ السباعي ، وتبادل الأفكار والتجارب معه لمدة طويلة ، ولكنني فوجئت بأنه قد سبق وصولي إلى دمشق برنامج زيارته للجامعات والمؤسسات العلمية في أوروبة ، وأنه مسافر بعد وصولي إلى دمشق بيومين ، ولكنه أنهى الإجراءات الرسمية والإدارية ، وقام بكل ما يضمن لي الراحة والهدوء ، والقيام بالمهمة التي سافرت لأجلها[٣] .

---

(١) راجع « رسائل الأعلام » : ص٩٣ ـ ٩٤ .
(٢) تكونت منها مجموعة أسميناها « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » وتلتها أجزاؤها الثلاثة ، فجاءت في أربعة أجزاء ، طبع دار ابن كثير ـ دمشق .
(٣) اقرأ التفاصيل في كتاب « رحلات العلامة أبي الحسن الندوي » جمع وتعليق المؤلف ، صدر عن دار ابن كثير بدمشق .

وهنا أنقل رسالة كتذكار عزيز أرسلها الأستاذ السباعي إليّ من لندن رداً على اعتذاري من عدم وصولي إلى المطار لتوديعه ، ويُبْدي فيها مشاعره الأخوية ، وما جُبِل عليه من سماحةِ خُلق وكرمِ نفسٍ وَرَحَابة صدر :

« فضيلة الأخ الكبير الداعية إلى الله العالم المؤمن الأستاذ أبي الحسن الندوي ـ أمتع الله المسلمين بحياته ـ .

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وأبقاكم الله للإسلام ذخراً ، ولشباب الإسلام سراجاً ومرشداً .

أشكركم على جميل شعوركم ، وإنَّ ما بيننا من الحب في الله ، وما في نفسي من الإعجاب والإكبار لكم ولفضلكم وعلمكم يجعل أمر الوداع عند السفر أمراً شكلياً ، لا ينبغي أن يكون له فيما بيننا حساب ، إني لأشعر بالأسف يملأ قلبي لحرماني الاستمتاع بأحاديثكم ، والاستفادة من فضلكم وعلمكم خلال إقامتكم في بلاد الشام ، ولكنَّ إرادةَ الله تغلب إرادتنا ، وحسبي أن يصلني وأنا في مكاني النائي صدى أحاديثكم ومحاضراتكم وتوجيهاتكم لشباب الدعوة وجنودِها ، وهو صدًى تنشرح له نفس كل مؤمن يعمل للإسلام ، ويبذل جهده في تثبيت دعائمه في القلوب ، فجزاكم الله خيراً ، وبارك في حياتكم وجهودكم ، وأرجو ألا تحرموا إخواني في الشام من زيارتهم في مراكزهم ، فإنهم في أشد الحاجة إلى ومضةٍ من وَمَضَاتِ قلبكم الكبير ، وإلى لمسة روحانية مشرقة من روحكم المشرقة المؤمنة .

أسأل الله أن يجعلنا دائماً على ما يحب ويرضى .

والسلام عليك من أخيك المقدِّر لفضلك .

لندن ٩ من شوال ١٣٧٥هـ ، ٢٠ مايو ١٩٥٦م

ولمّا قررت الجامعة السورية إصدار هذه المجموعة من المحاضرات ترجّيت من الأستاذ السباعي تقديم هذا الكتاب ، فقَبِله مسروراً ، وكتب له مقدمةً لطيفةً فيها :

(وإني ـ وإن لم يسعدني الحظ بالاستماع إلى هذه المحاضرات حين

ألقاها الأستاذ الندوي في المدرَّج الكبير للجامعة السورية بدمشق ، إذ كنت في رحلة علمية إلى جامعات أوروبة ـ قد لمست آثارها العميقة في نفوس الذين استمعوها من أعلام الفكر وطلاب كلية الشريعة وغيرهم من طلبة الجامعة ، كما سمعت الثناءَ الكثيرَ عنها في الأوساط العلمية والإصلاحية ، ثم أتيح لي أن أقرأها قبل تقديمها إلى المطبعة ، فاستفدت منها كثيراً ، وسألت الله أن يمدَّ في عمر الأستاذ الندوي لإكمال هذا البحث القيم الذي بدأه ، حتى يصل بنا إلى الحديث عن زعماء الإصلاح في العصر الحاضر ، وخاصة في الهند التي لا نعلم عن تاريخ مصلحيها الإسلاميين إلّا النزر اليسير ، وإنها لأمانة لا ينهض بعبئها إلّا مثل الأستاذ الندوي في نفاذ بصيرته وإشراق روحه وواسع علمه وجميل مثابرته)[1] .

وأحمد الله ـ تبارك وتعالى ـ على أنه وفقني لتحقيق رغبته واقتراحه الوجيه عن رجال الفكر والدعوة البارزين في الهند ، وإضافة هذه الحلقة الذهبية في سلسلة تاريخ الإصلاح والتجديد في العالم الإسلامي ، فصدر الجزء الثالث الخاص بالإمام السَّرهندي ، والجزء الرابع الخاص بالإمام الدهلوي ، ولكن إرادة الله غالبة ، والآجال محددة ، فقد كان ذلك بعد وفاته ـ رحمه الله ـ ولا شك أنه لو قُدِّر ذلك في حياته لكن من أكبر المرحِّبين المقدِّرين له .

وأخيراً أدعو الله ـ تعالى ـ أن يجزل مثوبته ، ويطيِّب مثواه ، والأمل وطيد في أن كتابه « السنّة ومكانتها في التشريع الإسلامي » الذي دافع فيه عن السنّة المطهرة دفاعاً مجيداً ، وهو أفضل ما كتب في الباب ، وهو الخطيب في المحراب ، تقبله الله بقَبولٍ حسن ، وجعله وسيلةً للمغفرة والرحمة عنده ، ثم الرضا عند رسوله ﷺ ، والله لا يضيع أجر المحسنين .

* * *

(١) تقديم « رجال الفكر والدعوة في الإسلام » : ١/ ٧ .

العلامة الشيخ الداعي إلى الله محمد يوسف الكاندهلوي وكتابه « حياة الصحابة »(١)

إنَّ السيرةَ النبوية وسيرَ الصحابة وتاريخهم من أقوى مصادر القوة الإيمانية والعاطفة الدينية ، التي لا تزال هذه الأمة والدعوات الدينية تقتبس منها شعلةَ الإيمان وتشعلُ بها مجامر القلوب التي يسرع انطفاؤها وخمودها في مهبِّ الريح والعواصف المادية ، والتي إذا انطفأت فقدت هذه الأمة قوتها وميزتها وتأثيرها وأصبحت جثةً هامدةً تحملها الحياة على أكتافها .

إنها تاريخ رجال جاءتهم دعوة الإسلام فآمنوا بها وصدقتها قلوبهم ، وما كان قولهم إذا دعوا إلى الله ورسوله إلا أن قالوا : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ ﴾ [آل عمران : ١٩٣] ، ووضعوا أيديهم في يد الرسول ﷺ وهانت عليهم نفوسهم وأموالهم وعشيرتهم ، واستطابوا المرارات والمكاره في سبيل الدعوة إلى الله ، وأفضى يقينها إلى قلوبهم ، وسيطر على نفوسهم وعقولهم ، وصدرت عنهم عجائب الإيمان بالغيب ، والحب لله والرسول ، والرحمة على المؤمنين والشدة على الكافرين ، وإيثار الآخرة على الدنيا وإيثار الآجل على العاجل ، والغيب على الشهود ، والهداية على الجباية ، والحرص على دعوة الناس ، وإخراج خلق الله من عبادةِ العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن جَوْر الأديان إلى عَدل الإسلام ، ومن ضيق الدنيا إلى

(١) طبع الكتاب أولاً في مطبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد سنة ١٣٧٩هـ في حياة المؤلف ، وصدرت الطبعة الثانية من مكتبة دار القلم سنة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م ، صدرت له طبعة جديدة في دار ابن كثير بدمشق مع تحقيق رائع وتعليقات طيبة لفضيلة الشيخ محمد إلياس الباره بنكوي .

سعتها ، والاستهانة بزخارف الدنيا وحطامها ، والشوق إلى لقاء الله والحنين إلى الجنة ، وعلوِّ الهمَّة وبعد النظر في نشر رفد الإسلام وخيراته في العالم ، وانتشارهم لأجل ذلك في مشارق الأرض ومغاربها وسهولها وحزونها وأغوارها وأنجادها ، ونسوا في ذلك لذاتهم وهجروا راحاتهم ، وغادروا أوطانهم ، وبذلوا مهجهم وحُرَّ أموالهم حتى ألقىٰ الدين بِجِرانه ، وأقبلت القلوب إلى الله ، وهبت ريح الإيمان قويةً عاصفة ، طيبةً مباركة ، وقامت دولة التوحيد والإيمان والعبادة والتقوى ، ونفقت سوق الجنة وانتشرت الهداية في العالم ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

ضمَّت وقائعهم كتب التاريخ ، وحفظت أخبارهم دواوين الإسلام ، وكانت دائماً مادة التجديد والبعث الجديد في حياة المسلمين ، ولذلك اشتدت عنايةُ دعاة الإسلام والمصلحين بهذه الحكايات ، واستعانوا بها في إيقاظ همم المسلمين ، وإلهاب قلوبهم بجذوة الإيمان والحماسة الدينية .

ولكن أتىٰ على المسلمين حينٌ من الدهر زهدوا فيه في هذا التاريخ وتناسوه ، وانصرف كتَّابهم ومؤلفوهم ووعّاظهم ودعاتهم عنه إلى أخبار الزهَّاد والمشايخ والأولياء المتأخرين ، وطفحت الكتبُ والمجامع بحكاياتهم وكراماتهم ، وأولع الناس بها ولعاً شديداً ، وشغلت مجالسَ الوعظ وحلقات الدروس وصفحات الكتب .

وكان من أول من انتبه ـ على ما نعرف ـ في هذا العصر إلى فضل الصحابة وأحوالهم في الدعوة الإسلامية والتربية الدينية ، وإلى قيمة هذه الثروة ـ المطمورة في الأوراق ـ الإصلاحية والتربوية وتأثيرها في القلوب ، وكان من أول من أقبل عليها وعنيَ بها وانتصب لها المصلح الكبير والداعية المشهور الشيخ (محمد إلياس الكاندهلوي ، رحمه الله) (م ١٣٦٣هـ) فقد عكف عليها مطالعةً ومدارسةً وحكايةً وتذكيراً ، رأيت له شغفاً عظيماً بالسيرة النبوية وأخبار الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ، يتذاكرها مع تلاميذه وأصحابه ، وتُقرأ عليه كل ليلة فيسمعها في رغبة ونهامة وإجلال ، ويحب إحياءَهَا ونشرَها ومذكراتها ، وكان ابن أخيه المحدّث الكبير الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي

صاحب « أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك »[١] ، أَلَّف كتاباً متوسطاً في (أردو) في أخبار الصحابة رضي الله عنهم سماه « حكاية الصحابة » ، وسُرَّ به الشيخ سروراً عظيماً وألزم المشتغلين بالدعوة والرحلات مطالعةَ هذا الكتاب ومدارسته وكان ـ ولا يزال ـ من أهم الكتب المقررة للدعاة والمتطوعين ، ومن الكتب التي نالت قبولاً عظيماً ورواجاً كبيراً في الأوساط الدينية .

وورث الشيخ محمد يوسف والدَه العظيم الشيخ محمد إلياس ، ورثه في حمل أعباء الدعوة وأمانتها ، وورثه في ذوقه واتجاهه في الشغف بالسيرة وأحوال الصحابة ، وكان هو الذي يقرأ له هذه الحكايات والدروس من السيرة وتراجم الصحابة في حياته وأكبَّ بعد وفاته ـ مع الاشتغال الشديد بالدعوة ـ على مطالعة كتب السيرة والتاريخ وطبقات الصحابة ، ولا نعرف ـ فيمن نعرف ـ أوسع نظراً في أخبارهم ودقائق أحوالهم وأكثر إيراداً لها في الحديث والمحاضرات منه ، وتكاد تكون هذه الحكايات التاريخية والقصص الحق مصدر قوة كلامه وتأثيره ، وسرَّ سحره ووقعه في القلوب ، وحمل الجماعات الكبيرة على التضحية والإيثار ، والاستهانة بالمتاعب والمصاعب ، وتكبّد المشاق في سبيل الله .

لقد بلغت الدعوة في عهده إلى الأقطار العربية ، وإلى أمريكا وأوروبة ، واليابان وجزر المحيط الهندي ، ومسَّت الحاجة إلى كتاب كبير يطالعه المشتغلون بالدعوة والخارجون في الرحلات يدرسونه ويغذون به قلوبَهم وعقولَهم ، ويلهبون به عواطفهم الدينية ، ويكون حافزاً لهم على تقليدهم ، وبذل نفسهم ونفيسهم في سبيل الدعوة ، والتجول في العالم والهجرة والنصرة ، وفضائل الأعمال ومكارم الأخلاق ، إذا قرؤوا هذه الأخبار تضاءلت نفوسهم أمامها كما تتضاءل السواقي أمام البحار ، وطوال الرجال أمام الجبال الشمّ ، فاتهموا يقينهم ، واستصغروا أعمالهم ، واحتقروا حياتهم ، وارتفعت هممهم ، وطمحت نفوسهم ، وتحركت عزائمهم .

---

(١) طبع الكتاب في الهند في ستة أجزاء .

وأرادَ الله أن يكون للشيخ (محمد يوسف) فضلُ التأليف في هذا الموضوع الجليل مع فضل الدعوة إليه ، مع أنَّ حياته المشغولة المتنقلة المزدحمة بالرحلات والضيوف والوفود والدروس أبعد شيء من حياة التأليف والكتابة ، ولكنه استطاع بتوفيق الله تعالى وعونه ، وبعلوٍّ همته وقوة عزيمته أن يشتغل بالتأليف ، ويجمع بين الدعوة والكتابة ـ وما أصعب الجمع بينهما ـ ، وقد استطاع بحول الله وقوته أن يشتغل بشرح « شرح معاني الآثار » للإمام الطحاوي ، فألَّف كتاب « أماني الأخبار » في مجلدات كبار ، واستطاع بحول الله وقوته أن يؤلف كتاب « حياة الصحابة » في ثلاثة مجلدات ضخام ، يجمع فيه ما انتثر وتفرق في كتب السير والتاريخ والطبقات ، ويبدأ بأخبار الرسول الأعظم ﷺ ، ويثنّي بقصص الصحابة رضي الله عنهم ، ويعنى بجوانب تخصُّ الدعوة والتربية ، وتهمُّ الدعاة والمربين بصفة خاصة ، فيكون تذكرةَ الدعاة وزادَ العاملين ، ومدرسةَ الإيمان واليقين لعامة المسلمين .

وقد جمع هذا الكتاب من أخبار الصحابة رضوان الله عليهم وسيرهم وقصصهم وحكاياتهم ما يندر وجوده في كتاب واحد ، لأنه اقتبس من كتبٍ كثيرة ، ككتب الحديث والمسانيد ، وكتب التاريخ ، وكتب الطبقات ، لذلك جاء هذا الكتاب يصوِّر ذلك العصر ، ويمثل حياة الصحابة رضي الله عنهم ، وخصائصهم وأخلاقهم وخواطرهم ، وقد أسبغت هذه الدقة وهذا الاستقصاء والإكثار من الروايات والقصص على الكتاب تأثيراً لا يكون للكتب التي بنيت على الإجمال والاختصار ومغزىٰ القصة ، ويعيش القارىء لأجله في محيط الإيمان والدعوة ، والبطولة والفضيلة ، والإخلاص والزهد .

وإذا صحَّ أن الكتاب صورةٌ نفسية للمؤلف وقطعةٌ من قلبه ، وأنه يؤثِّر بقدر ما يكتبه المؤلف عن عقيدة واقتناع ، وتأثر وانطباع ، وبقدر ما يعيش في مادته ومعناه ، إذا صحَّ هذا فأنا أؤكد أنَّ الكتاب مؤثِّر وناجح ، لأنَّ المؤلف قد كتبه عن عقيدة وحماسة ، ولذةٍ وعاطفةٍ ، وقد خالط حبُّ الصحابة لحمَه ودمَه ، واستولى على مشاعره وتفكيره ، وقد عاش في أخبارهم وأحاديثهم

زمناً طويلاً ، ولا يزال يعيش فيها ، ويستقي من منابعها ، فَسَحَ الله في مدته[١] ، وبارك في حياته .

لم يكن هذا الكتاب في حاجةٍ إلى تصدير مثلي لجلالة مؤلفه وإخلاصه ، فإنه ـ على ما أعتقد وأعرف ـ موهبة إلهية ، وحسنة من حسنات الزمان في قوة الإيمان ، وقوة الدعوة والانقطاع إليها ، والتفاني في سبيلها ، لا يوجد أمثاله إلّا بعد فترات طويلة ، وهو يقود حركةً دينية من أقوىٰ الحركات وأوسعها وأعظمها تأثيراً في النفوس ، ولكنه أراد أن يكرمني بذلك ، وأردت أن يكون لي نصيب في هذا العمل الجليل ، فكتبت هذه الكلمة متقرباً بها إلى الله ، تقبَّل الله هذا الكتاب ونفع به عباده .

* * *

(١) توفَّى الله سبحانه وتعالى المؤلف إلى رحمته في لاهور في التاسع والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١٣٨٤هـ الموافق ٢ نيسان (إبريل) سنة ١٩٦٥م .

العلامة عبد العزيز الميمني[1]

سمعت اسم العلامة عبد العزيز الميمني ـ فيما أتذكر ـ لأول مرة من عمي الأستاذ السيد طلحة الحسني الذي كان يمارس معه التدريس في كلية الدراسات الشرقية بلاهور ، والذي كان يشاركه في التذوق بالأدب العربي والعناية بالبحث والتحقيق وصحة الألفاظ ، وحفظ الشعر والقصائد العربية ، وكانت بداية هذه المعرفة عام ١٩٢٦م ، إذ بدأ ذوقي العلمي والتاريخي يتفتح وبدأت أنا أميز بين ما هو حسن وقبيح وغث وسمين ، كان عمي يذكر العلامة عبد العزيز الميمني معترفاً بعلمه وبفضله مع الإشارة ـ شأن كل معاصر ـ إلى ما كان لدى العلامة من شعور زائد واعتداد بعلمه وجهده ، وأعتقد أن هذه نفسية كل باحث محقق يفوق معاصريه تفوقاً واضحاً ويعيش في عالم البحث والتحقيق بعيداً عن حلقة الأساتذة الذين يهتمون بتزكية النفوس وإصلاح القلوب . وكان يقرع سمعي ـ آنذاك ـ اسم عالمين جليلين من علماء اللغة والأدب ، كانا بَطَلَيْ هذا المضمار ، نِدَّيْن في الميدان . ومن الناس من يفضل هذا في بعض أقسام الأدب واللغة ، ومنهم من يفضل صاحبه في الأقسام الأخرى ، وكانا مواطنين من منطقة واحدة ، وزميلين في الاستفادة من الأساتذة ، وعاملين بمذهب السلف الصالح وهما العلامة عبد العزيز الميمني والشيخ أبو عبد الله محمد السورتي ، وسعدت بلقاء الشيخ أبي عبد الله مبكراً ، لأنه كان صديقاً لأستاذي الشيخ خليل عرب ، وكان الشيخ أبو عبد الله يأتي إلى لكهنؤ ويقيم أياماً عند أستاذي الشيخ خليل ، وتزوج في مدينة « تونك » التي كانت وطناً لأقاربي ومقراً لأسرتي ، وأما الشيخ عبد العزيز الميمني فكان يسكن ـ في الغالب ـ في لاهور بحكم علاقته بكلية الدراسات الشرقية هناك ،

---

(١) نشر هذا المقال في « مجلة المجمع العلمي الهندي » في عددها الخاص بـ « العلامة الميمني » .

وحينما سافرت إلى لاهور في مايو سنة ١٩٢٩م كان العلامة قد قطع علاقته بالكلية واتصل بجامعة علي كره الإسلامية ورغم أني كنت قريباً منه وكانت تربطني به علاقات وثيقة منوعة لم يتفق لي زيارته في علي كره مدة طويلة ولكني ـ بحكم كوني طالباً صغيراً للأدب العربي ومولعاً بحبه ـ كنت أشعر بالقرب منه والاستئناس إليه ، ولم يكن من الهند آنذاك إلا عضوان في « المجمع العلمي العربي » بدمشق ، أحدهما الطبيب الحاذق أجمل خان والآخر العلامة الميمني وكانت لهذا المجمع أسبقية في مجاله وأهمية من مختلف النواحي ، فكان مؤسسه ورئيسه الدائم أديب العربية المعروف الأستاذ العلامة كرد علي ، وكانت تعتبر عضوية هذا المجمع شرفاً علمياً كبيراً كان يتمتع به كبار المستشرقين الأوربيين وبعض أدباء أشرف البارزين ، وكانت مقالات العلامة عبد العزيز الميمني تنشر باهتمام كبير في مجلة المجمع العلمي بدمشق ، وكانت معظمها تتسم بصيغة فنية وطابع البحث والتحقيق ولا تلائم ذوقي عادة لأنها كانت تبدو لي جافة غير مرغوب فيها .

وفعلاً تعرفت إلى العلامة علمياً وثقافياً عن طريق كتابه القيم « أبو العلاء وما إليه » إذ كنت من المعجبين بأبي العلاء ، وقرأت ديوانه « سقط الزند » على أستاذي الشيخ خليل والشيخ عبد الحليم الصديقي ، وبذلت جهداً كبيراً في دراسته ، وحفظت قسطاً كبيراً منه . فلما صدرت رسالة العلامة « الفائت من شعر أبي العلاء » استدركت عليه ما فاته في هذا الاستقصاء وكتبت مقالة نشرت في مجلة « الضياء » ذكرت فيها ـ بغاية من الاحترام ـ أن رسالة العلامة تتضمن غير واحد من الأبيات ما دعي أنها لا توجد في أي ديوان مطبوع لشعر المعري ، على حين أنها موجودة في « سقط الزند » ولم يكن هذا الاستدراك إلا نتيجة شغفي بأبي العلاء وحفظ شعره .

كان الدكتور طه حسين يعتبر سنداً يعتمد عليه في البحث عن « المعري » وكان الدكتور يشبه « المعري » جسمياً وفكرياً ونفسياً ، وكان لكتابه « ذكرى أبي العلاء » دوي في الشرق يتغنى به طلاب الأدب ، ولكن كتاب العلامة الميمني فاقه درجات وقد عرف طه حسين بسحر أسلوبه ونغمه الموسيقي الحلو ولكنه لم يكن باحثاً يهتم بتهذيب اللغة والشعر وتصحيح ومقابلة النسخ الخطية

القديمة وغربلة الروايات للتمييز بين الصحة والخطأ لأن هذه العملية تحتاج إلى بصيرة نافذة وبصارة حادة وبذل جهود مضنية وصبر وأناة ، ولم يكن طه حسين ـ رغم مكانته العالية ـ متصفاً بهذه المزايا .

لقد أخذ العلامة السيد سليمان الندوي من العلامة الميمني كتابه « أبو العلاء وما إليه » ونشره من دار المصنفين بأعظم كره ضمن سلسلة مطبوعاتها ، مطبوعاً في المطبعة السلفية للأستاذ محب الدين الخطيب بالقاهرة عام ١٣٤٤هـ ويحمل الكتاب رقم ٢٦ حسب سلسلة مطبوعات دار المصنفين .

ذهبت يوماً بلهفة وشوق إلى مكتبة « شبلي » التي كانت مكتبة وحيدة في مدينة لكهنؤ توفر مطبوعات مصر وبيروت واشتريت « أبو العلاء وما إليه » وقرأته ، وعرفت مدى عنايته بالبحث والتحقيق وبذل الجهد ، على أن أسلوبه لم يعجبني لأنه تأثر فيه بأسلوب أبي العلاء الذي اختاره في رسالة الغفران ولذلك فإن الكاتب المصري الفاضل الشيخ عبد الوهاب النجار انتقد أسلوب العلامة الذي ألزم فيه السجع والقافية ، وأبدى رأيه بأنه لو تحرر من هذه القيود لكان أفضل .

كتب كل من العلامة أحمد تيمور والشيخ أحمد الإسكندري والشيخ عبد الوهاب والعلامة أحمد محمد شاكر تعليقات قيمة على هذا الكتاب ، أشادوا فيها بما يمتاز الباحث من سعة الاطلاع وبذل الجهد الكبير ، والتحقيق العلمي الرصين ، وكنت أحاول أن أكتب بلغة عربية سلسة وأسلوب غير مقيد بالسجع والقافية يصطبغ بصبغة نثر العهد العباسي وذلك بسبب قلة بضاعتي في العلم وإعجابي بأسلوب ابن المقفع من المتقدمين وعبد القاهر الجرجاني من المتوسطين ، والمنفلوطي صاحب « النظرات » من المحدثين . ورغم ذلك فإن العلامة الميمني كان محققاً وأستاذ العربية ومؤرخاً وناقداً بصيراً غير منازع .

ولكن كتابه « سمط اللآلي » يعتبر مأثرة علمية يفوق « أبو العلاء وما إليه » من بعض الاعتبارات ، لأن له صلة وثيقة بكتاب « الأمالي » لأبي علي القالي الذي كان من الكتب المفضلة لدى العلامة ، والذي كان يراه أجود مجموعة

لنوادر اللغة والشعر ، وقد نال هذا الكتاب إعجاب الباحثين والأدباء الكبار من أهل زمانه الذين أشادوا بما يتمتع به العلامة الميمني من بصيرة نافذة ودقة النظر . والحقيقة أن العلامة قام بنشر « اللآلي في شرح أمالي القالي » للوزير أبي عبيد البكري وأضاف إليه حواشي مفيدة قيمة تدل على أصالة البحث والتحقيق ، وقد أصدرت لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة هذا الكتاب عام ١٩٣٦م في ثلاثة مجلدات ضخمة .

ذهبت إلى علي كره بمناسبة في أكتوبر ١٩٤١م ـ فيما أظن ـ وكنت أشتاق إلى لقاء العلامة المحقق الأديب الفاضل الذي اعترف بعلو كعبه في الدراسة والبحث الأدباء العرب ، وجهابذة اللغة والنقد ، والذي زاد الهند شرفاً وفخراً وكنا قد بدأنا في مجلة « الندوة » سلسلة مقالات بعنوان « الكتب التي أحسنت إليَّ » في عام ١٩٤٠م ، وكان يكتب في إطار هذا العنوان كبار علماء الهند مقالات حول الكتب التي قامت بدور كبير في بناء شخصيتهم وتثقيف ذهنهم ، وبذلك كانوا يرشدون القراء الذين بدؤوا رحلتهم العلمية منذ وقت قريب ونشرت ضمن هذا العنوان مقالات لمولانا حبيب الرحمن خان الشيرواني والعلامة السيد سليمان الندوي والأستاذ عبد الماجد الدريابادي والشيخ عبد الباري الندوي ، والسيد مناظر أحسن الكيلاني ، والشيخ عبيد الله السندي وغيرهم من العلماء المعروفين . وخطر ببالي أن أطلب من العلامة عبد العزيز الميمني أن يكتب شيئاً حول هذا العنوان بوصف كونه خلفاً للسيد مرتضى الزبيدي البلكرامي في اللغة العربية والأدب العربي وفريداً في هذا المجال وخاصة في الهند ، حيث لا يدانيه أحد في سعة الاطلاع ودقة النظر . حضرت إليه يوماً وكان كتابي « مختارات من أدب العرب » الذي يحتوي على نماذج النثر العربي منذ القرن الأول إلى العصر الحديث والذي وضع لطلبة دار العلوم ندوة العلماء ، قد صدر حديثاً ، قدمته إلى العلامة الميمني خَجِلاً وَجِلاً ، إذ كنت لا أدري ماذا يعلق عليه العلامة ومن أين يقع منه الكتاب ، ولكن العلامة الذي كان معروفاً لدى تلامذته وأصدقائه بحذره الشديد من التقريظ والإطراء ألقى نظرة على مقدمة الكتاب حالاً بغاية من الاهتمام وسعة الصدر وقال لي : إنك تكتب عربية جميلةً جداً ، وما كنت سمعت أحداً قبل ذلك وصف اللغة

والإنشاء بالجمال ، وكانت هذه الكلمة التي صدرت من لسان الأستاذ الماهر أثارت في الشعور بأني بلغت من العلياء كل مكان ، وانتهزت الفرصة بالرجاء منه أن يكتب حول عنوان « الكتب التي أحسنت إليَّ » فقبل دعوتي مشكوراً ودعاني إلى تناول الشاي معه مساءً ، ولما حضرت رأيت أنها مأدبة فاخرة جداً . وأملى العلامة مقالته القيمة المفيدة التي نشرت في « الندوة » بعددها الصادر في نوفمبر ١٩٤١م . وإن هذه المقالة تزخر بالمعلومات القيمة والتوجيهات الرشيدة لطلاب اللغة العربية والأدب والنحو والبلاغة بل لأساتذة هذه العلوم حتى اليوم ، وعرفت من خلالها أن العلامة تتلمذ على الأديب المعروف الشيخ نذير أحمد الدهلوي ، وإن كانت علاقته بالشيخ لم تستمر طويلاً ولكنه يعترف ـ حتى اليوم ـ بكفاءته العالية وقدرته الفائقة على قرض الشعر العربي ، وأن هذه المقالة تعرف بكثير من الكتب والشخصيات التي لا تزال غير معروفة في الأوساط العلمية والمدرسية بشبه القارة الهندية . ولما رجعت من عنده وجدت طلبة جامعة عليكره وأحبائي لا يتعجبون من إملائه مثل هذه الكلمة القيمة مثلما يتعجبون من اهتمامه بإقامة مأدبة الشاي التي كانت تتجلى فيها الأناقة والتكلف ، إذ أن العلاَّمة كان معروفاً لدى الطلاب والأصدقاء بقلة الاختلاط وبالاقتصاد في المعيشة ، فكانوا يعتبرون هذه الضيافة شرفاً وفخراً لي كبيرين . ولكن قليلاً من الناس يعرفون أن الإنسان يحمل خصائص متناقضة منوعة ، فيبدو في بعض الأشياء سخياً جواداً واسع الأفق ، وتمثل حياة الملوك والعلماء والزهاد نموذجاً غريباً لهذا التناقض ومظهراً للمد والجزر يبعث على العجب .

وكانت تنقل من العلامة الميمني في عليكره طرائف كثيرة . وكان الحديث عن اقتصاده في النفقة حتى في السفر وضنينه حتى بإفادة تلامذته من معلوماته وعنايته بحفظ كتبه ونوادره العلمية معروفاً ، ولكن الحوادث التالية التي سنذكرها تدل على أن وراء شخصيته الإنسانية كانت شخصية أخرى مختفية عن الأنظار ، لم يكن يعرفها أحد حتى أصدقاءه الذين كانوا يعرفونه عن كثب . وكانت تبدو هذه الشخصية في الوقت المناسب ، وتُحَيِّر تلامذته وأقرباءه بالبذل والعطاء وبعد الهمة وحب العلم .

انتقل العلامة إلى لاهور إثر تقسيم الهند أو قبله بقليل ، وقد سعدت كلية الدراسات الشرقية بلاهور وجامعة كراتشي بوجود العلامة الذي أفاد بعلمه تلامذته هناك .

وقد وقعت حادثة طريفة جديرة بأن تذكر هنا ، وهي أني كنت في الحجاز حينما تمَّ تقسيم الهند ، وكان هذا أول سفر قمت به للحج والزيارة ، وكنت جالساً في مسجد النبي عليه الصلاة والسلام إذ جاءني عالم سوداني يسألني : من الذي عين رئيساً لباكستان ؟ قلت : السيد محمد علي جناح ، فقال : من المؤسف أن البلاد التي تسعد بوجود مثل العلامة عبد العزيز الميمني يعيش فيها غيره رئيساً للمملكة ، ولم أستمر معه في الحديث وسكت مبتسماً ، ولا أدري كيف وصل نبأ هذه الحادثة إلى العلامة ، إذ فوجئت في يوليو ١٩٧٨م حينما حضرت إليه وأردت أن أطرف بها أهل المجلس ، أن العلامة قال لي : إني على معرفة بهذه الحادثة فقضيت عجباً إذ لم يكن معي أحد هناك سوى ابن أختي السيد محمد ثاني الحسني ، ويمكن أني ذكرتها لأحد أصدقائي الباكستانيين ، وهكذا وصلت إلى العلامة . ويقدر بهذه الحادثة مدى شهرته العلمية ومنزلته الكبيرة التي كان يحظى بها لدى العلماء العرب .

وما عرفت شيئاً ـ وأنا في الهند ـ مدة طويلة من أخبار نشاطاته العلمية والكتابية وصحته ، وأحياناً أسأل البعض عما إذا كان العلامة حياً يرزق أو انتقل إلى رحمة الله . وفوجئت بأن تلقيت خطاباً من تلميذه الخاص الدكتور السيد محمد يوسف ينبيء بأن العلامة يريد أن يهدي إلى مكتبة دار العلوم ندوة العلماء مبلغاً كبيراً من المال . وهو بدوره يريد أن ينفق هذا المبلغ على إنجاز عمل نافع لا تنقطع فائدته على مر الأيام ، فكتبت إليه أن أفضل سبيل لصيانة هذا المال أن تقتني به تلك الكتب المهمة والمطبوعات الجديدة التي لا تتوفر في المكتبة ويخص لها جناح فيها باسم العلامة يستفيد منها الطلاب والأساتذة والباحثون . واستحسن العلامة هذا الاقتراح وأرسل المبلغ .

كان من سعادة حظنا أن رابطة العالم الإسلامي قررت عقد المؤتمر الإسلامي الآسيوي في كراتشي في فترة ٦ ـ ٧ ـ ٨ يوليو ، فذهبت أنا وزميلي

الشيخ معين الله نائب أمين دار العلوم من جدة إلى كراتشي للاشتراك في المؤتمر ، وأتى من لكهنؤ كل من العزيزين محمد الحسني وإسحاق جليس الندوي للاشتراك في المؤتمر كذلك وعلمت أن العلامة عبد العزيز الميمني مريض ويريد أن يلقانا ، فذهبت أنا ورفقائي نزور العلامة بلهفة وشوق بالغين ، واستقبلنا بحفاوة وحب كبيرين وشكرته بدوري على منحه هذا المبلغ الكبير للمكتبة ، فقال : أعطي مثله مرة ثانية إن شاء الله .

وسألته في أثناء الحديث ـ بكل احترام ـ عن عدد ما يحفظه من أبيات الشعر العربي ، فتوقف لحظة وقال : بين خمسة وسبعين ألف بيت ومئة ألف بيت . ولم أتعجب من ذلك إطلاقاً إذ كنت قد سمعت من عمي السيد طلحة الحسني أن محفوظات العلامة تبلغ آلافاً من الأبيات ، وقال العلامة نفسه في مجلس له بعليكره أنه يحفظ ديوان الحماسة لأبي تمام بكامله ، ولا يقل أمثال هؤلاء في العلماء والأدباء المتقدمين ، ولكن من الصعب أن نجد مثالاً له اليوم لا في شبه القارة فحسب بل في البلاد العربية كلها .

وقد وفى العلامة بما وعده من إعطاء المبلغ مرة ثانية ، الأمر الذي يدل على أن تلامذته وذوي قرابته وأحبائه لم يدركوا ما كان يتمتع به من أريحية وسخاء ، وكانت هذه الظاهرة لا تنطبق على حياته العادية .

وكنت في لاهور إذ وافاني عزيزي المقرىء السيد رشيد الحسن يحمل نبأً محزناً ، أن تلميذ العلامة الخاص الدكتور السيد محمد يوسف توفي إلى رحمة الله في لندن قبل أيام ويحمل جثمانه إلى كراتشي ، وكنت أسأل أخي المحترم السيد محمد جميل المحاسب العام السابق بدولة باكستان عن قدوم العلامة ، وأنتظر بشدة وشوق ، وكنت أقدر شدة وقع هذا النبأ المؤلم عن العلامة فوجهت إليه رسالة التعزية من هنا ، وما كنت أعرف أنه يفجعني بعد عدة شهور نبأ وفاته ، وإن كان العلامة قد شارف التسعين عاماً ولكن عقله ووجدانه وبصره وذهنه كان يعمل عمله . ويبدو أن وفاة تلميذه العزيز الذي كان يشد أزره أثرت على صحته تأثيراً عميقاً ، وعلى كل حال فقد حان أجله ، وكنت في بومبائي إذ حمل إليَّ مضيفي الكريم الذي كان مطلعاً على هدية العلامة

لمكتبة دار العلوم ، جريدة « الدعوة » في ٦ أو ٧ من نوفمبر ، التي كانت قد نشرت نبأ وفاته ، وقليل من قراء الجريدة الذين يبلغ عددهم آلافاً يعرفون أن وفاته لم تحرم شبه القارة الهندية فحسب عالماً أديباً ، محققاً بصيراً ذا منزلة سامية في اللغة العربية وآدابها ، بل حرمت العالم العربي كله والعصر الذي نعيش فيه ، وكيف نرجو في مثل الأوضاع التي نعيش فيه من نظام التعليم الذي يسود في المؤسسات العصرية والإسلامية أن تنجب أديباً متبحراً محققاً في اللغة والآداب مثل العلامة عبد العزيز الميمني رحمه الله ، ولم أبالغ إطلاقاً في رسالة التعزية التي أرسلتها إليه على وفاة تلميذه بوصفي فيها بـ « حجة اللغة العربية ومفخرة القارة الهندية » .

* * *

المفكر الإسلامي الكبير
الأستاذ أبو الأعلى المودودي
(كلمة رثاء عجلى بمناسبة حادث وفاته)[١]

إنني لا أعرف رجلاً أثر في الجيل الإسلامي الجديد فكرياً وعلمياً مثل تأثير الراحل العظيم ، لا في العمق ، ولا في السعة ، وقد كان السيد جمال الدين الأفغاني من أقوى الشخصيات الإسلامية التي نبغت في القرن الماضي ، وأكبرها نفوذاً في عقول الشباب المثقف ، وسيطرة ، بل سحراً عليها وتأثيراً في الفكر والاتجاهات والأساليب الأدبية ، والكتابية والخطابية ، حتى كان صانع جيل ومفتتح عهد ، ولكن الحق يقال إن سيطرته العقلية والنفسية كانت محدودة في السخط على الأوضاع السياسية القائمة ، والاستعمار الأجنبي ، وفي إثارة الأنفة والنخوة في الشعوب الإسلامية المحكومة في بلادها ، والعمل للجامعة الإسلامية لم ترافقها فكرة منسقة ، ولا دعوة واعية إيجابية تقوم على الدراسات الإسلامية العميقة ، والنقد والتحليل العلميين للحضارة الغربية المادية وقيمها وموازينها ، مع شدة حنق هذا النابغة الإسلامي وتلميذه العملاق الشيخ محمد عبده على الأمم الغربية التي قادت الحملة والزحف على العالم الإسلامي ، وفي مقدمتها وعلى رأسها الشعب الإنجليزي ؛ والحكومة البريطانية ، وكانت دعوة سلبية أكثر منها إيجابية .

بخلاف الأستاذ السيد أبي الأعلى المودودي الذي قامت دعوته على أسس علمية أعمق وأمتن من أسس تقوم عليها دعوات سياسية ، وردود فعل للاستعمار الأجنبي ، وكانت كتاباته وبحوثه موجهة إلى معرفة طبيعة هذه الحضارة الغربية وفلسفتها للحياة ، وتحليلها تحليلاً علمياً قلما يوجد له نظير

---

(١) نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عدد محرم ١٤٠٠هـ .

في الزمن القريب ، وقد عرض الإسلام ، ونظام حياته ، وأوضاع حضارته وحكمه ، وصياغته للمجتمع والحياة وقيادته للركب البشري ، والمسيرة الإنسانية ، في أسلوب علمي رصين وفي لغة عصرية تتفق مع نفسية الجيل المثقف ومستوى العصر العلمي ، ويملأ الفراغ الذي كان يوجد في الأدب الإسلامي المعاصر من زمن طويل ، ويقضي حاجة في نفس الشباب الطموح إلى مجد الإسلام والمسلمين ، وقيام دوله ومجتمعاته الشريفة المعتزة بنفسها ودينها ، ورسالتها ومقومات حياتها في الأقطار الإسلامية أولاً وفي العالم بالتالي .

ومما يجب أن يسجل في مآثره الخالدة أنه قد كان لكتاباته فضل كبير في إعادة الثقة إلى نفوس الشباب المثقف الذكي بصلاحية الإسلام لمسايرة العصر الحديث ، بل لقيادته وللتغلب على مشكلاته الطريفة المعقدة ومعالجتها بل للمنع عن وقوعها ، ومحاربة « مركب النقص » في نفوس هؤلاء الشباب فيما يتصل بالعقائد ، والأخلاق ونظم الحياة الإسلامية . وقد بعثت كتاباته القوية ثم جهوده المتواصلة ، الرغبة القوية العارمة لقيام حكم إسلامي ، ونظام إسلامي ومجتمع أفضل في كل بلد إسلامي ، بل في كل بقعة من بقاع الأرض ، وقد ساهمه في ذلك وواكبه عدد من رجالات العالم الإسلامي ، ونتمنى أن يكون قد عرف بذكائه وتجاربه الواسعة أن الطريق إلى ذلك طويل شاق ، ومحفوف بالمكاره ، وأن الأرض في حاجة إلى تمهيد وتعبيد ، والمجتمع المسلم في حاجة إلى إعداد داخلي ، وشحنة إيمانية خلقية ، ليكون قادراً على حمل هذه الأمانة ، وهذا العبء الثقيل ، ولعله لو امتدت حياته ـ وأراد الله ـ لربما كان وفق لتوجيه عنايته إلى هذه التربية والإعداد النفسي بطريق أقوى وأكثر وضوحاً وتأثيراً .

قد كان لي شرف التعرف على شخصيته في الثلاثينات الأولى ، من هذا القرن المسيحي ، وقد استفدت من كتاباته كثيراً ، وأنا في ريعان الشباب ، وجرت بيننا مراسلة ، وكتبت في مجلته الغراء « ترجمان القرآن » ، وكانت تصدر حين ذاك من حيدرآباد ، ثم حصل اللقاء الأول في لاهور في أغسطس سنة ١٩٣٩م ثم في لكهنؤ حين أقام ضيفاً في ندوة العلماء عدة أيام في يناير

١٩٤١م وقد جاء ليحضر لجنة التخطيط للدستور الإسلامي ، تحت إشراف العصبة الإسلامية ، وبدعوة من رئاستها في الولاية الشمالية ، وحصل لي اتصال وثيق به ـ بصفتي مضيفاً لهؤلاء الضيوف الأجلاء الذين حضروا من أنحاء الهند ، وفي مقدمتهم العلامة السيد سليمان الندوي ومولانا عبد الماجد الدريابادي ـ ثم جاء مرة ثانية إلى لكهنؤ في أكتوبر تلك السنة لتنظيم الجماعة وتدعيمها ، وحضرت عدة اجتماعات للجماعة الإسلامية التنفيذية في لاهور ودلهي ، أولاها في فبراير ١٩٤٢م في لاهور ، وأخراها في أكتوبر ١٩٤٢م في دلهي ، وأقمت ضيفاً عنده في « دار الإسلام » في بتهانكوت سنة ١٩٤٤م ، وحضرنا المؤتمر الإسلامي المنعقد في دمشق في آخر يونيه ١٩٥٦م ، الذي دعا إليه صديقنا الدكتور سعيد رمضان ، وحضرنا عضوين زميلين جلسات المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ١٩٦٢م وعدة دورات لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة ، وكان آخر لقاء في لاهور في الأسبوع الأخير من يولية ١٩٧٨م في عودتي من كراتشي حيث حضرت المؤتمر الإسلامي الآسيوي الأول المنعقد في باكستان ، وكان هذا اللقاء في جو من الإخاء والصفاء بعد فترة طويلة دامت عشر سنين تقريباً .

واتصلت الصلات الودية بيني وبينه ـ رغم صغري في السن ، وشهرته في العالم ، وتقدمه في السن بعشر سنوات وأكثر ـ واستمرت المراسلات ، وتبادل الرأي والفكر ، حتى اختلفت طرقنا ومناهج فكرنا في سنة ١٩٤٤م اختلافاً يرجع إلى طبيعة تجارب كل واحد منا ، التجارب الشخصية ، والأحداث التي مر بها ، والبيئة التي عاشها ، والرجال الذين تأثر بهم ، وبفعل التكوين العقلي الوراثي ، الذي يمتاز به كل واحد عن الآخر ، وكان اختلافاً في أسلوب الفهم والتفهيم لبعض الحقائق والمقاصد الدينية ، والنظرة إلى التاريخ الإسلامي ، وضرورة التربية والتزكية للأفراد وهذا الاختلاف في منهج التفكير ، والتنوع في الفهم والتفهيم هي المرونة العقلية ، والخصيصة البشرية ، التي فطر الله الناس عليها والتي يرجع إليها الفضل في تقدم العقل البشري ، وتلقيح الأفكار ، وتنقيح الأنظار ، وسعة المكتبات العلمية ، ويساعد على الانتقال من الصالح إلى الأصلح ومن النافع إلى الأنفع ، ويشجع عليها الإسلام ، ويؤيده موقف

كبار علمائه وممثليه ، بعضهم مع بعض ، في عصوره الذهبية ، والقرون المشهود لها بالخير ، وكان الفقيد رحمه الله من الذين فتحوا الطريق إلى الحرية في النقد والمناقشة العلمية للآراء ، ومن السائرين على هذا الدرب ، في كتاباته وبحوثه في تاريخ الإصلاح والتجديد ، وفي القضايا الشرعية والفقهية .

وقد تجلت هذه الروح المرنة السامية في رسالته الأخيرة التي تلقيتها منه في يناير سنة ١٩٧٩م ، حين وصله كتابي المشهور الذي جاءت فيه ملاحظاتي عن كتابه « المصطلحات الأربعة في القرآن » ، وعن فكرته الأساسية التي تقوم عليها دعوته في فهم الدين وتفهيمه ، والذي ظهر أولًا في أردو ، ثم ظهرت ترجمته بالعربية باسم « التفسير السياسي للإسلام » ، وقد رحب في هذه الرسالة بهذه الملاحظات ، وشكر المؤلف عليها ، ودعاه إلى مراجعة سائر كتاباته ومؤلفاته وإبداء الملاحظات عنها ، وقال : « إنني لا أستطيع أن أقول إني سأوافق عليها تماماً ولكني سأدرسها وأتأمل فيها » ، وقال : « إنني لا أعتبر نفسي فوق مستوى النقد واختلاف وجهات النظر » ، ويجب أن يكون هذا شأن رواد الحق ، ومنتجعي الخير ، والعاملين لمجد الإسلام وحده ، والطالبين لرضا الله وحده .

ومما لا شك فيه أن الله سبحانه وتعالى قد أكرم الفقيد بمواهب فكرية وعلمية وكتابية لا تتفق إلا للأفذاذ بعد الأفذاذ ، وللنوابغ بعد النوابغ ، في عصور مختلفة ـ وكل يؤخذ من قوله ويرد إلَّا النبي المعصوم ﷺ ـ .

وكان من أهم مزايا الفقيد أنه عرف قيمة هذه المواهب وقدرها في العهد المبكر ومنذ أمسك القلم ، وسمع صدى صريره في الهند ، وكان عهد القلق والاضطراب في المجتمع الإسلامي ، وكان المسلمون ـ في شبه القارة الهندية ـ في بلبلة فكرية ، وكانوا يشعرون بطموح غامض إلى شيء أقرب إلى نفسيتهم ، وخلفياتهم ، وقلق لا يقدرون على تفسيره ، فجاءت كتاباته تحاول ملء هذا الفراغ ، ولذلك استرعى انتباه كثير من الواعين والناشدين للقوة والعزة للإسلام ، وملك عليهم إعجابهم ، وكانوا نواة الجماعة الإسلامية في الهند ، والعمود الفقري في باكستان ، ثم مرت الجماعة بتطورات وأحداث هي

موضوع المؤرخ للجماعة ، ومؤلف سيرة القائد الراحل الأستاذ المودودي .

وقد وقف هذه المواهب والطاقات لهدف عينه ، ووهب له حياته وعاش وفياً له طول حياته ، وقد شاهد تأثير كتاباته في الشباب المثقف في العالم الإسلامي ، حتى لبى نداء ربه ، وفارق الحياة ، وجاء نبأ وفاته كصاعقة تنزل على العالم الإسلامي ، رحم الله الفقيد ، وأجزل مثوبته وغفر عن زلاته التي لا يخلو عنها بشر .

كنت في دلهي بالأمس حين فوجئت بنبأ وفاته مع زملائي وأصدقائي أعضاء الجماعة الإسلامية صباح يوم الأحد غرة ذي القعدة ١٣٩٩هـ (٢٣ من سبتمبر ١٩٧٩م) وألقيت كلمة عزاء وتأبين في حفلة « مجلس مشاورة » للجماعات والقيادات الإسلامية في الهند ، وشاء الله أن أكون بجوارهم ، وكلنا مفجوع بالحادث يعزي بعضنا بعضاً ، وبهذه الكلمات التي لا تفي بحق الراحل العظيم والنبأ الأليم ، أعزّي جميع المعنيين بالفكرة الإسلامية ومحبي الفقيد والمعجبين به وهم كثير ومنتشرون في أنحاء العالم الإسلامي ، وكان لله ما أخذ ولله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله فلنصبر ولنحتسب .

* * *

الأستاذ محمد الحسني
رئيس تحرير مجلة « البعث الإسلامي »

ولد محمد الحسني بن الدكتور عبد العلي الحسني (أمين ندوة العلماء العام) في ١٧ من رجب سنة ١٣٥٤هـ (١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٥م) في لكهنؤ .

بدأ دراسته في البيت ، فقرأ القرآن الكريم واللغة الأردية قراءة وكتابة ، والفارسية نثراً وشعراً ، على عادة أبناء البيوتات المسلمة في الهند ، وذلك عند معلم صالح داعية صحيح العقيدة يأتي إلى البيت ويعلمه .

بدأ بدراسة اللغة العربية في البيت عند والده ، وكان من العلماء الراسخين المتضلعين ومن الأفذاذ الذين جمعوا بين القديم الصالح والجديد النافع ، والدراسات الدينية النظامية العميقة ، والتعليم الجامعي المدني العالي ، وكانت له طريقة خاصة في تعليم اللغة العربية ، تمتاز بالاعتماد على القرآن الكريم خصوصاً على سور القصص ، والاستغناء عن القواعد في البداية بقدر الإمكان ، وقطع بذلك شوطاً بعيداً في مدة يسيرة .

ألف له عمه أبو الحسن الندوي سلسلة « قصص النبيين للأطفال » التي نالت قبولًا وانتشاراً في الهند وفي الأقطار العربية ، وقررت للتدريس في كثير من المعاهد في الهند وبلاد العرب .

كان له شغف زائد بمطالعة كل ما يقع إليه من كتب ومنشورات في اللغتين : الأردية والعربية ، وعكف على مطالعة الأدب الإخواني الصادر من مصر ، ومؤلفات أفراد أسرته ، خصوصاً ما كتبه ويكتبه عمه ، فكان يقرأ كل ذلك بنهامة ، ويتشربه ويعيه .

بدأ يكتب بالعربية في الثالثة عشرة من عمره ولم يعرف ذلك أحد من أهل البيت ، وعرض مقالًا له بالعربية على عمه للتصحيح والإصلاح مرة فكان ذلك

مفاجأة له واكتشافاً لقدرته على الكتابة وإنشاء المقالات في هذه السن المبكرة ، وطلب منه عمه نقل محاضرة طويلة قوية له إلى العربية ألقاها في الأردية في احتفال كبير في لكهنؤ في سنة ١٩٤٩م ، فأكمله في وقت يسير ، وهو لا يزال في الرابعة عشرة من عمره ، ونشرت هذه المحاضرة مراراً بعنوان « بين الصورة والحقيقة » .

حضر دروس العلامة الشيخ حليم عطا أستاذ الحديث في دار العلوم ندوة العلماء سنة ٧٣ ـ ١٣٧٢هـ (٥٢ ـ ١٩٥٣م) وقرأ عليه كتب الحديث .

بدأ والده يعلمه الطب وأراد أن يخلفه في مهنته وهي الصناعة الموروثة في هذه الأسرة[1] ولكنه عرف في مدة قريبة أن هوايته في القراءة والكتابة ، فتركه وشأنه ، وهكذا أراد والده أن يكون طبيباً ، وأراد الله أن يكون كاتباً داعية ، وأديباً إسلامياً ، والله غالب على أمره .

أسس جمعية باسم « المنتدى الأدبي » سنة ١٣٧٤هـ (١٩٥٤م) ونشرت له مجلة « المسلمون » الشهيرة ، التي كان يرأس تحريرها الدكتور سعيد رمضان ، وكانت تصدر من دمشق ، وكان يكتب فيها كبار الكتاب الإسلاميين في الشرق العربي ، أول مقال له بعنوان « العالم الإسلامي على مفترق الطرق » وهو لم يبلغ بعد سن العشرين ، يتصور الدكتور وكثير من قراء المجلة أن صاحبه من الكتاب الذين تقدمت سنهم ونضج فكرهم ، والحقيقة أنه لا يزال في ريعان الشباب وفي سن المراهقة الفكرية .

أصدر مجلة « البعث الإسلامي » في صفر سنة ١٣٧٥هـ (أكتوبر ١٩٥٥م) وله من العمر عشرون (٢٠) سنة ، وهي المجلة العربية الرائدة في القارة الهندية بعد ما احتجبت مجلة « الضياء » (التي كانت لسان حال ندوة العلماء) سنة ١٣٥٤هـ (١٩٣٦م) فكانت مغامرة واقتحاماً ، له قيمته وخطره في البيئة الهندية التي قد يضيق صدرها لأردو ، اللغة التي ولدت ونشأت في

(١) والده طبيب ، وجده وأبو جده كانا طبيبين نطاسيين ، وكانت هذه الصناعة الطبية ، المهنة التي يعتمد عليها أفراد الأسرة في المعاش .

الهند ، وكان ذلك على مسؤوليته الشخصية ومساعدة والده ، وساعده في التحرير زميله الأستاذ سعيد الأعظمي الندوي ، ثم انتقلت إلى ندوة العلماء ، وأصبحت ترجمانها وترجمان الدعوة الإسلامية في العالم الإسلامي .

ولما جاءت الفترة الحالكة التي هبت فيها عاصفة القومية العربية الهوجاء في الخمسينات الأولى ، وسحر بها أكثر أبناء العرب وشبابهم ـ وكثير من كهولهم وعلمائهم ـ يقودها الرئيس المصري جمال عبد الناصر بشخصيته القوية وبراعته في فن الدعاية والمناورة ، وكانت فتنة عمياء أعمت وأصمت ، وموجة عارمة اكتسحت الصحافة والأدب ، برزت مجلة « البعث الإسلامي » في الميدان ، وعلى رأسها محررها الشباب يحمل راية النقد الجريء والحسبة القوية والهجوم العنيف ، حسبت له القيادة المصرية وصديقاتها حساباً لم تحسبه لمجلة أخرى ، وطلب رئيس تحريرها في الجهات المختصة في بلاده ، ونوقش في الموضوع ، فلم يلن ولم يستكن ، واستمر في كتاباته حتى انقشع الضباب وتبين الصبح لذي عينين ، وتلك مأثرة تنير تاريخه في الدنيا ، وتبيض صحيفته في الآخرة ـ إن شاء الله .

نقل كتاب « الطريق إلى مكة » للأستاذ محمد أسد الذي كان له دوي في الشرق العربي ، إلى أردو ، مستعيناً في ذلك بالأصل الإنجليزي وترجمته العربية ، فكانت العملية صعبة لعلو مستوى الكتاب الأدبي والفكري وكثرة المصطلحات الفلسفية والسياسية والنفسية الواردة في الكتاب ، التي تصعب ترجمتها ، ونجح في الترجمة نجاحاً باهراً أقر به أهل البصر بعملية الترجمة والنقل من لغة إلى لغة ، وظهر الكتاب باسم « طوفان س ساحل تك » سنة ١٣٨٠هـ (١٩٦٠م) . ونال قبولاً ورواجاً في الأوساط العلمية ، ونقل إلى لغة « هندي » وظهرت له طبعة في باكستان ، وذلك في حياة أبيه .

أسس جمعية باسم « الرابطة الإسلامية الدولية » عام ١٩٥٩م وأصدر نشرة شهرية من هذه الرابطة في ثلاث لغات ، العربية والإنجليزية والأردية ، كان لها أعضاء في كافة أقطار العالم الإسلامي .

توفي أبوه في ٢٢ من ذي القعدة ١٣٨٠هـ (٧ من مايو ١٩٦١م) وكان

حادثاً كبيراً فهو الابن الوحيد وغيره أخوات ، وهو عاهل الأسرة وهو لا يزال في السادسة والعشرين من عمره، فاحتمل ذلك في قوة وجلد ورضا بقضاء الله .

ألف كتاباً في حياة العارف الكبير الشهير محمد علي المونجيري مؤسس ندوة العلماء ، سنة ١٣٨٤هـ ، وهو في الثلاثين من عمره ، وظهرت له في تأليف هذا الكتاب براعته في موضوع التراجم والسير ، واتزان فكره وحصافة عقله ، وكان موضع الإعجاب والتقدير من أهل الذوق والمعرفة .

ألف كتاباً في حياة جد أسرته ، العارف الكبير والمربي الرباني الشهير الشيخ علم الله النقشبندي (جد السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد الرابع) فكان كتاباً مؤثراً مرققاً حاملاً على اتباع السنة السنية ونبذ البدع والخرافات والإنابة إلى الله والدار الآخرة ، وتأثر به كل من قرأه .

قررت ندوة العلماء إصدار صحيفة في الأردية تكون لسان حالها فأصدرت صحيفة « تعمير حيات » (نصف شهرية) في ١٠ نوفمبر ١٩٦٣م ، فأسندت رئاسة تحريرها إليه ولم يزل يحررها ، حتى انتقلت إلى فقيد الندوة حالياً والصحافي المسلم الأمين البارع الأستاذ إسحاق جليس الندوي الذي وافته المنية بعد الفقيد في أقل من شهر وفي مثل هذه السن .

هذا إضافة إلى ما كان يكتبه لصحيفة « الرائد » (النصف الشهرية) التي أصدرها أخوه (ابن عمته) الأستاذ محمد الرابع الندوي من ندوة العلماء سنة ١٩٥٩م ، من مقالات وتعليقات ، فيزودها دائماً بكتاباته القوية ولفتاته البليغة .

نقل أهم مؤلفات عمه بالعربية إلى الأردية ككتاب « الأركان الأربعة » و « الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية » و « إذا هبت ريح الإيمان » و « ربانية لا رهبانية » وأخيراً « السيرة النبوية » عدا عدد كبير من مقالاته ومحاضراته بالأردية إلى اللغة العربية ، وكان مترجماً بارعاً دقيق التعبير ، محافظاً على روح هذه المقالات والمحاضرات ، مقلداً لأسلوب صاحبها إلى حد يثير العجب والإعجاب ، حتى كأنه نسخة من الأصل ، وصورة لفكرة الكاتب ونفسيته .

انعقد مهرجان ندوة العلماء بمناسبة مرور ٨٥ سنة على تأسيسها في ٢٥ ـ ٢٨ من شوال سنة ١٣٩٥هـ (٣١ أكتوبر ـ ٣ نوفمبر ١٩٧٥م) ، وكان مهرجاناً تاريخياً خالداً في تاريخ المسلمين في الهند وتاريخ الثقافة الإسلامية والمؤسسات الإسلامية في شبه القارة ، وكان تمثيله وعرضه لمن لم يشهده مهمة عسيرة دقيقة لا يقدر عليها إلا من عاشه وتذوقه ، وكان له اقتدار على براعة التصوير وبلاغة التحرير ، وأسندت ندوة العلماء هذا العمل العسير إليه فقام به خير قيام ، وألف كتابه « روداد چمن » الذي أحرز إعجاب الأدباء وكبار النقاد وعدوه أكثر من تقرير أو تاريخ لمؤتمر أو ملتقى ، أدباً وبلاغة وتصويراً ، كان في مقدمتهم أديب الأردية الكبير والناقد الصيرفي مولانا عبد الماجد الدريابادي صاحب صحيفة « الصدق » وتفسير القرآن المشهور بالإنجليزية .

كان يدعى إلى مؤتمرات وندوات تعقد في أنحاء العالم الإسلامي ، فكان يحضر منها القليل لزهده في الأسفار ـ شأن والده المغفور له ـ وعزوفه عن الشهرة والظهور ، وقد سافر زميلاً ومساعداً لعمه مرتين إلى الحجاز ، وقد حضر ندوة الشباب العالمية سنة ١٩٧٢م المنعقدة في الرياض ، والمؤتمر الإسلامي الآسيوي الأول المنعقد في كراتشي ٦ ـ ٨ من يوليه سنة ١٩٧٨م ووافته الدعوة من رابطة العالم الإسلامي لحضور المؤتمر الصحفي الإسلامي المنعقد في قبرص ، ودعوة من موسكو لحضور المؤتمر الصحفي الإسلامي هناك ، فاعتذر عن كليهما .

جمع مقالاته الافتتاحية في مجلة « البعث الإسلامي » في مجموعة أسماها « الإسلام الممتحن » ظهرت طبعته الأولى والثانية من القاهرة (والطبعات الآتية في طريقها) فكان له دوي عظيم في أوساط الفكرة الإسلامية ، وكان كتاباً قد ملك الإعجاب واستمطر الثناء من العاملين في مجال الدعوة وتصحيح الفكرة وإثارة الغيرة ، وله كتاب آخر أسماه « مصر تتنفس » و « إلى القيادة العالمية » في طريقهما إلى الطبع والنشر ، ومجموعة ثالثة لمقالاته لم يسمها .

كان آية في النبوغ المبكر ، والسليقة[١] الكتابية ، وكان كاتباً مطبوعاً وأديباً موهوباً ، توصل إلى أسلوب خاص يجمع بين الرشاقة والاسترسال ، وقوة العاطفة والحماس ، وكانت أكثر مقالاته عفو الساعة ، فيض الخاطر ، يجلس فيكتب مقالًا كاملًا في وقت قصير ، ويطلع به على أصحابه فيعجبون به .

وكان ، إضافة إلى ذلك ، مثلاً في النزاهة ، والهدوء ، والاشتغال بخاصة النفس ، وحب العزلة ، وكان عفيف اللسان قليل الكلام ، كثير الصمت ، لم يكن خطيباً ، يرى إيذاء الناس وتجريح شعورهم وعواطفهم من الكبائر ، قانعاً باليسير ، زاهداً في الكثير ، صاحب تواضع ظاهر وأدب جم .

وافته المنية يوم ١٧ رجب سنة ١٣٩٩هـ ، عن سن لا تزيد على ٤٤ سنة ، على إثر علة دامت ساعات في لكهنؤ ، ونقل جثمانه إلى وطنه رائي بريلي ودفن عند والده وجده رحمهما الله ، ورثته الصحف والمجلات الإسلامية الأردية والعربية ، وكتبت في تأبينه والاعتراف بنبوغه مقالات مؤثرة وانهالت على أسرة الفقيد وندوة العلماء برقيات ورسائل التعازي ، من أنحاء العالم الإسلامي .

خلف ثلاثة أبناء : عبد الله ، وعماراً ، وبلالًا ، بارك الله في حياتهم ، وأنبتهم نباتاً حسناً ، وأورثهم بركات بيتهم وأسرتهم .

كتابه « الإسلام الممتحن »[٢]:

قد بقيت فترةً من الزمن أتهيَّب تقديم هذه المجموعة من مقالات ابن أخي محمد الحسني ، التي أسماها « الإسلام الممتحن » ، وما كان تقديم الكتب والمؤلّفات لمشاهير الكتاب أو المغمورين منهم ، بدعاً من الأمر بالنسبة إليَّ ، حتى خفت أن يطغىٰ التقديم على التأليف ، واتُّهم بالتوسع والسخاء في تقديم

---

(١) السليقة : الطبيعة .

(٢) صدرت الطبعة الأولى من « المختار الإسلامي » « للطباعة والنشر والتوزيع » القاهرة في سنة ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م ، ثم من « دار عرفات » الهند ، عام ١٩٩٧م .

الكتب وتصديرها ، وما ذلك إلّا لأن الصلة بيني وبين صاحب هذا الكتاب صلة الأب بالابن ، والأستاذ بالتلميذ ، وكنت أشعر ـ وأنا أحدِّث نفسي بكتابة هذا التقديم ـ بأني أقدِّم لكتاب من كتبي ، وأتورط بذلك أحياناً في الاعتراف لنفسي بالإجادة والتوفيق ، والتهنئة والتقريظ ، وذلك مما لم تستحسنه الشرائع وعلم الأخلاق والآداب السليمة ، وتحاشيت عنه بقدر الإمكان .

ثم حاسبت نفسي على الشعور محاسبةً أمينة محايدة وحللته تحليلاً نفسياً ، فوجدت أن نصيبَ العاطفة فيه أكبر من نصيب العقل ، وأن الخوفَ من قالةِ الناس وحديثهم ، قد غذى هذا الشعور وأفاض عليه لوناً خلقياً ، ورأيت أنني إذا استسلمت لهذا الشعور ، فقد فرطت في تأدية أمانة ، والقيام بشهادة ، والشهادةُ للأقربين ليست أقل وجوباً من الشهادة على الأقربين ، فإنَّ الله تعالى حين يقول : ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ ﴾ [النساء : ١٣٥] ، فإنه يقول كذلك : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] .

ثم إنَّ قصة البيئة التي نشأ فيها الكاتب ، والعوامل التي كوَّنت هذه العقلية التي صدرت عنها هذه الفكرة ، والدوافع التي دفعته إلى كتابة هذه المقالات ، والتركيب النفسي والمزيج الثقافي والحضاري الذي ورثه عن آبائه ، وتلقاه من مجتمعه ، والأحداث الجسيمة الأليمة التي وقعت في الوطن الإسلامي الكبير ، فعاصرها وعاشها واكتوىٰ بنارها ، لا يحسنُ حكايتَها إلّا من شهد فصولها وخاض معركتها وساير ركبها ، وقد كان في بعض الأحيان شاهد عيان والسابق إلى الميدان .

إنَّ صاحب هذه المجموعة نشأ في بيئة آمنت بأن الإسلام هو رسالة الله الأخيرة الخالدة ، وأنه هو الحق الذي ليس بعده إلّا الضلال ، والسعادة التي ليس وراءها إلّا الشقاوة ، وأنه للإنسان كسفينة نوح لا ينجو إلّا من ركبها وأوى إليها ، وأنَّ نهاية كل من استغنىٰ عنها وإن اعتصم بجبل ، نهاية ذلك الولد الشارد المارد الذي قال : ﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ ﴾ وكان جواب

نوح : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ وكانت عاقبته أن حال بينهما الموج ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود : ٤٣] .

وآمنَتْ بأنَّ محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي العربي ﷺ خاتم الرسل ، وإمام الكل ، ومنير السبل ، لكل عصر ولكل جيل ، وأنَّ الله قد ربط مصير العرب بمصير الإسلام ، وعقد ناصيتهم به ، فلا عِزَّ لهم ولا سعادة ، ولا نهوض لهم ولا قيادة ، إلّا بالانضواء إلى رايته والانصهار في بوتقة تعاليمه ، والتفاني في سبيله ، وأنَّ أعدى عدو لهم من ينادي بالجاهلية ، ويهتف بالقومية والعنصرية أو الوطنية والاشتراكية ، أو فلسفةٍ من الفلسفات الملحدة ، فيحاول أن يحول بينهم وبين الإسلام .

وآمنَتْ بأنَّ الإسلام وحدةٌ لا تتجزأ ، ومنهج للحياة كامل شامل ، وأنه عقيدة وأخلاق ، وسياسة وعلم ، وعقل وعاطفة ، وحضارة وثقافة ، وله موازينه الخاصة ، وقيمه المعينة ، ومقاديره المحدودة ، ومقاييسه المعروفة ، ولا يحتاج إلى تلفيق أو تطعيم ، أو مساومة أو تنازل .

إنه قد عاش في ظلال تاريخ الدعوة الإسلامية وقصة بطولاتها ومعجزاتها وصنائعها وعجائبها ، تتلىٰ في بيته وأسرته الملاحم الإسلامية التي نظمها بعض أفراد أسرته المتقدمين في الشعر الأردي القوي المثير ، مقتبسة من « فتوح الشام » للواقدي والأغاني الشعرية الخاصة بالسيرة النبوية ، وأخبار الصحابة ، وفضل الحضارة الإسلامية ، ودور العرب في بناء العالم الجديد وإنقاذ الإنسانية من أعدائها ، فامتزج كلُّه بلحمه ودمه ، وتكوَّنت به عقليته ونفسيته ، وأحبَّ الرسولَ ﷺ وأصحابَه والعرب حباً لا يمكن تجريده منه في مرحلة من مراحل الثقافة ، وفي فترة من فترات الحياة ، وفي بيئة من البيئات ، وأصبح هذا الحب وهذه العاطفة تلهبُ شعورَه ، وتدفِّق قريحته ، وتجري قلمه ، وأصبحت له مصدرَ الإلهام ، ومنبعَ الإيمان والحنان .

إنه وُلِدَ في أسرةٍ كان شعارها منذ زمن طويل ، الجمع بين العقيدة السلفية النقية ، وبين الربانية الصحيحة الصافية ، وبين الزهادة والعبادة ، وبين بذل الجهد لإعلاء كلمة الله ورفع راية الجهاد حيناً بعد حين ، والسعي الحثيث في

الجمع بين إشراق القلب وصفاء الروح وقوة العاطفة ، وبين التفنن في العلوم والذوق الأصيل للأدب والشعر ، وأورثه كل ذلك : من تراث وتاريخ ودم وعرق ، تقديره لإكسير الحب وقوة العاطفة ، وسلم بذلك من الجفاف الروحي ، والاستخفاف بالعاطفة والحاجة إلى تزكية النفس ، والشحنة الإيمانية الروحية ، وسلم من الاستخفاف الذي أصبح شعار الكتَّاب والدعاة في عصره ، وخصوصاً الذين نشؤوا بعيدين عن هذه البيئة الجامعة والتربية المزدوجة .

إنه نشأ وترعرع في عصر تغنَّىٰ بشعر إقبال ، وكانت له فيه دولةٌ وصولة ، وهو شعرُ الحبِّ والطموح ، وشعر الإيمان والحنان ، وشعر الثقافة بصلاحية الإسلام ، والإيمان بخلوده ، فأساغه عقله المتفتّح وذوقه الناشىء ، وجعله جزءاً من أجزاء ثقافته وأساساً من أسس تفكيره .

إنه نشأ في حجر والد مؤمنٍ جمع بين سلامة العقيدة وقوة الإيمان والقلب المتفتح والعقل النيِّر الواسع ، والعلم الحديث الأحدث وحب الواقعية والجد ، لا يرى تناقضاً بينِ العلم والدين والقديم والحديث ، وقد اقتبس من الثقافتين : القديمة والحديثة والغربية والشرقية ، أفضل عناصرهما وأجملها ، فمزج بينها مزجاً جميلاً ، فأصبح برزخاً بين بحرين لا يبغيان ، شديد الحب لله ولرسوله ، ولعشيرته وقومه ، وللغته وبلاده ، شديد البغض ، شديد البراءة من كل ما يخالف الدين الحنيف من : عقائد وأعمال وفلسفات واتجاهات ، عميق الفهم للإسلام ، وثيق الصلة بمنابعه الأصيلة الصافية ، شديد الغيرة على الإسلام ، عظيم الحب لمركزه ومقدساته ، متقشفاً في الحياة الفردية ، متوسعاً في فهم القضايا العلمية والإسلامية ، شديداً في الحدود والنصوص ، مرناً في المباحات ، والاستفادة بالحكمة والتجارب .

ذلك أخي وأستاذي ومربي عقلي وثقافتي ، ذلكم والد هذا الكاتب العزيز الدكتور عبد العلي ابن العلامة عبد الحي الحسني .

نشأ هذا الشاب تحت ظلال هذه التربية ، وفي حجر هذه البيئة ، ثم لما عقل وثقف وعاصر الأحداث ، فتح عينيه على مجتمع إسلامي حائر بين

الإسلام والجاهلية ، والدين والعلمانية ، قادة الفكر فيه مذبذبون ، وأولياء الأمور فيه مضطربون ، وأكثرهم منافقون يتخذون الدين حيلةً ووسيلةً للوصول إلى أغراضهم ، والهتاف بالإسلام سُلَّماً للوصول إلى كراسي الحكم ، وقنطرةً للعبور إلى شاطىء السيادة والقيادة ، والركوب على أعناق الشعوب المسلمة الساذجة التي لا تفهم إلّا لغة القرآن والحب والحنان ، ولا تتحرك ولا تتحمس إلّا بحكايات الصحابة وأبطال الإسلام وفضائل الجهاد والشهادة .

إنه أحبَّ اللغةَ العربيةَ من صباه ، وحبُّ الصبا شديد ، وأحبَّ كل ما يمتُّ إليها بصلة ، وكان يتمثَّل العرب في قصص الرعيل الأول للإسلام وطليعة الدعاة والمجاهدين ، الذين سمع حكايات بطولاتهم وفدائهم في قصائد الملحمة الإسلامية ، فآمن بأنهم لا يزالون سائرين على دربهم ، لا يعدلون بمحمد ﷺ إنساناً وقائداً وإماماً ، ولا يعدلون بالإسلام ديناً ومنهجاً ، وبالقومية الإسلامية قوميةً ، فلما صار يعي ويشدو ، ويقرأ ويكتب ، فتح عينيه على كتابات العرب لو كتبت تحتها أسماء الكُتَّاب الأوروبيين والمؤلفين المستشرقين والدعاة المنحرفين لم يكن بعيداً ، وذلك لأنه كانت بين هذه الكتابات وبين شهرة هؤلاء الكتاب ودعوتهم فجوةً ومنافاة ، ورأى أنَّ كثيراً من هؤلاء الكُتَّاب العرب ينظرون إلى الإسلام كدين أدىٰ دوره ، وبطارية قد نفدت شحنتها ، فليس من العقل والكياسة التشبّث به والدعوة إليه ، ومواجهة الواقع والعصر الراقي بحلوله وأحكامه ، وخيرهم من ينظر إلى الإسلام كدين من الأديان الكثيرة ، ومنهج للحياة من مناهجها المتنوعة ، وخيرُ أحواله أن يسمح له بالبقاء في دائرة ضيقة محدودة ، وفي حياة فردية سليمة .

كان كل ذلك مفاجأة أليمة لم يكن يتوقعها ، بل لم يتصورها في بيئته التي صوَّرت له الإسلام كدين حي خالد ، خليق به أن يقود ويسود ، والعرب كرائد أول وقائد أفضل لهذه الدعوة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها ، وكانت صدمة عنيفة لعقله وقلبه .

ثم جاءت الفترة الحالكة التي هبت فيها عاصفة القومية العربية الهوجاء في الخمسينات الأولىٰ ، وقع أكثر أبناء العرب وشبابهم ، وكثير من كهولهم

وعلمائهم تحت تأثير قيادةٍ ترىٰ التخلّص من أثر الإسلام في النفوس والعقول ، والحياة الاجتماعية والسياسية أهمُّ وأقوى من محاربة الصهيونية واستعادة المقدسات الإسلامية ، وترى إزالة هذه الأنقاض أو الركام ـ على حد تعبيرها ـ شرطاً لبناء المجتمع الجديد ، وإزالة آثار العدوان الأجنبي ، وتحلُّ القومية العربية والاشتراكية العلمية محل العقيدة الإسلامية والدعوة الإسلامية ، وتجعل لها كل ما للدين من إيمان وحماس وعصبية وحمية ، وتعتمد في ذلك على الهتافات والدعايات والدعاوىٰ الفارغة ، أكثر من الاعتماد على السلاح والقوة الحربية والروح المعنوية والإيمان الراسخ ، وكانت فتنة عمياء ، أعمت وأصمت وسحرت العقول والنفوس ، وقلبت الحقائق وأنكرت البديهيات ، وكانت موجة عارمة في الشرق العربي ، اكتسحت الصحافةَ والأدب ودُورَ العلم ومراكز النشر ، وما صمد في وجهها إلّا أفرادٌ قلائل يعدون على رؤوس الأصابع ، وكانت مجابهتها ونقدها العلمي مثل : (كلمة حق عند سلطان جائر) ، فقد تجاوب معها الشباب المتحمس الطموح ، والصحافة القوية التي سميت في الغرب بـ (صاحبة الجلالة) .

في كل هذه الظروف والملابسات الدقيقة المثيرة ، وفي هذه البيئة الحسَّاسة المكهربة ، أمسك الكاتب الناشىء صاحب هذه المجموعة ـ الذي كان لا يزال في شَرْخ الشباب ـ قلمه ليخط مقالات افتتاحية لمجلة « البعث الإسلامي » التي كان يرأس تحريرها على حداثة سنه ، ليعبر عن شعوره الجريح الفيّاض ، وقلبه المكلوم المتألم ، ويدافع عن الفكرة الإسلامية التي آمن بها واحتضنها وأحبها ، ويذكر العرب بصفةٍ خاصةٍ برسالتهم وبتاريخهم وبمركزهم في العالم ، وميزاتهم بين الأمم ، وبالدور الذي يستطيع الإسلام أن يمثله في هذه المعركة الحامية ، والساعة الدقيقة الحاسمة ، والدورُ الذي يجب أن يمثله العرب ، على المسرح العالمي ، الذي أصبح مركزاً للمسرحيات الهازلة ، والتمثيليات السخيفة ، وكانت الأمم والبلاد كرةً دائرة ، ودمًى متحركة فيها ، لا تملك إرادةً ، ويذكر المسلمين برسالة الإسلام الأصيلة الخالدة ، وفضلها وقيمتها ، والعناصر التي تركبت منها ، وحاجة الإنسانية إليها ، وينقل إليهم همساتها ودقات قلبها ، حين تراهم قد تخلوا عن مركزهم

في القيادة ، وجروا وراء القيادات الزائفة ، وتطفلوا على مائدتها ، وأنَّ الواجب عليهم أن يدعوا إلى الإسلام الكامل الذي يعطي كلَّ ذي حق حقه ، وينير العقول ، ويشعل مجامر القلوب ، ويهذِّب الأخلاق ، وينظم الحياة ، ويضبط الأمم ، ويقود المدنية ، ويشعل المواهب ، وينشىءُ الرجال ، ويربي القادةَ والعباقرة ، لا هو جاف خشيب ، ولا هو رقيق مائع ، ولا هو رهبانية وهجر للدنيا ، ولا هو مادية ونهامة للحياة ، إنما هو الدين الذي جاء به محمد ﷺ ، ونطق به القرآن ، وتمثل في حياة الصحابة ، والقرون المشهود لها بالخير ، والتابعين لهم بإحسان ، من الجامعين بين العقل والقلب ، والعقيدة والعمل ، والجهاد والربانية .

وكان متأثراً في كل ذلك بطبيعة الحال بالبيئة التي نشأ فيها ، ودعوة المجدد الكبير والمجاهد العظيم السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد الذي كان من سلفه وعظماء أسرته في الماضي القريب[١] ، وبفكرة « الإخوان المسلمون » ورائدهم الإمام الشهيد حسن البنا الذي تعرَّف به وأحبه عن طريق عمه كاتب هذه السطور ، الذي كان له صلات وثيقة بأصحاب هذه الدعوة ، وزملاء الفقيد الشهيد وتلاميذه النجباء ، فتجلَّى تأثير كل هذه العوامل القوية والدراسات العصرية ، ومطالعة الكتابات الإسلامية التي أنتجتها هاتان الحركتان القويتان في المقالات التي كتبها بين آونةٍ وأخرى ، وتتكون منها هذه المجموعة .

وأحدثت هذه الجوانب المتناقضة ، جانب الواقع المرير والمشاهد القاسية ، صراعاً في نفسه ، حَوَّل قلمه إلى شلاَّلٍ يتدفّق وينحدر بقوة ، فصدرت هذه المقالات في أسلوب قوي ملتهب ، هو نتيجة كل صراع نفسي رافقته قدرة ربانية ، وقلم سيّال رشيق وثروة لغوية ، وهذا الأسلوب له قيمته في إيقاظ الشعور ، وفي تحريك النفوس والعقول ، ومحاربة (مركَّب النقص) ، وإعادة الثقة بصلاحية الرسالة والأمة ، والاعتزاز بالقيم

---

(١) يراجع للتفصيل كتاب « إذا هبت ريح الإيمان » للعلامة الندوي طبع دار ابن كثير بدمشق .

والمفاهيم ، خصوصاً إذا كان مدعماً بالدلائل والوثائق ، ومسلَّحاً بالشواهد والتجارب ، وهي طليعةُ كل إصلاح وانقلاب ، ورائدُ كل نهضة وتقدّم ، وهو الأسلوبُ الذي استعانَ به الخطباء والكتَّاب في العصر الإسلامي الأول ، واستعان به السيد جمال الدين الأفغاني ، وصاحبه الشيخ محمد عبده في مقالات « العروة الوثقىٰ » التي أشعلت العالم الإسلامي حماساً وحميةً ، وحملت الحكومات الغربية الاستعمارية على منع دخولها ، في الأقطار التي كانت تحكمها ، ولعبت دوراً لا يستهان بقيمته في إيقاظ الشعور الإسلامي وإيجاد الوعي السياسي .

مع هذه السِّمة البارزة لهذه المقالات فإنها تدعو إلى التأمل العميق ، وتغذّي الفكرة ، وتفتح آفاقاً جديدة للفكر الإسلامي ، وتزوِّد العاملين في مجال الدعوة والفكرة الإسلامية ببعض معلوماتٍ جديدة ، ووثائق وحقائق عن الحضارات الغربية والفلسفات المادية ، ومدىٰ إفلاس الغرب وحيرته وسآمته وخوائه الروحي ، وما يعانيه من أزمات وعقد ومشكلات ، فإنَّ الكاتب يعيش في بلد قد اكتوى بنار الغرب ، وخاض المعركة الفكرية الحضارية السياسية التي قامت وحميت في شبه القارة الهندية ، ثم خرج منها الشعب المسلم محتفظاً بجزء كبير من شخصيته ، معتزاً بحضارته وقيَمه ، خبيراً بمواضع الضعف في الغرب ومساويه ، وقصة فشله وإخفاقه ، في حل القضايا المعاصرة ، فأكسبه كل ذلك ثقة بدعوته ، وقوة في كتاباته ، وقيمة لما يقول ويدعو إليه .

في ضوء قصة البيئة والتربية والأحداث والتجارب ، والميول والعواطف والأهداف والمُثُل ، وصدق النية وحسن القصد ، ينبغي أن تُقرأ هذه المقالات التي كُتبت في أوقاتٍ شتىٰ تحت عناوين مختلفة تجمع بينها وحدة هي وحدة (منهج الفكر الإسلامي السليم) والدعوة إلىٰ الحق وإلىٰ الصراط المستقيم .

* * *

العلاَّمة الدكتور يوسف القرضاوي(١)

أخونا الدكتور يوسف القرضاوي اليوم من كبار العلماء والمربين المخلصين لعملهم ، يعترف بمكانته المرموقة في العلم ، والأدب ، والدَّعوة كلُّ من له اطِّلاع على ما يجري في العالم الإسلامي من نشاطاتٍ علميةٍ ودعويةٍ إسلاميَّةٍ ، ولقد أثرى فضيلته المكتبة الإسلامية المعاصرة بمؤلفاته ، وبحوثه العلمية ، والفكرية الإسلامية القيِّمة ، ابتداءً من كتابه العظيم « فقه الزكاة » الذي نال عليه شهادة الدكتوراه إلى كتابه الأخير ، كما أنَّ له نشاطاتٍ متواصلةً في مجالات التربية والتوعية ، وفي منابر التعليم والدَّعوة ممَّا يعود على الأمة الإسلامية بخيرٍ عظيم ، فقد أوجد في شباب الأمَّة الإسلامية فهماً أوسع وأدق للفكر والدين ، وأدَّى دوراً مشكوراً في إصلاح المجتمع .

يسير فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي بالطريق الوسط في مجال العمل الإسلاميِّ . فقد جمع بين الفهم الصحيح للدِّين الإسلامي ، والفهم الدَّقيق للأوضاع التي يمرُّ بها العالم الإسلاميُّ .

درس الشيخ في جامعة الأزهر ، وهي أعظم مركزٍ لتعليم العلوم الدينية الإسلامية في العالم العربي ، تخرَّج منها ألوفٌ من علماء الدِّين الإسلاميِّ ممَّن حموا حوزة الدِّين الإسلاميِّ في العالم العربي في القرون الماضية .

أحرز الشيخ نبوغاً في العلوم الإسلاميَّة ، ثم اختار منهج الدَّعوة والتربية الذي قام باختياره الشهيد حسن البنَّا ـ رحمه الله تعالى ـ ، وكان منهج الشيخ

---

(١) ألقى العلامة الندوي هذه المقالة القيمة بمناسبة قدوم العلامة الدكتور يوسف القرضاوي إلى دار العلوم ـ ندوة العلماء لإلقاء محاضرات علمية ودعوية ـ وذلك في حفلة الافتتاح الأولى . نشر هذا المقال في مجلة « البعث الإسلامي » في عددها الأول ، المجلد الثاني والأربعون ، عام ١٩٩٦م .

حسن البنا منهجاً جامعاً في الإصلاح والتوعية ، اجتمعت عليه الطائفتان من المسلمين ، طائفة رجال الدِّين الإسلامي ، وطائفة المتخرجين من الجامعات العصرية ، وإنَّ العصر الحالي يقتضي هذا الجمع ؛ الذي هو جمعٌ بين القديم الصَّالح ، والجديد النافع ، فاستطاع الشيخ يوسف القرضاوي بعد الاستفادة من الشيخ البنا مخاطبة أبناء مراكز العلوم الدِّينية مع مخاطبة المتخرجين من الجامعات العصرية وإقناعهم بكفاءةٍ وقدرةٍ .

لقد قام الشيخ بالعمل على منهجٍ جامعٍ بين القديم والجديد ، وهو خير منهج في الظروف الراهنة، حيث غلبتِ الحضارة الغربية على الأوساط الشرقية، وصبغت أهل الدراسة والعلم في جامعاتها بصبغتها الخاصة في الوقت الذي تقاصرت فيه الكفاءات والهمم في مراكز العلوم الإسلاميَّة ، حتى أصبح أبناء الطائفتين من المسلمين لا يفهم أحدهما ما يقدمه ويعرضه أبناء طائفة أخرى ، كما صار علماء الدين يُتَّهمون بالتخلُّف الفكري ، وبالعجز عن فهم مشكلات الحياة المعاصرة ، كما يُتهم أصحاب العلوم العصرية بفساد الفكر ، والقصور في الدِّين ، فكانت الحاجة أشدَّ إلى أن يبرز من علماء الدِّين الإسلامي من يحمل في منهج دعوتهم وتربيتهم قوة إقناعٍ للطائفتين ، وهي الفكرة التي تبنتها ندوة العلماء في شبه القارة الهندية منذ قرن ، وعملت لها عن طريق أبنائها ، فاستطاع عددٌ من علمائها إقناع الطائفتين من المسلمين، والتأثير عليهم، وتبنَّى هذه الفكرة في العالم العربي الإمام الشهيد حسن البنَّا ـ رحمه الله تعالى ـ ، وكان الشيخ يوسف القرضاوي من خير أتباعه ، والسائرين على منهج فكره ودعوته وعمله ، ثم مرَّ أتباع الإمام حسن البنا ـ رحمه الله تعالى ـ ، من خلال محنةٍ قاسيةٍ من ذوي السلطان والحكم ، وذلك منذ منتصف القرن الميلادي الجاري ، وكانت شديدة على الملتزمين بالدِّين والمنادين إلى الحقِّ .

في هذا الوضع الشائك التزم الشيخ يوسف القرضاوي وزملاؤه بالخلق الإسلاميِّ النزيه ، وسلكوا مسلك الأناة والحكمة ، وأدوا واجبهم نحو دينهم وأمتهم ، وقاموا بتوعيةٍ رشيدةٍ كان لها أطيب الأثر في أوساط الشباب العاملين للإسلام ، وكان مسلكه هذا سبب حفاظ على العمل الإسلامي في خضم المحنة .

أصبح بذلك الشيخ يوسف القرضاوي علماً من أعلام الإسلام ، وكانت قد أحكمته التجارب ، وحصَّنته براعته في العلم والمعرفة ، وأعدَّته إعداداً كاملاً لممارسته لأعمال الدَّعوة والتوعية لزمن طويل وفي مختلف الظروف والأحوال ، وهو بجنب كلِّ ذلك عالمٌ تقيٌّ ، صالحٌ ، محتسبٌ في أعماله رضا الله تعالى في عهدٍ تخلب عيون العاملين في أوساط الناس بهرجة الحياة المعاصرة ، وتسرق ضمائرَ العاملين في المجتمعات زهرة الجاه والمال ، فالشيخ بذلك كلِّه اليوم قوةٌ للدعوة الإسلامية والتربية والتوعية ، يستنير بفكره المسلمون على اختلاف البلدان واختلاف طبقات الناس ، وقد بلغ السبعين من عمره ، فهو ثروةٌ إسلامية كبيرةٌ .

لقد التقيت بالشيخ يوسف القرضاوي في مصر ، وكان في ذلك الحين طالباً في كلية الشريعة في الأزهر الشريف ، وكانت زيارتي قد جاءت بعد استشهاد الإمام حسن البنَّا ، فكانت قلوب أتباعه ومحبيه تشعر بفقدانه شعوراً قوياً ، فالتفت إلى شخصي الضعيف طائفةٌ من شباب الإخوان لما لمسوه فيَّ من تقاربٍ فكريٍّ ودينيٍّ للتوعية الإسلامية ، وإصلاح المجتمع الإسلاميِّ ، وأحسنوا بي الظنَّ ، فقد كان كتابي : « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » قد وصل إليهم ، ونال منهم الرضا والقبول ، فاتصلوا بي ، واتصلت بهم ، وكان الشيخ القرضاوي منهم .

واستمرت الصِّلة التي قامت بيني وبينه في ذلك الحين ، ثم زرت بعد عشر سنوات مدينة الدوحة في قطر ، وكان الشيخ يوسف مع زميلين له قد انتقل إليها كمدرسٍ في المعهد الدِّيني هناك ، وكان قد أوجد أسرةً دينيةً من شباب البلد وشيوخه ، يستفيدون منه ، فكان لقاءً ساراً بيني وبين هؤلاء الإخوة ، واستعدنا الذكريات الماضية ، ووجدت أن الشيخ وزملاءه نشطاء في العمل ، محافظون على فكرتهم ومنهاجهم ، نافعين مؤثرين ، وسررت بذلك سروراً ، واستمرَّ الشيخ بميزته العلمية والتربوية ، وحاز تقديراً من أمير البلاد كذلك .

واستمرَّ في تدريسه ، وإفادته ، وكتابته ، وتأليفه ومخاطبته للجماهير المسلمة ، فربّى بذلك الجيل الجديد على الإسلام الذي قد يضيع لولا قدَّر الله

لتربيته وتوعيته مثل الشيخ القرضاوي وزملائه ، ولقد حافظ الشيخ على حبِّه لشخصي الضعيف ، وأبدى دائماً تقديره لجهودي القاصرة ، وأعمالي الصغيرة ، وكان سلوكه معي كصغيرٍ مع كبير ، ولعلَّ ذلك لأني أكبره سناً بثلاثة عشر عاماً ، فأدعو الله تعالى له ولي ولجميع الخادمين للإسلام ، والمسلمين بالتوفيق والقبول ، وله المنَّة والفضل ، وله الحمد والشكر أولّا وأخيراً .

* * *

الأستاذ محمد ناظم الندوي
وكتابه « باقة الأزهار »[١]

إن الكتابة عن صديق حميم وزميل قديم ـ قضى معه الكاتب شطراً من العمر من أهنأ أوقات الحياة ، وأطيبها وأصفاها ـ أو إبداء انطباعات عن أدبه وشعره ، محنة كبيرة للكاتب ، فإنه تتمثّل له الصور ، وتنثال عليه الذكريات ، وتتجدَّد له الأحزان ، والأفراح ، يحار بينها الكاتب ويقف مشدوهاً مغلوباً على أمره ، كيف يتغلَّب عليها ، وكيف يشق الطريق من بينها ، وكيف يمسك عنان القلم فلا يرخيه ، ولا يرسل النفس على سجيتها ، وينشد بيت الشاعر الحماسي :

وأذكـر أيـامَ الحِمـى ثـم أنثنـي ... على كبدي من خشيةٍ أن تصدعا

كنا ثلاثة أصدقاء ، زملاء في الثلاثينات الأولى من هذا القرن الميلادي في ندوة العلماء « بلكهنؤ » ، معروفين بهيامهم باللغة العربية وآدابها ، يشار إليهم بالبَنان وقد ينظر إليهم شزراً لمغالاتهم في حبها وتفانيهم في الانتصار لها والدعوة إليها والتشاغل بها ، دراسةً وكتابةً ، ونطقاً وتدريساً ، وهم الأستاذ الكبير الشيخ (مسعود عالم الندوي)[٢] ، رائد الصحافة العربية وزعيمها في شبه القارة الهندية ، والكاتب الأديب المؤرخ الصحافي الإسلامي ، وكان أكبر الثلاثة سناً وأوسعهم اطلاعاً وأبرزهم حماساً ، وقد بلغت حمايته للقضايا الإسلامية ، والآداب العربية إلى درجة الحميَّة .

وأوسطهم صاحبُ هذه المجموعة الشعرية الأستاذ محمد ناظم الندوي ، وكان يمتاز برسوخه في قواعد اللغة العربية ، وإتقانه للصرف والنحو وعلوم

---

(١) صدر الكتاب في كراتشي .
(٢) وهو المشهور بالأستاذ مسعود الندوي رئيس مجلة « الضياء » العربية .

البلاغة ، وتضلعه من اللغة العربية ، ومفرداتها وتعبيراتها ، وبحفظه للشعر الجاهلي والإسلامي .

وكان ثالث ثلاثة في الجماعة ، وأزجاهم بضاعة كاتب هذه السطور ، وكلهم من الطليعة الأدبية ، أو الكتيبة العربية التي أكملت دراستها الأدبية ، وهذبت ورقت ذوقها العربي في (مدرسة) العلاّمة الدكتور (محمد تقي الدين الهلالي) المراكشي ، الذي رأس قسم اللغة العربية وآدابها في دار العلوم لندوة العلماء سنة ١٣٣١هـ (١٩٣٤م) ، فكان الأستاذ مسعود عالم الندوي ـ الذي يعرفه قُرّاء العربية ، بـ (مسعود الندوي) ـ قد تخرَّج بدار العلوم قبل أن يغدو الأستاذ الهلالي إليها ، إلا أنه انتهز فرصة وجوده في هذه الدار ، فاغترف من بحر علمه ، ونهل وعَلَّ من معينه الصافي ، أما الأستاذ محمد ناظم وكاتب هذه السطور ، فقد كانا زميلين مترافقين في الدراسة ، ثم في التدريس ، فالكتابة في مجلة « الضياء » ، فالمساهمة في النوادي الأدبية الطلابية ففي السكنى ، والخروج في الرحلات والجولات الدعوية والاستطلاعية ، وكان كما قال الشاعر :

وكنا كغصْنَي بانة قد تأنقا على دوحةٍ حتى استطالا وأينعا

حتى تشتَّت هذا الشمل وانفرط هذا العِقْد في سنة ١٩٤٧م ، وانتقل الأستاذ محمد ناظم إلى باكستان .

ظل صاحب هذه المجموعة مشتغلاً بمهنة التدريس ، والإشراف على شؤون التعليم متصلاً بالأدب العربي ، وكان مديراً للجامعة العباسية في (بهاولبور الباكستان) ، تخلَّلت ذلك فترة قضاها أستاذاً في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، إلى أن أحيل إلى المعاش واستقرَّ في كراتشي ، بارك الله في حياته ومتَّعهُ بالصحة والعافية والتوفيق لما يحب ويرضى .

وقد كان الأستاذ محمد ناظم الندوي يقول الشعر أحياناً ، ولم يكن في زمن من الأزمان من المكثرين ، إنما كان شاعر الندوة الأستاذ اللغوي الضليع المرحوم (أبو الزبرقان الشيخ عبد الرحمن الكاشغري الندوي) ، صاحب ديوان « الزهرات » ، الذي قدّم له الأستاذ عالم الندوي بمقدمة بليغة ، وكان له

لكل مناسبة وعند قدوم كل ضيف محتفًى به قصيدة رنانة .

وقد اطلعت على سبيل المصادفة على قِطَع شعرية للأستاذ محمد ناظم ، وأخذت منه قصيدة قالها في القلم ، وكان من خبرها أن أستاذنا العلاّمة (السيد سليمان الندوي) ، رحمه الله ، أهدى إليه قلماً ، ففاض قلبه بالشكر والامتنان على هدية قلم يهديها أكبر كاتب إسلامي في شبه القارة الهندية ، ومن أكبر الكتَّاب والمؤلفين في عصره ، فكانت خير هدية من خير مُهْدٍ ، وجاشت قريحته بشعرٍ بليغ يصدر من أديب يعرف قيمة القلم ، ويحسن استخدامه في النثر والنظم ، واقتبست هذه القصيدة لكتابي « القراءة الراشدة » ،الذي كنت أيامها مشغولًا في تأليفه ، ولعل كثيراً من أصدقائه لم يعرفوا أنه شاعر إلا بهذه القصيدة ، وهي عندي من أحسن ما قيل في القلم خصوصاً الأبيات الأخيرة ، منها :

تفــري الأمــور بحــدِّه ولمجـده يعنـو الـزمـن
يـرقـى اللـديـغ بنفثـه فيهب يمشي من وسن
يسقـي الجـديـب بنبعـه فـإذا بـه روض أغـن
سيفٌ صقيل في الوغى مـوتٌ ذريـع بـالـرسـن

وحصلت على مجموعة شعره قريباً ، فتجوَّلت في أصناف من الشعر لم أكن قد اطلعت عليها قبل هذا ، ولاحظت أنَّ ملكته الشعرية قد نضجت وترقَّت مع الزمن ، قرأت له قصيدة في وصف (تاجِ محل) ، تلك الدرة اليتيمة في الفن المعماري ، وقد ظهرت فيه قدرته على الوصف ، وقرأت له قصيدة في مدح المجاهدين الفلسطينيين ، فأعجبت بقدرته على وصف الحرب ، واختيار الكلمات المناسبة لها ، وقد تجلَّت فيها جزالة القديم ، وتضلّع من الأدب العربي ، وتأثَّر بالشعر العربي والوصفي في العهد العباسي .

وقرأت قصيدة في وصف الحج وأيام مِنى ، فأُعجبت بقدرته على التعبير عن المشاعر والأحاسيس الدينية والوجدانية ، ومطاوعة اللفظ العربي لها ، يقول في هذه القصيدة :

إذا ما ظلام الليل يأتي بطيفها يدغدغ قلبي ناعم اللمسات

هي الحزن والسلوان والداء والشفا وتـوحـي إلـي الشعـر كـالـزهـرات
هي الروح والريحان والهمُّ والأسى ومنهـا يفيـض الشعـر كـالقبسـات

وقد ظهرت قدرته على القوافي في قصيدته التائية في وصف روضة ، يقول في آخرها :

لعلَّ نجوم الفلك لم ترضَ أن ترى مثيـلاً لهـا بـالأرض فـي لمعـات
فأوحت إلى أخت لها في سمائها لتـرسـل عليهـا الضـوء بـاللفحـات
فكـانـت كمـا شـاءت وزال بهـاؤهـا وجـفَّ بهـا مـا كـان مـن قطـرات

وظهرت الواقعية في وصف رجل القرن العشرين ما له وما عليه في قصيدة طويلة فيها خمسة وثلاثين بيتاً ، والاستعراض التاريخي في قصيدة عن أخلاق اليهود وفيها أربعون بيتاً ، وفي وصف الحضارة الغربية وإنكار الوجودية .

وظهرت حميته الدينية في رثاءِ الملك فيصل بن عبد العزيز الشهيد رحمه الله ، رائد التضامن الإسلامي ، والملك العاقل البعيد النظر ، المحتضن للقضايا الإسلامية في العالم الإسلامي ، وفي التغني بالجهاد الفلسطيني ، وبطولة المجاهدين المغامرين ، وقد نبع كل هذا الشعر عن عاطفة إسلامية قوية وحمية دينية .

أما بعد فإني لم أقل شيئاً عن صديقي الحبيب وزميلي الأريب ، الأستاذ محمد ناظم الندوي ، فالوقت ضيق ، والفكر مشغول ، والقلبُ جريح ، والأحداث التي وقعت قريباً في الشرق العربي ، وفي شبه القارة الهندية تشغل القلب ، وتصرف القلم ، ومعذرةً إلى الأستاذ محمد ناظم الندوي ، وإلى شعره وأدبه ، وإلى القلب الذي أحبَّه واعترف بفضله .

● ● ●

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

* * *